إبداعات عالمية



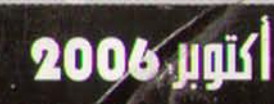
362

الأيام الخمسة الأخيرة لرسول

(رواية)

تأليف: تحسين يوجل
ترجمة وتقديم: بكر فهمي صدقي
مراجعة: فاروق زكي مصطفى

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت





اسم الفنان : روبيرتو فور ميجوني
من كتالوج معرض الفن الإيطالي التشكيلي
ديسمبر - ٢٠٠٤



الأيام الخمسة الأخيرة لرسول

(رواية)

تأليف: تحسين يوجل
ترجمة: بكر فهمي صدقي
مراجعة: فاروق زكي مصطفى

العدد 362 أكتوبر 2006

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٠٢١
ردمك: X - ٢٠٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦

• الأيام الخمسة الأخيرة لرسول

(رواية)

العنوان الأصلي :

PEYGAMBERIN SON BES GÜNÜ

By: TAHSIN YÜCEL

CAN YA YINLARI LTD. STI.

Hayriye Caddesi No. 2 80060 Galatasaray, Istanbul

1992

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2006م

إبداعات عالمية - العدد 362

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

المقدمة

١ - الأدب التركي: الرواية التركية

دخلت الرواية إلى الفضاء الثقافي التركي بوساطة الترجمة أولا. ففي العام ١٨٥٩ ظهرت الترجمة التركية لرواية الفرنسي «فينيلون» Fenelon بعنوان «ترجمة تيليماك»، أنجزها «يوسف كامل باشا»، وكانت «تلخيصا» للرواية الأصلية. وفي العام ١٨٦٢ ظهرت ترجمة «ملخصة» أيضا لرواية «البؤساء» لفيكتور هيجو، ونشرت بالتركية بعنوان «حكاية المغدورين»، ولم يعرف اسم المترجم. وبين العامين ١٨٦٠ و١٨٨٠، تُرجمت روايات عدد من الكتاب الغربيين وخاصة من التيار الرومانسي، ما أتاح للقارئ التركي التعرف على جنس الرواية.

ظهرت الرواية التركية الأولى في العام ١٨٧٢، وهي رواية «غرام طلعت وفتنت» لـ «شمس الدين سامي»، الذي كتبها في الثانية والعشرين من عمره. ويعيد النقاد الأتراك أهمية هذه الرواية إلى موقعها الريادي في تاريخ الأدب، لكنهم ينكرون عليها القيمة الأدبية. ومن زاوية النظر هذه يعدّون رواية «الحب الممنوع» (١٩٩٠) للكاتب «خالد ضياء أوشكلي جيل» (من تيار الأدب الجديد) الأولى في مسيرة الرواية التركية. فمع هذه الرواية يظهر «الفرد» بوصفه الموضوع الرئيس لجنس الرواية عموما. فالرواية غير ممكنة من دون مفهوم الفرد، وهو مفهوم حديث، غربي المنشأ، ولم يكن له وجود في الثقافة العثمانية، والإسلامية بصورة أعم.

بدأت محاولات التغريب في الدولة العثمانية في أوائل القرن الثامن عشر، حين أُقرَّ بتفوّق الغرب الحضاري مقابل تخلف الشرق. وتسمى هذه المرحلة في التاريخ التركي بـ «عصر الزنبق» (١٧١٨ - ١٧٣٠)، وأول ما يميزها هو الرغبة في نمط الحياة الغربية، وفيها دخلت المطبعة إلى تركيا للمرة الأولى، وجرت محاولات فاشلة لبناء مصانع كما في الغرب، ومثلها لاستخراج المعادن. فشلت هذه المحاولة لمحاكاة الغرب في تقدمه، لكنها تكررت في القرن التاسع عشر، بوصفها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الإمبراطورية من أزماتها، فيما يدعى بـ «عصر التنظيمات». الاتفاقية التجارية الإنجليزية - العثمانية (١٨٣٨) التي أعطت رأس المال الإنكليزي امتيازات كبيرة، والتي لحقت بها اتفاقيات مماثلة مع دول أوروبية أخرى، سرعان ما حوّلت اقتصاد الإمبراطورية العثمانية إلى اقتصاد تابع. وفتحت التبعية الاقتصادية الباب أمام المؤثرات الثقافية أيضا. يزعم الناقد التركي الكبير «فتحي ناجي» أنه لولا المعاهدة التجارية مع الإنجليز، ولولا فرمان التنظيمات، لربما تأخرت ولادة الجنس الروائي في الأدب التركي سنوات وسنوات».

يؤرخ إذن لولادة الأدب التركي الحديث بستينيات القرن التاسع عشر، أي بعد عشرين سنة من فرمان التنظيمات (١٨٣٩). فقد بدأ الشعر الجديد مع «شناصي» في العام ١٨٥٦، وبدأ المسرح في ١٨٥٩، مع مسرحية «زواج الشاعر» للمؤلف نفسه، وظهرت الرواية الأولى - كما أسلفنا - في العام ١٨٧٢، بعنوان «غرام طلعت وفتنت».

يرى مؤرخو الأدب التركي أن الأدب التركي الحديث قد تطور عموما في خطين متوازيين: الأول هو الخط الرومانسي الذي برز في أعمال كل من «نامق كمال» و«رجائي زادة محمود أكرم» و«حامد»؛ والثاني هو الخط الواقعي الذي تمثل في أعمال كل من «بشير فؤاد» و«نابي زادة ناظم» و«سامي باشا زادة سزائي» و«حسين رحمي جوربنار». وخضع كلا التيارين لتحولات ارتبطت بالمراحل التاريخية اللاحقة، ففي عهد المشروطية الثانية (١٩٠٨ - ١٩٢٣) تحول التيار الرومانسي إلى ما هو أقرب إلى الانطباعية والرمزية (في شعر أحمد هاشم ويحيى كمال)، في حين عاود التيار الواقعي الظهور بقوة أكبر في شعر «محمد أمين يورداكول» و«محمد عاكف أرسوي» وقصص «يعقوب قدري قره أوصمان أوجلو» و«رفيق خالد كاراي». وسيستمر هذان التياران الرئيسيان في الظهور في الحقبة الجمهورية بصور مختلفة. لكن التطورات السياسية الكبيرة التي تلت انهيار الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وقيام الجمهورية التركية الحديثة (١٩٢٣) سوف تؤثر بقوة في تطور الأدب التركي. فبعد إنهاء نظام الخلافة (١٩٢٤) وإلغاء المدارس التقليدية وإغلاق التكايا (١٩٢٥) جرى تغيير الدستور في ١٩٢٨، بما يتماشى مع المفهوم العلماني للدولة، الأمر الذي أضعف - إلى حد كبير - التيارات العثمانية والإسلامية في الفكر والأدب التركيين، وأدى إلى تغيير جذري في المنظور الفكري والفلسفي لعدد كبير من المثقفين والكتاب. توّجت تلك التحولات بالانتقال

من الأحرف العربية إلى الأحرف اللاتينية (١٩٢٨)، فيما يعدّ تعبيرا مكثفا عن القطع مع الثقافة العربية الإسلامية، والتوجه النهائي نحو الغرب.

الواقع أن مشكلة الهوية في الثقافة التركية الحديثة، سوف تستمر في التفاعل طيلة القرن العشرين، مؤثرة في التوجهات السياسية والتطورات الاجتماعية الاقتصادية كما في الأدب والفن وغيرها من المجالات. فإذا كانت الدولة قد حسمت خياراتها العلمانية - التغريبية منذ عشرينيات القرن العشرين، فإن التيارات الأخرى لم تستسلم، بل عاودت الظهور بزخم متفاوت في مختلف المراحل، وعنينا بها التيارات الإسلامية والطورانية والاشتراكية وغيرها. وفي الأدب - بحصر المعنى - انعكست مشكلة الهوية هذه بصورة خطيرة من خلال الخيارات اللغوية المتباينة. فالانتقال من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني لم يقتصر على تغيير الأبجدية، بل تعداه إلى تغيير اللغة برمتها. أي مقارنة بين نصين، أحدهما باللغة العثمانية، والآخر بالتركية الحديثة، ما سيكشف لنا عمق التحول الذي انطوى عليه سقوط الإمبراطورية العثمانية وقيام الجمهورية. فنحن أمام لغتين يكاد لا يجمع بينهما شيء. بقرارات من مجمع اللغة التركية الذي أنشئ في ١٩٣١، تم التخلص من المفردات والتراكيب اللغوية وقواعد الصرف العربية والفارسية التي كانت تشكل عماد اللغة العثمانية، واستبدلت جزئيا باللغة التركية القديمة، وجزئيا بنحت مفردات جديدة، وجزئيا بالاستعانة

بمفـردات من اللغـات الأوروبيــة. وتذهـب بعض التـقـديرات إلى أن نسبة الذين كانوا يجيدون القراءة باللغة التركيـة الحديثة المكتوبة بأحرف لاتينية لم تتجاوز الخمسة أو العشرة في المئة من السكان في العام ١٩٢٨.

من جهـة أخرى أدى توجه الدولة التـركيـة غربا إلى فـتح البـاب واسـعـا أمـام المؤثرات الغـربيـة في الأدب التـركي، وهكذا وجـدت التـحولات الأدبيـة في الغرب بتـياراتهـا وحسـاسـيـاتها المتـعـاقـبة، انعكاسـهـا في هذا الأدب. ونتـيـجـة لكل العـوامل المذكورة، سيظهـر الأدب التـركي في الحـقـبـة الجـمـهورية، أدبا شـديد التنوع والغنى والدينامية.

سجلت الرواية التركية في القرن العشرين تطورا كبيرا، وغزارة في الإنتاج والمبدعين. ووفقا لدراسة نشرت في العام ٢٠٠٣، فقد بلغ عدد الروايات التركية المنشورة بين ١٨٧٢ و٢٠٠٢ ألفين وستمائة رواية، وتجاوز عدد الروائيين الألف. وترجمت أعمال العديد من الروائيين الأتراك إلى اللغات الحيـة عبـر العـالم. ومن أبرز أعلام الرواية التركية يمكن أن نذكر: يشار كمال، أورهان كمـال، كمال طاهر، عزيز نيسين، أورهان باموك، تحسين يوجل، أوجوز آتاي، نديم غـورسل، أحمد آلتان، أردال أوز وغيرهم.

٢ - تحسين يوجل

تحسين يوجل مثقف متعدد المواهب امتد نشاطه الإبداعي على مدى أكثر من نصف قرن، بدءا من الخمسينيات إلى يومنا هذا. فإلى جانب الرواية برع في كتابة القصة والمقالة وقصص الأطفال، وكتب البحث النظري والنقد الأدبي، فضلا عن ترجماته من الأدب الفرنسي، فبلغ مجموع كتبه بين المؤلفة والمترجمة ما يزيد على مئة الكتاب.

ولد تحسين يوجل في العام ١٩٣٣، في بلدة «ألبستان» في شرقي البلاد، تخرج في العام ١٩٦٠ في كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية في جامعة استانبول، وفي السنة التالية بدأ يدرّس في القسم نفسه. تخصص في الأدب الفرنسي للقرنين التاسع عشر والعشرين وفي السيميولوجيا. في العام ١٩٧٨، ترقى إلى مرتبة أستاذ كرسي (بروفسور)، وأحيل إلى التقاعد في العام ٢٠٠٠. نال عددا من الجوائز الأدبية: جائزة سعيد فائق للقصة ١٩٥٦ عن مجموعته القصصية «هاني يجب أن يعيش»؛ جائزة القصة لمجمع اللغة التركية ١٩٥٩ عن مجموعته القصصية «موت الأحلام»؛ جائزة أورهان كمال للرواية ١٩٩٣عن روايته «الأيام الخمسة الأخيرة لرسول»؛ جائزة كتاب العام التي تمنحها دار العالم للنشر ١٩٩٩عن مجموعته القصصية «الجيران»؛ جائزة سادات سيمافي الأدبية ١٩٩٩عن كتابه النقدي «أقوال»؛ جائزة يونس نادي ٢٠٠٣ عن روايته

«الزيف»؛ كما حصل على جائزة إزرا إرهات للترجمة في العام ١٩٨٤، وتُرجِمت بعض أعماله إلى الفرنسية والسويدية.

بعض أعمال تحسين يوجل:

أ - البحوث:

- وجوه ورسائل في الكوميديا الإلهية (بالفرنسية) - ١٩٧٢ .
- الانقلاب اللغوي ونتائجه - ١٩٨٢ .
- البنيوية - ١٩٨٢ .
- ألف باء النقد - ١٩٩١ .

ب - النقد والمقالة:

- الأدب والحياة - ١٩٧٦ .
- حدود الكتابة - ١٩٨٢ .
- حوارات - ١٩٩٣ .
- الأدب أيضا وأيضا - ١٩٩٥ .
- مقتبسات - ١٩٩٧
- مقالة في الحماقة - ٢٠٠٠ .

ج - القصة:

- الدوائر الطائرة - ١٩٥٤ .
- هاني يجب أن يعيش - ١٩٥٥ .
- موت الأحلام - ١٩٥٨ .
- أنا والآخر - ١٩٨٣ .

- قصص مضادة - ١٩٨٩ .

- الجيران - ١٩٩٩ .

د - الرواية:

- حبيس المطبخ - ١٩٦٠ .

- المواطن - ١٩٧٥ .

- أساطير الشوارب - ١٩٩٥ .

- الزيف - ٢٠٠٢ .

٣ - الأيام الخمسة الأخيرة لرسول:

قسَّم الكاتب روايته إلى قسمين تسبقهما مقدمة، برر فيها اختياراته الفنية، مع لعبة إقناع القارئ بأن الرواية تستند إلى أحداث وشخصيات حقيقية. ويتفاوت القسمان من حيث الكثافة الزمنية، فيغطي الأول معظم حياة بطل الرواية بطريقة السرد الحكائي، في حين يغطي الثاني الأيام الخمسة الأخيرة من حياة الشاعر الثوري «رحمي سونمز» الملقب بـ «رسول»، حيث يبدو السرد أكثر رحابة، وينال كل مشهد ما يستحقه من مساحة، فيما يشبه المشاهد المسرحية برشاقة حواراتها وغنى دلالاتها.

تتناول الرواية مشكلة الانقطاع بين الفكر والحياة، النظرية والممارسة، الأيديولوجيا والواقع، دافعا بهذه القطيعة إلى حدودها القصوى متجسدة في شخص بطل الرواية. تقوم السخرية المرهفة في الرواية على المفارقات التي تتفجر دفعة واحدة بخروج الشاعر الثوري المتقاعد إلى الحياة بعد سنوات القطيعة. فهو ينظر إلى ما حوله ويتصرف بناء على صورة في ذهنه، لا شيء يربطها بالعالم الواقعي. أخذ عليه بعض النقاد إساءته لتاريخ الحركة الاشتراكية في تركيا، ونسجه على منوال شخصية دون كيشوت النمطية.

ويحتل الشعر مكانة مهمة في الرواية. يبدو تحسين يوجل كأنه يصفي حساباته مع نموذج من الشعر - والأدب بصورة عامة - شاع واكتسب قداسة معينة في القرن العشرين، بسبب ملابسات تاريخية

معينة، أكثر منها بسبب قيمته الإبداعية. لم يحتج يوجل لأي تشويه أو افتعال. لقد أمسك بتلابيب أكبر شعراء تركيا الثوريين وأكثرهم شهرة، أي ناظم حكمت، واكتفى بنقل مقاطع حرفية من قصائده، اختارها بعناية بما يخدم سياق الرواية. فوضع القارئ وجها لوجه أمام إعادة نظر جذرية في القيمة الإبداعية لشاعر بقامة ناظم حكمت.

بكر صدقي

توضيح لا بد منه

لا أحد يستهجن إضفاء مظهر واقعي على الرواية. وفي المقابل فإن إقحام الواقع في قالب روائي لا يثير ارتياح الكاتب ولا القارئ. ولا ريب أننا نصادف بكثرة من يبحثون عن روائي يكتب لهم سيرتهم الذاتية، لافتراضهم أن حياتهم «جديرة بأن تكتب» مصادفتنا لأولئك الذين يحاولون صياغة حياتهم في روايات، منطلقين من إيمانهم بتفوق مواهبهم الأدبية من جهة، وبالقيمة الروائية لحياتهم من جهة ثانية. غير أنه من الصعوبة بمكان الإقرار بأن هؤلاء المتحمسين هم على صواب. اسألوهم: «إذا كنتم ترون حياتكم جديرة بالاهتمام إلى هذا الحد، لِمَ تَسعَوْنَ إلى تقديمها إذن في صورة ثمرة من ثمرات الحلم أو الخيال؟ لِمَ تحاولون اقتلاعها من واقعيتها؟» ولن تنالوا جوابا مقنعا، ذلك أن موقفهم ضعيف من أساسه، ومن أي جهة نظرتم إليه.

بعد تأكيدنا هذا، إليكم خيارنا الخاص أو نقطة ضعفنا، دون لف أو دوران:

إن «الرواية» التي بين أيديكم هي ثمرة محاولة أقل إقناعا! فأولا، دعكم من أنها لم تكتب بحماسة شخص يؤمن بأهمية تجربته الخاصة، فهي تتخذ موضوعا لها الحياة الحقيقية لشخص لا يعرفه كُتّاب هذه الأسطر معرفة مباشرة. ثانيا، إن الجهود الطويلة والمضنية لخمسة من الكُتّاب والباحثين، المستندة

إلى وثائق وتحريات مسبقة، والمبذولة بعناية وبرودة أعصاب، قد وجدت أخيرا شكلها النهائي. ثالثا، وهو الأهم، هذا العمل الذي كان قد صيغ أولا في شكل «بحث»، حُوِّل إلى «رواية» ببعض التعديلات السطحية، أو بالأحرى أريد له ذلك.

ولكن علينا أن نُبيِّن فورا ما يلي: كنا قد اتفقنا. نحن الباحثين الخمسة. في البدء على إعداد سيرة حياة موضوعية وبلا نواقص قدر المستطاع، ولم يخطر في بالنا قط أن نَنْشَدَّ وراء جاذبية جنس الرواية. وقد سلكنا هذا الطريق لاضطرارنا إلى الاختيار ما بين نشر الثمرة المتواضعة لجهد جماعي استمر سنتين ونصف السنة على الأقل بعد تعديلها، وبين عدم نشرها على الإطلاق.

حسنا.. لنحكِ لكم كل شيء بصراحة:

لم نشرع في هذا العمل بمبادرة خاصة منا، ولا كان هدفنا إعداد كتاب ننشره بأسمائنا، بل بادرنا إلى ذلك باقتراح من أحد كبار رجال الأعمال، على أن ينشرِ العمل بتوقيعه هو. من نافلة القول إن غصة واضحة انتابتنا ونحن نوافق تحت تأثير المفعول السحري للمبلغ الذي يستحيل إن نحصل على ما يعادله بجهودنا المستقلة. وعلى أي حال لسنا أول من يشمرون عن زنودهم للقيام بعمل مماثل. فكما هو معروف جيدا في مناخ انحطاط القيم الذي نغرق فيه في السنوات الأخيرة حتى أعناقنا، لم يكتف أباطرة المال الكبار في البلد بتحويل ثرائهم الفاحش. بمساعدة خدمهم الكبار والصغار. إلى القيمة الإنسانية الأعلى شرفا؛ بل أرادوا فضلا عن ذلك أن

يظهروا بمظهر المثقفين الضليعين في كل المجالات من تاريخ وفلسفة وسياسة وفن، فراحوا لهذا الغرض، يستأجرون كتابا بمبالغ كبيرة ليسكبوا سير حياتهم القاحلة وأفكارهم. أفكار مقاهي المتقاعدين. في كتب بأغلفة باهرة، ويمهروها بتوقيعاتهم. كل ما في الأمر أننا، مثلنا في ذلك مثل كثيرين، قد انضممنا إلى قافلة الكتاب المأجورين لأباطرة المال. فضلا عن ذلك فمن المجحف القول إننا أصبحنا متماثلين تماما مع أولئك الكُتّاب، فنحن لم نسع إلى الاستماتة في سبيل إظهار محدث نعمة بمظهر الإنسان المثالي، بل أردنا فقط أن نعد بحثا عن حياة وأعمال شاعر يساري منسي هو صديق طفولة لرجل الأعمال المشهور المذكور، بحثا يمنحه قليلا من الرفعة بلا شك، لكنه لا يجافي الموضوعية كثيرا.

لقد غيرنا اسم الشاعر الماركسي. لأسباب لا تخفى على أحد. إلى «رحمي سونمز»، تاركين لقبه المرتبط بحياته الخاصة كما هو. درسنا كل ما يمكن أن يخطر على بال من مصادر عن حياته مكتوبة كانت أم شفوية، جديدة أم قديمة؛ وجمعنا بعناية مئات من نصوصه الشعرية من صفحات المجلات القديمة، والدفاتر المدرسية ذات الورق الأصفر، وقصاصات ورق بأحجام مختلفة داخل جوارير، وحاولنا تصنيفها وفقا للتسلسل الزمني لكتابتها.

مختصر القول إنه بعد عمل مكثف طوال سنتين ونصف السنة على أقل تقدير، كانت حصيلتنا عملا سيتسع بصعوبة في خمسمائة صفحة وذلك بعد إلحاق القصائد بآخره. المؤسف أن

في الاستيلاء على جميع نسخ مخطوطنا، لكنه حَرَمَنا النصوص الشعرية التي كنا جمعناها بجهود شاقة. في هذا الموقف، وقد خسرنا النصوص الشعرية كلها تقريبا، وبما أنه ليس بوسعنا أن ننشر سيرة الحياة بذكر الأسماء الحقيقية للأشخاص، وبما أن سيرةً تقدم كل شخصياتها بأسماء مختلقة سوف تبتعد أكثر مما يجب عن صفة البحث العلمي، لم يبق أمامنا إذن سوى الخيار التالي: تقديم السيرة الحقيقية في صورة رواية. وهذا ما فعلناه.

ولأن قلوبنا لم تطاوعنا في إجراء تغييرات كبيرة على البحث الذي أعددناه بعناية، كانت النتيجة مؤسفة: نصا أعرج يراوح ما بين البحث السيريّ والرواية. وعلى سبيل المثال كان بالإمكان أن نتغلب بسهولة على اختلال التوازن ما بين القسم الأول المعنون «السيرة الموجزة لرسول» والقسم الثاني الذي منح الكتاب عنوانه، وذلك بالاستفادة من بعض تقنيات السرد المعاصرة. كان بالإمكان مثلا صهر القسمين في وحدة عضوية واحدة بسهولة عن طريق أنماط الخطف خلفا أو تيار الوعي؛ أو بالأحرى تذويب القسم الأول داخل الثاني. غير أننا اكتفينا بتعديلات طفيفة بالمستوى الكافي لخلق انطباع واضح عن رواية. من نافل القول إن هذا لم يكن له أن يقودنا إلى إنجاز رواية بلا عيوب. ولكن بما أننا بذلنا معظم جهدنا في سبيل إعداد القسم الذي يحمل الكتاب عنوانه، في صيغته الأولى، وبما أننا لجأنا إلى كل الوسائل التي يمكن لها أن تخطر على بال. بما في ذلك مخيلاتنا. كي نعيد بناء الأيام الخمسة الأخيرة

لرحمي سونمز، بأقرب ما يمكن من الكمال، فإن على القارئ إذن أن يتقبل طريقتنا بصورة طبيعية، وبالتالي أن يغفر لنا.

في هذه الحال، يشكل القسم الثاني المعنون «الأيام الخمسة الأخيرة لرسول»، أقله في مستوى السرد، العمود الفقري للكتاب، في حين أن القسم الأول المعنون بـ «السيرة الموجزة لرسول» والذي يغطي فترة طويلة جدا، يظهر كقسم تمهيدي يتيح فهم القسم الأساسي بصورة أفضل، الأمر الذي نلاحظ ما يماثله في عدد من روايات القرن التاسع عشر.

لا نعرف إن كانت ثمة حاجة للقول بأننا لا ندافع عن أي ادعاءات تجديدية في فن الرواية، الأمر الذي تؤكده بوضوح هذه الصلة التي تربط عملنا برواية القرن التاسع عشر. روائيونا المهووسون بالتعالي يصفون كل عمل من أعمالهم بأنه «للمرة الأولى في تركيا». أما نحن فآسفون لأننا اضطررنا إلى سلوك درب الرواية. وإذا أردتم الحق فنحن لم نشأ أن يسمى كتابنا رواية. فكرنا في الاكتفاء بتعبير أكثر عمومية وأكثر تواضعا بكثير، هو تعبير «نص». وإذا كنا، في نهاية المطاف، سميناه «رواية»، فما ذلك إلا لأن قلوبنا لم تطاوعنا في رفض رغبة ناشرنا العزيز الذي واجه بشجاعة ضغوط الصديق الثري لبطل قصتنا وتهديداته.

بدلا من مكابدة كل تلك الصعوبات، والانجرار إلى كل ذلك الهوان، ألم يكن أحرى بنا أن نرضخ لطلب فهمي غولمز، فنغلق بصورة نهائية ملف رحمي سونمز؟

ربما... لكننا أحببناه كثيرا بعد دراستنا لحياته وأعماله عن قرب، فضلا عن أن رحمي سونمز بدا لنا نموذجا مثيرا للاهتمام لنوع من الشعراء شاع وجوده في بلادنا. وهكذا يغدو نشر سيرة حياته. حتى في صورة رواية عرجاء. ليس فقط بمنزلة إعادة الحق في الوجود لشاعر منسي، بل كذلك تسليط للضوء على جانب بارز من حياتنا الأدبية، وطعم التحدي في الجهد المبذول.

ـ الكُتَّاب ـ



القسم الأول

السيرة الموجزة لرسول
- ١ -

قبل أن يصبح الأول شاعرا ماركسيا متمردا، والثاني رأسماليا كبيرا، كان رحمي سونمز وفهمي غولمز صديقين من الحميمية بمكان، ما يدفع الجميع في الحي والمدرسة إلى تشبيههما بالتوأمين السياميين. لا شك في أن هذا التشبيه كان مغاليا بقدر ما هو مبتذل، ولكن لا يسعنا القول بأنه يخلو من كل صحة. فقد بدا الصبيان كأنهما محكومان أحدهما بالآخر منذ الميلاد: كلاهما أسكداري المولد والنشأة؛ في بيتين من الزقاق نفسه - بيت أهل رحمي على اليمين وبيت أهل فهمي على اليسار - خشبيين كالحين مقوسي الظهر، مثل توأمين عجوزين عوقبا بالوقوف جنبا إلى جنب. وهكذا كان بوسع الصبيين أن يلتقيا في كل أوقات النهار، ما لم يكونا معا في مكان آخر. فضلا عن أنهما لم يكونا بحاجة إلى الخروج إلى الشارع من أجل اللقاء، فالسياج الفاصل بين باحتي المنزلين كان متهالكا من زمان. من جهة أخرى كان أبو رحمي سونمز يعمل في ورشة مدافئ في سوق أسكدار الرئيسي، وأبو فهمي غولمز خياطا في المحل المجاور. ولأن هذين الأخيرين يتوافقان في الرأي في كل الشؤون، بدءا من الدين وحتى السياسة، فقد ترافقا في هبوط المنحدر كل صباح، وفي صعوده كل مساء؛ وفي صلاة الجمعة جنبا إلى جنب في

الجامع كل أسبوع، واشتركا في طعام الغداء كل يوم مما حملاه في سفرطاسيهما، وتبادلا الزيارات بضع مرات من كل أسبوع برفقة الزوجة والطفل في الحضن «لسهرة مسائية». باختصار واصل رحمي سونمز وفهمي غولمز، من وجهة نظر معينة، رفقة بدأت قبل أن يولدا. لكنهما ومنذ السنوات الأولى، فعلا ما يفوق مجرد المواصلة بأن حولا هذه الرفقة إلى صداقة قل نظيرها. تضامنا دوما في الشارع أو السوق أو في ساحة اللعب. في المدرسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، جلسا دوما في المقعد نفسه، لعبا دوما في فريق واحد وشجعا دوما النادي نفسه (فنر بهجة) ودافعا دوما عن الرأي نفسه.

في أحد أيام الدراسة الابتدائية تلقى رحمي علقة مشهودة على يدي الأستاذ «خلوصي» بسبب إحدى مشاغبات فهمي. لوى الأستاذ شفتيه استهتارا بتنبيهات التلاميذ لخطئه وقال: «سواء كان رحمي سونمز أو فهمي غولمز. خذ هذا واضرب الآخر!»، وكما يتضح من كلام هذا الأستاذ، فالصبيان لم يكتفيا بأنهما لا يفترقان، بل كذلك لا يميزان أحدهما من الآخر. لماذا؟ أبسبب تشابه رأسيهما وجسديهما وتشابه بيتيهما؟ لا... على العكس تماما كان رحمي سونمز وفهمي غولمز بمظهريهما الجسدي وبنية عقليهما يكادان يكونان على طرفي نقيض. غير أنهما، في الدروس واللعب والمشاجرات كانا يكملان أحدهما الآخر إلى درجة يتحول فيها التناقض إلى نوع من التماثل، بحيث إن التفكير في رحمي سونمز يستدعي فهمي غولمز، والتفكير في فهمي غولمز يستدعي رحمي سونمز، شئتم ذلك أم أبيتم.

لكن علينا أن نوضح حالا: في البدء تحمل رحمي سونمز وحده العبء الثقيل لهذا التكامل: كان يلفظ حرف الراء مثل الأطفال الصغار، أو بالأحرى لا يجيد لفظه. ولأنه أضخم أقرانه جسدا، ما كان أحد من الصبية يجرؤ على السخرية منه في وجهه. ولأنه لا يميل أبدا إلى المشاجرات، لم يكن يضطر إلى قتال أحد. بالمقابل كان رفيقه يتحرش بأي كان غير عابئ بقامته التي بطول شبر، ولأنه يتلقى الهزيمة في كل شجار يخوضه تقريبا، كان رحمي سونمز يجد نفسه مرغما على تأديب بعض الصبية من أجله، بل ما هو أسوأ أيضا: انه كان يضطر من حين إلى آخر إلى الإمساك بأيدي أولئك المساكين ليتيح لفهمي أن ينتقم منهم. وهكذا كان صديقه يستغل ميزته الجسدية أكثر مما يفعله. أما الميزة الأخرى التي امتلكها رحمي سونمز، واستفاد منها صديقه بكثرة فهي قدرته الاستثنائية على الحفظ: منذ الصف الأول حفظ عن ظهر قلب جدول الضرب بكامله، وكان قادرا على إجراء العمليات الحسابية بسرعة مذهلة باستثناء عملية القسمة، ويستظهر بسلاسة ليس فقط الأحرف الأبجدية، بل كذلك كتاب القراءة ومجلات الصف، وذلك بعد قراءة واحدة فقط. أضيف إلى تفوقه هذا في الصف الثاني هوسه بحفظ الشعر، الذي جعل زملاءه يعضون على أصابعهم حسدا، وفي الصف الثالث نجاحه في إنجاز عمليات القسمة: بمجرد أن يرى قصيدة من قصائد البطولة في إحدى المجلات أو في كتب الصفوف الأعلى حتى يحفظها على الفور ويستظهرها «بإحساس»، وكان يكمل في لمح البصر عمليات ضرب وقسمة من فئة الثمانية أرقام أو عشرة مما

يتعذر حتى على طلاب الصف الخامس إتمامها بسهولة. في هذه الشروط كان رحمي يدفع بورقته أمام عيني صديقه في كل امتحانات الرياضيات، أو يهمس في أذنه بكل حواصل العمليات التي يراها ضرورية. وبالنظر إلى أنه كان يتصرف بالسخاء ذاته في المواد التي تتطلب حفظا، مثل علم الحياة والتاريخ والجغرافيا، متيحا لصديقه أن يشاركه استغلال مواهبه، فقد أصبح التعلم أشبه ما يكون بطريق مغبر يمتد أمامهما معا.

لكن توازنا يكاد يكون بلا نواقص نشأ بين الصديقين بعد الصف الثالث: استمر رحمي سونمز في تفوقه الذي لا يضاهى في علم الحياة والتاريخ والجغرافيا، لكنه كان يصاب بالشلل الكامل إذا واجهته مسألة تتطلب شيئا من إعمال الفكر، فيعاني الأمرين في حل مسألة رياضيات عادية أو مشكلة نحوية يكاد كل الطلاب يقدرون على معالجتها. وبمصادفة لافتة تقدم عليه فهمي غولمز في هذا النوع من المواضيع. حتى أشد مسائل «الحوض والصنابير» تداخلا كان قادرا على حلها في غمضة عين بشرط أن ينجز له شخص آخر عملياتها الحسابية؛ وعلى الرغم من معاناته وقتا طويلا في حفظ الموضوعات العويصة، فإنه كان يكفيه أن يسمعها مرة واحدة حتى يستوعبها. وهكذا إذا واجهتهما مسألة رياضيات في الامتحان كان فهمي يدل رحمي على العمليات الحسابية التي ينبغي إجراؤها، ويقدم له رحمي نتائج تلك العمليات؛ وفي امتحانات أخرى كان رحمي يهمس لفهمي التواريخ والتعريفات وأسماء العواصم والسلاطين، في حين كان فهمي يساعد رحمي في الصف وفي البيت في فهم موضوعات

الدروس وربطها بمتعلقاتها. نتيجة لهذا التكامل اللافت ظل الصديقان حتى نهاية المرحلة الثانوية، ألمع طالبين في صفهما. ولم يكتفيا بذلك: في العطل الصيفية اشتغلا في سوق أسكدار كل في دكان أبيه، كأجير مدعوم، ليكسبا مصروفاتهما، حيث تعلم رحمي من فن الخياطة ما يكفي ليغطي على نواقص فهمي، كما تعلم فهمي من صناعة المدافئ ما يكفي لتغطية نواقص رحمي. لكنهما من الأول ثانوي فصاعدا بدآ يكابدان ضجرا مخيفا في دكاني أبويهما: تحت تأثير أستاذ الأدب الشاب، الذي عين في المدرسة أخيرا، والذي سحرهما بالقدر نفسه راحا يحترقان حماسة أدبية عصية على اللجم.

كما يمكن أن نتوقع بسهولة فقد اتجها إلى التكامل في هذا المجال أيضا: قرر فهمي غولمز أن يصبح ناقدا، وقرر رحمي سونمز أن يصبح شاعرا. لكنهما كانا آنذاك بعيدين على حد سواء عن أدب البطولة الذي قرآه في عهد الطفولة: إذ أكد لهما أستاذ الأدب أن أدبا لا يخدم غاية اجتماعية، لا يمكن اعتباره أدبا «معاصرا» بأي شكل من الأشكال، وأن هذه الغاية الاجتماعية تتمثل في تحقيق الثورة العالمية التي ستصل بالبشرية إلى مجتمع عالمي خالٍ من الطبقات، ووفقا لـ «تيار التاريخ الذي يستحيل إيقافه» راح الصديقان يتابعان المجلات «المعاصرة» تلبية «لضرورات العصرية»، ويقرآن أيضا بدافع «الضرورات العصرية» مؤلفات الكتاب والشعراء الاجتماعيين أو الواقعيين الاجتماعيين وفي مقدمهم ناظم حكمت، كما لو كانا يلتهمانها التهاما، يريدان أن يسلكا الطريق الذي افتتحه أولئك، ويخوضان معا نقاشات

حول جوهر الأدب ودوره، لسد ثغرات معارفهما النظرية والعملية، وللتكفير عما أضاعاه من وقت ثمين خارج مجال الأدب، فيرددان وراء معلمهما الكبير(*):

«أتخمتنا الورود والبلابل والروح والسماء الصافية ذات النجوم... وما إلى ذلك»، ويفكران بالإنسان باعتباره ، «٣٠ كجم من العظام، ٧ لترات من الدم، كيلومترا أو اثنين من الشرايين والأوردة، وعضلات ولحما وأعصابا وجلدا» الذي ينبغي أن يحركه «الشعور الماركسي اللينيني»، وبالعالم الذي ينوء تحت مازوشية تحلم بجعله منبسطا إسمنتيا بلا حدود تظلله «جبال من الإسمنت المسلح من ٧٧ طابقا»، تمزقه وتحفر فيه آلات «حديدية بقوة ١٠٠٠ حصان في كل من مخالبها»، فينتهيان إلى الاتفاق على أن المساهمة في بناء إنسان الغد وعالم الغد هي الوظيفة الأساسية للمثقف المبدع. وهكذا قَيَّم فهمي غولز الكُتَّاب والشعراء الذين اهتموا بقضايا الشعب المعدم في واحد من دفتري الكاريه اللذين اشتراهما خصيصا من أجل نشاطاته الكتابية؛ في حين طور في الثاني نظرية بالانطلاق من فرضية أن «الجميل» يكون ذا جدوى فقط بمقدار كونه «نافعا»، تقول إن على المبدع من جهة أولى أن يسلط الضوء على المشكلات اليومية للشعب من الآن و«حتى بناء المجتمع اللاطبقي»، ومن جهة أخرى أن «يعطي المفاتيح» لكشف حقيقة أن المستقبل سيكون أجمل من يومنا الراهن، دون انتظار «المخرج الذي سيشرف على الممثلين وهم يؤدون التفاؤل الناصع للروح الجماعية التعاونية»، ومن دون انتظار «المهندس الملحن

(*) المقصود ناظم حكمت، والمقتبسات التالية هي مقاطع من شعره.

للقـرن الحـادي والعشـرين»، مع إيراد أمثلة وفيـرة. وسـعى رحمي سـونمز في «دفتـر الخـواطر» خـاصـتـه، ذي الغـلاف الأحـمـر من السـاتان، أن يضع تلك النظرية موضع التطبيق بقـصـائده الطويلة والقـصـيـرة، التي راحت تزداد باطراد كل يوم: مـا إن يجلس إلى طاولته ويمسك بـ «القلم الرصـاص» حتى يتزاحم في عقله الفـريد ما لا يحصى من العناصر المستقاة من قصائد وقصص سبق له أن قرأها، ومن أخبار الصحف ومقالات فهمي وأحاديثه مع أسـتاذ الأدب، تسطع وتضيء وينعكس بعضـهـا على بعض، فيبقى عليه حينئذٍ أن يختار واحدا أو بضعة منها، ليسكبها على الصفحات في قوالب عصرية انبثقت هي الأخرى في عقله.

كنتيجة لهذا العمل راح يعيد تقييم جميع المواضيع الأثيرة لدى الشعراء والقاصين «المعاصرين»، بدءا من المأساة التي تثير تمرد الفلاح الفقير والمعدم الذي كابد الويلات لأنه حاول اختطاف ابنة الآغا التي وقع في غرامها، وانتهاء بالقصة المؤلمة للعامل «زيركلي» الذي يهرب من خطيبته بعد أن فقد ذراعه في آلة الحياكة أثناء عمله في معمل النسيج. صحيح أنه لم يأت بحلول حاسمة وهو يقـوم بذلك، غيـر أنه لم يهـمل قط أن يحـشـر هـنا وهنـاك في قصائده عناصر توحي بأن المستقبل سيكون أكثر سعادة من اليوم.

كما هو ملاحظ فقد استوعبا المنظومة بصورة ممتازة. ولا بد أن جهودهما الإبداعية قد وصلت ـ نتيجة لذلك - إلى مستوى مرموق من النجاح وهما لا يزالان في الصف الثاني الثانوي، حيث تمكن رحمي سونمز من نشر قصيدته المؤثرة عن الصبي الصغير من «طاش قصابلي»، الذي يتابع دراسته ويبيع الكعك كي يصرف

على أمه المقعدة، والذي لن يسامح نفسه مطلقا لأنه دخل ذات يوم محلا للحلوى لأنه اشتهى حلوى «القاظان ديي» بالبوظة؛ وحيث تمكن فهمي غولمز من نشر مقالته الموجزة والمكثفة التي يبدأها بالشكوى من أدبنا المعاصر، الذي لم يهتم اهتماما كافيا بأدب الأطفال، ويدافع فيها عن فكرة أن هذا الأدب يتيح لنا كثيرا أن نبشر بجمال الأيام القادمة؛ وذلك في واحدة من أكثر مجلات الأدب في ذلك العهد شجاعة، لم يتمكنا من نشر أي عمل آخر في تلك السنة لأن المجلة المذكورة توقفت عن الصدور في الشهر التالي، ولكن حتى هذا أصبح بمنزلة انقلاب صغير في حياتيهما: أولا «ظريفة» التي بدت حتى ذلك الحين كأنها لا تسمع أبدا توسلات رحمي الشفوية والكتابية، و«بتول» التي سلكت اللامبالاة نفسها إزاء محاولات فهمي المشابهة، توقفتا عن الصد بعد هذا الحدث السعيد وشكلتا مع الصديقين رباعيا، وبدأتا تخرجان معهما بكثرة ليرتادوا صالات السينما والمقاهي الصيفية، بل حتى تتمشيان معهما والأيدي متشابكة فوق تلة العشاق؛ ثانيا، ارتفع إنتاجهما الأدبي إلى الضعفين على أقل تقدير؛ وثالثا، في المرحلة الجديدة - مرحلة النشر - أصبح ينظر إليهما باعتبارهما موهبتين شابتين قطعتا منعطفا مهما إلى الأمام، ولم يعد أحد يستغرب ظهور أعمالهما بكثرة في مجلات أدب صغيرة أو كبيرة من ذلك النوع الذي يتوقف عن الصدور بعد بضعة أعداد أو يوقف عن الصدور بقوة الدولة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار المديح الذي كالته لكليهما في عددها الأول مجلة تصدر في إحدى مدن الأناضول في صفحة «من المجلات»، والرسالة التي أرسلها إلى

رحمي سونمز من أنقرة شاعر معروف إلى حد كبير يبشره فيها بأنه بصدد إعداد مختارات من الشعر التركي المعاصر، ويطلب منه إرسال صورة شخصية من قياس ٦ × ٩ مطبوعة على ورق لماع، وثلاث قصائد لا يتجاوز عدد أبيات كل منها الخمسة عشر، من أجل إدراجها في المختارات المذكورة، بالإضافة إلى سبع ليرات ونصف الليرة كمساهمة في مصاريف النشر، فإنه بوسعنا أن نقول إنهما قد بلغا مستوى مرموقا من الشهرة.

ولكن للأسف، تلك السنة التي بدت باهرة في شؤون الأدب والحب، كانت من نواح أخرى في منتهى السوء. لا يعرف فهمي إذا كان كل شيء حدث فجأة، أم أنه لم ير الحقيقة إلا بعد أن حدث كل شيء: لم يعد أبوه قادرا على إدخال الخيط في خرم الإبرة لم يبق لديه من الطاقة ما يحتاجه لصعود المرتفع القاسي والطويل ما بين ورشة الخياطة والبيت، فترك العمل لابنه وأجيره، الأمر الذي أرغم فهمي حتى على تقليص مشترياته من الكتب. أما رحمي فقد واجه مواقف أكثر مأساوية حتى من الحكايات التي يكتبها شعرا: قبل ستة أسابيع من الامتحانات النهائية فقد أمه، وفي مساء اليوم الذي أدى فيه امتحانه الأخير بنجاح وجد أباه في المقعد الكبير قرب المدفأة الصينية غارقا في نومه الأخير. لم يخطر ببال كل من رحمي وفهمي قط الابتعاد عن عالم الأدب الذي ألفاه جيدا، غير أنه لم يكن واردا في المقابل أن يكرسا نفسيهما بصورة تامة للنشاط الأدبي في تلك الشروط العسيرة: إنهما يشعران بالمسؤولية تجاه ظريفة وبتول اللتين أقسما لهما بأنهما لن يتخليا عنهما حتى الموت. وهكذا، طوال شهرين ونصف

الشهر تقريبا راح رحمي يكتب قصائده في ورشة أبيه في ذاك الحر الخانق منتظرا الزبائن الذين لا يأتون أبدا، ويحاول فهمي تطوير نظرياته وهو يدرز القماش في الدكان المجاور. وفي نهاية تلك الفترة قررا معا أن يزيحا الخدمة العسكرية من طريقيهما. وهكذا افترق الصديقان للمرة الأولى: بقي رحمي سونمز في استانبول، ورحل فهمي غولمز إلى «بولطلي».

بعد عودتهما من الخدمة العسكرية، وبعد أن عوضا نفسيهما عن ألم فراق دام عاما كاملا، ضما إليهما ظريفة وبتول وراحوا يلتقون ويناقشون بحماسة للاتفاق على مستقبل مشترك لا مكان فيه لأي افتراق جديد بعد الآن. ترددا وقتا طويلا بين خيارين: الانغماس فورا في مهنتي أبويهما بكل نشاط والزواج من الفتاتين في أقرب وقت، والخيار الآخر هو إرجاء هذه السعادة بضعة أعوام للالتحاق بالجامعة.

أخيرا، وبفعل المواقف المتفانية للفتاتين انتهيا إلى القرار الحاسم: بما أن كلا من الشعر والنقد يحتاجان ثقافة عميقة قبل أي شيء آخر، عليهما إذن أن يكملا دراستهما مهما كان الثمن: على أن يبيع رحمي سونمز ورشة مدافئ أبيه ويودع ثمنها المصرف، ثم يحاول أن يعيش على ذاك المال أربع سنوات على الأقل، وأن يعمل فهمي غولمز في الخياطة إلى جانب دراسته الجامعية. ولم يحتاجا كثيرا من النقاش ليقررا أين يواصلان تعليمهما: بما أن الاقتصاد هو الحقيقة الأولى والأهم في عصرنا، كما يؤكد المعلمون باهتمام، فسوف يسجلان في كلية الاقتصاد. وبهذه الطريقة ستتواصل رفقتهما

كما كانت دوما من جهة، وسيصبحان خبيرين في «علم العصر» من جهة ثانية، كما سيجدان الحل على الأقل من وجهة نظرهما لمشكلة «انعدام التحليل الواقعي» في الأدب التركي المعاصر، التي يضع فهمي غولمز تحتها خط تأكيد في كثير من مقالاته النقدية والنظرية.

ولكن ما إن بدأت المحاضرات حتى أصيبا بخيبة أمل كبيرة: فبين كل أولئك الأساتذة المحاضرين لم يجدا واحدا يقدم تحليلا ما، ولا واحدا يحاول أن يقدم جدلا حريا بالوصول إلى تحليل. رجل ضئيل الجسم، أبيض الشعر، يلثغ بالراء مثل رحمي ينتصب أمامهما خمس ساعات من كل أسبوع ليثير نعاسهما بحديثه المكرور عن بقال يدعى أحمد أفندي وتاجر جملة يدعى محمد بيك، وعن تجارة وهمية بينهما وكيفية مسكهما للدفاتر؛ أستاذ آخر يرتدي العباءة دوما، ذو رأس كبير ووجه مستطيل، يروح يتحدث، بصوت أقرب إلى البكاء، عن إجراءات الزواج والطلاق وحقوق الوراثة، كما لو كانت هذه مشكلات عصرنا الرئيسية؛ واحد آخر يظن أنه بلغ ذروة العلم وهو يحكي كم كيسا من الطحين وكم كيسا من الأرز وكم قنطارا من البصل حمل الجيش العثماني معه في حملته على فيينا بقيادة السلطان سليمان القانوني؛ فيما أستاذ آخر يتنطح لتفنيد فرضيات ماركس واحدة واحدة، دون أن يذكر اسمه ولا حتى أن يحاول تلخيص نظريته. كان رحمي وفهمي يصغيان إلى كل هذه التمثيليات وهما يلويان شفتيهما ازدراء ويغمغمان قائلين: «إذا كان هؤلاء أساتذة جامعات، فينبغي أن نعتبر معلمينا في «حيدر باشا»

جميعا أورديناريوسات(*)». ثمة ملاحظة أخرى كثيرا ما عبرا عنها قائلين: «إن قصائد ناظم تحتوي من» الاقتصاد السياسي «أكثر بكثير مما تفعله هذه المهازل».

الشيء الوحيد الذي جعل محاضرات كلية الاقتصاد قابلة للاحتمال، هو وجود طالبة تحضر المحاضرات مرتدية سترة من وبر الجمال ذات أزرار خشبية، تحمل تحت إبطها مجلدات سميكة، لها نظارتان وشعر أجعد وبشرة منمشة قليلا وجسد ضئيل. كانا يحرصان على الجلوس قريبا منها قدر المستطاع، يحدقان فيها طيلة المحاضرة ولا يفوتان أدنى حركة من حركاتها، ولا يعرفان إن كان سبب اهتمامهما هو انطباع المبدعة الذي تثيره، بشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين ونظارتيها الدائريتين بإطارهما الفضي وكتبها المكتوبة جميعا بلغات أجنبية والمطبوعة في بلدان أجنبية ونظراتها المميزة وحركاتها وسكناتها الخاصة بها؛ أم فقط لأنها توحي بشيء من البعد والغرابة والعزة؟ لكن المسألة كلها هي هذه: حتى لو غضضنا النظر عن الشعور بالمسؤولية الذي يكبل أياديهما تجاه ظريفة وبتول، فإن هذه الفتاة ليست من النوع الذي يمكن التقرب منه بسهولة. كثير من الطلاب جربوا فلم يتلق أحدٌ منهم ردا منها سوى نظرة ازدراء باردة جامدة تتناقض تماما مع جاذبيتها الغريبة، الأمر الذي منع الجميع من تكرار المحاولة. غير أن وقحي الصف اتجهوا إلى الثأر منها بطريقتهم على صدها المؤلم لهم بأسلوبها المتميز، فراحوا يلاحقون كل حركاتها من فتحها لكتابها وحتى تجليسها لنظارتها، جاعلين منها مادة

(*) الأورديناريوس: (قديما) أستاذ ذو مكانة متميزة عن زملائه بخبرته وعلمه.

للمحاكاة الساخرة، هي وأشياءها من سترتها إلى حذائها. وحين عرفوا أن اسمها فريدة ألحقوه بلقب «الصعو»(*) وراحوا يرددون «جاءت فريدة الصعو وراحت فريدة الصعو»، مستغلين أي موضوع كان أداة تخدم السخرية منها. أما رحمي وفهمي فرأيا في تلك التصرفات ضربا من ضروب الاستهتار بالمقدس. بالنسبة إليهما كانت فريدة حلما لا مثيل له ولا يمكن رؤيته مرة ثانية إلا بمعجزة في هذا الوسط السقيم، وينبغي النظر إلى الوجود معها تحت سقف واحد بضع ساعات كل يوم، باعتباره عز المنى.

لذلك، بعد نقاش حامٍ خاضاه مع عدد من زملائهما - في فترة محاضرة ملغاة - عن الوضع «الاقتصادي - السياسي» للبلد، وكانا متجهين نحو الباب الخارجي للكلية، في طريقهما إلى لقاء ظريفة وبتول أمام سينما أطلس، لم يستوعبا وقع المفاجأة حين اعترضت «الصعو» طريقهما - وهي التي لم يرها أحد حتى ذلك الحين تتحدث إلى أحد - وبادرتهما بالقول: «مرحبا. أنا فريدة. أهنئكما. كنتما رائعين، ولكن - واعذراني لما سأقول - أنتما تجهلان ماركس». وقفا عاجزين عن النطق، حتى أنهما لم يتفوها بكلمة شكر. لحسن الحظ أن فريدة تصرفت كأنها لم تلاحظ دهشتهما، قالت: «أظنكما خارجين مثلي. لنمش معا».

تحت زخات خفيفة باردة من مطر ديسمبر، راحت تنتقد النقاش «الاقتصادي - السياسي» الذي دار قبل قليل من زاويتي

(*) الصعو: طير صغير الحجم. واللقب مستوحى من رواية شهيرة للكاتب رشاد نوري غونتكين عنوانها «عصفور الصعو» تمثل بطلتها «فريدة» الفتاة التركية الجديدة للحقبة الجمهورية، الفتاة التي تمتلك الوعي وتتحرر من أصفاد التقاليد.

التحليل والتركيب، وهي تعتمر عمرة سترتها وتتوسط الصديقين وتلمس مرفق رحمي بيدها بين حين وحين، وتتوقف بين حين وحين. وإذ وصلوا إلى البوابة الحديدية الكبيرة وكانت بعد في بداية تحليلها، اصطحبتهما - حتى دون أن تشعر بحاجة إلى سؤالهما عما إذا كان لديهما وقت - إلى مقهى قريب يملأ فضاءه دخان السجائر إلى درجة تستحيل فيها الرؤية، حيث راحت تحدثهما مطولا عن ماركس وأنجلز ولينين وجرامشي وتروتسكي، بالراحة والثقة الحريتين أن تتحدث بهما إلى الطلاب الفرنسيين في شارع المونبارناس، في الكوبول أو السلكت، بصوت مرتفع، وهي لا تتوقف عن تدخين سجائر «البرنجي» التي تلازم أصابعها أو فمها. لقد كان فهمي غولمز ورحمي سونمز على معرفة جيدة بالمقطع الشعري الذي يقول:

الكتب، الكتب

في الفلسفة: المادية الديالكتيكية

في الاقتصاد: «رأس المال» في أربعة مجلدات

كما أنهما مستعدان اليوم قبل الغد أن يصبحا من «حفظة رأس المال»، غير أن مصادرهما في الفكر اليساري كانت محدودة - مثل كثيرين من أمثالهما - بكتب الشعر والمجلات الأدبية. لذلك عرفا لينين وستالين باعتبارهما عسكريين أسقطا القيصر المستبد، في حين استقيا فكر ماركس من قصيدة «ملحمة الشيخ بدر الدين ابن قاضي سيماونة»(*). لو أن أحدا انبرى يقول لهما إن أنجلز هو الزوجة الشرعية لماركس، كانا جاهزين لتثبيتها في حافظتهما بعناية

(*) قصيدة شهيرة لناظم حكمت.

باعتبارها معلومة جديدة. وإذا أضفنا إلى ذلك دهشتهما التي حولها الجو المحيط إلى نوع من الهلوسة، كانت الحصيلة أنهما لم يفهما أي شيء مما تحدثت به فريدة، غير أنهما انتشيا إزاء كثرة الأسماء الأجنبية في كلامها، وتسلسل المفردات بإيمان ينأى عن كل ضروب الشك، وقبل هذا وذاك وجود هذه الفتاة المعجزة قربهما بل على طاولتهما، هما اللذان يطيب لهما حتى أن يرياها عن بعد؛ لذلك اعتبرا أن ثقافة الإنسان لا يمكن أن تكون أعمق من هذا، وراحا يهزان رأسيهما في نهاية كل جملة تقولها، وإذا وجدا نفسيهما من حين إلى حين في موقف يتطلب منهما الإجابة عن سؤال ما، كانا يكتفيان بأن يلوكا عددا من المفردات المشوشة داخل فميهما. بعد وقت طويل، نظرت فريدة من خلال النافذة وقالت: «آه! لقد حل الظلام. هيا بنا قبل أن تقلق أمهاتنا علينا» ثم استدعت النادل ودفعت له ثمن الشاي. وفي الحالتين لم يستطيعا التصرف كرجلين. عند ناصية الشارع صافحاها بحياء وفمين مفتوحين وعيون شاردة، ثم بقيا على مدى دقائق جامدين صامتين كمن فقد كل أنواع غريزة الحركة، وهما يتابعان ابتعاد الباص الذي أقل فريدة الصعو. أخيرا بدا كما لو أن فهمي غولمز تمالك نفسه، فلهث بعمق وغمغم يقول: «هذه الفتاة شيء غير معقول!».

تقريبا كان هذا هو الكلام الوحيد الذي تبادله الصديقان ذلك المساء. لم يتفوها بشيء لا في الترامواي ولا في الباخرة ولا في أثناء صعودهما المرتفع. حتى أن رحمي سونمز حين انعطف يمينا بصورة مفاجئة في نهاية المرتفع، ودخل دكان بقال الحارة، لم يطلب من صديقه أن ينتظره دقيقة. لكن فهمي غولمز سار خلفه ورآه

يتقدم بخطوات حازمة ويقف أمام البقال محمود أفندي ليطلب منه بلا تردد زجاجة نبيذ «مرمرة» وعلبة دخان «بيرنجي» كما لو أنه يطلب خبزا وجريدة. كان الطبيعي أن يدهشه هذا، بل يغضبه فيحاول منع صديقه. لقد سبق لهما أن جربا هنا وهناك كلا من النبيذ والدخان، ولكن فقط كضيافة، وفوق ذلك بلا رغبة. أما شراء النبيذ والدخان بهذه الصورة المفاجئة، فيمكن أن يكون بداية مصير وخيم. أُجّفَل.. أمام هذا الموقف، وربما بسببه، أي أنه إذا كان ثمة انحدار فلينحدرا معا، اقترب بدوره من منضدة البقال وقال له: «واحدة (مرمرة) وواحدة (بيرنجي)».

وهكذا اتجها مباشرة وبصورة لا مفر منها إلى بيت رحمي حيث جلسا متقابلين قرب المدفأة الباردة وأشعلا أول سيجارتين مدفوعتي الثمن في حياتهما، ثم فتحا زجاجة النبيذ الأولى بضرب أسفلها وأتيا عليها في نصف ساعة مع الخبز والجبنة. راحا يقرعان كأسيهما ببعض ويفرغانهما في جوفيهما، ووميض غائم يلتمع في عيونهما، ثم يشعلان سيجارتين ينفثان دخانهما في الهواء. كان واضحا أنهما يريدان أن يتحدا مع فريدة التي كانت قبل ساعات خلت تشعل سيجارة بيرنجي من أختها في المقهى الذي ضمهم في «بيازيد». ومع أنهما لم يكونا أبدا في حاجة إلى ذلك: فقد كانا ممتلئين بها. على سبيل المثال لم تبرح صورتها قط خيال رحمي وهي في حديقة الجامعة ترفع نفسها إلى الأعلى فوق خفيها اللذين بلا كعبين، وتقول له وهي تحدق في عينيه: «أليس كذلك؟» لامسة مرفقه بيدها. أما في خيال فهمي فقد تثبتت صورتها وهي تشرح آراءها في مقهى بيازيد وتلتفت إليه في أكثر

مفاصل حديثها أهمية لتنظر إليه بعينين تلمعان. مهما يكن من أمر، فقد امحت كل الصور من ذهنيهما باستثناء صورتها، كما امحت بالمناسبة بتول وظريفة. ولكن لا يصح القول بأن فريدة احتلت موقعيهما: فحتى بعد أن فرغت الزجاجة الثانية ظلت فريدة في وعيهما بالصورة نفسها، كائنا نائيا، حلميا ومستحيلا.

صحيح أنهما بقيا على أملهما بأنهما سيريانها مجددا في قاعة المحاضرات، لكن احتمال اقترابها منهما ثانية، واحتمال عدم سحقها لهما بنظرتها الجامدة في حال اقترابهما منها، كما فعلت بكثير من طلاب الصف الوسيمين، كانا يبدوان لهما كاحتمالين بعيدين جدا.

لكنهما في الصباح التالي، وحتى قبل انقضاء عشر دقائق على دخولهما قاعة المحاضرات، أدركا أن لا أساس لمخاوفهما على الإطلاق: فما إن دخلت فريدة من باب القاعة حتى راحت تبحث عنهما بعينيها، وما إن رأتهما حتى هرعت إليهما في شبه ركض وقالت: «أفسحا لي. أريد أن أجلس بينكما». وفعلت الشيء نفسه في الأيام التالية: جلست بينهما، وسارت بينهما، ليس فقط في القاعة بل في كل مكان تقريبا.

أدهش هذا الأمر وساء أولئك الذين سبق لهم أن حاولوا الاقتراب من فريدة واضطروا للانكفاء تحت نظرتها الجليدية، قال واحد منهم محاولا التغلب على هزيمته بالسخرية: «إذن هذه الفلعوصة لا تكتفي برجل واحد». لكن أولئك القادرين على رؤية الحالة بموضوعية أدركوا أن هذا الكلام ينطلق من الغيرة والسخرية، خصوصا أن رؤية قامة رحمي سونمز وتقاطيع وجهه

التي لا تشوبها عيوب وشعره المتماوج وعينيه الخضراوين ذواتا النظرات الشاعرية، لا تترك مجالا للشك بأن فريدة قد أحسنت الاختيار أقله من الزاوية الجسدية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ظهور صورتي فهمي غولمز ورحمي سونمز في مجلة أدبية من أربع صفحات بدأت تصدر حديثا، فإن تفوق الصديقين كان يكتسب حسما إضافيا. إلا أن أحدا لم يعط أي أهمية لفهمي غولمز في تلك المقارنات: وإن كانت حداثة العلاقة لا تسمح بعد بتخمين أي من الصديقين يثير اهتمام فريدة أكثر، لكن الجميع تقريبا كانوا يعتقدون أنها ستختار في النهاية رحمي سونمز. من جهة أخرى كان من الصعب معرفة من هو الطرف الرابع من هذه العلاقة، فريدة أم رحمي و/ أو فهمي؟

لا شك في أن فريدة تملك جاذبية خاصة بها، ولكن لولا طريقتها الخاصة في اللبس والنظر والمشي والوقوف، لكان من الممكن أن تبدو في نظر البعض فتاة عادية بوجهها المنمش وقامتها القصيرة وساقيها الملويتين بعض الشيء. لكن تقييما كهذا لا يمكن أن يصدر إلا عن أشخاص غير مهتمين، أما بالنسبة إلى رحمي سونمز وفهمي غولمز فقد كانت فريدة هي الجمال بعينه. إنهما ينظران الآن، في القاعة أو في الشارع، في مقاهي العمال والمتقاعدين التي لا تطأها قط قدما امرأة غيرها أو في خمارات «بيوجلو»، إلى هذا الوجه الصغير المنمش كما لو أنه وجه الأبدية؛ ولأنهما اعتادا - تحت تأثير المجلات الأدبية اليسارية - أن يطابقا ما بين «الجميل» من جهة و«الصحيح» و«النافع» من جهة أخرى، فقد كانا يوافقان بحماسة على كل كلمة تتفوه بها، حتى وهي

توبخهما بقسوة من حين إلى حين. مثلا بعدما قرأت أفضل مقالات فهمي غولمز النقدية صرخت قائلة: «في منتصف القرن العشرين حيث نعيش، تكون النتائج بهذا السوء إذا تنطح المرء لكتابة النقد دون معرفة ببليخانوف»، وكذلك عندما دفعت بظاهر يدها أجمل قصائد رحمي سونمز وهي توبخه بحزم قائلة: «أنت ثوري يا صاحبي، عليك ألا تكون دامع العينين إلى هذا الحد»: ففي الحالتين وافقاها الرأي بحماسة كما لو كان النقد موجها إلى الرأي النقيض. غير أنها بالمقابل كانت تواسيهما قائلة إنها لا تشك قط في موهبتيهما، وتسعى فوق ذلك إلى تثقيفهما وهي تؤسس نقدها لهما بخطاب طويل ومعقد يمتلئ ويفيض بماركس وأنجلز وهرتزن وبليخانوف ولوكاش وجوركي. كان رحمي سونمز وفهمي غولمز يريان أنهما مهما أبديا من فرح لأنهما حظيا منذ أول الطريق بمرشد يملك كل هذه المعارف ووضوح الفكر، فسوف يكون قاصرا عن التعبير عما يشعران به. ولا يمكن القول إنهما ليسا على حق، بما أنهما وضعا درب الثورة نصب عيونهما: ففي هذا المناخ الذي تمنع فيه لا الماركسية فقط، بل كذلك كل ما يمكن أن يذكر بوجودها، قامت هذه الفتاة بتهريب كل المعلومات المتعلقة بالموضوع عبر الحدود داخل تلافيف دماغها، وهاهي الآن تشاركهما فيها بسخاء قل نظيره.

كانت مدينة بتفوقها هذا إلى كونها ابنة زوجة قنصل «ذي عقل محافظ» على حد تعبيرها، مكلف بالعمل في تلك الفترة في إحدى دول الشمال. بعد وفاة أبيها في عمر مبكر، تزوجت أمها على الفور تقريبا من «هذا الرجل»، فبدأت تعيش في بلدان

أجنبية منذ الخامسة من عمرها، وخلال فترة طويلة من مرض أصابها راحت تقرأ كل ما يقع بين يديها، فكان أن «التقت» بماركس، فلم تعد بعد هذا اللقاء تهتم بأي شيء غيره هو ونظريته. أنهت دراستها الثانوية في النمسا بإرغام من أمها وزوج أمها، لكنها بعد أن حصلت على استقلاليتها القانونية واجهت كل محاولاتهما لعرقلة عملها كعامل بكل معنى الكلمة وطيلة ثلاث سنوات، لأنها لا يمكن أن تقيم تصالحا ما بين مبادئها الثورية ودراستها على حساب زوج أم محافظ يصف الاشتراكية بالوضاعة؛ وهكذا ادخرت قليلا من المال، وحين بدأت ترى في العمل نوعا من «الإدمان»، عادت إلى بلدها الذي تؤمن بحاجته الكبيرة إلى المساندة الثورية، وسجلت في كلية الاقتصاد. لهذا فقد كانت علاقتها بكل من أمها وزوج أمها فاترة. وحتى لا تصل معهما إلى قطيعة تامة لم ترفض اقتراح أمها بالسكن في الشقة الضخمة التي تملكها في «نيشان طاش»، غير أنها ـ كما لاحظ أصدقاؤها الذين تدعوهم كثيرا «لتناول كأس ما» ـ لم تكن تستخدم من الشقة الضخمة غير غرفتها السابقة، بالإضافة إلى المطبخ والحمام، وتستقبل ضيوفها دوما في غرفة طفولتها.

في غرفة طفولتها هذه، وخلال دقائق تخصهما بها، بمساعدة من العرق والنبيذ و/أو الكونياك، حين كانوا يصرفون النظر، لفترة طارئة، عن موضوعهم الرئيسي، أي الثورة، وينتقلون إلى الآلام والأفراح والأشواق، كانت فريدة تبدو في عيون رحمي وفهمي أجمل وأكثر سماوية: فكرا بأن هذه الفتاة ليست فقط تجسيدا للمعرفة والجمال والطيبة، بل هي أيضا تجسيد بلا نواقص للإحساس.

بالمقابل فإن الانطباع باستحالة الوصول إليها، الذي خلقته فريدة في الأيام الأولى، قد تراجع ولو قليلا بالرغم من عدم تفوههما بكلمة عن هذا الموضوع - مثل عدم تفوههما بكلمة عن ظريفة وبتول اللتين لم يسألا عنهما منذ أسابيع - فإن كلا من رحمي سونمز وفهمي غولمز على السواء راحا يحلمان ليلا نهارا الحلم ذاته: إن فريدة فتاة لا مثيل لها، لا يمكن مقارنتها بأخرى، لكنها في النهاية إنسان أيضا، ومن المحتمل أن تشعر بما يشعران به نحوها؛ وبما أنها فوق ذلك سيدة نفسها، وفي حال أنها أجابت بالموافقة فلن يقف أي عائق أمام السعادة اللانهائية التي يبدو مجرد الحلم بها حلما؛ وما دام الأمر هكذا يقتضي إذن طرق الحديد وهو حام كما قال أجدادنا المجربون. وهكذا انتهى فهمي غولمز أولا ورحمي سونمز من بعده بأن فاتحا فريدة بمشاعرهما وأحدهما لا يعرف ما فعله الآخر، ومثل أولاد العائلات النزيهين قدما لها عرضي زواج.

استغربت فريدة بصورة جدية العرض الذي تقدم به فهمي غولمز بوجل ولكن دون لف أو دوران، لكنها ردت فورا هي الأخرى بلا لف أو دوران قائلة: «لا أنت قلت هذا الكلام، ولا أنا سمعته، دعنا ننساه» وإذ سألها فهمي مصفر الوجه، مسحوقا، محطما: «لماذا؟» أجابته: «لم أفكر في الزواج قط، ولست من ذلك النوع من البنات الملائم للزواج؛ ثم - كيف أقولها - أنت فتى طيب جدا، عاقل جدا، ولكنني لا أشعر بأي جاذبية نحوك».

قالت ذلك وأشعلت سيجارة ونظرت بعض الوقت إلى وجه فهمي غير المنفر، والشاحب والمشدود، وأضافت: «لا أعرف لماذا

لكن لك وجها بورجوازيا، مثل وجه زوج أمي؛ لا تستأ لكني لم أفكر أبدا أنك يمكن أن تكون زوجا لي». مع أن هذه الكلمات الأخيرة كان يمكن إدراكها بصفتها تفسيرا لعدم توافق خلقي، فإنها حطمت الرغبة في الحياة عند فهمي إلى درجة العدم. وحين عرف، بعد ثلاثة أيام، الجواب الذي حصل عليه صديقه، فإن أول ما خطر في باله، كان أن يقتل نفسه دون أن يقول كلمة لأحد، أو حتى أن يكتب سطرين لأحد، لكنه كان منهكا إلى درجة يستحيل معها أن يفعل ذلك.

في البداية ردت فريدة على رحمي سونمز الرد نفسه، لكنها عندما رأته ينهار فاغر الفم، ذاهل العينين، ولا يستجيب لقصصها وممازحاتها التي أرادت بها تغيير الجو، ويرد على أسئلتها بأجوبة لا معنى لها، عادت إلى الموضوع بنفسها، وباغتته بالقول: «اسمع! أنا نصف فتاة، أملك رئة واحدة. هل تريد فتاة برئة واحدة زوجة لك؟» وإذ رأت رحمي يبتسم بابتهاج كما لو أن كون المرء برئة واحدة هو أجمل شيء في العالم، أحنت رأسها باستسلام كأنه لم يبق أي حل آخر أمامها، وغمغمت قائلة: «وما العمل؟ ليكن ذلك... هذا هو الشيء الوحيد الذي لم نجربه بعد، لنجربه ونرَ. على المرء أن يعرف كيف يواجه المجهول».

في تلك الأثناء كان ثمة خوف يتململ في عمق الغبطة الكبيرة التي أبهجت رحمي: ترى هل قالت فريدة: «لنجرب هذا أيضا» بلا رغبة، من أجل خاطره أو من باب التغيير، أم قالت ذلك هروبا من ألم حب كبير فقدته في أحد البلدان التي عاشت فيها؟ بالإضافة إلى ذلك: إلى أي درجة ولأي مدة يمكن لفتاة لا مثيل لها وعزيزة المنال

مثلها أن ترتبط بابن صانع صفائح من أسكدار؟ ماذا بوسعه أن يفعل وكيف له أن يعيش إذا حدث ورحلت يوما ما فجأة، في وقت غير متوقع على الإطلاق، أي تماما كما ظهرت؟ مهما يكن فقد انهمكت فريدة فورا في تفاصيل بدت تؤكد إلى حد ما الشكوك التي تتعب ذهنه، (...) وسألت: «كيف سنتدبر هذا الأمر». لا شك - قالت له - أن ما تريده ليس حياة بورجوازية مريحة، ولكن عليهما على الأقل أن يشبعا بطنيهما، ومن أجل ذلك على أحدهما أن يجد عملا في أقرب وقت، وأن يترك الكلية بالتالي. وبما أنه من غير الوارد لديها على الإطلاق أن تسمح بأن يقطع رحمي دراسته لأن «وسواسا شديد السخافة» من نوع الزواج منها قد استبد به، فعلى الأرجح أنها هي التي ستترك الكلية. والحق أن لا ضير في هذا: فالأساتذة يعاندون - كما لو باتفاق مبطن - في تجاهل اسم كارل ماركس، ويصرون على تعليم «اقتصاد أصفر» لا صلة له بالاقتصاد الحقيقي، وبذلك لا يفعلون شيئا سوى إثارة أعصابها؛ وليس من باب المباهاة، لا شيء على الإطلاق يمكن لها أن تتعلمه من «المدرسين المزعومين»، هؤلاء الذين يجهلون ماركس أو يتجاهلونه؛ على العكس بإمكانها هي أن تحاضر فيهم في «الاقتصاد السياسي» المعاصر. باختصار، وبما أن معرفتها بالألمانية والإنجليزية ستسهل عليها إيجاد عمل، يظهر تركها للكلية بعد فترة من زواجهما أمرا لا مفر منه. حاول رحمي سونمز أن يقول إن على الرجل أن يصرف على البيت، لكن فريدة قاطعته بحزم قائلة: «دعك من هذه الأفكار البورجوازية البائدة!».

بعد بضع ساعات سمع فهمي غولمز فحوى هذه المحادثة من صديقه رحمي، فقال، كأنه يبرر هزيمته أكثر من كونه يطمئن مخاوف صديقه الذي لا يزال غير مصدق ما جرى: «لقد رتبت هي كل شيء في ذهنها قبلك، وقررت قبل أن تفاتحها بفترة طويلة: لا تخش شيئا، فلن تتخلى عنك». وتبين أن كلامه صحيح: فحتى قبل نهاية العام الدراسي أكملت الإجراءات بسرعة، وبعد احتفال وفير العرق ووفير الخطب في مجمع «جيجك»، شارك فيه بضعة شعراء شباب ورسام شاب تعرفوا عليهم حديثا، غادرت فريدة غرفة طفولتها في نيشان طاش إلى غير رجعة واستقرت في بيت أسكدار ذي المدفأة. وبهذه المناسبة قطعت آخر ما يربطها بأمها وبزوج أمها. لكنها لم تكن في وارد أن تجعل من هذه القطيعة هما من همومها في وقت كهذا: كانت ضد إضفاء أهمية تفوق المطلوب على المشاعر، فضلا عن أنها تهتم بالمستقبل لا بالماضي: وهل ستشغل نفسها - وهي الثورية المؤمنة - بردات فعل تجاوزها العصر لامرأة عادية أصبحت أمها نتيجة مصادفة من مصادفات الطبيعة؟ الفكرة «طبيعية، مادية، إلحادية».

أمامها الآن قضايا أكثر أهمية بكثير: هي الآن بصدد بناء نظام جديد للحياة، وفقا لتعبيرها.

- ٢ -

بنظرة من الخارج، من الصعب القول إن فريدة بنت أي نظام في حياتها الجديدة، أو حتى إنها كانت بصدد التفكير في بنائه. وكان رحمي سونمز، وبمساعدة من بعض الجيران، قد أعاد ترتيب البيت بعناية كبيرة، بعد أن نظفه واستبدل الأسرة والشراشف والستائر والأغطية، قبل وصول زوجته. وكانت جل مساهمة فريدة في هذا النظام الجديد تتلخص في تعليقها صورتين لماركس ولينين في غرفة الجلوس على حائطين متواجهين، وترتيبها للكتب النظرية باللغتين الإنجليزية والألمانية التي أحضرتها معها من بيتها، على رفوف المكتبة في الغرفة ذاتها. وبعد أن ثبتت أكبر منفضة سجائر في البيت على المنضدة العرجاء لصق سريرها، اعتبرت نفسها قد أتمت واجبها فيما يخص نظام البيت. حتى ثيابها التي أخرجتها من حقيبتها لم تضعها في المكان الملائم: حشرت بعضا منها في جوارير خزانة الحائط، وبعثرت بعضا آخر فوق الكراسي. ولأنها لم تهتم بأبعد من ذلك، ولأنها غير معتادة على إعادة الأشياء إلى أماكنها الخاصة بها، فإن البيت الذي سعى رحمي طيلة عامين ونصف العام إلى أن يحافظ عليه نظيفا ومرتبا قدر المستطاع، راح يكتسب باطراد مظهرا قذرا وفوضويا. دع عنك أنها لم تفكر أبدا في ترتيب البيت، فهي لم تكن تطأ عتبة المطبخ إلا حين تستيقظ قبل رحمي وتضع إبريق الشاي على الموقد، أو حين تضطر في غياب رحمي وفهمي إلى إعداد قهوتها بنفسها. وعندما راح رحمي سونمز يحذو حذوها . وقد كان يقتدي

بها في كل شيء - أصبحت الغرف في فوضى دائمة والسرير غير مرتب، وجفت بقايا البن في فناجين القهوة وتحجرت، وبقيت الصحون ملوثة بفضلات البيض بالسجق والبيض المقلي والمعكرونة والفاصولياء اليابسة وما إلى ذلك، وتعفنت الطناجر وأواني المطبخ وأنتنت، وتراكمت أعقاب السجائر في المنافض والكؤوس المستعملة. كان البيت مهددا بأن يصبح من المستحيل ارتياده بسبب القذارة والرائحة الكريهة، لولا تدخلات فهمي غولمز من حين إلى حين، وهو الذي يكره الفوضى. فعلى الرغم من اعتراضات فريدة ورحمي اللذين يقولان له: «دع عنك يا عزيزي، أليس لديك ما تنشغل به!»، كان فهمي يرتدي صدرية (خالته شكرية) ويغسل الأواني والصحون ويكنس البيت وينظفه قليلا. غير أنه يمكن القول إن وضعهما لم يكن وخيما للغاية بما أن فهمي غولمز كان معهما على الدوام تقريبا، بما يستتبعه ذلك من تنظيف البيت بتواتر معقول إلى حد ما، ولأنهم، من جهة أخرى وتحت ضغط الشروط، كانوا يقضون ثلاث سهرات على الأقل من كل أسبوع، في خمارات بيوغلو، وما يستتبعه ذلك من انخفاض كمية الأواني القذرة: دع عنك أن طريقة الحياة هذه قد شكلت نظاما خاصا بها، فقد كانوا يمضون أياما حلوة إلى حد كبير. ففي المساءات التي لا يعدون فيها مائدة ندامتهم في البيت، كانت فريدة تذهب وحدها بين الخامسة والنصف والسادسة إلى مجمع ججك أو إلى إحدى خمارات سوق السمك، وتبدأ الشرب بكأس صغير من العرق وشيء من المقبلات، ثم ينضم إليها رحمي وفهمي بعد قليل قادمين من الكلية وتحت إبطيهما كتب الدراسة

والمجلات الأدبية. ولا يمضي وقت طويل حتى تكبر مائدتهم بانضمام الأصدقاء واحدا بعد الآخر.

خلال فترة من الزمن لم يكن لهم أي أصدقاء، غير أن دائرة منهم سرعان ما تشكلت حولهم بعدما راحوا يكثرون من الظهور في خمارات بيوغلو: كل الكتاب اليساريين والشعراء والرسامين من أبناء جيلهم، بل حتى عدد من ممثلي المسرح، كانوا يستمتعون برفقتهم، وخصوصا برفقة فريدة. كان يجتذبهم فيها، إلى جانب جمالها الذي على طريقتها الخاصة وثقافتها اللامحدودة تقريبا، مزاياها من النوع الذي يمكن أن يؤثر أكثر في البورجوازيين: كونها ابنة قنصل، وإتقانها لغتين أجنبيتين، وطريقتها الأوروبية في اللباس وتصرفها مثل الرجال. كما أنهم لم يقدموا على أي تصرف تجاهها من شأنه أن يثير حفيظة رحمي سونمز، فقد عاملوه وصديقه فهمي دوما باحترام وتقدير كبيرين. وباختصار كان الجميع مسرورين من هذه الصحبة: كانوا يتذمرون على الدوام من الوضع العام في البلد، لكنهم بالمقابل كانوا يتمازحون ويضحكون بصخب كما لو كانوا وحدهم في الخمارة، ويناقشون أخطر المواضيع بما في ذلك الماركسية، وهم يصرخون بأصوات مرتفعة، وما إن يلمحوا مصورا يدخل من باب الخمارة حتى ينادوه ويطلبوا منه أن يلتقط لهم الكثير من الصور ليتركوا للأجيال القادمة شهادات جديدة من حياتهم، باعتبارهم شعراء الغد الكبار ومفكريه ورساميه وممثليه. المثير في الأمر أن فريدة التي لا تحب الكلام الفارغ على العموم وتستخدم حتى أكثر الممازحات ميوعة مطية للانتقال إلى المواضيع النظرية، كانت بدورها

تنساق من حين إلى آخر إلى ذلك الجو. لكنها ما إن تبلغ الساعة الحادية عشرة، حتى تنهض واقفة وترتدي سترتها ـ حتى لو كانوا في أوج النقاش أو الممازحات ـ وتسلك طريق أسكدار، على يمينها رحمي سونمز وعلى يسارها فهمي غولمز.

إذا كانت فريدة تتجنب أي نظام في الحياة اليومية، فذلك لأنها تهدف من جهة إلى التخلص بصورة منهجية من العادات البورجوازية في حياتها، وتريد من جهة ثانية أن تبني نظامها الحقيقي بصب اهتمامها الأكبر على الحياة الفكرية. في الوقت الحالي كان جهدها الرئيسي في سبيل بناء هذا النظام، يتجسد في شرح ماركس لمدة ساعتين على الأقل كل يوم لرحمي وفهمي، حتى تمنحهما المعارف التي يحجبها عنهما أساتذة الكلية. وهكذا كانت تجلس كل مساء متوسطة الصديقين، قرب المدفأة الصينية، وتفتح أحد مؤلفات كارل ماركس، تقرأ بضع جمل باللغة الألمانية، ثم تترجمها وتفسرها بخمس عشرة أو عشرين جملة على الأقل، وتطرح أسئلة وتجيب عنها، وكل ذلك وفقا لمنهج اختطته لنفسها، ولا تترك تلميذيها قبل الثانية صباحا. كان رحمي وفهمي على السواء مسرورين من هذه الحال: فضلا عن التفوق الذي يكتسبانه على أمثالهما بدراسة كارل ماركس من خلال مؤلفاته الأصلية، فإنهما يستمتعان كثيرا لأنهما يبلغان ذاك التفوق النادر بواسطة فريدة. كلاهما يسعى ما بوسعه كي لا يفوت كلمة من كلماتها، رغم تقدم الليل كثيرا؛ كلاهما يكاد يفهم ألمانية ماركس ـ رغم جهلهما التام بالألمانية ـ حين يسمعها بصوت فريدة المبحوح والغنائي؛ وحينما تنتقل فريدة، بصوتها السحري نفسه، إلى

الترجمة والشرح والتفسير، يصغيان إليها كما لو كانا يتشربان إحدى قصائد ناظم.

كان فهمي غولمز، في كل مرة، يعزي نفسه بفكرة أنه لم يخسر المرأة التي أحبها بصورة كاملة، وأنه على العكس قريب من أسمى جوانبها مثله مثل صديقه، ويتابع بإعجاب تحليلات ماركس الباهرة، ويدهشه أن البشرية احتاجت إلى الانتظار حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى توضع فكرة واضحة عن الحقيقة الأساسية للبنى الاجتماعية. أما رحمي سونمز فكان يشعر، مع كل كلمة تخرج من فم زوجته، بأنه بلغ عتبة الشعر الثوري الحقيقي، بما فيه التحليل، ويحاول أن يثبت في ذاكرته كل ما يسمعه بحرفيته، بنية تحويلها إلى أبيات من الشعر.

ولأنه لا يزال عاجزا عن تصديق حقيقة اجتماع كل هذا الجمال الجسدي والروحي معا في شخص واحد، فقد كانت الشكوك تحاصره في حقيقة ما يرى بعينيه وما يسمع بأذنيه، فيختلط عنده كل شيء تحت تأثير خوف مبهم من احتمال أن تطير فريدة فجأة وتتلاشى أمام عينيه في كل لحظة، وعلى سبيل المثال في هذه اللحظة بالذات، وهي لم تكمل بعد كلمة «بروليتاريا» التي تنطق بها. وفي أحيان أخرى، حينما تعيده أي حركة من زوجته، أو أي تغير في نبرة صوتها، إلى مشهد من مشاهد إحدى الليالي السابقة كان ماركس نفسه يتخلف كثيرا عن ذاك المشهد. لهذا السبب كان يفهم كل جملة يسمعها بمفردها، ويجد بالمقابل صعوبة في ربطها معا؛ ونتيجة لذلك فقد وعى «رأس المال» بطريقة لم يسبقه إليها أحد، باعتباره لحن حب

فريدا، لا مكان فيه للكثير من العناصر الكلامية.

لا بد أن هذا هو السبب في أنه حين يجلس إلى طاولته خلال الساعات النادرة التي ينفرد فيها في البيت، كي يخلق أبياتا شعرية جديدة، تتزاحم في ذهنه، بدلا من الأبيات التي يريد استخراجها من تفسيرات فريدة لماركس، أبيات أخرى تحوم حول نظرات فريدة وحركاتها وسكناتها وجمالها وطيبتها وثقافتها وحبه لها، ويروح هو يفرغ تلك الأبيات، بلا أي صعوبة، وبحماسة نشوانة، على الورق. وكان يعتقد أن تلك القصائد، على الرغم من عدم إتيانها على ذكر الثورة أو البروليتاريا أو المستقبل الجميل، هي أجمل ما كتب من قصائد حتى يومه، ليس فقط في اللحظة التي يكتبها فيها، بل حتى فيما بعد وهو يعيد قراءتها بعين ناقدة، فلا هو يعثر على مفردة بحاجة إلى تغيير، ولا على بيت يستحق الحذف.

ذات ليلة، وبعد انصراف فهمي غولمز، قدم تلك القصائد لفريدة بتهيب قائلا: «هلا ألقيت نظرة على هذه؟». تمددت على سريرها وقرأتها جميعا من غير أن تقفز عن أي بيت، ثم تركتها فوق اللحاف دون أن تتفوه بكلمة، تنهدت بضيق، ثبتت عينيها في عينيه وقالت: «هذه التفاهات لا تليق بك أبدا. إن ثوريا حقيقيا لا يضيع وقته في مشاعر فردية كهذه. أما المشاعر التي بيني وبينك فهي لا تهم أحدا غيرنا. لدي رجاء حار: لا تكتب شعرا من أجلي مرة أخرى». لوهلة داهم رحمي شعور من تنقطع عليه الكهرباء، ثم حاول أن يتمالك نفسه فقال متأتئا: «لمَ؟ هل تحدثي عنك واضح جدا؟». ردت فريدة بصوت أقرب إلى

العصبية: «سواء كان ذلك واضحا أم لا، فليس هذا هو المهم. إن ما يسوؤني هو قيام شاعر ثوري بكتابة قصائد حب في منتصف القرن العشرين». للمرة الأولى منذ تعرفه إليها، رأى رحمي أنها تدافع عن وجهة نظر خاطئة، كذلك للمرة الأولى منذ تعرفه إليها، قام بمحاولة فاشلة للاعتراض عليها. قال لها متعلثما: «لكن ناظم... تعرفين جيدا أن ناظم كتب بدوره قصائد حب كثيرة، وكتب رسائل إلى زوجته». لم تتأثر فريدة واكتفت بالقول: «وهذا هو عيبه». عندئذ ارتأى رحمي أن متابعة النقاش لا جدوى منها، للم القصائد من فوق اللحاف وسألها: «هل أمزقها؟». أجابته قائلة: «نعم، هكذا أحسن. مزقها والسلام!». لم يتردد رحمي لحظة واحدة، مزق كل القصائد إلى نتف صغيرة جدا، كما لو كان خائفا من وقوعها في يد أحد قد يستخدمها كدليل جرمي ضده، ثم ذهب إلى المطبخ حيث ألقى بها في حاوية القمامة. بضعة مزق من الورق انفصلت عن رفيقاتها، كما لو كانت مدفوعة برغبة لمقاومة هذا المصير غير المتوقع، دارت في الهواء ثم حطت على بلاطات أرض المطبخ. جثا رحمي، للمها واحدة واحدة، وألقى بها قرب رفيقاتها. حينما عاد إلى غرفة النوم وجد فريدة بانتظاره، ثم قالت: «صدقني، لو أن العم ناظم قد اكتفى بتوجيه رسائله إلى زوجته فقط، لكان أحسن صنعا... نحن جنود في معركتنا، أو كما قال هو نحن أفراد أدوار اصطفوا بالدور، ولسنا أبطال روايات».

لم يعد رحمي سونمز بعد ذلك إلى كتابة قصائد حب. وحين كان يصغي إلى شروحات فريدة عن ماركس، حاول أن يركز عقله وقلبه بصورة كاملة على تلك الشروحات، بل إنه نجح في ذلك.

غير أن الوضع لم يتغير: مهما فعل فإنه استوعب رأس المال كما لو كان لحنا موسيقيا. وأخيرا لجأ إلى الطريقة التي لا يزال يستفيد منها منذ الصف الرابع ابتدائي: ذات صباح مشمس من شهر إبريل، على متن الباخرة العابرة من أسكدار إلى قره كوي، جعل فهمي غولمز يكرر له مرتين متتاليتين ملخصا عن كل ما سمعوه إلى حينه من شروحات فريدة لماركس، ثم صاغ فورا، خلال المحاضرة الأولى، هذا الملخص على الورق بشكل قصيدة، وهكذا حول، خلال ما لا يتجاوز ربع الساعة، نظرية ماركس الشهيرة التي أثارت الخلافات بين شارحيها الكثر، إلى مخطط بلا تناقضات ولا نتوءات، وبلا أي جوانب مبهمة. فضلا عن أن هذا المخطط قد ساعده على وضع الشروحات الجديدة لفريدة حيث يجب أن توضع داخل الإطار العام، ومنحه بالتالي الانطباع بأنه يفهم بصورة أفضل، فقد أكسبه كذلك، بين الأصدقاء تميزا أبعد من مجرد كونه الزوج الوسيم لفريدة الصعو، أو الشاعر الشاب الموهوب. وبالفعل، خلال نقاش ملتهب ذات مساء، في مجمع ججك، أسكت أحد المناقشين، وكان يلف ويدور ليعود إلى النقطة ذاتها، وراح يحكي دون توقف أو تلعثم، خلال عشر دقائق، منطلقا من تعريف «التاريخ الطويل» للبشرية باعتباره تاريخا لعلاقات الإنتاج، كيف أن الطبقات السائدة تستخدم البنى الفوقية السياسية بما يتوافق مع مصالحها وتضبط بواسطتها البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية؛ ثم راح يشرح بعد ذلك كيف أن رأس المال وفضل القيمة يساهم كل منهما في زيادة الآخر بالتقابل، وما يؤدي إليه ذلك من مركزة كل وسائل الإنتاج في أيدي

طبقة ذات امتيازات تضيق ويتضاءل حجمها بقدر ما تزداد قوة، وكيف أن ذلك سيؤدي لا محالة إلى صراع طبقي لا مفر منه؛ وانتهى إلى التبشير بأن طبقة البروليتاريا التي لا يحد اتساعها حد، ستقوم «في الوقت الملائم» بسحق تلك الحفنة من عصابة أصحاب الامتيازات، سحقها لذبابة، وتحقق الثورة، وبعد مرحلة انتقالية قصيرة «تدعوها ديكتاتورية البروليتاريا» سيبنى فردوس أرضي بلا طبقات، وبالتالي بلا تناقضات، وبالتالي بلا دولة، وبالتالي بلا شرطة ولا حرس ولا درك. انفجر حول الطاولة تصفيق صاخب، رفع ممثل شاب قدحه وصرخ: «في صحة رحمي!» في حين قال كاتب شاب من الطرف الأقصى للطاولة: «أعد علينا ما حكيت يا رحمي! إذا أعدته علي آمل أنني سأفهم هذا الموضوع أخيرا».

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، فلم يكن أمام رحمي متسع من الوقت ليكرر ملخصه في ذلك المساء. لكنه في المساءات التالية كرره كثيرا مع إضافة أمثلة حية وأبيات لامعة وأسماء يخيف مجرد ذكرها بصوت مرتفع في مكان عام، بعض الناس ويجعل أبدانهم تقشعر، من مثل كارل ماركس وفلاديمير إليتش لينين وجوزف فيساريانوفيتش ستالين والشيخ بدر الدين ابن قاضي سيماونة. إذا أردتم الحق فإن الأبيات التي حشرت وأسماء الأعلام وخصوصا الردود على الأسئلة، زادت أحاديثهم ضبابية يوما بعد يوم. ومع ذلك فإن العديد من الكتاب والشعراء من أبناء جيله، وحتى عددا من المخضرمين ممن سبق لهم أن اعتقلوا بتهمة نشر تعاليم ماركس، قد تجمعوا حوله تجمع القرويين حول حقيبة

بائع متجول يبيع سلعا ألمانية، وراحوا يصغون إلى كلماته بتعطش، يتملكهم الشعور بأنهم أخيرا يقفون فوق أرض صلبة، وصرخوا قائلين: «برافو! موضوع عويص كالماركسية لا يمكن شرحه بأكمل من هذا!». المثير في الأمر أنه حتى فريدة المتخم دماغها بكتاب رأس المال بنسخته الألمانية، قد تمسكت بتلخيصات رحمي، حتى أنها شدت على يده بحماسة ذات مساء وقالت له: «لقد تمكنت من هذا الأمر بصورة ممتازة يا رفيق». فأجابها رحمي سونمز مبتسما بتواضع: «التاريخ يصدر حكمه، ونحن البروليتاريا نتولى التنفيذ». ذلك أنه كان يعتبر نفسه بروليتاريّا لأنه اشتغل إبان طفولته في ورشة أبيه لصناعة المدافئ. كان يقول: «لا شك في أن المنجل والمطرقة شقيقان، لكن الخلاص ستأتي به المطرقة»، مؤكدا بذلك أن الدور الحاسم في تحقيق الثورة يقع على عاتق طبقته، أي البروليتاريا.

لكن رحمي سونمز كان شاعرا قبل كل شيء: بصورة تدريجية، وبنسبة ما يلقى خطابه من اهتمام، راح يرجح الجانب الرؤيوي في الماركسية: منطلقا من فرضية تقول إن الإنسان البدائي يرى مستقبله في الجنة، في حين يراه الإنسان العادي في أولاده، والإنسان المتطور في يديه، أما أكثر الناس تطورا في العالم فيرون مستقبلهم في نظام جديد، ويجدون هذا النظام الجديد في منتهى الجمال؛ راح يبشر بأن ديكتاتورية البروليتاريا ستقام غدا أو بعده إن لم يكن اليوم، مثل أولئك المؤمنين الذين كانوا يبشرون، فيما مضى، بنزول المسيح على الأرض بين عشية وضحاها. بعض الأصدقاء، وفي مقدمهم فريدة وفهمي غولمز،

رأوا في هذه النبوءة تفاؤلا مفرطا، لكن رحمي سونمز لم يتنازل عن إيمانه الشاعري: على عكس عادته في الموافقة على كل ما تقوله فريدة. اختار الاستقلالية في هذا الموضوع ورد على تحذيرها القائل بأن مجتمعنا لم يبلغ بعد المرحلة الرأسمالية، بكلماته الخاصة: «الشيوعية كونية الطابع، ومثال روسيا ظاهر للعيان! فهل يمكن للثورة التي تشمل أوروبا أن تتوقف عند حدودنا في قابي قولة؟!» وحين حاول آخرون أن يخلخلوا رأيه بحقائق أخرى لم يلجأ إلى تطوير براهين مطولة، بل فضل الاحتماء بمعلمه الأول ناظم فحسم النقاش قائلا: «إذا فتحتم آذانكم جيدا وأصغيتم، فسوف تسمعون قرقعة سنابك خيولنا الحمراء وقد بدأت تدوس قلب العالم الإمبريالي!» مداخلاته المفعمة بالإيمان هذه هي التي حولت اسمه خلال بضعة أيام إلى «رسول».

في تلك الفترة كان ثمة طالب فلسفة في الثلاثين من عمره يدعى معروف المطرقجي(*) يحتكر الكتابة في الصفحات المخصصة للمسرح في جميع المجلات اليسارية، بأسماء مستعارة مختلفة ولم يكن محبوبا كثيرا في أوساط اليساريين الجادين بسبب ولعه الزائد بالمزاح. ونتيجة لاعتياده على ابتكار ألقاب كثيرة لنفسه، فقد اكتسب براعة وحاز شهرة لا تضاهيان في ابتكاره ألقابا «على المقاس» لكل من يحيط به، بحيث إن اللقب الذي يطلقه على شخص يلتصق به بصورة نهائية. وعلى سبيل المثال فإن الشاعر الشاب ضئيل الجسم الذي لمع نجمه فجأة في

(*) كلمة المطرقجي تتراوح بين معنيين: الساخر والمهرج.

تلك الأيام بقصيدته الثورية التي تحمل عنوان «بطني تتكلم» سوف يحمل على ظهره طوال العمر لقب «فانتريلوج»(*) الذي أطلقه عليه معروف المطرقجي. ومع ذلك من الصعب التأكد من دخول اللقب الجديد في التداول بصورة تغطي كل المجالات والشروط، مادام ثمة من يناديه بعد باسمه القديم. على مائدة خمر جمعت عشرين شخصا على الأقل، في لحظة انتشاء الرؤوس، حينما كان رحمي يكرر تأكيده لا أدري لأي مرة، بالاستناد إلى أبيات ناظم، بأننا على عتبة الفردوس الأرضي، أو بكلام آخر «إن سيطرتنا على الشمس باتت وشيكة»، انتصب معروف المطرقجي فجأة على قدميه وقال: «يا صديقي، من الآن فصاعدا سأناديك برسول»، وقال ذلك بنبرة صوت وتعابير وجه من التأثير بحيث إن اللقب قد التصق فورا في تلك اللحظة على ظهر رحمي كأنما بمادة لاصقة. استاء رحمي من هذا اللقب بصورة خاصة بسبب «إيحائه الديني وبالتالي المحافظ ». حتى أنه حاول أن يخرس من صرخ بكلام من مثل «لنشرب نخب رسول!» أو «يحيا رسول!». لكنه استسلم منذ تلك الليلة حينما بدأت فريدة تستخدم اللقب نفسه وراحت تهمس له: «يا رسولي الوسيم!»، بل إنه بدأ ينظر إلى لقبه الجديد، بعد أن استساغه كذلك فهمي غولمز، باعتباره علامة تميز.

ولكن إذا اقتنعنا بتحليل قدمه فهمي غولمز بعد ذلك بسنوات، فإن تغيير الاسم هذا قد شكل بداية تقهقر في حياة رحمي سونمز الاجتماعية. لا نعرف إن كان السبب هو أن السخرية

(*) كلمة فرنسية تعني الشخص الذي يتكلم من بطنه.

المبطنة التي تضمنها نداء معروف المطرقجي الشهير، قد بدأت تجد صداها عند آخرين حتى لو كان ذلك بصورة غير واعية؛ أم هو دخول اللقب الجديد مجال التداول في الوقت الذي بدأت فيه تلخيصات رحمي سونمز لا تتغير ونبوءاته الحماسية تثير شيئا من الضجر، أم لأنهم قد حفظوا خطابه عن ظهر قلب؛ فالنتيجة أن تحليلاته لم تعد تثير اهتمام أصدقائه الفنانين، حتى أن لثغه بحرف الراء مثل الغين، الذي لم يكن يلفت انتباه أحد، أصبح الآن يرسم الابتسامات على وجوه بعض مستمعيه، وصار يحدث بين حين وحين أن يقاطعه أحدهم في أشد مفاصل كلامه أهمية ويكمل عنه بنفسه. هذا أولا، وثانيا، نتيجة لاستمراره في توقيع قصائده باسم رحمي سونمز، في حين أن معارفه لا ينادونه إلا باسم رسول، فقد انعكس انقسامه الشخصي بين الاسمين، على انقسام شهرته إلى حد كبير. وإذا أدخلنا في حسابنا أيضا دور الحسد، عرفنا لماذا تعرقل انعكاس الوميض الباهر للشاعر وزوجته على أعماله؛ وعلى الرغم من أن فهمي غولمز كان في مقالاته النقدية التي بدأت تنشر له على الصفحة الأولى للمجلات ذات الصفحات الأربع، أو على الصفحة الرابعة للمجلات ذات الست عشرة صفحة، يستشهد على الدوام بأبياته عندما يتحدث عن «قوة الشعر الاجتماعي الذي يتغذى من فلسفة متينة ومن معرفة بالاقتصاد السياسي»، فإن قليلا من الناس كان يعرف أن رحمي سونمز مبدع تلك الأبيات القوية، هو نفسه رسول «الذي يعرف الفلسفة والاقتصاد السياسي بصورة ممتازة». إلى هذا يعود جزئيا السبب في أن أحدا لا يتفوه اليوم باسم رحمي

سونمز، في الوقت الذي يعاد فيه تسويق أكثر شعراء جيله عادية وأكثرهم انعدام نكهة بصفة شعراء كبار أو ثوريين كبار؛ بل أكثر من ذلك، فحتى شعراء جيله أنفسهم يتناسون أن شاعرا يدعى رسول قد مر على هذه الأرض. مع أن رسولا في تلك الفترة ودائما - وفقا لكلام فهمي غولمز - كان يعيش أخصب مراحل حياته الشعرية: فبتأثير من ردة فعل فريدة على قصائده العاطفية من جهة، وبتأثير المعارف الجديدة التي اكتسبها من دروس المساء من جهة ثانية، قفز قفزة إلى الأمام بمقاييس تجربته الشعرية الخاصة، وراح ينشر قصائد تسعى إلى إضفاء الطابع الحسي على النظرية الماركسية، وراحت قصائده المنشورة تثير في قلوب قرائه المؤمنين إعجابا حماسيا. مثلا القصيدة القصيرة التالية التي استلهمها من مفهوم فضل القيمة، وذلك للمرة الأولى في تركيا:

«لا تضحك يا سيدي،
لا تضحك من جوعي
ومن ضموري
الذي هو بسبب جوعي.
لا تضحك،
أنا من يغذيك،
أنا من ينمي شحومك
بفضلتي!».

ومثلها العديد من القصائد القصيرة المشابهة؛ وكذلك للمرة الأولى في تركيا عبر عن تحول رأس المال بصورة تدريجية إلى احتكارات، الأمر الذي يجعل من الثورة أمرا لا مفر منه، وقد

حاول تشخيص هذه الفكرة في قصيدة مطولة على شكل حكاية ساخرة:

«كان بقالا في الحارة،
كبر فهدم جدار الدكان المجاور،
وتحول إلى بقالية،
وبقالية «القناعة»، فوق ذلك».

وهكذا بعد أن جعل بقال الحارة القديم يفتح سلسلة من الدكاكين يسميها بأحرف أبجدية متسلسلة، على أن يكون لها مدخل مشترك واحد، يتابع:

«ها قد بدأت ببيع الزجاجيات أيضا!
ولكن،
(إنكار للبعث بعد الموت، وللحياة الآخرة)
لا حرف بعد حرف الزاي(*)
وشئنا أم أبينا
فها نحن أمام حاء الحساب
وقاف القتال!»

هذه القصيدة المطولة التي تنتهي هكذا، نسخها كثير من محبي الشعر في تلك الفترة إلى دفاترهم، كما قدمها عدد من مديري المجلات التقدمية إلى الشعراء الشباب كنموذج يقتدى به. لا شك أنه لو نظرنا إليها من موقعنا اليوم، لبدت لنا مفتقرة إلى ما يكفي من عمق؛ أما في الفترة التي نشرت فيها، فضلا عن تأثير ناظم الذي تشي به، كانت كذلك تبشر

(*) تنتهي الأبجدية التركية بحرف زد (Z).

بالمستقبل السعيد في جو من السخرية العذبة من جهة، وتحقق، من جهة ثانية، عملا نافعا مثل تقديم الحقيقة الاشتراكية بصفاء يتيح فهمها لكل الناس. لهذا فإن قسما من شعراء جيله، بمن فيهم أشهرهم، وكذلك العديد من شعراء الجيل التالي، قد استفادوا بكثرة من هذا الشعر الذي وصفه فهمي غولمز بـ «النزعة الفكرية المشخصة الضاحكة». بل أكثر من ذلك، ظهرمن يكتفي بتقليده دونما بحث أو تمحيص في شعره أو خلفياته وسياقه. ولكن إذا تعين علينا أن نصغي مرة أخرى إلى فهمي غولمز، فإن واحدا من الأسباب الرئيسة لنسيان اسم رحمي سونمز بهذه السرعة، هو أن شعراءنا، حتى يظهروا بمظهر من شق طريقه بنفسه، لجأوا إلى أقصر الطرق: التصرف كأن رسول لم يوجد قط.

غير أن الدور الذي لعبه رسول نفسه في هذا لم يكن صغيرا: فبعد أن احتل القمة لفترة من الزمن بالقصائد التي استلهمها بشكل غير مباشر من تعاليم ماركس، صمت فجأة تحت ضغط بعض الظروف، بدلا من الاستمرار في نشر شعره بلا توقف حينما كان يتعين عليه أن يبقى تحت الأنظار.

كان كل من رسول وفريدة من ذلك النوع الذي يكتفي بالقليل من الأشياء. منذ زواجهما، لم يصرفا قرشا واحدا على الملبس، ولأنهما يذهبان إلى الخمارة دوما بالملابس نفسها، فقد أطلق معروف المطرقجي على معطف رسول المطري الأزرق الذي يذكّر بمعطف الممثل الذي يلعب دور شوبان في فيلم «أغنية لا تنسى»، لقب «شوبان»؛ وعلى معطف فهمي غولمز الذي يشبه معاطف

الجنود، لقب «مهمتجك»[*]؛ وعلى سترة فريدة من وبر الجمل لقب «الشقراء». والأيام التي يطبخ فيها الطعام في مطبخهما كانت معدودة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن رسولا اعتاد أن يشتري كل المجلات الأدبية وكل كتب مبدعي الجيل الشاب، وأنه كذلك كان يدفع حساب طاولتهم ليلة من كل ليلتين تقريبا، بالانطلاق من مبدأ ضرورة المشاركة في كل شيء؛ فإنه يمكن القول إن مصاريفهما الرئيسية تلخصت في شراء الكتب والخمر والمواصلات. على الرغم من ذلك، ومع انقضاء عام على زواجهما، فقد تلاشت نقود ورشة المدافئ ومعها حساب فريدة في البنك. في هذا الوضع تعين على فريدة أن تشمر عن ساعديها وتبحث عن عمل قبل ثلاث سنوات تقريبا مما خططا له. كانت قد أغلقت صفحة الدراسة في حياتها منذ الأسابيع الأولى لزواجها، وإذ حاول رسول أن يفسد الاتفاق بدعوى أن على الرجل أن يصرف على بيته، أسكتته واصفة فكرته بأنها «محافظة ولا تليق به»؛ لكنها بالمقابل، ربما لأنها لا تجد وقتا للتلفت حولها، بسبب انشغالها بالحلم بـ «ديكتاتورية البروليتاريا»، أرادت أن «تقرن الواقعية بالثورية» أي أن تكسب خبز بيتها بترجمة ماركس وأنجلز ولينين ولوكسمبورج وكاوتسكي «إلى لغتنا»: بمساعدة بسيطة من رحمي وفهمي سيكون بوسعها إنجاز هذا العمل بسهولة. من جهة أخرى، بما أنها أرضخت نفسها سلفا لبعض التنازلات، وعلى سبيل المثال أن تبدأ بالنصوص «المرنة» حتى لا تثير ذعر القوى المسيطرة، وأن تترجم كل مفردات «الشيوعية» و«الاشتراكية» في

(*) هذه الكلمة هي تصغير تحببي لاسم «محمد» وتطلق بصورة عامة على الجندي التركي.

تلك النصوص بكلمة «اجتماعية»، فهي لا ترى أي سبب يمنعها من النجاح في هذا العمل، ومهما يكن من أمر، فهي مستعدة لمشاركة الناشرين المخاطر مشاركتها إياهم شرف جهدها ومكاسبه.

غير أن أصحاب دور النشر ما كانوا يشبهون مديري المجلات الأدبية عديمي الخبرة الذين يتوقفون عن إصدارها بعد بضعة أعداد، ولا الشعراء الحالمين الذين كانت تقابلهم في الخمارات: فعلى الرغم من تأثرهم بوجهها وملبسها إلى حد ما، فإنهم رفضوا اقتراحاتها بصورة حاسمة. واحد منهم قالت له فريدة إن بوسعها - على سبيل المثال - أن تبدأ فورا بترجمة «حرب الفلاحين»، فمد يده إلى الرف الذي خلفه حيث التقط كتاب بلزاك: «الفلاحون» باللغة الإنجليزية، قدمه إليها وقال: «إذا ترجمت هذا الكتاب، يمكن أن أطبعه لك... وفقا لما سمعت كان ماركس معجبا بهذا الكتاب. فضلا عن أن الموضوع واحد: «الفلاحون». فما كان من فريدة إلا أن دفعت الكتاب بظاهر يدها وخرجت صافقة الباب خلفها. في ذلك المساء، حينما عاد زوجها إلى البيت، وجدها لا تزال ترتعش غضبا؛ لقد طلب منها هذا الرجل بلا حياء أن تترجم كتابا عن لغة وسيطة، والأنكى من ذلك أنه اقترح رواية بدلا من عمل ماركس، أي كتابا ينتمي إلى ذلك النوع الأدبي الذي تزامن صعوده مع صعود الطبقة البورجوازية. لم يكن لديها أي اعتراض على الشعر الذي هو في الأصل جنس أدبي شعبي، لكنها لا تفتقد الشعور بالمسؤولية إلى درجة تجعلها تضيع وقتها على جنس بورجوازي كالرواية. بعد تلك التجربة قالت: «بدلا من ترجمة روايات بورجوازية من أجل البورجوازيين يحسن بي أن أساهم في

زيادة فضل القيمة الموجود في يد الرأسماليين، فأساهم بذلك في تعجيل موعد الثورة». وقررت البحث عن عمل عادي.

لكنها لم تجد أيضا ما تمنت: عيناها الزرقاوان وشعرها القصير الأجعد وسترتها ذات الأزرار الخشبية وتصرفاتها الرجولية التي تتعارض بصورة لطيفة مع التعبير الطفولي لوجهها المنمش، وآراؤها الثورية التي لم تخفها عن أحد أبدا؛ تلك المواصفات التي دوخت أعدادا من الفنانين والمفكرين والطلاب الجامعيين، لم تترك أي أثر إيجابي على أرباب العمل: كلهم تقريبا، بعد أن أجلسوها أمامهم وطرحوا عليها بضعة أسئلة عن أسرتها ومستواها التعليمي وسبب بحثها عن عمل وأفكارها وعاداتها، ابتسموا لها بصورة غريبة وأشاروا إلى الباب. وحين كانت تقول لهم إنها تجيد الألمانية والإنجليزية كانوا يرمقونها بما يشبه الإشفاق كما لو أنها قالت لهم: «لا أعرف أي شيء من الألمانية والإنجليزية». طرقت على الأقل عشرة أبواب. أخيرا، في شارع البنوك قابلت رب عمل شابا ووسيما تصرف معها بطريقة أكثر تفهما من الآخرين، فأصغى حتى النهاية إلى آرائها المتعلقة بالثورة البروليتارية التي تقترب بصورة لا مفر منها، وقال لها إن بوسعها أن تبدأ العمل فورا إذا هي لم ترفض عملا عاديا لا يحتاج إلى معارف واسعة. وإذ أجابته فريدة بأنها مستعدة لأي عمل كان، قادها إلى قسم خلفي حيث أشار إلى طاولة شاغرة بين بضع طاولات في حجرة لا تدخلها الشمس أبدا، وقال لها: «تفضلي». ولأنهم كانوا يصرفون القروش الأخيرة المتبقية لديهم جلست فريدة إلى الطاولة بابتهاج وتعلمت العمل المطلوب منها بسرعة.

كان في ذهنها أن تسريع زيادة فضل القيمة التي يمسك بها أصحاب الامتيازات، يعني تعجيلا في حصول الثورة البروليتارية؛ ولكن حينما واجهت مواقف ملموسة في الحياة العملية نسيت مقاربتها النظرية السابقة: كأنه لا يكفي الغش الذي يقومون به فقط لأن أحد أبناء الذوات يريد أن يكسب أكثر، فيروجون البضاعة القديمة على أنها جديدة، والمعطوبة على أنها سليمة، يفرضون كذلك على كل بضاعة ربحا بنسبة مئتين في المئة، وبالمقابل يدفعون أجورا مضحكة للعاملين، أي لأولئك الذين يساهمون في السرقة بصفتهم أدوات ببيعهم جهدهم وشرفهم معا. ولأن فريدة لم تحتمل هضم كل ذلك، كانت تصرخ بين حين وحين بكل ما يخطر على بال أمام زملائها وأمام الزبائن، بل حتى أمام رب العمل، مؤكدة أن طريق الخلاص الوحيد هو الثورة الاشتراكية، وراحت تبرهن على حتمية الثورة بواسطة الثلاثية الهيجلية الشهيرة: الأطروحة /الأطروحة النقيض/ التركيب (نفي النفي). عقلت الدهشة ألسنة الزبائن، زملاؤها في العمل تجاهلوا أو غيروا الموضوع. فقط رب العمل كان يصغي إليها حتى النهاية، لكنه في كل مرة كان يبتسم لها بعذوبة ثم يوضح لها أنه لن يسمح لها طويلا بانتقاد «منهجيته في العمل» أمام زبائنه والعاملين عنده، ولا بتكرار الحديث عن ماركس ولينين تحت سقف مؤسسته. أخيرا، في مرحلة بدأت فيها فريدة تألف عملها بصورة جيدة، وتكذب التهديدات التي تلقتها، وفي نهاية أحد الأشهر، وقف رب العمل أمامها بابتسامته الدائمة نفسها، عد لها راتبها ببطء مثير للأعصاب ثم جعلها تعده بدورها وانتهى إلى

مصافحتها بلباقة وهو يقول: «إننا نفترق». ردت عليه قائلة: «هكذا إذن؟ سررت كثيرا». وابتسمت حتى لا تظهر مصدومة أمام الخبر الكريه. جلست ووضعت نقودها في محفظتها، ارتدت «الشقراء»، صافحت رفاقها العمال الذين طارت عيونهم من محاجرها كأنهم رأوا شيئا مرعبا، وودعتهم قائلة «استودعكم الله»، صافحت رب العمل ثانية وخرجت مبتسمة كما لو أن شيئا لم يحدث.

في الخارج أعتم الجو، وكانت أضواء الواجهات الصفراء تنعكس فوق الأرصفة الرطبة، والناس يمرون بسرعة، رافعين ياقات معاطفهم، كما لو أنهم تورطوا ودخلوا في منطقة محظورة يريدون الابتعاد عنها بسرعة. اعتمرت فريدة بعمرة سترتها وفكرت، إزاء ما حدث قبل قليل، أنها لا تشبه هؤلاء الناس في شيء، وأنها لم تفقد شيئا من هدوئها باعتبارها ثورية تجيد المحافظة على صرامة فكرها تحت كل الشروط. لكنها شعرت، وهي هابطة طريقا منحدرا تحت رذاذ مطر استانبولي ناعم بغثيان غريب يتفاقم بعد أن ظهر واختفى عدة مرات منذ الصباح، وبدوار في رأسها. وبما أن على الثوري ألا يتأثر بأي حدث كان، فقد أنحت باللائمة أولا على نفسها: «إذن فقد أثيرت أعصابي من ذاك التافه دون أن أشعر». حتى تهدئ من أعصابها، أخرجت سيجارة بيرنجي من محفظتها وأشعلتها على الرغم من أنه لا المكان ولا الزمان كانا مناسبين؛ ورفعت رأسها عاليا، كما لو كانت تتحدى شارع البنوك «مزبلة أوروبا المشهودة» وكل البورجوازيين الزائفين الذين ينقبون في تلك المزبلة، وسحبت أول نفس من

السيجارة بكل طاقتها، لافظة ما تبقى منها في الهواء، لكن سعالا مخيفا انفجر في صدرها في اللحظة نفسها، كأن كل شرايينها انقلبت باطنها ظاهرا. شعرت بأنها ستختنق، وبأن ساقيها انثنتا تلقائيا ولم تعودا قادرتين على حمل جسدها، فتركت نفسها تتهار على الدرجات الموحلة لمخزن بورجوازي كبير. بعد فترة راحت تنظر بعينين جاحظتين إلى منديلها الغارق في الدم الذي لا تذكر متى أخرجته من محفظتها وحملته إلى فمها، حينما كان بورجوازي في منتصف العمر يساعدها على الوقوف قائلا لها: «لا تخافي. لقد مرت، ولا شيء ذي بال». راحت تردد: «إني لا أفهم.. لا أفهم أي شيء. لقد قال الأطباء إنه مضى وانتهى... قالوا إنه انتهى تماما».

في ذلك المساء نفسه، حين دخل رسول بيته ورأى رجلا متوسط العمر لائق الملبس، لا يعرفه قط، يخرج من المطبخ وفي يده صينية الشاي متجها نحو غرفة النوم، فكر أن ما كان يخشاه منذ اليوم الأول قد وقع أخيرا، أي أن فريدة الآن على وشك التخلي عنه، فوقعت من يده على الأرض الكتب وزجاجة العرق. لم يمض وقت طويل حتى أدرك أنه لا أساس لمخاوفه، غير أن خوفا أكبر استقر في قلبه على الفور: الطبيب الذي استدعاه بناء على نصيحة الرجل الهرم المتأنق، أصغى مطولا إلى صدر فريدة وظهرها وبطنها، ثم عض على شفتيه وانتقل إلى غرفة الاستقبال، حيث جلس على مقعد رسول الذي ورثه عن أبيه، وبقي برهة طويلة صامتا لا ينبس بكلمة واحدة وهو ينقل عينيه الزائغتين بين المنافض المترعة بأعقاب السجائر، والموزعة على الطاولة والمناضد والمقاعد، وعلى الجرائد والمجلات المبعثرة هنا وهناك، والستائر

المخرمة المسودة وزجاج النوافذ المتسخ، ثم أشار لرسول الواقف أمامه مبهوتا إلى المقعد المجاور له، وقال له بصوت خفيض: «سأتحدث معك بصراحة. حالة زوجتك لا تسر الخاطر على الإطلاق. رئتها مشروخة بصورة سيئة، ويحتمل جدا أنها حامل. لعلك تدرك ما ينبغي عمله في هذا الموقف!»، قال رسول متلعثما بوجهه الشاحب وصوته الراعش الناحب: «نعم يا سيدي. نعم... نعم». غير أنه كان واضحا أنه لا يدرك ما ينبغي عمله. فكرر له الطبيب مرتين تعليماته التفصيلية عما ينبغي عليه أن يفعله، كما جعله يكررها مرة أخيرة بنفسه.

إلا أن فريدة، في هذه المرة أيضا، ما كانت مستعدة لأن تتخلى عن قناعاتها مهما قال الطبيب أو أي شخص آخر: أولا، قرارها حاسم فيما يخص إنجابها لطفلها؛ إذ ما دام الأمر مسألة شخصية، ليست شخصية فحسب، بل جسدية، فهي لن تسمح لأحد، أيا يكن، بأن يبدي رأيا في الموضوع؛ وثانيا، كانت على قناعة بأن الطبيب يهوّل الأمر كثيرا. فالأطباء الألمان الذين أشرفوا على علاجها أكدوا لها أن مرضها انتهى بصورة نهائية، وهم الذين رأوا رئتها بالعين المجردة؛ هذا يعني أن عليها أن تصدقهم لا أن تصدق الطبيب الأسكداري، والخلاصة أنها ما إن تتغلب على هذه الوعكة «المؤقتة» - أي بعد أسبوعين على أبعد تقدير - ستبحث لها عن عمل جديد.

في مساء اليوم التالي، فيما هي منهمكة في تكرار كلامها ربما للمرة العشرين أجفلت فجأة على سماع شهقة مكبوتة قرب سريرها، التفتت فوجدت كلا الصديقين ينتحبان بهدوء، صرخت

بهما: «إلى الجحيم...! كفا عن النواح مثل النساء وناولاني سيجارة بيرنجي!» اعترض رحمي وفهمي على طلبها، لكنها أصرت، وفوق ذلك نفخت دخان سيجارتها باتجاه وجه زوجها، كما لو أنها تريد البرهنة على أن لا شيء يمكن أن يغير القرارات التي اتخذتها أو ستتخذها، قالت له: «هيا يا رسول الوسيم، جئني بكتاب «بؤس الفلسفة» لنتابع دراستنا من حيث توقفنا». بصوت مبحوح، يقطعه السعال، لكنه أكثر تأثيرا مما كان عليه قبلا، راحت تترجم «بؤس الفلسفة» وتشرحه. بذلت المجهود نفسه في المساءات التالية. لكن هذا صار نشاطها الوحيد: إذ انتهى ارتياد الخمارة من تلقاء ذاته، فضلا عن ركوبها الباخرة للانتقال إلى الضفة المقابلة، فهي لم تكن قادرة حتى على الذهاب إلى البقال لشراء الدخان والجرائد. فضلا عن أن شروحها لماركس راحت تتقلص تدريجيا كل مساء، وفي بعض الليالي كانت تتوقف في منتصف إحدى الجمل وتترك الكتاب من يدها، لتغرق من فورها في نوم مضطرب. أما فيما يخص بحثها عن عمل جديد، على الرغم من أنها تردد ذلك كل يوم تقريبا، فكانت مضطرة لإرجائه على الدوام.

في هذا الوضع بدا أنه لا مفر من العودة إلى مشروع رسول: إذا استمر كل شيء على حاله، فسوف يجدون أنفسهم قريبا غير قادرين حتى على تأمين الطعام الهزيل الذي كان رسول يعده بشق النفس: مثل المعكرونة والبطاطا المسلوقة والخضار المطبوخ بلا لحم والبيض المقلي. ومن جهة أخرى كان رسول يعتقد أن مشروعه لا ينطوي على أي محاذير، فيردد قائلا: «وما الجدوى

من استمراري في الكلية؟». إضافة إلى أنه لم يكن قادرا على متابعة المحاضرات بصورة جيدة بسبب انشغال ذهنه الدائم بزوجته، فقد كان أساتذة الكلية يثيرون أعصابه بتجاهلهم لماركس، كما لو باتفاق مسبق فيما بينهم، فيتحدثون كأن فيلسوفا كبيرا مثل كارل ماركس لم يوجد قط على هذه الأرض. إن تركه لكلية مثل هذه سيكون نجاة له أكثر من كونه تضحية يقدمها. فضلا عن أنه سيكون قادرا على إيجاد عمل له بأجر يغطي احتياجاتهم بصورة أسهل من فريدة، باعتباره أسكداريا ذا وجه نظيف، بغض النظر عن إثارته دهشة أو ذعر البورجوازيين بملبسه أو طريقته في الكلام. وأكدت الأحداث صحة كلامه: من المحاولة الأولى استخدمه أحد البنوك براتب شهري يعادل مثلي ما كانت تحصل عليه فريدة في شارع البنوك.

لا شك أن عمله في بنك - وهو الماركسي - ومعالجته للأرقام على مدى ثماني ساعات يوميا - وهو الشاعر - لم يكن أمرا ممتعا، لكنه عض على أسنانه وهو يعمل قائلا لنفسه: «علي أن أفكر في فريدة قبل أي شيء آخر». ولم يفاتح أحدا بأفكاره الثورية. ولكن رغم محاولته الدائمة للتفكير والحلم بصورة معاكسة، كان من حين إلى حين يدرك بصورة غامضة، مع انقباض لا يحتمل، أن جهوده لن تغير شيئا على الإطلاق: صحيح أن فريدة تحاول دوما الظهور بمظهر القوة وتكرر بالنبرة الإرادية ذاتها: «سوف أنجب هذه الطفلة»، ولكن بدا أنها حددت كل أحلامها المتعلقة بالغد بهذا الأمر، أي «بإنجاب هذه الطفلة»: لم تعد تدخل في تفصيلات ديكتاتورية البروليتاريا، ولا تتحدث

عن المشاريع الكبيرة التي سيحققانها معا في عالم الفكر والفن. فضلا عن توجيه دفة الكلام كما كانت تفعل في السابق، أو اتخاذها القرارات بخصوص ما ينبغي فعله أو إلى أين يذهبون أو أي كتاب يقرأون؛ فهي لم تكن تفتح فمها إذا لم يوجه إليها سؤال، تصغي إلى رحمي وفهمي، وعلى وجهها ابتسامة شاحبة لا يعرف إن كانت تعبر عن ألم أم سخرية أم اهتمام، في أحاديثهما التي تركزت على المسائل الصغيرة للحياة اليومية، وبالأخص على منافع ما يضعانه أمامها من طعام، بدلا من التركيز على النظرية الاشتراكية؛ والتي أصبحت بالتالي غير مثيرة للاهتمام. والحق أنهما لم يكونا يتحدثان بفعل رغبة حقيقية، بل كانا يرغمان نفسيهما على الكلام كي يبددا قليلا الجو المشحون الذي كان ينيخ بثقله كل حين وحين. الآن وقد بدأ فهمي يعمل بدوره في إحدى الشركات بنصف دوام، بدا كأنهما شاخا فجأة، وقطعا صلاتهما بصورة كاملة تقريبا مع عالمهما القديم. ما عادا يلتقيان بأحد من الأصدقاء المبدعين، وكانا يحفظان المجلات الأدبية التي واظبا على شرائها، على أن يقرآها فيما بعد، ويكتفيان بإلقاء نظرة سريعة على الجرائد التي كانا يقرآنها في السابق من أولها حتى آخرها باعتبارهما مثقفين ثوريين يهتمان بمصير البلاد اهتماما حميما. وإذا أهملنا المقالات القليلة التي كتبها فهمي بناء على طلب المجلات، فقد أقلعا عن الكتابة أيضا. باختصار، يمكن القول بأن كل شيء في حياتهما سيتمفصل من الآن فصاعدا بصورة انقطاعات.

القطيعة الأشد هَولاً بالنسبة إلى رسول تمثلت في انفصال

فريدة عنه في النوم. فقد فكرت بأنها تقلق راحته «بلا داع»، لأنها في الليل تتقلب تارة إلى هذه الجهة، وتارة إلى تلك تحت وطأة الحمى المتفاقمة والألم الذي يثقل ظهرها والضيق في صدرها، أو يداهمها السعال كل حين وحين، فتجلس في السرير، فيقفز رسول كل مرة ليقترح تقديم يد العون، أو يحدق في وجهها بأسى: بنومها في سرير منفصل، ستوفر إزعاجا على رسول من جهة، وستتصرف براحة أكثر إذا عرفت أنها لا تزعجه، ومن جهة ثالثة ستخفض من احتمال نقل مرضها إليه بالعدوى إلى مستوى معين. وبما أن تغيير فريدة لقرارها أمر غير وارد، فقد رضخ رسول للأمر على مضض. لكنها حينما طرحت فكرة الانفصال في غرفتين بدافع حنقها من قفزه من فراشه كل حين وحين و«انتصابه فوق رأسها»، اعتبرها علامة جديدة من علامات الانقطاع، وبدأت مرحلة من المخادعات صعبة التحمل بالنسبة إليه، إذ راح في كل ليلة يتظاهر بالنوم ويصغي إلى أنفاس فريدة المتقطعة والمنقوصة مع أن كلا منها كان يبدو كما لو أنه ثمرة جهد خاص؛ ويأكل نفسه لأنه مضطر للتظاهر بأنه لا يسمع. كان من حين إلى حين يسرح حالما في الدقائق الفريدة التي تقاسماها معا على هذا السرير، الذي تصارع عليه فريدة الآن جسدها، فينسى كل شيء لبعض الوقت، لكن سعالا عنيفا من فريدة، أو إنارتها للغرفة لتشرب الماء من الكأس التي قرب سريرها، أو أنينها وهي نائمة، كانت تعيده إلى الواقع، فتبلغ محنته ذروتها، وينسى أنه شاعر واقعي اجتماعي عليه أن يرى الحياة في صيغة المستقبل، فيقول لنفسه: «انتهى كل شيء». لا أحد يعرف فيما إذا كانت

أنانيته أم على العكس لا محدودية حبه، ما يدفعه إلى تصور موت فريدة ـ الذي بدا كل يوم أقرب ولا سبيل إلى منعه، تماما مثل الثورة البروليتارية ـ على أنه موته هو؛ ويرى في مرضها حاجزا ينتصب بينهما، أكثر منه قوة مخيفة تجرجرها نحو الموت؛ لذلك كان يعبر قبل أي شيء آخر عن يتمه الخاص حينما يقول: «انتهى. لقد انتهى كل شيء». مع ذلك فقد عاش أشد لياليه التي قضاها مع فريدة توهجا في الذاكرة، في مرحلة الرعب واليأس هذه.

في تلك الليلة استغرق في النوم بمجرد تمدده على السرير، تماما كما كان يريد أن يُقنع فريدة في كل ليلة، وذلك بفعل نقص النوم المتراكم لديه، كما بفعل زجاجة عرق كبيرة أتى عليها بصحبة فهمي حتى آخر قطرة فيها، خلال ساعة واحدة على أكثر تقدير، مع شريحة جبن وبضع حبات زيتون وبصمت كامل تقريبا؛ لا سعال فريدة ولا أنينها ولا هذيانها، ولا أي شيء آخر استطاع أن يقطع عليه نومه. ولم يفتح عينيه إلا في الساعة التي ينقلب فيها الليل فجرا، ويشرع فيها المرضى الميئوس من شفائهم بالإيمان بأنهم سيعيشون يوما آخر على الأقل. لكنه على الفور أغمضهما مجددا: كانت فريدة نائمة، وكان يتظاهر بالنوم في حلمه كما يفعل ذلك في الحقيقة. وحينما فتح عينيه بعد ساعة أو ساعتين وقد نسي حلمه، وجدها مجددا بجانبه: كانت تحترق في نار الحمى، وفضلا عن ذلك كانت تبتسم كما في الأيام الخوالي. حينئذ أدرك بصورة حاسمة أن حلمه يتمثل فقط في جماله، فأراد أن يقول شيئا ما، أن يشكرها على الأقل، لكن فريدة رفعت إصبعها إلى شفتيها وأسكتته، ثم أشارت بالإصبع نفسه إلى ضوء

الشمس الذي يتسرب من خلال الستائر، وهمست له: «اليوم هو الأحد، أخرجني إلى الشمس».

كانت فريدة تريد هذا لأنها قررت منذ البداية أن تتجنب «هذه الطفلة»، في حين أن كلا من رسول وفهمي قد انهمك بهمة في هذا العمل لأنه من الأمور النادرة التي تخلق الانطباع بأن الحياة لم تتوقف بصورة تامة، وذلك على الرغم من عدم اكتراثهما الكامل بهذه «الطفلة» المفترضة التي يحملانها المسؤولية الرئيسية في مرض فريدة. ولكن في هذه الأيام الأخيرة كان إخراج فريدة إلى الحديقة لتتمشى فوق الأوراق اليابسة يذكر بالموت أكثر مما يذكر بالحياة، حيث تتحرك بمشقة وصمت ببطنها الكبير، ورأسها وذراعيها وساقيها التي تبدو كامتدادات طارئة وهزيلة لذلك البطن. وبعد دقائق معدودة مما يشبه السير، كانا يضطران إلى إعادتها إلى سريرها حيث تتنفس بعمق وهي تحدق في السقف، في حين يحنيان رأسيهما كما لو كانا مذنبين. من ينظر في وجهيهما لن يرى إلا تعبير انسحاق بلا حدود. ولم يكن ثمة بالفعل أي شيء آخر، إذ إنهما لم يكونا يفكران في أي شيء في تلك اللحظات. فقط كانا يدعوان الله أن يشفي فريدة، واطئين بذلك معتقداتهما بأقدامهما، كل منهما خفية عن رفيقه.

للأسف دعاؤهما ذهب سدى مثله مثل اعتنائهما بها: أنجبت فريدة «الطفلة» كما كانت تردد منذ البداية، ولكن يصعب القول إنها رأتها ولو لحظة واحدة بعينيها الكبيرتين اللتين انزلقتا إلى الأعلى، على الرغم من أنهما قرباها منها كثيرا.

- ٣ -

حين دخل رسول من باب المشفى ارتعد فهمي غولمز حتى نقي عظامه: فقد خيم عليه جمود استثنائي ينذر بأنه من الممكن أن ينفجر في أي لحظة ويعيث فوضى في المكان، بل لعله حتى يقوم بالانتحار. لكنه بقي هادئا على الدوام: حينما أخبروه بأنهم «لم يتمكنوا من إنقاذ فريدة»، اكتفى بالتحديق بنظرات جامدة كما لو كانوا يتحدثون بلغة يسمعها للمرة الأولى. وكذلك فعل حين أخبروه بأنهم «أنقذوا» ابنته. بعد ذلك، عندما أخبرته الخالة ناجية - أم فهمي غولمز - أن بوسعه أن يرى زوجته إذا أراد ذلك، دخل الغرفة بتثاقل وهو يجرجر قدميه ويتمسك بذراع صديقه، جثا عند رأس السرير، على البلاط الذي تغطيه نثارات قذرة، حيث ظل طوال ربع ساعة على الأقل، يداعبها، كما لو كان يداعب طفلا، وعيناه مثبتتان في عيني فريدة اللتين امَّحت زرقتهما، من غير أن يبكي أو ينتحب أو حتى يتنفس. وعندما قيل له: «يستحسن أن تنهض» قال آخر ما يمكن أن يخطر في بال إنسان في مثل هذا الموقف: «سأعيد لك الحياة».

الواقفون وراءه أدهشهم كلامه كما سبق أن أدهشهم هدوؤه، لكنهم قيموا هذا الكلام باعتباره علامة مفرحة بما إعادة الحياة تنطوي أيضا على حياة من سيقوم بذلك، شاء أم أبى. ولكن إذا كان رسول عنى بكلامه أنه سيخلِّد فريدة في شعره، فسوف يكون قد تورط في أمر لا تحبه أبدا، أما إذا أراد أن يقول بأنه سيبقى وفيا لذكراها ولفكرها، فيكون بذلك قد تعهد بأمر يمكن القول

بأنه في منتهى السهولة. والاحتمال الثالث هو أنه فكر في إحياء فريدة في ابنتها ـ فريدة الثانية ـ أو بالأحرى بإعادة إحيائها فيها. وهو تقريبا أمر مستحيل بما أنه اعتبر وجود فريدة دوما بمنزلة معجزة لا يمكن أن تتكرر. فضلا عن ذلك كان رسول لا يطيق سماع كلمة عن هذه الطفلة: على مدى أيام لم يأخذها مرة واحدة في حضنه، ولا نظر إلى وجهها بشيء من الاهتمام. في الوقت الذي أغلق فيه الباب على نفسه وراح يتعزى بأغراض فريدة وصورها وكتبها وترجماتها غير المكتملة، اهتمت بابنته على بعد عشرين مترا منه أم فهمي غولمز المسنة.

ولكن، قبل أيام قليلة من انتهاء إجازة الأيام الخمسة عشر التي خصه بها رئيسه في العمل حتى ينظم «حياته الجديدة»، أحضرت السيدة ناجية الطفلة إلى البيت مع حلول المساء، وعلمته بطريقة عملية كيف يعد الحليب ويقدمه لها وكيف ينظف تحتها ثم يعيد تقميطها، وكررت ذلك عليه مرتين، ثم قالت له: «والآن أستأذنك بالانصراف. أمامي مشوار طويل إلى «فاتح»، أختي مرضت مجددا». عندئذ حمل رسول ابنته للمرة الأولى في حضنه، وللمرة الأولى نظر مطولا إلى وجهها، ثم لمس ذقنها بإصبعه ـ لا أحد يعرف بأي إلهام ـ محاولا إضحاكها بلا جدوى، كما لو أنه أراد إظهار أن كل شيء قد تغير.

في تلك الليلة لم يغمض له جفن. كلما بكت الطفلة كان ينهض ويمشي بها من أول الغرفة حتى آخرها، وحين تهدأ قليلا يجلس بهدوء في المقعد الكبير المجاور للمدفأة دون أن يتركها من حضنه، ويثبت عينيه على وجهها. فيما عدا النهوض والمشي عند بكاء

الطفلة، والعودة إلى الجلوس عند سكوتها، لم يقم بأي فعل بمشيئته الخاصة. لكن فهمي كان معه في تلك الليلة، مثل كل الليالي، وكان بين حين وحين يقدم اقتراحا ما يخص الطفلة: «واضح أنها جاعت، أرضعها قليلا» فيلقمها رسول الرضّاعة. أو يقول فهمي: «لعلها بللت تحتها، ألق نظرة» فيمدد الطفلة على الطاولة ويحاول حل القماط، ولكنه لم يفلح في هذا العمل قط ما لم يمسك به فهمي غولمز من أحد الأطراف. لذلك فقد ندم كثيرا في صباح اليوم التالي على حله للقماط بعد انصراف صديقه. كان الوضع يشير إلى أنه أحسن صنعا بفتحه للقماط، لكنه لم ينجح في إتمام العمل رغم كل محاولاته: ما إن يخيل إليه أنه انتهى، حتى يرى بقعة قذرة أو رطبة، ثم وهو ينظف تلك البقعة فإنه يوسخ مكانا آخر، يخلط القطع النظيفة بتلك الوسخة، وهكذا يبدأ العمل كله من جديد وهو يتنفس لاهثا من أنفه.

حينما رن جرس الباب، كان قد مضى عليه ما لا يقل عن عشرين دقيقة وهو في هذا العمل، وكان قد أوشك على الاستسلام لليأس. صرخ بابتهاج: «الخالة ناجية!» وترك كل شيء على حاله وركض إلى الباب. بدلا من الخالة ناجية رأى أمامه ظريفة وفي يدها حقيبة سفر صغيرة. اسودت الدنيا فجأة في عينيه وتمسك بالباب في حركة غريزية. كان كلاهما قد تضاءل واسود وانحط إلى درجة مذهلة بالقياس إلى ما كانا عليه قبل عامين ونصف العام. بقيا لفترة واقفين بجمود ينظران كل إلى الآخر، ثم ركضت ظريفة إلى الطفلة التي تنتحب بصخب فوق الطاولة وراحت تكمل العمل غير المكتمل، في حين أرخى رسول

جسده فوق أول مقعد صادفه وراح ينتحب وكل جسده يهتز للمرة الأولى منذ موت فريدة، كما لو أنه كان ينتظر هذه الدقيقة ليفرغ كل آلامه.

سكتت الطفلة كما بفعل معجزة ما إن لمستها ظريفة التي قمطتها وحملتها في حضنها، ثم جاءت وجلست على كرسي مواجه تماما لرسول، انتظرت انتهاءه من البكاء دون أن تتفوه بكلمة واحدة. وبعد ذلك، رأته ينقل نظراته بينها وبين الطفلة وعلى وجهه تعبير ذهول غريب، تعبير عدم الفهم، أوضحت له، بلا لف أو دوران، سبب مجيئها: إنها تريد أن تتحمل مسؤولية الطفلة، إذا لم يكن لديه مانع. وهي ليست في وارد العودة إلى الماضي أو الخوض في اتهامات تخص مجرياته، لكنها منذ انتهت علاقتهما لم تكن تنتظر أي شيء من الحياة، وباستثناء بضعة من أقاربها غير المباشرين وعدد من زملاء الدراسة الذين انهمك كل منهم في حياته الخاصة، لم يبق لها أحد على وجه الأرض. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار، إضافة إلى ما تقدم، أنها ليست مضطرة للعمل من أجل كسب معيشتها، فينبغي تقبل رغبتها في تكريس نفسها لطفلة الرجل الذي أحبته «يوما ما»، بصورة طبيعية. مختصر القول إنها مستعدة على حد سواء لأخذ الطفلة إلى بيتها، أو الانتقال للإقامة هنا بهدف الاعتناء بها. أما فيما يتعلق بالنتائج التي يحتمل أن تترتب على إقامتهما معا، فهي تعتقد أنها قدمت ما يكفي من الدلائل على تمسكها بكرامتها حينما لم تحاول قط استعادته، على الرغم من انهيار عالمها بعد أن أدركت أنه تخلى عنها؛ والعلاقة التي بينهما ستبقى على ما هي عليه الآن، سواء بعد سنة

أو بعد عشر سنوات؛ كان بإمكانها القول على الأقل، إن اقتراح الرجوع إلى ما كان في الماضي لن يصدر عنها أبدا.

كان رسول يصغي إليها محني الرأس ودون أن يتفوه بكلمة. وقد فكر في أنه بتفضيله ظريفة من بين كل أولئك الطالبات، كان قد أحسن الاختيار، على الرغم من أن مقارنتها بفريدة أمر غير وارد. ثم، بعد أن أضجعت ظريفة الطفلة التي غطت في نومها، جاءت تسأله وقد ثبتت عينيها في عينيه: «حسنا. ما رأيك؟» فأجابها مبتدئا بالقول: «ما تقترحينه غير قابل للتطبيق يا ظريفة» وراح يعدد لها أسبابه بصوت بكائي ومتردد: فضلا عن عدم اعتقاده هو الآخر في إمكان إعادة بث الروح في المشاعر القديمة، فإن اقتراحها النبيل لا يتمتع بأي حظ من إمكان التحقق، لأنه قرر بصورة حاسمة ألا يقيم علاقة من هذا النوع مع أي امرأة بعد فريدة: فمن جهة أولى، لا يرى أي معنى في انسحاب ظريفة من الحياة في هذا العمر نتيجة إضفائها كل هذه الأهمية على إحدى «علاقات الطفولة» التي من المفترض أنها «صارت رمادا» منذ وقت طويل، ويرغب في أن يؤمن أن شعورها باليأس هو حالة مؤقتة؛ وثانيا، بما أن انفصاله عن ابنته أمر غير وارد، وبالتالي بما أنه سيتعين على ظريفة أن تقيم هنا، في حال إصرارها على مشروعها، فسوف تحدث مواقف غير مستحبة، إن لم يكن اليوم فغدا، شاءا ذلك أم لا، وعلى الأقل سيثير الجيران والمعارف شائعات بحقهما؛ ثالثا وهو الأهم، هو يريد أن يربي ابنته على خط أفكار زوجته ـ مساهمة منه في تخليدها ـ أي كماركسية مؤمنة، كاشتراكية، أو بصراحة أكثر كشيوعية؛ ويمكن لهذا الأمر

أن يصبح سببا لخلافات لا تحصى بينهما؛ باختصار، وعلى الرغم من انه يمكن أن يرى في هذا الاقتراح الحل الأجمل الذي يمكن أن يخطر على البال من وجهة نظرهما هو و«فريدة الصغيرة»، فإنه لا يجد أي معنى في سعي ظريفة لتتكب كل هذه الأعباء، ولا يسعه بالتالي أن يعلن لها عن موافقته.

لو أننا فكرنا في الأمر بأعصاب باردة، كان من الصعب أن نخطئ موقف رسول، لكن ظريفة كانت مثله من ذلك النوع من البشر القادرين على تبذير حياتهم كلها مثل العملة «الفكة» في سبيل هم مجرد: لقد أرادت أن تكرس نفسها لخدمة ابنة المرأة التي أحبها حبيبها. وأخيرا تمكنت من انتزاع موافقته واستقرت في اليوم نفسه في بيته، من غير أن تعطي أذنا صاغية لأولاد الحارة الذين تجمعوا على الشبابيك يريدون أن يروا «السيدة الجديدة التي جاءت إلى الأخ رحمي»، ولا لنساء الجيران اللواتي تجمعن عند الأبواب، حتى على بعد عشرة بيوت، أو برزن من شبابيكهن ورحن يدمدمن باستياء: «غير معقول! على المرء أن يكون وحشا حتى يفعل أمرا كهذا!».

حتى في الأيام التالية لم تنظر نساء الجيران إلى ظريفة نظرة حسنة، رأين في كل تصرفاتها أعمالا لا تليق بالإنسان وبالنساء، بدءا من تجديدها لستائر النوافذ واستقبالها لرسول على بعد ثلاث خطوات أمام الباب والطفلة في حضنها، مرورا بإخراجها للطفلة في نزهات في عربتها ذات اللون الوردي، التي لا مثيل لها في الحارة، بل في أسكدار بأسرها، وانتهاء بجلوسها على كرسي في الحديقة والطفلة قربها في عربتها، وقراءتها للجريدة واضعة

ساقا على ساق «مثل الرجال». وفيما عدا الخالة ناجية لم تطرق بابها أي واحدة منهن. غير أنهن رحن يغيرن أحكامهن - وإن لم يغيرن موقفهن - بالتدريج وبمساعدة من الخالة ناجية، باتجاه أكثر مرونة: حتى أقلهن تفهما لم يتمالكن أنفسهن من الإعجاب بجسدها الذي لا عيب فيه، وخصوصا بشرتها المتوهجة، ويقلن: «هذه الفتاة ناسبت رحمي أكثر من الأخرى؛ فضلا عن أنها أنقذته، والحق يقال، من مشكلة كبيرة؛ وواضح أنها تدير البيت بصورة جيدة».

بالفعل كانت طريقة تدير البيت بصورة جيدة: دع جانبا اعتناءها الممتاز بالطفلة، فقد غيرت مظهر البيت تماما في بضعة أيام: المصابيح والملاعق والشوكات صارت تلمع، الكتب والمجلات والجرائد لم تعد تترك في أماكنها أياما ليعلوها الغبار، المنافض لم تعد تمتلئ عن آخرها بأعقاب السجائر، الجبن لا يعفن في الصحون، والأكثر لفتا للانتباه أن صور فريدة بالقامة الكاملة (وكان بعضها مثبتا على الجدار بواسطة دبوس، وبعض آخر موضوعا على الرف الأعلى/ الأوسط للمكتبة أمام كتب كارل ماركس) قد بقيت حيث هي، لكنها الآن تبتسم داخل إطارات فضية. وفي المطبخ أصبح القدر يغلي بصورة منتظمة. وأصبح رسول يستيقظ في كل صباح ليجد فطوره جاهزا من زيتونه وحتى عسله، ويعود كل مساء إلى البيت ليجد مائدة عشائه مزينة مثل باقة من الورد، من بسطرمتها وحتى عرقها، وخلال فترة قصيرة استرد وجهه نضارته؛ والأفضل من ذلك كله، فإنه بعد أن يسترخي في مقعد أبيه الذي خدمهما عمرا، يلف ساقا على ساق

ويدخن سيجارته بصمت وهو يحدق في السقف؛ يأخذ في حضنه ابنته المخدومة جيدا، التي أصبحت تراقب بعينيها كل شيء من حيث هي مضجعة، وتبتسم ما إن يلمسها أحد على ذقنها... في تلك الحالات إذن تومض عينا رسول براحة بال تكاد تشبه السعادة.

ولكن، حتى بعد مرور عام كامل على انتظام كل شيء في البيت، كان يحدث بين حين وحين، أن ينسى، بصورة مفاجئة، الطفلة التي في حضنه، أو الكتاب أو القلم أو الشوكة التي في يده، ويستغرق في إحدى صور فريدة التي تبتسم له على الجدار المقابل، فيخيم يأس أسود في عينيه الغائمتين بدلا من راحة البال؛ الأمر الذي يعني أنه لن يعتاد هذه الحياة بسهولة على ما يبدو؛ والأصح أنه كان يعتادها اعتياد عصفور على قفص، بعد حياة طويلة من الحرية، مع أنه استمر في البقاء في بيته؛ ولا شك أن شدة ألمه كانت تتراجع كلما اعتاد أكثر، غير أن أفكاره وسلوكه راحا يتقيدان، شاء أم أبى، ويفتقدان العمق والفعالية الحقيقيين، شاء أم أبى: كل شيء ناقص، كل شيء غير مكتمل، بما في ذلك أحلامه.

وبالطريقة نفسها: في الوقت الذي تترك فيه حياتهما في البيت انطباع حياة عائلية حقيقية لمن ينظر إليها من الخارج، كان بين حين وحين ينتبه إلى نفسه مستغرقا في النظر إلى ظريفة، والشيء نفسه كان يحدث له إذا ضبط نفسه مستغرقا في جاذبية امرأة تدغدغ الرغبات، في الشارع أو في البنك: فقد كان يجفل كما لو أنه ارتكب إثما لا يغتفر تجاه فريدة، ثم راح بصورة تدريجية، بحيلة أوجدتها مخيلته من ذاتها ولم تدفع بها أبدا إلى

مستوى الوعي بصورة كاملة، يعكس الجمال والمتعة إلى جانب آخر، فيتصور أنها المتعة التي يمكن أن يشعر بها أي رجل. وبهذه الطريقة انتهى، داخل قفصه، إلى موقع مراقب خارجي. واللافت أنه في ممارسته الشعرية أيضا راح يحيا تقريبا البرانية أو الانغلاق نفسه.

كان، تقريبا في كل مساء، يختلي في غرفته ويعمل طوال ساعات، يحس بالأبيات تتلاحق لتحتشد في دماغه، كأنها تريد ملء صمت غرفته، ويحدس أنه على وشك إنتاج شعر يمكن أن يبلغ مستوى «أفضل الناظميات»(*) مخلفا وراءه كل ما كتبه في السابق. لكنه في صباح اليوم التالي، يعيد قراءة ما كتب، فيكتشف أنه متخلف كثيرا عما كتبه أيام فريدة، فيصاب بإحباط شديد. يتنهد بعمق ويقول لنفسه: «منذ طفولتي المبكرة تعلمت استعمال المطرقة واشتغلت؛ درست نظرية ماركس على يدي أكثر المعلمين موهبة وحماسة؛ عشت ألم التيتم بالأب والأم، وألم الثكل بالزوجة، بأكثف صورهما؛ خبرت الحياة عن قرب، ونجاحاتي الأولى بادية للعيان؛ إذن لماذا؟»، ثم ينتهي مرة أخرى إلى صورة القفص التي تحرف كل شيء.

ظريفة أيضا كانت تحس بهذا وتتألم في أعماقها وهي ترى حبيبها السابق في سكون يائس. أرادت أن تثبت فيه بعض الحياة فغيرت من موقفها: فبعد عام كامل من تجاهلها فريدة، بما في ذلك امتناعها عن أدنى تصرف يمكن أن يوحي باهتمامها بها، بدأت تحاول أن تطرح على رسول أسئلة بخصوص زوجته، من مبدأ أنه

(*) نسبة إلى ناظم حكمت، أي أفضل أشعار ناظم.

«لا يفل الحديد إلا الحديد». حين طرحت عليه سؤالها الأول كان قلبها يوشك أن يتوقف لشدة تهيبها. لكن رسولا بدا كما لو أنه كان ينتظر هذا السؤال: عن كل أسئلتها أجاب بإسهاب، وبحماسة بدا أنه فقدها منذ وقت طويل؛ ثم واصل، في كل مساء تقريبا، حديثه لحبيبته القديمة عن زوجته، طوال ساعات. كانت حواسه قد تمثلت كل شيء في حياتهما المشتركة القصيرة إلى درجة أن أصغر الظواهر وأكثرها عادية، وأكثر المشاهد شحوبا وعبورا، قد انحفرت في دماغه، ولو ضغط على نفسه قليلا لكان بوسعه حتى أن يستعيد ترجمات فريدة وشروحاتها بحرفيتها، هو الذي ظن أنها تبخرت من رأسه لأنه لم يفهمها على العموم كما يجب لأنه كان يهتم بالمتكلمة أكثر منه بكلامها؛ ولكان بوسعه أن يعيد بناء كل شيء كما كان بما في ذلك وجوه فريدة وأصواتها ووقفاتها ونظراتها. لم يتمادى رسول أبدا إلى هذا الحد، ولكن قبل انقضاء شهر على سؤالها الأول، لم يعد ثمة شيء لا تعرفه ظريفة بخصوص ذكاء فريدة وثقافتها وجمالها وشجاعتها وأفكارها وعاداتها، بل ونظراتها وحركاتها.

ومع ذلك تحين رسول كل فرصة ليوجه الحديث وجهة فريدة، ووجد دوما ما يحكيه عنها، وإذا حدث ولم يجد جديدا يحكيه، كرر ما سبق وحكاه. لكن هذه التقهقرات الحماسية كانت تشير أيضا إلى انغلاق حياته اليائس: فريدة التي فتحت بمجيئها أمامه أفقا بلا حدود، حددت برحيلها، كل حياته في سنتين ونصف السنة انقضت مثل حلم: حتى يحس بالحياة على أنها حياة، كان مضطرا إلى الانسحاب إلى الفترة المحصورة بين اليوم الذي قالت فيه فريدة في ممر كلية الاقتصاد: «اعذراني، لكنكما لا تعرفان

مــاركس»، وبـين تلك الليلة حين جـاءته فـريدة إلى سـريره وهي تحترق في نار الحمى.

ربما لهذا السبب بهت رسول حين سألته ظريفة ذات مساء: «متى سنقيم ضريحا لفريدة؟»: صحيح أنه ذهب حتى القبر ووقف جامدا مثل هيكل بين فهمي غولمز وأحد الجيران، بل إنه ألقى فوق النعش بضع رفوش من التراب، تحت إلحاح جار مسن، لكن عقله لم يكن قادرا على استيعاب موتها، سواء قبل حدوثه أو بعده، ولم يكن بالتالي قادرا على تصور فريدة مضطجعة داخل قبر: احمر وتلعثم قائلا: «لم أفكر بهذا قط، لكن الحق معك. ينبغي التفكير بذلك». لماذا الآن، وليس قبله؟ ترى هل أصبح موت فريدة الآن قابلا للتقبل، أم أن الإتيان على ذكره كان كافيا ليكتسب القبر حقيقته؟ من الصعب الإجابة. مهما يكن الأمر، ذهبا إلى قبر فريدة في التاسعة من صباح اليوم التالي ومعهما فريدة الصغيرة.

حينما اجتازوا باب المقبرة ارتعش رسول كما لو كان منجرفا بفعل تيار قوي؛ وعندما وصلوا إلى القبر أحنى رأسه بشعور يشبه الخجل؛ لكنه تمالك نفسه بسرعة؛ وراح يجول بنظراته، بما يشبه الشعور بالفخر، على قبر فريدة والغابة التي ترى من هناك، والأكواخ الخشبية المتناثرة بين الحدائق وقطعة البحر الظاهرة إلى أبعد وزوجين من النوارس يحومان في السماء، لإحساسه أنها تشكل دليلا قاطعا على مغامرته الخاصة التي لا تزال تبدو حتى له غير قابلة للتصديق.

لكنه، حين اقترحت ظريفة القيام بجولة داخل المقبرة ليكوّنا فكرة بخصوص شكل الضريح، الذي يريدان إقامته، شعر بالفرح

تقريبا، فضلا عن أن يرى أي مانع في مغادرة قبر زوجته بهذه السرعة. تجولا. وبعد الظهر تركا فريدة الصغيرة في عهدة الخالة ناجية وتجولا في عدد من أقسام «قرجه أحمد». كان الفصل ربيعا والعشب يزدحم بالأزهار، ما كان يمنح حتى شواهد القبور حيوية وطبيعية وجاذبية. غير أن رسولا لم تعجبه القبور ولا الكتابات فوق شواهدها؛ بالأحرى لم ير هناك ما يليق بفريدة: فإغلاق القبر بلوح رخام يعني «قطع صلات فريدة بالعالم» وحفر تاريخ وفاتها على الشاهد يعني «القبول بموتها». لم يسعه أن يرضخ لهذا.

وهكذا، بعد أن تجولا في عدد من المقابر الأخرى، تقرر أن يسيج القبر بالرخام، وأن تحفر الكلمات التالية:

فريدة سونمز

(٣ فبراير ١٩٢١ -   )

على قطعة رخام مستطيلة ٤٥ × ٦٠ سم تنصب عند جهة الرأس بزاوية ١٢٠ درجة من الأمام، و٦٠ درجة من الخلف. حوالي منتصف شهر سبتمبر كان القبر قد اكتمل.

بشكله هذا كان القبر يثير انطباعا كأن فريدة لم تمت تماما، وهكذا راح رسول يثبت عينيه، مرة كل أسبوع على الأقل، على قطعة الرخام ببعديه ٤٥ × ٦٠ سم، فينتابه إحساس بأنه يقيم تواصلا مع زوجته أقله باتجاه واحد، وبأن كلا من صورته الجسدية وما يعتمل في داخله يصلان إلى زوجته فورا. لهذا السبب حاول من يومه فصاعدا أن يفكر بأمور جيدة قدر المستطاع في وقفته على القبر، كما حاول منع ظريفة من مرافقته إلى المقبرة. لم تر ظريفة أي معنى في موقفه هذا، لكنها اعتادته

بسرعة: مثل عدم دخولهما السرير معا، لا يذهبان معا إلى المقبرة أيضا. لكنهما منذ ذلك الحين عاشا حياة ضاحكة إلى حد ما، ربما لأن جهد رسول في الظهور بظهر المتفائل عند القبر، لاقى انعكاسه بدرجة معينة في الجانب الآخر لحياته، ففي بعض الليالي كان بوسع الجيران المارين أمام البيت أن يسمعوا رسولا وهو يصرخ:

«أنت يا سوداء الوجه
عَغَضْتِ غُوحَكِ مثلَ أَسِيغ زنجيّ في سوق النخاسة
حَوِّلْتِ غَأْسَكِ إلى بيت دَعًاغَة»(*)

أو:

«اخغَسي!
كفى
لا تَجْأَغي مثل غَشَّاش معطوب»(**)

فيقولون: «صاحبنا رحمي لم يحب زوجته الثانية كثيرا. هاهو يوبخها من جديد». لكن الصراخ كان علامة تناغم صريح بينهما: ففي كل مساء تقريبا تسأله ظريفة عن سلوك فريدة أو نبوءات ماركس، أو تجبره على قراءة آخر القصائد التي يشتغل عليها، أو تناوله «رسائل إلى تارانتابابو» أو «تلغراف منتصف الليل» أو «ملحمة الشيخ بدر الدين ابن قاضي سيماونة» وتقول له: «هيا اقرأ شيئا من ناظم لينجلي الصدأ عن آذاننا» محاولة بذلك إبهاجه؛ وكانت دائما تعتقد أنها نجحت في ذلك لأن بهجته تبدو

(*) نذكّر بأن بطلنا يلثغ بحرف الراء.

(**) الملاحظة السابقة نفسها (غشاش = رشاش) / المقطعان الشعريان لناظم حكمت.

مثل بهجة حقيقية، مثل عدم تمييزنا لأي فارق بين تغريد عصفور في القفص وآخر حر. وذات مساء، حين انفتحت سيرة فريدة وراح رسول يحكي بحماسته المعهودة وإسهابه المعهود، استاء فهمي غولمز - الذي يشاركهم العشاء لأول مرة منذ أشهر عديدة - وحاول أن يغير موضوع الحديث، وإذ لم يفلح في ذلك، قال إن عليه الانصراف مبكرا وخرج. في الشارع كان يرتعش غضبا ويغمغم: «غير معقول! غير معقول أن تصل به الأمور إلى هذا الحد. لا فريدة ولا ظريفة تستحقان منه هذه المعاملة».

لو أنه يأتي كل يوم، كان سيتوتر كل يوم، لكنه كان مختفيا عن الأنظار في الفترة الأخيرة: كان طوال سنة ونصف السنة قد صارع الأرقام، لقاء راتب شهري مضحك، على طاولة منمنمة في قبو ذي سقف منخفض يهبط إليه بثماني عشرة درجة من الطابق الأرضي في إحدى البنايات؛ ثم حدث ذات يوم أن خطر للمعلم الكبير أن ينزل إلى القبو ويسأله رأيه في مشكلة محاسبية لم يتمكن أحد من حلها منذ أسبوع، وإذ رآه يصل إلى الحل المطلوب تماما، في غضون بضع دقائق بمساعدة الآلة الحاسبة التي احتلت في حياته الموقع الذي كان يشغله رسول في يوم من الأيام، فقد شابكه من ذراعه كما لو كان صديقا قديما واصطحبه ليطلق بذلك الصعود المدوخ في حياته. لهذا السبب لم يكن بوسع فهمي غولمز أن يزور صديقه إلا مرة كل بضعة أسابيع ولفترة قصيرة، ويفضل أن يمضي وقت الزيارة في اللعب مع فريدة، على تبادل الحديث معه أو مع ظريفة. لم يهضم قط إقامة ظريفة في هذا البيت على الرغم من محاولته لإخفاء ذلك. لم يكن جاهلا بالطبع

أن هذا مخرج لإنقاذ صديقه، كما كان يرى في تنكب ظريفة لمعظم مصاريف البيت أمرا طبيعيا نظرا لإقامتهما معا، ولأن إمكانات ظريفة المادية أكبر؛ ومع ذلك، وباعتبار أنه لا يشك مطلقا في عودتهما إلى الأيام الخوالي - كان يعتقد أن هذه العلاقة المستعادة دليل على سطحية حب رسول لفريدة، وينظر إلى إتيان ظريفة على ذكر فريدة، باعتباره إساءة إلى ذكراها.

لكنه، عندما عرف بعد فترة ب- فعل مصادفة - أنه لا علاقة من النوع الذي خطر في باله ما بين الحبيبين السابقين، قيَّم هذا الوضع باعتباره شذوذا لا يمكن القبول به، وتقريبا إثما يحمر له الوجه خجلا، وذلك بدلا من أن يخجل من سوء ظنه. وإذا كان ثمة فارق بين الموقفين، فهو تحميله الآن كل الذنب لرسول وحده، واعتقاده بأنه يظلم ظريفة ويستغل تضحيتها الكبيرة بصورة وحشية. وأخيرا ما عاد يحتمل الوضع، أمسك برسول عند أول الشارع، في أحد أيام الأحد، عند عودته من المقبرة، شابك ذراعه بذراعه وغير وجهته، ثم راح يسمعه آراءه ببطء وبنظام منطقي، وانتهى إلى القول بنبرة سلطوية اكتسبها من حياته المهنية: «أريدك أن تتزوجها في أقرب وقت».

لقد دأب رسول دوما على احترام آراء صديقه، كذلك أصغى إلى حديثه هذا من غير أن يفوِّت كلمة واحدة، لكن ما يطلبه منه غير ممكن على الإطلاق: اكتفى بالقول بأنه أقسم أن يبقى وفيا لفريدة، وأن ظريفة تعرف هذا منذ البداية؛ لكن فهمي غولمز فقد أعصابه فجأة وراح يصرخ مكررا أن الإصرار على هذا الوضع الشاذ هو وحشية. عندئذ رفع رسول كذلك صوته: «ومنذ متى

أصبح عدم الخضوع للقواعد البورجوازية يعتبر وحشية؟». لم يقل ذلك بأي نوايا سيئة، ولا هو حاول إيصال رسالة معينة إليه، لكن فهمي غولمز ظن أن صديقه يريد اتهامه بالتبرجز بمحاولته المضمرة لتذكيره بالشركات التي يسعى إلى إقامتها مع معلمه، فقال له: «وما هي حياتك أنت؟ أليست حياة بورجوازية بكل معنى الكلمة؟» وابتعد. ومن حينها فصاعدا خفَّض عدد لقاءاته بصديقه إلى أدنى مستوى لها، على الرغم من اشتياقه الجدي للطفلة.

ظل رسول فترة وهو ينظر بذهول إلى ابتعاد صديقه. تمتم قائلا لنفسه: «لا أفهم ما الذي دعاه للغضب، فهذا الأمر يعنينا أنا وظريفة فقط، ولا يهم أحدا آخر، حتى فهمي». لكنه حين رأى ظريفة، بعد قليل، في البيت، وهي تتنقل ما بين المطبخ ومائدة الطعام، وفي قدميها خفها المشغول بنقوش الفضة، تذكر ملاحظة صديقه الأخيرة، وتشوش ذهنه كثيرا، قال لنفسه: «هو على الأقل محق في هذه النقطة»، سواء تقاسم السرير نفسه مع ظريفة أم لا، فإن حياته حياة بورجوازية بكل معنى الكلمة: فهو لا يبذل أدنى جهد في سبيل الثورة البروليتارية، وحتى لا يجرب أن ينشر قصائده، وفي حين يعمل نهارا في مؤسسة تابعة لأباطرة المال مزودا الرأسمالية بالقوة، يرتدي ليلا خفه المنزلي، يسترخي في مقعده ليلاعب ابنته، ويحتسي العرق على مائدة العشاء ويثرثر؛ لو أصبح المرء ثوريا بمجرد كتابة الشعر سرا مثل المراهقين، وبالحديث، بعد العشاء، عن الأيام التي قضاها مع فريدة، وبتلاوة قصائد لناظم مرة أو مرتين في الأسبوع، فإنه يمكن اعتبار أي بورجوازي ثوريا. قال لنفسه: «نسيت ما تعهدت به لفريدة،

وأرخيت الزمام لنفسي». ظل طوال الليل يتقلب في سريره وفي ذهنه هاتان الجملتان. وفي اليوم التالي سرقه من الاستغراق في العمل تفكيره بالتناقض المؤلم ما بين ثوريته في المبدأ وبورجوازية حياته التي يعيشها. أما بخصوص كيفية تجاوز هذا التناقض، ففكر كثيرا ولم يجد طريقا آخر سوى في العودة إلى عالم الأدب، على الرغم من عدم رضاه عن القصائد التي كتبها أخيرا، وفي إعادة وصل علاقاته المقطوعة مع زملاء المجلات القدامى، كخطوة أولى على ذلك الطريق.

لذلك قفز مبتهجا من مجلسه، حين رأى، بعد بضعة أيام، على باخرة المساء، معروف المطرقجي يتقدم نحوه. غير أن هذا بدا كأنه ليس معروف المطرقجي الذي عرفه أيام زمان: فقد حل محل تعبير السخرية الشيطانية المعهود على وجهه، تعبير دهشة؛ وإذ عانقه رسول بحماسة وراح يعبر عن مشاعر صداقة حميمية حقيقية بكلمات من نوع: «يا لها من مصادفة سعيدة يا مطرقجي! كيف حالك؟ وأين أنت؟ وكم اشتقت إليك!»، اكتفى معروف بالتحديق بنظرات باردة وعلى وجهه تعبير الدهشة نفسه. فقط قال بصوت كالجليد:

- كيف مَلَصْتَ؟

لم يفهم رسول أي شيء من السؤال، لكنه ارتعش بخوف لا يعرف مصدره. تأتأ يقول:

- ماذا تعني؟ مم ملصت أو من أين؟

فهمس المطرقجي:

- من السجن.

- السجن؟ أي سجن؟
- وأي سجن تريده يا أخي؟ من التوابيت!
- ما هذا الذي تقوله؟ ومن الذي دخل السجن؟
- تقريبا الجميع، كل الأصدقاء، كل من يسمي نفسه يساريا. الشعراء والكتاب والنقاد والرسامون، وكل من يمكن نعتهم باليساريين.

قال ذلك وراح يعدد أسماء كثيرة.

أصغى رسول بمزيج من الدهشة والحزن وفمه مفتوح، وهو يحول كل اسم يسمعه إلى سؤال يجيب عنه المطرقجي مرة أخرى:

- لا؟ عارف الفانتريلوج أيضا؟
- نعم، عارف الفانتريلوج أيضا.
- لا؟ نجمي الموجيك أيضا؟
- ونجمي الموجيك أيضا.

أخيرا، قال رسول:

- مستحيل! أنت تسخر مني.. كيف يعتقل كل هؤلاء هكذا بلا سبب؟ فضلا عن ذلك فأنا لم أقرأ في الجرائد شيئا مما تقول.

لأول مرة منذ بداية اللقاء ابتسم معروف المطرقجي: إن عدم قراءته شيئا كهذا في الجريدة، لا يعني أنه لم يحدث: فالجرائد لا تنشر أخبارا من هذا النوع إذا لم تأتهم تعليمات خاصة بأن ينشروا؛ وعدم نشرهم يعني أنهم يريدون للحدث أن يبقى طي الكتمان؛ وإذا أرادوا فبوسعهم أن يبقوه كذلك أشهرا بل وسنوات؛ إن هذا ما يفعلونه دائما، لكن هذا هو الجانب المستغرب في الموضوع، إن ما هو مستغرب أنه في حين يزج في السجن أكثر من مئة وخمسين بين كاتب وشاعر ومدرس وغيرهم بتهمة الشيوعية،

فإنه - أي رسول - أي الشخص الذي يعرف الشيوعية أكثر من الجميع - يتحرك طليق اليدين ويركب بواخر أسكدار؛ يفكر معروف المطرقجي ويفكر، ولا يتمكن من إيجاد تفسير لهذا الأمر.
قال له رسول:

- لم أعد أظهر كثيرا بين الناس بسبب مرض فريدة ثم موتها؛ كما أنني منذ وقت طويل لم أنشر شعرا.

- هذه ليست أسبابا مقنعة؛ إن هؤلاء الناس ما إن يعلموا اسم شخص حتى ينتهي أمره، ولا يفلتون تلابيبه حتى الموت. ولا أفهم كيف يمكن ألا يعلموك. حقا إني لا أفهم.

قال المطرقجي ذلك ثم ثبت عينيه على رسول بنظرات مرتابة، بل متهمة، واستغرق فترة في أفكاره، ثم ابتسم مجددا وقال:

- بما أنه لا يمكن أن تكون عميلا سريا للأمن، فليس ثمة إلا سبب من اثنين تركوك من أجله طليقا: إما أنهم فكروا في أنك طويل القامة إلى درجة لا تتسع لك فيها أي زنزانة، وإما أن الأمر كان يتعلق باعتقالات منهجية لا إجرائية.

- ماذا تعني؟

- أعني أنهم اعتقلوا أصدقاءنا ليس بسبب جرم يعتقدون أنهم ارتكبوه، بل لسبب سياسي، ولذلك لم يتقصوا جميع الحالات، بل حددوا عددا معينا، ثم اعتقلوا ذلك العدد من الناس.

- فهمت: قال رسول ثم حدق في عيني صديقه وسأله كما لو أن دوره في الارتياب قد جاء:

- وأنت؟ كيف ملصت؟

هز معروف المطرقجي كتفيه بلا مبالاة وقال:

- لست مقياسا، التملص مهنتي وفني.

واضح أن معروف المطرقجي لم يكن يعطي أهمية كبيرة لهذه الاعتقالات بالجملة، بل يرى فيها حدثا اعتياديا؛ أما رسول، وخصوصا حين بقي وحيدا على المرفأ، فقد رأى في الحدث، وموقف صديقه من الحدث، أمرين مخيفين: فبقدر ما هو أمر شاذ اعتقال مئة وخمسين يساريا فجأة وبلا سبب، كذلك هو استخفاف صديقه بالأمر؛ ويتمثل الشذوذ الثاني في اعتبار المطرقجي للتملص فنه الخاص، في حين يرى في تملصه هو ضربا من الهروب أو التهرب؛ أما الشذوذ الثالث والأهم فهو أنه في الوقت الذي تغلق الزنازين - التوابيت على مئة وخمسين شخصا (سواء كانوا مذنبين أم أبرياء) فإن كثيرا من الناس الذين يفكرون ويتصرفون بطريقتهم نفسها (مثلا هو أو فهمي أو معروف المطرقجي) يتركون في الخارج؛ أي ألا يسمح لهم بالوحدة والمساواة حتى في العذاب، لا شك أن لا ذنب لأولئك الذين تركوا في الخارج، في هذا الأمر، مثله هو أو فهمي؛ ومن جهة أخرى، بما أن معروف المطرقجي قال إن الأمر يتعلق باعتقالات «منهجية» فليس من الضرورة اعتبار اليساريين الذين اعتقلوا متقدمين على أولئك الذين لم تشملهم الاعتقالات، أو أكثر فعالية أو شجاعة منهم؛ وعلى الرغم من ذلك فإن عدم انضمامه إلى أولئك الذين اعتُقلوا، سبب له ضيقا غريبا آلمه من الأعماق.

لهذا بدا له كل شيء في البيت قبيحا وجامدا ومنفرا في ذلك المساء، كل ما نظر إليه دفعه إلى الاكتئاب باستثناء الكتب وصور فريدة وماركس ولينين، وفكر قائلا: «بيت بورجوازي بكل معنى

الكلمة، بلا زيادة ولا نقصان». أثار أعصابه كذلك قيام ظريفة بترتيب البيت، وإعداد العشاء وإطعام الطفلة؛ وأكثر من مرة دفع فريدة الصغيرة بظاهر يده لأنها تدور حوله وتمنعه من قراءة المجلة: لم تستثر أعصابه إلى هذه الدرجة منذ وقت طويل. ومع ذلك لم يتمالك نفسه عن إخبار ظريفة بالأمر وهما يحتسيان قهوة ما بعد العشاء. توتر أكثر حين رأى أن ردة فعل ظريفة لم تتعد الابتهاج لعدم اعتقاله، فذهب إلى النوم حتى دون كلمة «تصبحين على خير».

استمر توتره في الأيام التالية: طوال أسابيع استمر في الحنق ليس فقط على ظريفة، بل على كل البورجوازيين، كل الناس عديمي الإحساس. لكن مشاعر الأسى والحنق التي راحت تتراكم بسرعة وتحرض بعضها بعضا، قد أدت إلى نتيجة إيجابية من وجهة نظر معينة: كثف رسول من عمله في الشعر إلى حد كبير. وهكذا بعد عمل استغرق منه بضعة أيام خرج بقصيدة طويلة من النوع «الواقعي الاجتماعي». وحين أعاد قراءتها في مساء اليوم التالي بعين مدققة، لم تعجبه مثلها مثل قصائده التي كتبها قبل فترة ومزقها: انتابه شعور بأن هذه القصيدة أيضا تبدو كمحاكاة شاحبة لكتاباته إبان حياة فريدة. تمتم يقول: «لا أستطيع، كل ما أفعله سدى، لا أستطيع الكتابة مثل أيام زمان». لكنه هذه المرة لم يقم بتمزيق القصيدة: إن كان لا بد من رؤية الأحداث من زاوية نظر منطقية، فمن الطبيعي أن تعطي أبياته انطباعا بالتكرار: فما دام المستغلون يواصلون استغلالهم، ومادام فضل القيمة يتحد مع رأس المال كما في السابق، وما دامت البشرية تتقدم كما في السابق نحو

الثورة، وبما أن مهمة الشاعر لا تزال تكمن في التعبير عن هذه الحقائق، إذن ليس ثمة مشكلة: فالشعر هو انعكاس المعيش. ومهما يكن فسوف يكتب وينشر: فمن هنا يمر الطريق المؤدي إلى الخلاص من الشرط البورجوازي، والتوحد مع الأصدقاء الثوريين ومشاركتهم مصيرهم: قرر أن يرسل قصيدته في اليوم التالي إلى مجلة يدل كل شيء فيها على أنها في موقع اليسار.

ولكن بعد شهرين من انتظار ظهور قصيدته الطويلة في الصفحات الأولى للمجلة، فوجئ بردهم عليه، على الغلاف الداخلي وتحت عنوان نمطي ومثير للسخرية «مع الشباب»، وإذ قرأ الرد صدم كمن ضرب رأسه بحجر: منطلقين من التأكيد على أن الشعر التركي يتغير بسرعة، يقولون له إن شعرا من هذا النوع لم يعد يكتب في وقتنا الراهن، لينتهوا إلى إسداء النصح له «أن يعمل ويكثر من العمل حتى يصل بشعره إلى مستوى الشعر الراهن، أو بكلمات أخرى إلى مستوى يتيح نشره في هذه المجلة». شد رسول قبضتيه وراح يتمتم: «لا أفهم كيف يمكن لهم أن يفعلوا هذا. أن لا تعجبهم القصيدة، مفهوم؛ ألا ينشروها، أيضا مفهوم؛ ولكن كيف لهم أن يحشروني بين الأدباء الشباب؟». ثم بلغت دهشته حدودها القصوى حين شرع يقرأ القصائد التي «بلغت مستوى النشر» في المجلة، واكتشف أن قصيدة مدير التحرير المنشورة في وسط الصفحة الوسطى تماما، تكرر ما قاله هو في قصيدته المرفوضة بدعوى أن «لا أحد يكتب شعرا كهذا اليوم»، وحتى من ناحية الشكل تتشابه القصيدتان مثل توأمين، فردد مجددا: «إني لا أفهم، لا أفهم أي شيء على الإطلاق، ترى هل يسخرون مني؟».

جاءه الجواب عن هذا السؤال من فهمي غولمز الذي جاء يزوره بعد انقطاع طويل: لا. إنهم لا يسخرون منه، ومن المؤكد أنهم يعرفونه جيدا كما يعرفون «مكانته في شعرنا»، ولكنهم يصدرون تلك المجلة على حسابهم بهدف نشر قصائدهم وكتاباتهم الخاصة، لا نية لديهم في منح الشهرة لهذا أو لذاك من الناس بالنقود التي يقتطفونها من أفواههم. ابتسم فهمي غولمز ابتسامة العارف ووضع يده على كتف رسول وقال: «لا تزعج نفسك. هذه المجلة البخسة ليست جديرة بذلك. رأيي أن الأفضل هو إصدار كتاب. ونحن لا نعدم الإمكانات. وإن عدمناها نخلقها. إليك بواحدة منها»، قال ذلك وهو يخرج من محفظته مخططات كبيرة، نشرها فوق الطاولة، وبدأ في شرح مطول وهو يمسك بقلم أغلى من آلة كاتبة: إن شركة قوية يساهم هو في إدارتها، قررت أن تغير بصورة جذرية مظهر منطقتهم ومصيرها ببناء أبنية سكنية فخمة من خمسة طوابق وإعادة تنظيم المكان؛ فقامت بشراء قسم كبير من البيوت الداخلة في مجال المشروع؛ ولكن فيما يخص بيته وبيت رسول ستتخذ تدابير مختلفة، بحيث يتم الاتفاق على تقاسم الشقق مناصفة في الأبنية التي ستقام على أرض بيتيهما. وبما أن عدد الشقق التي سيحصل عليها رسول وفقا لهذا الاتفاق، لن يقل عن الخمسة، فإنه سيصبح في وضع مريح من الناحية المادية بعد سنة ونصف السنة كحد أقصى، بحيث يصبح بوسعه أن ينشر كتبا أو يصدر مجلات؛ ولو أراد، فبوسعه أن يترك عمله في البنك ويتفرغ لكتابة الشعر في شقته المطلة على البحر والمجهزة بالتدفئة المركزية والمياه الساخنة الجارية.

كان رسـول يصغي إليه بصـمت، لكنه، وبصـورة لا إرادية، كان يـركـز انتـبـاهه على ملبسـه المتـأنق وطريقـتـه الجـديدة في الكلام، بدلا من الاهتمام بالآفاق التي يحاول فتحها أمـامه؛ ويفكر بأنه لم يطرق بابه مرة واحـدة منذ خـلافهـمـا الأخيـر في الشـارع، وقـد جـاء اليـوم في عـمل؛ ويقضم شفـتـيـه متـوترا من لجـوء صـديقـه إلى اللف والدوران بدلا من عرض اقتراحه بصورة مباشرة. أخيرا لم يتمالك نفسه حين دخل فهمي في تفصيلات المشاريع بخصوص بيته وعمله الشعري، فقال: «أكاد أقول إن هذه الشركة قد أُسست كي تساند عملي في الشعر. لكنني لن أدخل هذا المشروع: ليس بوسعي أن أترك بيت أبي للرأسماليين».

احـمـر وجـه فـهـمـي غـولمز احـمـرارا شـديدا؛ فكر في أن ردة فـعل صـديقه مـفـرطة فـي قـسـوتهـا، فـضـلا عن انطـوائهـا على سـخـرية لا تليق بصـداقتهما؛ وقال له إنه في الأصل يتعاون مع الرأسماليين بما يكفي، بمـا أنه يكسب مـعيـشـتـه من العـمـل في بنك خـاص، في حين أن هذا المشـروع سـيـمـنحـه اسـتـقـلاليـة تجـاه الرأسـمـاليين والأوسـاط الأدبيـة على السـواء؛ لكنـه أدرك بسـرعـة أنه لن يـتـمكن من كسـر عناده، حشـر المخططات في محفظته ونهض واقفا وقال:

ـ إن كنت تريد أن تبقي بيتك مثل قن الدجاج بين البنايات الضخمة فـهـذا شـأنك، لـكنك لن تتـجـو من بورجـوازيتك بالسكن في قن دجـاج. فضلا عن أنك تتحمل مسؤولية فتاة صغيرة. هل فكرت في مستقبلها؟!

تذكر رسول كلمة كانت تستخدمها فريدة بكثرة، فأجاب فهمي:

ـ على المرء أن يجيد مواجهة المجهول.

عبس فـهـمي غـولمز وجـهه ثم ابتسم لظريفـة، داعب رأس فـريدة، ثم خرج من دون أن يصافح رسولا.

فكر رسول أن تقوض صداقة عمرها سنوات لسبب تافه كهذا، لا بد أن يكون أثرا جديدا من آثار النظام الرأسمالي اللاإنساني، ولكن ربما بفعل الأثر نفسه لم يشعر بحزن كبير، وعلى العكس تماما نظر إلى حيث جلس صديقه، قبل قليل، نظرة احتقار وقطب كما لو أن صديقه قد ترك بقايا من صورته على المقعد، تمتم لنفسه: «سيان! لا بنايات شركة فهمي بيك تهمني في شيء، ولا ردود المجلات البخسة!» ثم توجه بكلامه إلى ظريفة: «ألم أقل له ما يجب أن يقال؟».

- لا أعرف. البيت بيتك والصديق صديقك. غير أنه لم يكن بلا حق مئة في المئة: يتعين التفكير في مستقبل الفتاة.

ابتسم رسول وقال:

- هي سترى أياما جميلة جدا.

ولكن بالنظر إلى الضيق الذي سيطر عليه، مؤكد أنه على الأقل لا يشعر بأن اليوم كان بهيجا؛ بل على العكس كان يسقمه التفكير في أن يساريي البلد إما يُدفَع بهم إلى الانحطاط مثل فهمي غولمز وإما يُزَج بهم في السجون مثل عارف الفانتريلوج ونجمي الموجيك، وتُصدَر مجلات يسارية زائفة مثل المجلة التي ردت عليه في صفحة «مع الشباب» بهدف التغطية على حقيقة أن اليسار في خطر، وباختصار فهو يرى أن طريق اليسار يتجه نحو الانسداد، وحتى في بيته تدافع ظريفة عن قيم البورجوازية، فيشعر بما يشبه الغثيان.

ولكن لو أننا قارنا كل هذا بالمشكلات التي ستثيرها في المستقبل فريدة الثانية، فلن تبدو لنا شيئا.

- ٤ -

فعل رسول كل ما بوسعه كي يلقح ابنته بأفكاره الثورية. قبل تعليمها القراءة والكتابة، علمها التضاد غير القابل للاختزال ما بين الطبقتين البورجوازية والبروليتارية، وحاول أن يبين لها موقع الإنسان المتعلم في هذا التناقض الذي سينتهي عاجلا أم آجلا إلى أن يتوج بانتصار البروليتاريا، بما أن هذه الطبقة هي المؤهلة الوحيدة لتطبيق الحكم الذي سيصدره التاريخ، حتى أنه شرع في كتابة «ملحمة اشتراكية» خصيصا من أجلها. وفي أثناء ذلك كان يحلم بمستقبل فريدة كمهندسة ترتدي بزة العمل وهي تغير مجرى الأنهاروتجعل التوربينات تغني أغنيات الثورة، و«تمزق» الجبال مثل خرقة مهترئة لتشق فيها الطرق؛ وذلك تحت تأثير أبيات لناظم من مثل:

«بات يتعين
لهذه الحقيقة أن تطرق
رؤوسنا جميعا:
الفلاح في شوق إلى الأرض
والأرض في شوق إلى الآلات!»

وازداد أملا كلما لاحظ أنها تزداد شبها بأمها يوما بعد يوم. ولكن بدا أن فريدة كلما ازدادت شبها جسديا بأمها، ابتعدت عنها روحيا: حتى وهي بعد في الثالثة أو الرابعة من العمر، في نزهة لها مع أبيها في الشارع، داست على المناديل التي مدها المتسولون أمامهم على الأرض، بحذائها الموحل، وحاولت رفس الفقراء المارين قربها، وفي المدرسة نظرت باحتقار إلى الأطفال الفقراء،

وأقامت صداقاتها فقط مع أولئك المعتنى بهم جيدا، البدينين نظيفي الهيئة؛ وحين أنهت دراستها الابتدائية عاندت قائلة: «لن أسجل إلا في المعهد الأمريكي»، وذلك تحت تأثير أقرب صديقاتها أستير، وهي ابنة صانع زجاجيات يهودي. كان رسول يريد لها أن تتعلم الألمانية مثل أمها حتى تتمكن من قراءة ماركس وأنجلز بلغتهما الأصلية. لذلك فقد قاومها مطولا، لكنه انتهى إلى الرضوخ على مضض حينما ساندتها ظريفة قائلة له: «ألم تقل بنفسك إن ماركس لم يكتب كل أعماله بالألمانية، فضلا عن أن قبره في لندن».

بعد التحاقها بالمعهد بدأت زياراتها إلى البيت تقتصر على نهايات الأسبوع وتبدو خلالها مثل ضيفة. لذلك ولأنها تكثر من طلباتها في كل مرة، بدت فريدة أكثر تعلقا برسول وظريفة. عند عودتها من المعهد كانت تعانقهما وتقبلهما مطولا وتصغي باهتمام أكثر إلى الأحاديث عن الثورة وقصائد ناظم حكمت. لكنها مع مرور السنوات غيرت من موقفها: بدأت تزور البيت على مضض كما لو كانت تزور بيت أقرباء فقراء، وتقترح عليهما الانتقال إلى بيت آخر بذريعة أنها تخجل من دعوة زميلاتها إلى بيت عتيق كهذا. وإذ قوبل اقتراحها برفض غاضب راحت تلوك العلاقة بين أبيها وظريفة قائلة: «حماقة من هذا النوع في زماننا شيء غير معقول!».

باختصار ابتعدت عنهما باطراد كل يوم. إذ بدأت تتصل بالبيت مرتين من أصل كل ثلاث من نهايات الأسبوع، لتخبرهم بأنها ستبقى عند أستير لتدرسا معا، وذلك بالأخص في «صوفمور»، ثم

حدث أن جاءت في مساء أحد أيام السبت، وقت العشاء بالضبط، جلست أمام أبيها واضعة ساقا فوق ساق وبدأت كلامها بالقول: «اسمعا ما سأقول لكما» وتابعت كلاما أذهلهما: سبق أن قالت لهما إن عليهما أن يعرفا أن إصرارهما على الاستمرار في علاقتهما، بهذا الشكل المنقوص، على الرغم من رغبتهما الشديدة كل في الآخر، الأمر الذي تفضحه النظرات الالتهامية التي يتبادلانها كل حين وحين، هو شيء لا يطاق ليس فقط بالنسبة إليهما، بل كذلك بالنسبة إلى من يحيط بهما. وعلى الأقل هي ملّت وسئمت تماما من هذا الوسط المنفر؛ لهذا فهي تقترح عليهما أن يغيرا موقفهما المفتقر إلى المعنى ويتزوجا ليبدآ حياة صحيحة. لأن التراجع عن الخطأ مكسب منذ بدء التراجع عنه ويغادرا هذا البيت. كإحدى ضرورات التغيير. لينتقلا إلى الشاطئ المقابل ويقطنا في إحدى بنايات شيشلي أو نيشان طاش. وأضافت «إذا أردتما أن تعيشا مثل البشر، عليكما أن تنسلخا من ذكريات أمي المغبرة!».

ضرب رسول الطاولة بقبضته وصرخ بها:

- لا تهذي! ولا تحاولي أن تحشري أنفك في أمور أكبر من قامتك!

ولكن تبين أن فريدة كانت تنتظر بالضبط ردا كهذا. إذ قالت على الفور:

- إذن أنا راحلة! ولن تطأ قدماي هذا البيت مرة أخرى. حذار أن تلحقاني!

شحب وجه رسول وقال لها متأتئا:

ـ بم تهذين؟ انظري إلي: بم تهذين؟

نهضت فريدة من غير أن تتفوه بكلمة أخرى، أنزلت معطفها عن المشجب وارتدته، أخذت محفظتها من حيث تركتها عند دخولها عند أسفل الجدار، وخرجت صافقة الباب وراءها. ظل رسول ينظر وراءها من مجلسه، بذهول. في تلك اللحظة أمسكت به ظريفة من كتفيه وراحت تهزه بكل ما تملك من قوة وتصرخ به بعينيها الدامعتين:

ـ ألا ترى أنها راحلة؟! لا تتركها! أسرع! إني أتحدث إليك: لا تتركها! إنها ابنتنا!

حاول رسول أن ينهض، ثم انهار في مكانه. خفض نظره وقال:

ـ هي ابنة فريدة.. وإذا صممت على شيء، فعلته. لا تستطيعين منعها.

سحبت ظريفة يديها وقالت له:

ـ لا تتفوه بسخافات! لا تقارن هذا الوحش بفريدة!

ـ «لا أعرف، لا أعرف»، هكذا راح رسول يردد، أشعل سيجارة بيدين راعشتين «لا أعرف، لا أعرف». الشيء الوحيد الذي يعرفه هو أن العلاقة أو اللاعلاقة التي تربط بينه وبين ظريفة ليس من شأنها أن تهم ابنته أبدا؛ أما حكمها بالشذوذ على تكريس ظريفة حياتها من أجلها، فلا يعدو كونه جحودا؛ ولكن من الواضح أن كل شيء كان محكوما عليه بالخطأ واللامنطقية مادام النظام الذي تنبأ به ماركس لم يتحقق، وسيبقى كل شيء محكوما بمنطق الانهيار. وما الذي بوسعه أن يقوله؟ ثبت نظراته على ظريفة التي تبكي بصمت على المقعد المواجه وبدأ يقول: «يا ظريفة الحبيبة،

أنت أيضا تعرفين أن كارل ماركس...».

لكن ظريفة لم تمهله ليكمل كلامه، إذ قفزت واقفة بغضب وصرخت به:

- ... عليك وعلى ماركسك وأنجلزك! كفى!

ثم ركضت إلى غرفتها؛ ولم تمض خمس دقائق حتى انتصبت أمامه ثانية، وهي ترتدي معطفها وتحمل حقيبة سفرها - تماما مثل اليوم الذي جاءت فيه - وقالت له:

- بما أن الفتاة رحلت، لم يعد البيت بحاجة إلي. أنا أيضا راحلة. وداعا.

- ما معنى هذا؟ وكيف ذلك؟ لا ترحلي وتتركيني هكذا!

قال ذلك، لكنه أيضا لم ينهض، والأصح أنه عجز عن النهوض: اكتفى بالتحديق وراء ظريفة أيضا. بعد وقت طويل، وكان قد أتى على كل العرق الموجود في البيت، تمتم قائلا، وهو يتجه إلى سريره مستندا إلى الجدار: «إن قدري هو قدر مخيف. على العكس من قدر ناظم: كان قدره أن يترك دائما، أما أنا فقدري أن أُترك».

وفي الأيام التالية فكر بهذا كثيرا: سواء ربط الأمر بالقدر أو بمنطق الانهيار الذي يسبق الثورة، ففي الوقت الذي يرغب فيه بفتح ذراعيه للبشرية جمعاء، يبتعد عنه حتى أقرب الناس إليه واحدا إثر آخر؛ وفي حين يريد هو أن يستمر كل شيء باستقامة وسهولة وبلا تناقضات مثلما في منظومة جدانوف، فإن حياته تكاد تتحول إلى قصة فيلم تركي. الوحيدة من بين زميلات ابنته التي تتردد على البيت «نيلوفر» أوصلت له أخبارا أكدت على

ملاحظته: ففريدة لم تترك بيتها فقط، بل كذلك مدرستها، وهي تعيش في شقة في نيشان طاش استأجرها من أجلها رجل في الخامسة والأربعين متزوج وأب لثلاثة أولاد، لمع نجمه في عالم الأعمال فجأة في السنوات الأخيرة. وكانت تقول إنها مسرورة من وضعها وإنها تحب «إلى حد كبير» هذا الرجل الذي في عمر أبيها ولكنه يحقق كل رغباتها. أما فيما يتعلق بأمر لقائها بأبيها إذا سامحها، فينبغي نسيان الأمر حاليا لأنها ردت على هذا الاقتراح قائلة: «أنا لا أرى سلوكا يستلزم السماح. ولا أشعر بأي رغبة في اللقاء مجددا بذلك المعتوه».

في كل ليلة تقريبا كان رسول يعود إلى التفكير في هذا الموضوع وهو يحتسي العرق مع شريحة من الجبن وبضع حبات من الزيتون، فيتمتم قائلا: «لا أفهم، أنا لا أفهم أي شيء»: يمكن للمرء أن يتمسك بمبررات مختلفة كي يظهر سلوكه صحيحا، لا اعتراض له على هذا، أو على الأقل هو يعرف أن المرء يصادف مواقف من هذا النوع كثيرا، لكن ما لا يفهمه هو أن تقطع علاقتها بأبيها لأنه ظل وفيا لأمها. كما أنه لا يفهم أن تتنكر لكل شيء ابنة امرأة ثورية مثل فريدة، وشاعر ثوري مثله، بعد أن نشأت طوال سنوات على أفكار ماركس وقصائد ناظم، وتنخدع برأسمالي هرم وتنجر خلفه. بما أن التاريخ يعرف على أنه وتيرة متصاعدة من التطور، وبالتالي - كما يقول ناظم - بما أن المرء يكون متقدما على أبيه الذي مات ومتخلفا عن ابنه الذي سيولد، من المؤكد إذن أن ثمة خطأ في هذا الأمر. ونظرا إلى أن النظرية لا يمكن أن تكون خاطئة، لا بد أن الخطأ حصل في التطبيق. ولكن كيف؟ وأين؟

«طلاء الأظافر: لا/ فرشاة الأسنان: نعم/ الكتب... الكتب...» لقد حاول أن ينشئ ابنته في الاتجاه الذي رسمه ناظم بالضبط، أي وفقا للمبادئ الثورية. وإذن؟ هل يطبق البورجوازيون مناهجهم بصورة أفضل؟ هل الفاشيون متفوقون على الثوريين؟ كان رسول يربط كل شيء بالتفسير الشخصي الذي اكتشفه ذلك المساء حين خرجت ابنته صافقة الباب وراءها: بمنطق الانهيار الذي يسبق الثورة: إذا كانت واحدة مثل فريدة سونمز قادرة على قطع علاقتها بأبيها لأنه ظل وفيا لذكرى أمها؛ وإذا كان واحد مثل فهمي غولمز قادرا على أن يخرج من كلية الاقتصاد رأسماليا لا يشبع، بعد أن دخلها ليصبح اشتراكيا بلا نواقص؛ فإنما يحدث ذلك لأن ما يوجه تصرفاتنا اليوم ليس الجدل الماركسي، بل النظام اللعين للمآسي القديمة. لا بد أن لهذا موقعا ما في النظرية، لكنه لا يعرف كيف يفسر ماركس انعدام المنطق الكبير هذا. إذا كان ثمة شيء يعرفه، فهو أنه لا معنى للحديث عن خطأ ومسؤول عن الخطأ في هذه الشروط.

كان يقول لنيلوفر: «مهما قالت فإني لا أغضب منها». على الرغم من أنها، باختيارها أن تعيش مع ذاك الرجل، داست رؤيته للعالم التي حاول إقحامها في رأسها طوال سنوات، كان يرغب في أن يرى ابنته من حين لآخر؛ كان يعرف على الأقل أنه لن يستطيع أن يرفض، إذا ما بدر منها اقتراح كهذا؛ مهما يكن من أمر، فهو لم يكن يضمر أي نية مبيتة عندما قال إنه لا يشعر بالغضب منها. إلا أن كل حياته تقريبا قد تحولت إلى أزمة لا أول لها ولا آخر؛ كل ليلة وهو يحتسي العرق برفقة الخبز والجبن أو الخبز

والزيتون، أو في أحسن الأحوال السجق أو البسطرمة، يكاد يصرخ بسبب الوحدة والألم، وحتى بعد أن يطفئ الضوء ويأوي إلى سريره، كان يضطر إلى الصراع مع نفسه حتى لا يقفز خارجا ببيجامته ويستقل سيارة أجرة توصله إلى بيت ظريفة.

بما أن سبب أزمته اجتماعي بالدرجة الأولى، فقد انتهى به التفكير إلى أن حلها لن يكون إلا اجتماعيا أيضا، إذن ومهما تكن الشروط، فعليه أن يتوجه إلى المجتمع من جديد. حصل من البنك على إجازة لبضعة أيام، وضع قصائده الأخيرة في جيبه وسلك طريق المرتفع الشهير. ولكن بدا أن هذا أيضا سيكون مصدرا لأزمة جديدة: في غرف المجمعات التي دخلها بعد بحث مطول في الأزقة الفرعية، لم يتذكر محررو المجلات حتى اسمه؛ أصغوا مع ابتسامة من تحت الشوارب إلى المعلومات التي سردها عن ماضيه كشاعر وكثوري، وكذلك إلى أفكاره الخاصة بالشعر والأدب والثورة، وألقوا نظرة سريعة على قصائده، ثم اكتفوا بالقول: «أيها السيد، لقد تغير الشعر التركي كثيرا في السنوات الأخيرة، ولا أحد يكتب الآن شعرا كهذا». دهش رسول وتمتم قائلا: «شيء غير معقول. ما أكثر ما يتغير هذا الشعر التركي!». ومع ذلك حاول أن يدافع عن شعره، فقال : صحيح أن «التقدم حتمي، الحتمية تقدم»، ولكن بما أنه لا يمكن إنشاء فلسفة جديدة بعد ماركس، وانتظار تجديد حقيقي في فن الشعر بعد ناظم ما هو إلا حلم فارغ، فالمقياس الوحيد الصالح هو المحتوى الثوري، وبالتالي ليس من الإنصاف وصف قصائده بـ «القديمة» إذا نظرنا إليها من زاوية النظر هذه. لكن واضح أن هؤلاء الصبية إما أنهم لا يعرفون

ناظم والجيل الذي سار على خطاه، وإما أنهم يريدون أن يروا في أنفسهم منطلق الشعر التركي المعاصر؛ باختصار، كانوا جميعا محرومين من المعرفة بالتاريخ. فكر هكذا: «مسكين أنت أيها الشعر التركي، بين أي أياد وقعت!».

هذه الملاحظة وجهت تفكير رسول إلى شعراء جيله اليساريين، شاء ذلك أم أبى: إذا استثنينا أولئك الذين اختاروا التعيُّش على أعتاب المجلات البورجوازية المحافظة، فراحوا يكتبون الثرثرات الفارغة بدلا من التبشير بالأيام الجميلة القادمة؛ فإن البقية قد فعلت مثله وانسحبت من الساحة. الواقع أنه لو اجتمع خمسة أو ستة فقط منهم - لا كلهم - وأصدروا مجلة جديدة، لَكَنَسوا كل هؤلاء المعجبين بأنفسهم منذ العدد الأول. قرر رسول، إزاء سوء التقدير الذي لاحظه تجاه جيله، أن يكون المبادر إلى إنشاء مجلة من هذا النوع، مهما كان الثمن. لكن أول ما ينبغي عمله هو العثور على الأصدقاء القدامى وجمعهم معا. بما أنهم أصغوا يوما إلى أحاديثه بإعجاب في المقاهي والخمارات والشوارع، وشاركوه آراءه بصورة كاملة، وأعجبوا كثيرا بقصائده، فهذا يعني أن الأمور ستمضي على خير ما يرام. بحث عنهم في الخمارات والمقاهي التي جمعتهم كثيرا؛ نقب في دفاتر العناوين ودليل الهواتف؛ لكنه وجد المقاهي والخمارات إما أغلقت وإما غيرت تصنيفها، والبيوت التي طرق أبوابها احتلتها وجوه لا يعرفها، ولم يسمع ردا على أرقام الهاتف التي جربها. بعد محاولات امتدت لبضعة أسابيع وصل فقط إلى أربعة أو خمسة من أصدقائه.

ولكن كثيرا ما يحدث أن يكون الوصول مثل عدم الوصول: الأصدقاء القدامى لم يعودوا أولئك الأصدقاء القدامى: شعورهم شابت أو تساقطت، انضافت ذقن ثانية تحت ذقونهم، استقرت كروشهم مثل صرة في أحضانهم، غيرت وجوههم أشكالها وجمدت كأنها غطيت بطبقة اصطناعية، انطفأ بريق عيونهم، وقبحوا إلى درجة كبيرة. بالأخص واحد منهم: له وجه مدور ومدهن يتعارض مع عينيه الصغيرتين جدا والمنطفئتين، وإذا أضفنا حزمة الشعر التي تبدأ من عند إحدى أذنيه ثم تلف حول قمة الرأس لتلتصق بالأذن الأخرى، لتولد لدينا انطباع بأن هذا الوجه من صنع بشري. كان يعرف أنه يشيخ هو الآخر من الألقاب التي ينادى بها في الشارع أو السوق أو الباخرة، والتي تغيرت مع الزمن من «أخي» أو «سيدي» إلى «أيها العم» أو «بابا» أو «أيها الخال»، على الرغم من توهمه أنه يرى الوجه نفسه في المرآة كل صباح، وما كان هذا يسوؤه في شيء؛ أما هؤلاء فيخيل إليه أن ما حدث لهم هو شيء آخر غير التقدم في العمر. وبدا أنهم فضلا عن ذلك قد قطعوا - بنمط حياتهم الجديد - كل صلة لهم بالشاعر الشاب الذي تنكروا في جلده في وقت مضى: فجلس بعضهم على الصندوق في مكان عمل أبيه، وفتح بعض آخر محله الخاص، فيما تعيَّش بعض أخير على أعتاب الجرائد البورجوازية المحافظة التي تنفث نارا حتى على أكثر تيارات اليسار اعتدالا؛ وثمة واحد لا يزال مصرا على كتابة الشعر على الرغم من فقدانه لحماسته منذ وقت طويل، لم يكتف بتغيير مواقفه كي يساير شعراء البورجوازية الشباب الذين في مثل عمر ابنه، بل غير اسمه أيضا.

على الـرغم من هـذا، أو ربما لهـذا السـبب، حين تـغلب رسـول على اشـمـئـزازه وأراد أن يعـانقـهـم، تصـرفـوا ببـرود وحيـاد؛ والأنكى من ذلك ظهـور تعـبـيـر غـريب على وجـوههم يراوح مـا بين السـخـرية والشك. أراد أن يبث فيهم شيئـا من الحيوية، فسـألهم: «ما هذا؟ مـا الذي حـدث للجـمـيع؟ هل أهـالوا عليكم تـراب الموت؟» فلم يكن منهم إلا أن كـرروا نظرتهم المحـملة بالشك والسـخـرية، ثم قـالوا: «إنها الحيـاة» كمـا لو كان كل هـذا الانحطاط يمكن تفسيـره بكلمـة واحـدة. من الواضح أن حـمـاسـة الشـبـاب التي يسـعى إلى إحـيـائهـا بعـد كل ذلك الركود، لم تفعل سـوى أن أجفلت أصـدقـاءه القـدامى. كـان البـعض منهم ينظـر إليـه كـأنه خـائف، والبـعض الآخـر كـأنه يسـخـر منه، وينتـهي هؤلاء وأولئك إلـى رفض اقـتـراح ببـرود. ترى هل الأمـر الطبـيـعي هـو مـوقف الشـبـاب الذين لا يعـرفـونه هو وشـعـره، وهل الاسـتـمرارية عبـارة عن وهم؟ لا شـك أنه لم يكن من السـهـولة بمكان أن يتـقـبل تفكيـرا مـثل هذا وهو الماركسي المؤمن، لكن خيبـات الأمل المتتـاليـة التي تعـرض لهـا كـانت تعيـد طرح هـذا السؤال في كل مرة.

الشـخص الوحيـد الذي لم يسـبب خيبـة أمل كـاملة لـرسـول، هو نجـمي الموجـيك، الذي كـان في الأيام الـغـابرة مـوضع سـخـرية مـعـروف المطرقـجي الدائم بسـبب صـوته الغليظ الذي يتـنـاقض مع قـصـر قـامـتـه المفـرط. إن أردتم الحق، هـو الآخـر لم يبـد عليـه السـرور بلقـاء رسـول، وحين شـد هـذا على يده بحـمـاسـة قـفـز من مكانه مطلقا صـرخـة مخيفة، وأنَّ قـائلا:

- إصبعي.

احمر وجه رسول بشدة، وسأله:

- ما به إصبعك؟

ابتسم نجمي الموجيك وقال:

- لا شيء يذكر.. هدية صغيرة من الفاشية... اعذرني على صراخي. أفعل ذلك كثيرا بصورة لا إرادية، أو بالأحرى أن الأصدقاء الذين لا يعرفون الوضع كثيرا ما يعيدون تذكيري بهذه الذكرى التي خلفها لي الفاشيون.

قال ذلك ثم مد يده اليمنى نحو رسول: لم يكن ثمة شيء ظاهر بوضوح، لكن الجلادين، في اعتقاله ما قبل الأخير، أرادوه أن يخبرهم بما يعرفون جيدا أنه لا يعرفه، فسحقوا عظام إصبعين من أصابعه تحت أعقاب أحذيتهم: حتى بعد مرور سنوات فإن قليلا من الضغط عليهما يسبب له ألما فظيعا.

- «آسف، ما كنت أعرف»، قال رسول ثم راز صديقه من رأسه وحتى قدميه: إصبعه معطوب، وقد هزل كثيرا، بدا أكثر ضآلة مما كان عليه، غير أنه لم يخسر الكثير من شبهه بنفسه. صحيح أنه كان به شيء من الخوف والنأي والتردد، لكنه تخلص بعد فترة من ذاك المزاج وحكى قصته.

عندما اعتقل للمرة الثالثة لم يكن مضى عليه في الخارج سوى شهرين. استمر اعتقاله الأول ثلاث سنوات، والثاني سنة ونصف السنة، أما الثالث فقد استمر ثمانية أشهر وعشرة أيام. اتهموه في المرة الأولى بممارسة نشاط يهدف إلى حكم طبقة لطبقة أخرى، وذلك بواسطة كتاب شعر من ثمان وأربعين صفحة، واتهم في المرة الثانية بالمشاركة في نشاطات حزب غير شرعي لا يعرف

أين يكون ولا من يديره، أما في المرة الثالثة فلم يوجهوا إليه أي تهمة حتى «أطلقوا سراحه». علاقته الوحيدة الآن بعالم الأدب تتمثل في عمله كمصحح لغوي في دار نشر. أما الشعر، فإن المدمن أسوأ من الجربان، لا يزال يكتب كلما جاءه الإلهام، ولكن ليس بقصد النشر، بل فقط لأنه لا يستطيع الامتناع عن الكتابة. وإذ ألح عليه رسول قليلا، قرأ عليه بعضا مما كتبه أخيرا. لكن إثارة شعره لإعجاب رسول، أزعجه؛ وبالأخص عندما قال له صديقه بأنه يتعين إيجاد طريقة لإيصالها إلى الجمهور، فقد أصيب بذعر حقيقي. سأل صديقه: «ولماذا؟ حتى أدخل السجن مرة أخرى؟»، وعاد إليه ذلك المزاج من الغربة والتردد.

«لا، بل لإظهار أن الشعر الثوري لم يمت، وأن التقليد الذي بدأ مع ناظم لا يزال مستمرا!» قال رسول ذلك وحكى له كيف استقبل مديرو المجلات الجديدة شعره، ثم أدار وجهة الحديث باتجاه مشروع المجلة الذي يفكر به، فلاحظ أن صديقه بلغ درجة عالية من الذعر ورأى يده التي تحمل ذكرى الفاشيين ترتعش، فانبرى يسأله: «ما الذي يحدث لك هكذا يا صديقي نجمي؟ لِمَ تنظر إلي بهذه الطريقة الغريبة؟ لِمَ ينظر إلي الجميع بتلك الطريقة الغريبة؟!».

حاول نجمي الموجيك أن يبتسم وهو يجيب بسؤال:

- أحقا لا تعرف؟

- لا... لا أعرف... حقا لا أعرف... ولست أفهم. لماذا؟

- ليس في الأمر ما هو غير مفهوم... كل شيء واضح إلى درجة...

إذا أصغى المرء لما قاله، فسيرى حقا أن كل شيء يبدو في منتهى الوضوح: إن كل المخضرمين الذين حاول رسول أن يعيد

صلاته بهم بعد سنوات من الانقطاع، قد دخلوا السجن مرة على الأقل بعد انقطاع تلك الصلات، بالمقابل يعرف الجميع أن أحدا لم يلمس شعرة في جسد رحمي سونمز، وهو الذي كان يلقن دروسا في الماركسية بالصوت المرتفع في الخمارات كل مساء، وينشر في مجلات الأدب اليسارية أكثر القصائد كفاحية، وكذلك الأمر مع فهمي غولمز الذي كان يسانده دوما في كلامه وكتاباته. ولا يمكن أن يكون بفعل المصادفة أن الصديقين قد اختفيا عن الأنظار قبل بضعة أسابيع فقط من حملة الاعتقالات الجماعية التي شملت كذلك نجمي الموجيك، وأن الصعود السريع لفهمي غولمز قد بدأ في الفترة نفسها بالضبط. في هذا الوضع من الطبيعي أن يرتاب المخضرمون حين يظهر رسول بعد كل تلك السنوات بصورة مفاجئة ويطرح فكرة إصدار مجلة كفاحية، وبصراحة أكثر فهم يشكون في أنه «عميل سري».

حين سمع كلمة «عميل سري» أصبح جسد رسول قطعة جليد، وظل فترة طويلة عاجزا عن الكلام مثبتا عينيه في وجه صديقه.

بعد فترة راح يتأتئ: «أنا لا أفهم، لا أفهم... مثل بينرجي وسومادي‌فا إذن... ولكن كيف لهم أن يرتابوا بي؟ هل يتعين أن يتهم المرء من قبل الفاشيين حتى يعتبر ثوريا؟».

أحنى نجمي الموجيك رأسه وتمتم يقول:

- ربما.

- أولا يعني ذلك إعطاء أهمية أكبر لحكم الفاشيين مما لحكم الثوريين؟

ـ قد يكون الأمر كذلك. ولكن ألا يقال بأن التبرجز ضروري قبل تحقيق الثورة؟

ـ «هذا يختلف عن ذاك»، قال رسول ثم سأل بما يشبه التوسل: «طيب، وأنت؟ ما رأيك أنت؟ هل تصدق أيضا هذه السخافات؟».

ابتسم نجمي الموجيك:

ـ لا. أنا لا أصدقها. ولكن ثمة احتمالا أن تكون انسقت وراء صديقك الرأسمالي. أعني دون أن تعرف. لقد اعتقدت دوما بأنك ولد ساذج.

ـ ساذج؟ ماذا تعني بذلك؟

حاول نجمي الموجيك أن يتهرب من عيني رسول:

ـ ساذج هكذا... أعني نظيفا ونزيها وصريحا. لكن عدم دخولك السجن حقيقة. لقد سجن ناظم اثني عشر عاما.

لم يتمكن رسول من رؤية علاقة بين الأمرين:

ـ ماذا تعني؟

رد نجمي الموجيك على السؤال بسؤال:

ـ هل يمكن أن يكون ثمة مقياس أسلم لشاعرية الشاعر؟

غمغم رسول:

ـ إني لا أفهم... لا أفهم.

كان يعرف أن الثوريين الذين يقضون سنوات طويلة في السجن، يقابلون باحترام خاص، ولكن لم يخطر في باله قط أن دخول السجن، يمكن أن يعتبر شرطا لازما وكافيا كي يعتبر المرء شاعرا أو كاتبا. لهذا ما كان يعتقد أن اعتقال نجمي الموجيك ثلاث مرات ثم إطلاق سراحه دون أن تثبت عليه أي تهمة من

التهم التي أرادوا تلفيقها له، وبقاءه في السجن ما مجموعه خمس سنوات و شهران وعشرة أيام، يشكلان أي مزية عليه ـ هو الذي لم يعتقل مرة واحدة ـ من زاوية نظر الشعر والثورة. فضلا عن ذلك، يعرف نجمي الموجيك جيدا أنه لم يستولِ عليه الخوف من الاعتقال لحظة واحدة، سواء وهو يشرح نبوءات ماركس في الخمارات، أو وهو ينشر القصائد الثورية في المجلات اليسارية، لذلك ليس من الإنصاف في شيء اتهامه بالعمالة فقط لأن قصائده لم تلفت نظر النيابة؛ لكن نجمي الموجيك أظهر مجددا وبصورة مؤكدة أنه ينظر إلى الموضوع بطريقة مختلفة. إذ قال:

ـ ناظم سجن اثني عشر عاما.

كان رسول قد جاء إلى نجمي الموجيك على أمل تجاوز أزمة تنغص حياته منذ فترة طويلة، فرحل وقد تضاعفت مرات. بعد ذلك التقى بشاعرين آخرين بعد جهود مضنية من البحث عنهما، فعبرا بصراحة عن عدم سرورهما باللقاء به، فملأه شعور من طرد إلى الشارع بجيب فارغ من بيته الذي آواه سنوات بحلوها ومرها؛ ولم يتخلص من هذا الشعور بسهولة: فلأن أصدقاء الأمس ما عادوا يجتمعون في الخمارات، ولأنهم لن يقبلوا به بينهم حتى لو اجتمعوا، وبما أنه بالتالي لن يعود إلى تلخيص ماركس بصوت مرتفع، وبما أنه لن يتمكن من نشر قصائده الكفاحية بدعوى أصحاب المجلات أن «لا أحد يكتب شعرا كهذا اليوم»، وبما أنه لا يليق بمبادئه كشاعر أن يطبع كتبا على حسابه، فإن عودته إلى الانضمام إلى المخضرمين باتت أقرب إلى المستحيل. إذن ما الذي يتبقى؟ هل يذهب ليدق باب «خان

صنصـــريان»(*) ويقــول لهم: «أنـا أكـثـر الشـيــوعــيين تشــدُّدا: اعتقلوني!»؟ في مثل هـذه الحـالة، فضـلا عن أنه سيكون قد قام بدور «العـميل» تجـاه نفسـه، فـإن الاحتـمـال ضـعيف جـدا في أن يحكم عليـه وفـقـا للمـادتين ١٤١ و١٤٢(**): في أحسـن الأحـوال يمكن أن يرمـوا به في مـشـفى المجـانين. حكى مـشكلتـه للشـخص الوحيد الذي كان يزوره في تلك الأيام: زميلة ابنته «نيلوفر».

لا يمكن القـول إنه كـان يسـتلطف هـذه الفـتـاة كـثـيـرا؛ كـانت بالأحرى تقلق راحته بثيابها الضيقة وعطورها النفاذة؛ لكنها كانت تأتيـه بأخـبـار عن ابنتـه بكثـرة، وتـرتب البـيت دونما خـوف على أظافـرها من التقصف، وأجـمل مـا في الأمـر أنها تفتح في وحـدته ثغرات في أزمتـه الراهنة، مهـمـا كانت ضـآلة تلك الثغـرات. مهمـا يكن من أمـر، قـبل أن ينـقـضـي أسـبـوع كـامل على إفـضـائه لهـا بهـمـومـه، جـاءت ووضـعـت أمـامـه مـجلة سـمـيكة وأخـبـرته أن صديقـا لها من أصـدقاء الطفولة يدير هـذه المجلة وأنه مستعد للاجتـمـاع به، وأنه سـيطبع قـصـائده بحـمـاسـة إذا تفـاهـمـا من حـيث المبـادئ الجـمـاليـة. حين سـمـع رسـول هـذا الكلام تمالك نفسه بصعوبة حتى لا يقبلها من خديها المطليين.

كان مـدير المجلة السـميكة «ولـدا» مثل الآخـرين، لكنه من جهـة بطوله تقريبـا، ومن جهة ثانيـة يعامله باحترام: لحظة دخول رسـول من الباب نهض واقفا، وحين عرفه رسول بنفسه قال:

ـ أنا أعـرف رحـمي سـونمز جيدا يا سـيدي، وعلى اطلاع بأنه

(*) فرع مخابرات.

(**) مادتان في الدستور تحدان من حرية التعبير.

كان أحد أفضل الشعراء في فترة من الفترات: كان شعرك نوعا من النكتة السوداء يسخر من أطروحاته الخاصة. حتى «أورهان ولي» ما كان بمقدوره أن يفعل ذلك، لأنه كان يؤمن أن للشعر رسالة.

لم يفهم رسول القسم الأخير من الكلام، لكنه رأى أن شعره يمدح بهذه الطريقة أو تلك، لأول مرة منذ سنوات. ابتسم بسرور وقال:

- شكرا لك. وأنا أعجبت بمجلتكم. أود أن أنضم إليكم.

- هذا يفرحنا، ولكن علي أن أخبرك على الفور: بالنسبة إلينا لا أهمية تذكر للنظرة إلى العالم، أو بالأحرى نحن لا نختار مبدعينا بالنظر إلى نظرتهم إلى العالم، إن الشيء الوحيد المشترك بين كتابنا وشعرائنا هو كونهم نماذج للمستوى الذي تستهدفه مجلتنا. ثمة شيء آخر هو أننا نشمئز من الضحالة والشعارات والتفاهات العادية والادعاءات الفارغة والعجز وانعدام الجرأة. آمل ألا يكون موقفنا على تعارض مع مبادئك.

لم يسبق لرسول أن فكر بهذه الأمور، لكن هذا الولد هو أمله الأخير، فضل أن يسايره:

- لا، على العكس. لكنني أملك نظرة إلى العالم.

- بالطبع يا سيدي... طبيعي أن تكون لديك نظرة إلى العالم: نحن جميعا نملك نظرة ما إلى العالم.

قال الشاب ذلك ثم استأذن بأدب أن يقرأ على رسول آخر قصيدة كتبها، يريد تدعيم فكرته بمثال ملموس. كانت قصيدة طويلة تقيم تناغما مدهشا باستخدام أسماء لا ترتبط في الظاهر بأي صلة فيما بينها من مثل: طير القمرية ورباط الجورب

والكعكة وسبارتاكوس والبوط والزبور والزقاق والأبنوس والبشيكار(*) والشرشف والسيفون ومتى وكريستوفركولومبوس، وإذ يخيل لمن يصغي أنها انتهت، تعود لتبدأ فجأة من جديد. على الرغم من أن رسول قد أصغى بكل ما يملك من انتباه، فلم يفهم شيئا قط، ومع ذلك تأثر كثيرا. قال:

- جميلة جدا. مشوشة بعض الشيء، لكنها قصيدة مفعمة بالحساسية الرقيقة.

- «أهكذا ترونها؟» قال الشاعر الشاب وبدا أنه لم يستسغ هذا المديح «هذا يعني أن القصيدة لم تنجح، ذلك أن الحساسية هي أكبر أعداء الشعر».

أراد رسول أن يعترض، لكنه تذكر أنه مضطر إلى التفاهم مع هذا الفتى:

- «اعذرني، فليس هذا ما قصدت قوله» صحح يقول: «ولكن علي أن أوضح من فوري أن شعري مختلف قليلا. أنا أريد كتابة قصائد تفهم بسهولة وبوسعها التأثير في الجماهير، أي نوعا من الشعر الكفاحي».

ابتسم المدير الشاب بتسامح:

- إني أفهمك يا سيدي. لكني لا أؤمن أن ثمة تناقضا بين شعرينا. مثلا، إذا قرأت هذه القصيدة التي سمعتها لتوك، في إحدى الساحات وأمام عشرات الألوف، فسوف أؤثر في الجميع كما لو أني قرأت عليهم شعرا كفاحيا. عليك ألا تنس أن كل قصيدة جديدة هي قصيدة كفاحية.

(*) كلمة فارسية تعني شخصية رئيسية في نوع قديم من المسرح، هي التي تفتتح الحوار.

أكد رسول على كلامه بالقول: «صحيح. إن ذلك هو كما تقول»، لكنه كان على وشك اليأس من احتمال التفاهم مع هذا «الولد»: هو لا يريد فقط أن يؤثر، بل أن يثير الغضب، أن يحرض، أن يستفز النيابة كي يحتل المكانة التي يستحقها بين أصدقائه الشعراء القدماء وإن كان بصورة متأخرة، وكانت القصائد التي من شأنها أن تحقق غايته جاهزة في جيبه. ولكن التحدث في ذلك له معنى مطابق لأن يقول: «أنا أريد أن أتسبب في إغلاق مجلتك». أراد إذن أن يعبر عن فكرته بطريقة مبطنة، فقال: «لكني أريد بصورة خاصة أن أنشر قصائد تثير جنون البورجوازيين».

- «رائع!» هتف الشاعر الشاب، قفز من مجلسه، وشد على يد رسول، «وهذا بالضبط ما أريده أنا: إثارة جنون البورجوازيين!»، ثم كرر بضعة مقاطع من قصيدته وقال: «إن لم يكن هذا يثير جنون البورجوازيين، فما الذي تفعله إذن؟».

- هل تأخذ المرء إلى السجن أيضا؟

- تأخذه حتى إلى حبل المشنقة! مادامت هي خارج الطبقة البورجوازية وفي مواجهتها!

أدهش رسول أن البورجوازية مصطلح جدلي لا غنى عنه ليس فقط بالنسبة إلى الماركسيين، بل أيضا بالنسبة إلى الشعراء الشباب الذين ينكرون كل ضروب الإبلاغ، وأن المرء يشعر بحاجة دائمة إلى هذه الطبقة العدو، سواء كان يبغي القيام بالثورة، أو تأكيد شاعريته. مع ذلك قال بثقة استمدها من الحماسة التي خلقها قبل قليل:

- نعم، إن هدفنا واحد، لكنني أريد إثارة جنون البورجوازية بمضمون شعري.

ولكن كان من المستحيل الوصول إلى نتيجة مع هذا الولد الذي اندفع يقول:

- «يا سيد رحمي، يا أستاذي، إن ما ندعوه مضمونا يمكن له أن يكون الغضب الذي نثيره في البورجوازي، أو الحماسة التي نثيرها في الجمهور على السواء»، قال هذا ثم راح يعدد براهينه. فقال إنه لا شك أن المضمون جانب مهم، لكنه ليس كل شيء، أو إنه ليس المعنى وحده؛ لو أن المضمون هو كل شيء وأنه موجود فقط في المعنى، فأي جديد كان يمكن أن يقال بعد كارل ماركس؟ لنفترض أنه بالإمكان قول أشياء جديدة بعد كارل ماركس، فما هو الجديد الذي يمكن أن يقوله الشاعر الماركسي؟ ومع أننا نعرف بخبرتنا أنه يمكن قول أشياء جديدة. وعلى سبيل المثال هو، أي رحمي سونمز، قد نجح في ذلك؛ ونجاحه طبيعي، ذلك أن الشاعر الحقيقي هو الذي يستطيع أن «يقبض» على شعر عصره، وهذا هو الشرط الوحيد لأن يقرأ في «صيغة المستقبل». من زاوية النظر هذه فإن معارضة المجلة لشعر الشعارات، لا تنبع من خيار اعتباري بل من «إشكالية المعاصرة». وتابع يقول: «باختصار، لست ضد كونك ماركسيا؛ لكن بإمكانك أن تكون ماركسيا ومعاصرا في الوقت نفسه، وأقول إنه بوسعك أن تعالج هذه المشكلة بواسطة الرمز. وعلى سبيل المثال بوسعك أن تكثف الماركسية كلها في جسد امرأة كرمز».

على الرغم من عدم بلوغه تحديدا دقيقا فإنه منذ سنوات طويلة ورسول يماهي الماركسية في امرأة ضئيلة الجسد؛ ومع ذلك

أجفله الاقتراح، بل خيل إليه أن الشاب يسخر منه، فراح يحدق فيه بثبات، لكن الشاب بدا صميميا ومؤمنا كما كان منذ الدقيقة الأولى من اللقاء. وحين أضاف قائلا: «أتظن أن ناظم كان يستطيع إثارة جنون البورجوازية إلى هذا الحد لولا أنه جاء بشعر جديد كل الجدة؟ هل يمكن التفكير بقصيدة «بينرجي» منظومة وفقا لبحور الشعر؟». لم يبق لدى رسول أثر من الشك في صميمية الشاب وفي أحقية دعواه.

- «إني أفهم. أفهمك الآن جيدا»، قال ذلك ولم يخرج أيا من القصائد التي كان جاء بها في جيبه. استأذن بالانصراف بعد أن وعد بإحضار قصائده الجديدة في أقرب وقت.

حين جاءت نيلوفر، بعد ساعات، إلى البيت الصغير في أسكدار، لتعرف نتيجة المقابلة، وجدته يحوص فرحا، وعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكرا فإنه أعد طاولة الشرب، وطلب منها أن تبقى لتتناول العشاء معه. خرجا معا لشراء بعض الحاجيات، أعدا الطعام معا في المطبخ. فكرت نيلوفر أن عناد رسول قد يتحطم اليوم ويتغير كل شيء. مهما كان من أمر حين جلسا على العشاء متقابلين تركزت نظراته عليها، وظل هكذا ذاهلا عن كل شيء دون أن يتفوه بكلمة، وكان بين حين وحين يبلع ريقه بصورة غريبة. ترى هل كان يحاول تكثيف الماركسية كلها في جسد امرأة - كما نقل لها كلام الشاعر الشاب؟ ربما كان هذا واحدا من الأسباب، لكنه كان ينظر إليها بتلك الطريقة لسببين آخرين: أولا لأن فرحته قد فاقت كل المقاييس، وثانيا لأن نيلوفر جاءت لأول مرة هكذا من دون أصبغة كثيرة، فكر برهة أن القرار

الذي اتخذه فوق جثة فريدة هو بالفعل قرار يصعب الخضوع له. لكنه ربما لهذا السبب تمالك نفسه بسرعة وفكر: «وأنا شاب لم أتراجع عن تعهدي حتى من أجل ظريفة. ولن أفعل بعد الآن». وجه دفة الحديث مجددا وجهة المدير الشاب للمجلة الطليعية: «إن صديقك شاب محترم حقا. عندي أمل أننا سنتفاهم بصورة ممتازة». وتحقق أمله فعلا: بمساندة متحمسة من صديق نيلوفر الشاب بدأت مرحلة لافتة ومثمرة في حياة رسول الشعرية.

إذا نظرنا بعين مؤرخ الأدب يمكن أن نسمي تلك المرحلة اللافتة في شعر رحمي سونمز بـ «مرحلته الرمزية التجريدية»؛ ذلك أنه كان يطرح كل المفاهيم الأساسية للنظرية أو الصراع اللذين يريد التعبير عنهما، بدلالة عناصر من جسد المرأة أو ملابسها، كما أنه لا يبتعد مليمترا واحدا عن جسد المرأة إذا أراد أن يعكس الروابط ما بين المفاهيم الأساسية والتمفصلات المختلفة للنظرية. لا شك في أنه كانت تتسرب إلى شعره أيضا عناصر ليست رموزا فحسب: كان رسول يقوم بإحالات كثيرة - بفضل ذاكرته الفريدة - إلى حوادث تاريخية متنوعة، وآخذا بعين الاعتبار التوجه العام للمجلة، يذكر أسماء لافتة من عهد الفراعنة ومن الأساطير اليونانية. حتى أنه جعل اسم «شوبيلوليوما» قابلا للفظ هكذا:

شب

بي

لو

ليو

ما

فأقحمه في الشعر بهذا الشكل لأول مرة في تركيا، بل ربما في العالم أيضا. لكنه اكتفى باستخدام كل ذلك كعناصر زخرفة أو كأمثلة، مكثفا عمله الأساسي على جسد المرأة. وعلى الرغم من شعوره بالضيق بين حين وحين من تعارضه مع ناظم الذي كان يحب أن يضع كل شيء في مكانه الصحيح، كما تشهد بذلك أبيات من شعره مثل:

«بفمها تشرب الماء

وبقدميها تمشي»

فقد أعاد رسول رسم خارطة جسد المرأة بكاملها: حينا بوضع اليدين مكان الرأس، ووضع الرأس مكان اليدين، وحينا بإدخال الذراعين في الجرابات والرأس في السروال، وحينا بالانطلاق في رحلة خطرة ومشوشة داخل الأمعاء الدقيقة والغليظة. وقد اشتغلت المنظومة بصورة جيدة إلى حد كبير حتى لو اختلطت بعض المفاهيم أحيانا وهو - على سبيل المثال - دلَّ على «التاريخ» الذي ينطق بالحكم، بالرأس، وعلى «البروليتاريا» التي تنفذ حكم التاريخ، بالذراع. لكن شعراء المرحلة الشباب وجدوا تلك القصائد غريبة عنهم على الرغم من غموضها، وعلى الرغم من كل إحالاتها التاريخية والأسطورية، ربما لأنهم أدركوا جانبها التأملي، وربما لأنهم اعتبروا الشاعر مسنا أكثر مما ينبغي ووسيما أكثر مما ينبغي. أما الكتاب والشعراء من جيل رسول فلم يخطر في بالهم قط أن جسد المرأة المتغير الذي يعاد طرحه أمامهم المرة بعد المرة، يمكن أن يعني المجتمع، وأن يديها وقدميها ترمز إلى البروليتاريا وجذعها إلى الطبقة البورجوازية ورأسها إلى الأقلية

الرأسمالية (وفي بعض المواضع إلى التاريخ)، ولا خطر في بالهم أن تحولات ذلك الجسد يمكن أن تشير إلى الأطوار الصعبة والحتمية التي تحققت أو ستتحقق على طريق الثورة البروليتارية؛ وتحدثوا بدلا من ذلك عن «الهروب» و«الانحراف» في شعره؛ أما النيابة فلم يصدر عنها أي صوت: ترى هل أقسم وكلاء النيابة على تخييب أمل رسول بصورة دائمة؟ أم أنهم خائفون من إثارة سخرية الجميع إذا ما حاولوا تحليل تلك القصائد اللافتة تحليلا تفصيليا؟ مهما كان السبب فإنهم لم يحركوا ساكنا. والحال أن رسول كان في نهاية كل أسبوع يصدر فيه عدد جديد من المجلة - ويتضمن قصيدتين له على الأقل - يضع المجلة في جيبه ويذهب إلى المقبرة حيث يجثو عند جهة القدمين من قبر فريدة، بوعي من نفذ المهمة الثورية الموكلة إليه، ويروح يحلم بأسرة المهاجع المسخمة في السجون والنوم على الإسمنت البارد كالجليد في الزنازين التابوتية، كما لو كان يحلم بسرير للحب برفقة فريدة. بل إنه في الأيام التالية لنشر عدد من قصائده الأكثر حدة، كان يضع في حقيبة سفره بعض الملابس الداخلية النظيفة وبضعة أزواج من الجرابات النظيفة وعددا من علب سجائر البيرنجي، وينتظر قدوم الشرطة بثقة. لم تأت الشرطة أبدا. وحين تم إيقاف تلك المجلة الطليعية عن الصدور بعد فترة نشر يمكن اعتبارها طويلة امتدت لتسعة أشهر، انتهت إلى الخيبة التامة آمال رسول في مشاركة الشعراء الثوريين القدامى مصيرهم. كأن تلك الخيبة لم تكن كافية، فقد تضاعفت أزمته تحت وطأة الأخبار الكريهة التي جاءت بها نيلوفر عن ابنته.

وفقا لرواية نيلوفر، فإن أعمال الرجل الذي تعيش فريدة معه، قد تدهورت بصورة مفاجئة بعد أن كانت في منتهى الازدهار، أما فريدة فبدلا من الوقوف إلى جانب حبيبها ومساندته في هذا الوقت الصعب، راحت تفتعل معه المشاجرات بدعوى أنه خدعها، وإذ عرفت في تلك الأثناء أنها حامل راحت تصر على إنجاب طفلها فقط من باب النكاية به. وبعد أن أنجبت الطفل رفضت بصورة قطعية اقتراح الرجل بأن ينفصل عن زوجته ويتزوجها. وهكذا في الوقت الذي كان رسول يعرض حريته للخطر في سبيل الثورة، كانت ابنته تقحم في حياته ميلودراما جديدة جديرة بالأفلام التركية. كأن هذا لا يكفي، خطت خطوة أخرى لا يمكن مصادفتها حتى في الأفلام التركية، حين أخذت ابنها الذي بلغ الشهر العاشر وهربت إلى ضابط صف أمريكي زنجي. وكان هذا رجلا سيئ الطباع فضلا عن كونه فوق المساءلة سواء بسبب جنسيته أو بسبب نوعية عمله. لم يكن يسمح لفريدة برؤية أحد، ولا يسمح لها حتى بالذهاب إلى البقال إن لم تكن برفقته. قالت نيلوفر: «خلاصة القول، أنا أيضا لم يعد بإمكاني أن أرى فريدة». لم تصدر عن رسول أي ردة فعل، ولا قدم أي تفسير، ولا طرح أي سؤال. فقط أحنى رأسه وظل صامتا. كان هذا في تلك الفترة حين اعتُقل أهم رجالات السلطة التي لم تكتف باعتقال الشعراء اليساريين، بل اعتقلت رؤساء تحرير صحف شهيرين يشكلون أعمدة اليمين؛ ووضعوا في جزيرة صغيرة(*). كان الجميع يعيشون هيجانا كبيرا من كتاب وشعراء ومثقفين وجامعيين. ولم يتخذ

(*) المقصود الانقلاب العسكري لعام ١٩٦٠ الذي أطاح بحكم الحزب الديموقراطي.

رسول موقعا له لا بين ضحايا القمع، ولا بين من ساهموا في سقوط نظام القمع، لذلك فقد كان غارقا في شعور من وقع خارج حدود الحياة، وهاهو الآن يشعر بمرارة أنه انقطع عن ابنته أيضا. تمتم يقول، كما لو كان يتحدث عن انهيار طبيعي: «وما الذي بوسعنا أن نفعله... إن ما حدث قد حدث».

ومع ذلك، حين دخلت عليه فريدة، ذات مساء خريفي بعد بضعة أعوام، وكان يحتسي العرق بمفرده، وهي ترتدي سترة تشبه كثيرا سترة أمها وعلى رأسها بيريه، كانت مفاجأته عظيمة، تلعثم وهو يردد اسم فريدة من غير أن يميز إن كانت الداخلة زوجته أم ابنته، نهض يريد الارتماء عليها، لكن فريدة أوقفته بنظرة جليدية كافية لتحديد أي فريدة هي. قالت له:

ـ اجلس وتابع شريك للعرق. لم أجئ من أجل استعراضات عاطفية. اسمع ما سأقوله لك: أنا راحلة إلى أمريكا. لكنك تعرف أن لي ابنا عمره ثلاث سنوات ونصف السنة، وسيعيق حركتي هناك، بالإضافة إلى أن الرجل الذي سأذهب برفقته لا يريدني أن أصطحبه. إذا قلت إنه حفيدك وستعتني به فسوف أتركه لك. وإذا لم ترغب في ذلك فثمة أماكن أخرى. ما رأيك؟ نعم أم لا؟ اتخذ قرارك بسرعة فلا وقت لدي.

قفز رسول من مجلسه بحقد لم يشعر بمثله أبدا تجاه أي كان، أراد أن يلقي بهذه الفتاة عديمة المشاعر تحت قدميه ويضربها حيثما وقع الضرب. لكنها كانت بوجهها ووقفتها ونظرتها تشبه فريدة شبها جعله يتجمد حيث هو قبل أن يخطو خطوته الثانية. وحين كررت ابنته سؤالها أجابها بأنين:

- حسنا! لعنة الله عليك!

- طيب. سآتي به فورا.

اتجه رسول دون تفكير إلى النافذة المطلة على الشارع. رأى زنجيا كالفحم، أطول منه تقريبا، واقفا يدخن سيجارة أمام سيارة كبيرة خضراء، ثم رأى فريدة تركض وتعانق هذا الزنجي، فأجفل وشعر بدوار، ألقى بنفسه على مقعده بصعوبة. انكمش هكذا ويداه تحيطان برأسه. راقب دخول فريدة وفي يدها حقيبة سفر وفي حضنها صبي صغير، ثم تركها لهما عند عتبة الباب، ثم إغلاقها الباب خلفها بعد أن ودعته بعبارة: «هيا. أستودعك الله!» كما لو كانت ذاهبة إلى البقال... راقب كل ذلك كما لو كان يرى حدثا في حلم وغمغم يقول: «فِكْرَتْ وخَلُوقْ! تماما مثل فَكْرَتْ وخُلُوقْ!» هذا التشبيه أعاده إلى رشده تدريجيا. ثبت عينيه بمزيج من الدهشة والحزن على صبي البحرية الأمريكية الصغير الجالس في المقعد الكبير أمامه مباشرة، ينظر إليه بصمت، بحاجبين مقطبين وساقين تتدليان في الفراغ، يوحي للناظر بأنه كبر ثم عاد فصغر. قطب الصبي حاجبيه أكثر حين رآه ينظر إليه، لكنه لم يقل شيئا ولا غير من جلسته. كان يعطي الانطباع بأنه يعرف كل شيء ومستعد لكل شيء.

شعر رسول بغصة مباغتة في حلقه، فكر في أن حالة هذا الطفل أسوأ حتى من حالته، اقترب منه، جثا أمامه، رسم ابتسامة وأراد أن يداعب خده. لكن الصبي تراجع بسرعة إلى الوراء وأعد قدميه في وضعية الرفس، مظهرا بذلك أنه لا يحب هذه الأشياء. استاء رسول قليلا، ومع ذلك حاول أن يبتسم وراح يطرح عليه أسئلة من نوع: «ما

اسمك؟ هل تعرف من أكون؟ هل أحببت هذا البيت؟ أتريد شيئا؟».
لكن الصبي اكتفى بالنظر في وجهه من تحت قبعة البحرية التي يرتديها، نظرة مزجت ما بين شيء من الخوف وشيء من السخرية. وفي كل مرة حاول رسول أن يلمسه، رفع ساقيه واتخذ وضعية دفاعية. أخيرا نفد صبر رسول فصرخ به:

- أليس لك لسان يا بني؟ لِمَ لا تحكي؟ لم لا تقول شيئا؟

فرد عليه الصبي قائلا:

What are you saying? Can't you speak properly?

اندهش رسول، قال لنفسه: «ما الذي يحدث؟ هل يسخر مني؟» اقترب من الطاولة، سكب العرق المتبقي في الكأس في جوفه، ثم جلس وقشر تفاحة قطع منها شريحة كبيرة مدها إلى حفيده بعد أن جثا أمامه ثانية:

- خذ، خذ، لا تخجل.

لكن الصبي ضرب على يده موقعا شريحة التفاح على الأرض، كما لو كان يتحدى ثم كرر الكلمات غير المفهومة نفسها:

Can't you speak properly?

وهكذا استوعب رسول الموقف للمرة الأولى، تمتم يقول: «هذا الصبي لا يجيد التركية» ترك نفسه تسترخي على السجادة «لا يجيد التركية، يتحدث فقط بالإنجليزية، أو ربما لغة أخرى، وما أدراني! ما الذي سأفعله الآن؟» إن تسعا وتسعين في المئة من المفردات الفرنسية التي جعلوهم يحفظونها في الثانوية ما زال يحتفظ بها في ذاكرته، لكنه لا يعرف أي شيء عن لغة «كبار المستغلين». شرد هكذا وهو يحني رأسه، ثم تذكر فجأة أن ظريفة

ساعدت فريدة خلال الأشهر الأولى من التحاقها بالمعهد، فقال بفرح: «مشى الحال!» وقرر أن يقوم من فوره بالخطوة التي طالما فكر في القيام بها ولم يجرؤ عليها طوال خمس سنوات. قبل الصبي من خده على الرغم من مقاومته، وقال له:

- مشى الحال وجدنا من يفهم لغتك!

وقبل مضي ساعة كان يضغط على جرس باب ظريفة بإلحاح، فيما يده الأخرى تمسك بإحكام بيد حفيده. وما إن انفتح الباب حتى وجد نفسه يندفع نحو ظريفة وراح يدور بها في الهواء. جهدت ظريفة للتخلص منه وصرخت به: «ما الذي يحدث؟! اتركني! أنت سكران؟!» لكنه لم يكترث لها، بل راح يحتفي بحبيبته. أخيرا تلاشت طاقته فترامى على أحد الكراسي وهو يلهث، ثم أشار إلى الصبي الذي كان قد تربع في أثناء ذلك على مقعد في صدر الغرفة، واضعا ساقا على ساق مثل جندي بحرية عتيق، وقال لها:

- انظري يا ظريفة. هذا الرجل الذي ترين لا يعرف كلمة تركية واحدة. هل تستطيعين تصور ذلك: حفيد رحمي سونمز ولا يجيد التركية على الإطلاق!

نقلت ظريفة أنظارها بدهشة بينه وبين الصبي وهي تلهث، قالت:

- أي تركية؟ أي حفيد؟ لا أفهم شيئا. قل لي من أين جاء هذا الولد؟

- «من ملعقتي» قال رسول وأطلق ضحكة مدوية. بدا أنه قد تغلب تماما على الألم الذي تسببت له فيه ابنته بفعل ابتهاجه بلقاء ظريفة مجددا.

قالت ظريفة: «أنت ثمل جدا» واقتربت من الصبي وسألته: «قل لي أنت يا صغيري: من أنت؟».

ابتسم الصبي للمرة الأولى، أشار بذقنه إلى رسول وقال:

"Go ahead make love, I don't care"

موجها دفة الحديث وجهة أخرى.

عادت ظريفة إلى رسول، أتت بكرسي وجلست أمامه، وقالت:

- احكِ لي من الأول. فحتى الآن لم أفهم شيئا.

ـ ٥ ـ

ما سبق وحققته فريدة الثانية في يوم مضى، عاد وحققه ابنها: جمع الحبيبين القديمين مجددا. بعد أن ظلا عند ظريفة حتى الصباح عادوا جميعهم في اليوم التالي إلى البيت الخشبي العتيق الذي بدا أكثر «نمنمة» بين البنايات الفخمة التي أدارت له ظهرها. ولكن حتى لو اعتبرنا عدم تمكنه من وضع الفكرة التي اقترحها في أول مساء موضع التطبيق(*) ضربا من الفشل، فإن نجاح الابن قد خلَّف نجاح أمه في الظل، إذا أخذنا بنظر الاعتبار عقدهما القران بحضور شاهدين جاءا بهما من الشارع، وتسجيلهما له باسم «ناظم» ابنا لهما بحيث منحا هذه العلاقة الثلاثية غطاء شرعيا مئة في المئة.

كانت فريدة قد رحلت من دون أن تخبر رسولا باسم الصبي، ولم يعثرا على أي ورقة مكتوبة في حقيبة السفر التي تركتها. لذلك فإن كلا من ظريفة ورسول وجدا أن هذا هو الحل الأسلم والأقصر؛ ومن جهتها كانت ظريفة تحيا أسوأ أيام أواسط العمر، وفرحت كثيرا لأنها وجدت وريثا يمكن أن تورثه شققها ودكاكينها بارتياح. ومع ذلك لم يتغير موقف ناظم السلبي كثيرا على الرغم من كل ما فعلاه من أجله: حيث بذلا كل جهد لتلبية رغباته وهما يمسكان بالقاموس ليفهما طلباته، وألقيا في علبة القمامة كل ما وجداه في حقيبة سفره من ألعاب معطوبة

(*) أي دفعهما لممارسة، كما اقترح بالإنجليزية.

وملابس داخلية قذرة وثياب مهترئة، واشتريا له بدلا منها جديدا. فعلى الرغم من بعض التنازلات التي قدمها مثل شروعه في تعلم لغتهما حين رأى أنهما لا يفهمان لغته، وأكل ما يوضع أمامه، والنوم أو الاستيقاظ حينما يطلبان منه ذلك، فقد ظل على موقفه الأول: غريبا، باردا، وساخرا، ولا أحد يعرف إن كان السبب في ذلك أن كل شيء في هذا البيت يعطي الانطباع بأنه زائف ومصطنع، أم لأن أناه قد أغلقت في بيت ضابط الصف الزنجي أمام كل شيء باستثناء الوحدة وانعدام الحب: فبعد اكتشافه أن الرجل الأسود، الذي لا يشبه أحدا ممن يراه بلونه ووجهه وكلامه وسلوكه، والذي فوق ذلك يصد أي اندفاعة حب، ليس أباه، وبعد أن رحل ذلك الرجل مصطحبا أمه، فإن الرجل ذا الشعر الأبيض الذي قيل له بأنه جده، يدعي بأنه في الوقت نفسه أبوه، ويتفوه بسخافات غير معقولة من مثل عرضه لصورة فتاة ترتدي نظارة يمكن أن تكون أختا أكبر منه وادعائه: «هذه جدتك»؛ والأنكى من ذلك فإن المرأة الناضجة التي يعرف بصورة قطعية أنها ليست أمه لكنها تتصرف معه بصورة ودودة أكثر من أمه، تقول له: «أنا أمك وجدتك في الوقت نفسه»، ولا تكتفي بكلامها المتناقض، بل تتصرف بصورة مصطنعة، ليس فقط أنها لا تقترب من الرجل الذي يبدو بوضوح أنه زوجها، بل حتى أنها لم تدخل غرفته مرة واحدة. كل هذه الأمور اللامعقولة إذن كانت تمنح البيت في عيني ناظم مظهرا من التصنع والزيف. أما بالنسبة إلى رسول فمن المؤكد أنه مسرور من الوضع الجديد، حتى لو ظل بدنه يقشعر كلما تذكر دخول ابنته المفاجئ عليه،

وتركها للصبي وركضها نحو ذلك الرجل الأسود: فقد كان على أعتاب عزلة كاملة عن العالم وغرق كامل في اليأس حين برزت أمامه غاية جديدة: أراد أن يتغلب على خيبته المزدوجة في شاعريته التي لم تكتمل، وفي ابنته التي أخذها منه العدو، وذلك بتنشئة الصبي كثوري حقيقي، فاستقر بكل أناة في المستقبل، في مستقبل حفيده. وهكذا راح يسعى لإحلال الألحان التي «تعزف بواسطة النحاس والحديد والخشب والعظام والأوتاد» محل «تأوهات البلبل الولهان أمام الوردة»، في عالم ناظم الداخلي الذي كان يتكون لتوه، ولإحلال «الحصان الحديدي الذي يجري فوق سكة الحديد» محل «الحصان العربي»، و«جبال الإسمنت المسلح من ٧٧ طابقا» محل التضاريس الطبيعية، والمهندسات والعاملات «بستراتهن وقبعاتهن من الجلد المدبوغ»(*) محل الحواءات بنظراتهن الناعسة، و«السيجارة الجاهزة» محل التبغ «اللف»؛ بحيث يهيئه ليتخذ موقعه «ليس داخل النظام القائم، بل في مواجهته»، ويكون مستعدا للحرب في سبيل «تحقيق المستقبل السعيد الوحيد للبشرية»، فرآه في المستقبل وحسب، ولم يميز موقف الصبي البارد والساخر؛ لم ير قط أنه يصغي إلى ملاحظاته وقصائده فقط حتى لا يزيد صعوبة اضطراره للعيش في مكان لا يحبه وبين أناس لم يتمكن من التآلف معهم؛ لم ير قط أنه لا يكترث من قريب أو بعيد بالثورة أو المكننة أو ناظم أو ماركس أو لينين؛ وحين كان يصف له «القيود» بـ «سوار ذهبي» والسجن

(*) كل المقتبسات بين مزدوجين، هي من قصائد لناظم حكمت.

بـ «أكبر مدرسة» بما يتوافق مع أحلامه الخاصة، لم ير قط أن الصبي يبتسم بسخرية: إن أفضل ما تعلمه ناظم في بيت ضابط الصف الزنجي هو أن يخفي مشاعره.

لكنه بالتدريج أدرك أن رسول وضابط الصف الزنجي لا يتشابهان في شيء، فتخلى عن تحفظ السنوات الأولى، كما تخلى عن موقفه القديم الحذر والصامت: اختار بصراحة طريق أمه، فعذب ظريفة ورسول على حد سواء بميوله البورجوازية وأصدقائه البورجوازيين. وهكذا فترت العلاقة بينه وبينهما، وتقلصت القصائد والدروس الثورية اليومية واقتصرت على المصادفات. كان رسول، في مثل تلك المصادفات، إذا أدى خبر سمعوه في الراديو، أو نص في أحد كتب ناظم الدراسية، أو ملاحظة ما من ظريفة، إلى فتح الحديث عن الثورة، يشرع في الكلام بحماسة أيام شبابه، ثم لا تلبث أن تخمد حماسته: حين يرى أن ناظم لا يصغي كما يجب، أو أنه يغير الموضوع، أو ينهض ويخرج بوقاحة، فيخفض صوته، أو يسكت كمن تفوه بكلام معيب. الأسئلة نفسها التي كان يطرحها على نفسه فيما مضى بخصوص ابنته، صار يعيد طرحها الآن بخصوص حفيده: «لِمَ أصبح هذا الصبي هكذا؟ أين أخطأت؟» وكما كانت عليه الحال بصدد ابنته، فهو لا يظن - الآن أيضا - أنه أخطأ في المبادئ، كان واثقا من أنه حاول أن يعلم الصبي الشيوعية بالشكل الأصح والأقرب إلى المنبع، مستلهما من ماركس ولينين وناظم. هل هذا يعني أن الفاشية تُعلم بصورة أسهل من الشيوعية، وهل منهج الأعداء أقوى من منهجه؟ أليس تناقضا تقبله وفهمه - هو وفريدة وآخرون

كثيرون ـ للشيوعية في الوقت الذي كان كل شيء يعيق ذلك، في حين أن ابنته وحفيده اختارا التبرجز وكل ما يحتاجان إليه من معارف متوافر بين أيديهما؟ ألا يتقدم التاريخ؟ يتشوش ذهن رسول. حتى أنه من حين إلى آخر كان التفكير يبلغ به حد التساؤل عما إذا لم تكن ظريفة وراء إبعاد ابنته وحفيده عن نظرته هو للعالم. موت ظريفة غير المتوقع في أوائل السبعينيات لم يؤد أيضا إلى أي تقارب بينهما.

في ذلك العام كان ناظم في الصف الثالث الإعدادي، وقد كادت قامته تبلغ طول قامة رسول. لم يكن بحاجة إلى كثير من العناية والاهتمام، لكن رسولا فكر بأنه ربما يتمكن من إبعاده عن قيم البورجوازية إذا بقي معه فترة أطول في البيت، فطلب التقاعد من البنك كأمل أخير وكرس حياته له بصورة كاملة تقريبا: أعد له الطعام، كوى قمصانه، كنس غرفته، وبصورة طبيعية زاد من وتيرة أحاديثه الثورية في أثناء ذلك بقدر ما استطاع. ولكن أي تقارب لم يولد بينهما: حين يصل رسول إلى أشد المواضيع أهمية، كان حفيده يتثاءب، أو يكتفي بالابتسام بسخرية، ثم بصورة تدريجية راح يعبر عن تبرمه وازدرائه بكلمات صريحة: «هذه تلفيقات فارغة يا جدي، كلام فارغ!».

لم يغضب رسول، على العكس أحنى رأسه والتزم الصمت كأنه اقترف ذنبا. من نافل القول، إن إيمانه لا يزال قويا كما كان دوما، ولا يساوره أدنى شك في صحة منظوراته وسلامة براهينه، ولكن يبدو أنه كان محكوما على خطاب الثورة أن يثير الضحك في فم رجل اقتصرت فاعليته الرئيسية على كنس البيت والطبخ وإعداد

مائدة الطعام ثم رفعها وارتداء الصدرية لغسل الأواني. وحتى يرغم هذا الشاب الجاهل المتعلق بالقيم البورجوازية، على الرغم من كل جهوده، على الإصغاء إليه، يتعين عليه أن يخوض معركته بالشعر في الصحافة المطبوعة، لا بالكلام على مائدة العرق، والأفضل من ذلك، أن يصبح رجلا حمله النظام على محمل الجد، فتعرض للملاحقات وألقي به في السجون وتعرض لصنوف التعذيب. مع الأسف إن الشرطين كليهما مرتبطان، فقد بدا أهل اليسار وأهل اليمين على حد سواء مصممين على تجاهل رحمي سونمز الشاعر الواقعي الاجتماعي الذي كتب يوما ما أكثر القصائد الثورية حدة وحرارة. كان يقول لنفسه: «هذا ما أسميه الموت وأنا على قيد الحياة»، فعلى الرغم من استمرار إيمانه على المستوى النظري، فإنه يزداد غرقا في اليأس كل يوم على المستوى الفردي. ومع ذلك حين وضع الجيش يده على السلطة في صباح تداخل فيه الربيع بالشتاء(*)، وتم في لمح البصر طلاء أشجار المدينة وأعمدة الكهرباء بالكلس حتى منتصفها، راح رسول ينتظر بأمل كما لو أن أشجار الحور اكتست قطنا والكرز يبشر بالظهور(**).

وبالفعل كانت الدلائل الأولى تشير بصراحة إلى أن اعتقال شاعر أو روائي أو كاتب زاوية صحافية، لم يكن يتطلب في ظل النظام الجديد، أن يكون قد نشر، في تلك الفترة، عملا يمكن اتخاذه دليلا جرميا؛ كان يكفي أن يكون الشخص قد نشر قصيدة

(*) المقصود هو الانقلاب العسكري في مارس، ١٩٧١ .

(**) مَثَل.

قبل بضع سنوات، أو أجرى اتصالا هاتفيا أو كتب رسالة عادية لصديق قبل بضع سنوات، حتى يضعوا القيود في يديه ويأخذوه. بل إنهم تصفحوا الدفاتر القديمة بدقة، بحيث اعتقلوا في ليلة واحدة كثيرا من الناس المتفرقين في أنحاء البلاد انشغل كل واحد منهم بشؤونه الخاصة وبمتطلبات الحياة اليومية وقد نسي حتى أنه قام يوما ما بنشاط ثوري، بحيث أتاحوا لهم تجديد ذكرياتهم القديمة: «هذه المرة، تم الأمر»، قال رسول لنفسه. ففي الوقت الذي اعتقلوا فيه حتى أشخاصا ما كانوا يرضون بضمهم إلى لقاءاتهم في الخمارات، وحشروهم في الثكنات بتهمة قيامهم بنشاطات سرية تستهدف حكم طبقة لطبقة أخرى، ما كان رسول يرى سببا يحول دون مجيء الدور عليه. وضع في حقيبة سفر صغيرة زوجا من الملابس الداخلية النظيفة، قميصين رياضيين، ثلاثة أزواج من الجرابات، بنطالا واحدا، دفترا، خمسة أقلام رصاص وخمس علب بيرنجي، وراح ينتظر. بهذه الطريقة سيكون جاهزا على الفور ما إن يقولوا له: «هيا بنا»، ولن يضيع وقته في التفاصيل. وللغاية نفسها، أي حتى لا يضيع وقته في التفاصيل، حدد مسبقا كلماته وتصرفاته، حينما سيتجولون في البيت بحثا عن أدلة، سيقطع عليهم الطريق فورا ويقول لهم: «قفوا أيها السادة، لا تقلبوا بيتي رأسا على عقب سدى، دعوني أدلكم بنفسي على ما تبحثون عنه: هذه هي كتب ماركس، وكتب لينين وناظم، وهذه قصائدي وهي جميعا قصائد ثورية؛ وهاهنا بضعة مؤلفات لروزا لوكسمبورج وكتابٍ لجرامشي، إن كانت تثير اهتمامكم». لقد كرر هذا الكلام في ذهنه كثيرا جدا، وحلم كثيرا جدا باللحظة

التي سينطق فيها بهذا الكلام، إلى درجة أنه صار واثقا من أنه سينجح في إتمام كلامه دون أن يتلعثم أبدا حتى لو كان القادمون أشد رجال الجستابو قسوة في العالم. لكنهم لا يأتون، أترى لأن ملفه بعيد جدا عن متناول أيديهم وتحت غيره من الملفات؟ أم تراهم يبحثون له عن زنزانة تابوتية تناسب قامته فلا يجدون كما قال معروف المطرقجي ؟ أم يظنون أنه من غير الممكن أن تكون له جذور خارجية(*) بما أنه أسكداري المولد والنشأة؟ أم أن ازدواجية اسمه القديمة بين رسول ورحمي سونمز قد ضللتهم أيضا؟

مع ذلك لم يفرغ حقيبة سفره من محتوياتها، فقد بدأ نظام جديد للاعتقالات: يعلنون منع التجول كل حين وحين ويفتشون البيوت ثم يأخذون كل من يحتفظ في بيته بمنشورات ممنوعة، وحتى لو لم يعثروا على أي ممنوع وفاق عدد الكتب في البيت المستوى الذي في رأس من يقوم بالتفتيش فإن صاحب البيت يؤخذ حتما. لكن أحدا لم يقترب من الزقاق الذي يقطنه، في أيام التفتيش، على الرغم من وضعه لمؤلفات ماركس وناظم في أكثر الأماكن المكشوفة في مكتبته، في الوقت الذي كان كثير من الناس يحرقون أكواما من الكتب في حالات منع التجول، وعلى الرغم أيضا من أن بيته يشبه المساكن الرديئة للبروليتاريا بين البنايات الفخمة التي انتصبت بفضل جهود فهمي غولمز. عرف أن السلطة الجديدة تعتبر الملتحين أعداء للنظام، فأرخى لحيته على الفور، لكن شرطيا واحدا لم يلتفت لينظر إليه يوما على الرغم من طوله الفاضح. فراح يقول لنفسه ويردد: «لا أفهم، لست أفهم!».

(*) تهمة الجذور المرتبطة بالخارج، تهمة معتادة توجه إلى اليسار وإلى كل معارضة في تركيا.

إن النظرية الماركسية تفسر جدليا سحق رأس المال للعمل وسحق البورجوازية للبروليتاريا داخل هذا «النظام الأعوج» بصورة رائعة، غير أنها لا تتيح فهم اللانسجام في طريقة النيابة والشرطة في محاربة أعداء النظام، كما لا تتيح التسامح معهم. ذات يوم، وعند عودته من المدرسة حكى له ناظم، وعيناه تدمعان من شدة الضحك، كيف أخذوا رضيعا عمره عشرة أيام إلى قسم الشرطة أثناء التفتيش الأخير، بدعوى أنه لا يحمل بطاقة شخصية، فكاد رسول يبكي غيظا، ولم يخطر في باله قط أن ما سمعه يمكن أن يكون مجرد نكتة، وردد يقول: «إني أفهم. ليس ثمة أي منطق عند هذا النظام اللعين» ثم ذهب إلى غرفته وأفرغ ببطء حقيبة الاعتقال.

فسر رسول اللانسجام في موضوع اعتقال اليساريين كما ينفذه النظام الذي وصفه باللعين، التفسير نفسه الذي يطبقه على كل ما يعجز عن فهمه: أي بمنطق الانهيار الذي يسبق الثورة؛ لكنه حينما تراخى نظام التضييقات وامتلأ كل مكان بالمذكرات والقصائد والروايات التي تحكي عن ذاك النظام، بدأ رسول يفهم جيدا - في جو الابتهاج العام - المعنى الحقيقي لأن يكون المرء ضحية تلك التضييقات. لطالما رأى في السجن مكانا يتقاسم فيه الأصدقاء المصير نفسه، وإلى حد ما يحمل النظام وظيفة تكاد تكون إيجابية، مكانا تتكرس فيه شاعرية الشاعر وذلك بقسر يصعب استيعابه؛ لكنه حين راح يلتهم على التوالي قصائد وروايات ومذكرات ما بعد نظام التضييقات، حدس بأن السجن في الوقت نفسه هو جسر لا بد لكل مبدع أن يعبره. بعد ذلك حينما اتجه

إلى المراحل السـردية للثـورية، انقلب حـدسـه إلى يقين قطعي: السجن «صنعة صعبة»، لكن لا شك أنه معجزة نضج لا بديل لها؛ على الأقل هذا ما يقوله من عاش تلك المعجزة: فوفقا لهؤلاء ليس من الضـروري أن تكون للمـرء خبـرة فنيـة بأي درجة، بل ليس من الضـروري أن يكون قـد أدين وفـقـا للمـادتين ١٤١ و١٤٢، يكفي أن يتخذ «الأجيـر» «معلما»: ولا حـاجة به إلى الدفتـر والقلم أو الورق أو الكتـاب، فـالدروس تلقى أثنـاء مـشـاوير التنفس: اليـوم الأول «الفلسـفـة الدياليـكتيـكيـة»، اليـوم الثـاني «السـوسـيـولوجيـا»، اليـوم الثـالث: «الاقتصـاد السيـاسي»، بحيث يحكي المعلم ويكرر الأجيـر وراءه. يقول المعلم: «والآن كرر بعدي ما يلي: أنا شاعر كبير، وأنت رسـام كـبيـر»، فـيكرر الأجيـر، بحيث يتـحـول المراهق القـروي إلى رسـام كبيـر بعـد ثلاثة دروس، ويتـحـول صـحـافي عـادي إلى روائي كـبيـر. إذا كـانت هذه حـال أولئك الذين بدأوا من الصـفـر، فـإن مجـرد التفكير في المستوى الذي يمكن أن يصل إليه القـادمون إلى ذلك المكان المميز بخبـرات متـراكمـة بارزة، شيء مدوخ. كان رسول يعتقـد أن الفاشيين قد أضـروا به أكبـر الضرر - سـواء عن وعي أم عن جـهل -، وبدأ يتـفـهم اسـتنكار الثـوريين لأي رأي إيجـابي يطرح أمـامهم بخـصـوص مـبدعين لم يتـعـرضـوا للاعـتقـال بصـرخـات من نوع: «ومن هم هؤلاء؟ هل ناموا في السجون ولم نسمع بهم؟».

خطـا رسـول خطوة أخـرى: بدلا مـن الشـكوى من مـصـيـره الخـاص، كمـا كـان يفـعل بكثـرة، أراد أن يلتـقط الجـوهـر الحـقيـقي للثـورة وللشـعـر، وأن يصـل - بنتـيـجـة ذلك - إلى أحكام سليـمـة بخـصـوص الشـعـراء الثـوريين، راح يقـرأ كل مـا يقع تحت يديه

بخصوص قصص اعتقالات الشعراء الثوريين، مبتدئا بقصائد السجن لناظم حكمت ورسائل السجن والمذكرات والدراسات المنشورة حول حياة ناظم في سجن بورصة. ولم يكتف بهذا، قرر أن يعوض تقصيره كشاعر في المساهمة في حركة الشعر الثوري التركي، بمساهمة بحثية: فبدأ يسعى إلى وضع قائمة بلا نواقص بأسماء الشعراء الذين تعرضوا للاعتقال وفقا للترتيب الأبجدي، تشمل عدد مرات الاعتقال، أسماء السجون التي سجنوا فيها، تاريخي الاعتقال والإفراج، والأعمال التي كتبوها خلال فترة الاعتقال. وبشجاعة استثنائية حاول أن يستخرج المدة الإجمالية التي قضاها كل واحد منهم في السجون بدقة تصل إلى الأيام والساعات، على أن يقوم لاحقا بالمقارنات اللازمة لاستخلاص النتائج الضرورية. لهذه الغاية كان كل يومين أو ثلاثة ينتقل إلى سوق الكتب القديمة، فصرف جل راتبه التقاعدي على الكتب والمجلات قديمها وجديدها. وإذا أضيفت مقتنياته الجديدة إلى تلك القديمة أمكننا القول إنه كون ربما أغنى مكتبة يسارية في البلاد. لذلك فإن صديقه بائع الكتب الذي باعه أغلب الكتب والمجلات التي اقتناها، بدأ يفكر في أن شراء هذه المكتبة سيكون استثمارا كبيرا، ما دفعه إلى عرض سعر ازداد ارتفاعا مع كل زيارة من زيارات رسول إلى سوق الكتب القديمة. من نافل القول إنه لم يكترث بالعرض من قريب أو بعيد. ومن جهة أخرى فقد انغمس في هذا العمل إلى درجة أنه كثيرا ما أهمل الاغتسال والملبس وحتى الطعام، وتناثرت في أرجاء البيت الكتب والمجلات وقصاصات الصحف والقوائم والمسودات المعدة بعناية، إلى درجة

دفعت بناظم إلى التخلص من لا مبالاته وهو الذي لم يكن ينظر إلى كل ما يخص جده إلا باستخفاف: بدأ يسأله كل صباح، وقبل خروجه من البيت، عن الشخص الذي يبحث عن مدة اعتقاله، ثم يسأله كل مساء عن النتيجة التي توصل إليها. وفي كل مرة كان رسول يعطيه الرقم الدقيق دونما حاجة إلى إلقاء نظرة على أوراقه، بفضل ذاكرته المتفوقة وخبرته الطويلة في العمل المصرفي.

من وجهة نظر معينة، كان رسول يتنكر لذاته كشاعر بإضفائه كل تلك الأهمية على الشعراء «الذين ناموا في السجون»، لكنه لم يشك من هذا، بل إنه استعاد شاعريته المفقودة مجددا بواسطتهم، على الرغم من ارتيابه بقيمة ما كتبوه: بفعل القراءة الكثيرة والتخيل المتواصل اتخذت المتنفسات والمهاجع والأسرة الحديدية والزنازين التابوتية والباحاتية والسجانون والقمل والفسفس، صورا ملموسة في ذهنه إلى درجة أشعرته بالتماهي مع كل أولئك الشعراء، وجعلته يكتب مئات القصائد عن السجن والتعذيب وبصيغة المتكلم. باستثناء القصائد التي استلهمها من حياته ومزقها بناء على طلب فريدة، فإنه كتب على الدوام قصائد تجسد نظرية تعلمها سماعا، ويمكن القول إنه الآن يفعل شيئا مماثلا بتعبيره عن أحداث وآلام قرأ عنها في الكتب، وبالتالي بقي داخل إطار الافتعال؛ ويمكن القول، بالطريقة نفسها إنه كما وجد الأنموذج الوحيد للحياة الجديرة بأن تعاش في فترة السنتين ونصف السنة التي تقاسمها مع فريدة، أي في الماضي؛ كذلك فهو يبحث عن جوهر الكفاح الثوري في ماض لم يعشه. ولكن في رأي

فهمي غولمز الذي استولى على تلك القصائد(*)، هي أجمل ما كتبه رسول على مدى حياته الشعرية من جهة، وأجمل ما كتب خلال خمسين عاما من شعر الزنازين - باستثناء ما كتبه ناظم - من جهة أخرى. وفضلا عن ذلك - دائما وفقا لرأي فهمي غولمز - من الخطأ الحديث عن افتعال المشاعر والانطباعات التي عبر عنها، لأنه لشدة ما تماهى مع الشعراء الذين غرق في قصص اعتقالاتهم، فقد عاش آلامهم وآمالهم بكل كثافتها مجددا. ولكن بتماهيه إلى هذا الحد مع الشعراء الذين تعرضوا للاعتقال، فقد تشوشت حياته الشخصية باطراد، أو بالأحرى استحالت إلى حياة معتقل خصوصا بعد أن أتم طور البحث والتنقيب وتخلص بالتالي من ضرورة الانتقال إلى الشاطئ الآخر للبحث عند بائع الكتب في سوق الكتب. حتى ناظم لاحظ ذلك، قال له وهو يضحك بصخب: «أخيرا وضعت في معصميك السوار الذهبي يا جدي، هأنت سجين مؤبد بكل معنى الكلمة، وفوق ذلك فقد بنيت زنزانتك بيديك». وبعد ذلك ارتاب ناظم في أن جده يظن نفسه معتقلا وبيته زنزانة بالفعل، وبدأ يراقب سلوكه بمزيج من السخرية والقلق. ولم يتمكن من الوصول إلى حكم قاطع: حتى لو لم ينظر إلى الوجوه والأشياء من خلال عدسة استيهامية بحيث يرى في أجير البقال سجانا، وفيه هو باحاتيا وفي غرفة نومه الواسعة والمضاءة زنزانة ضيقة مظلمة، فالواضح على الأقل أنه يحيا حياة سجين بالنظر إلى محدودية الحيز الذي يتحرك فيه: لم يكن يخرج من البيت باستثناء زياراته إلى قبر زوجته.

(*) كما تم توضيح ذلك في مقدمة الرواية.

بصورة تدريجية ترك لناظم كل عمل له علاقة بالخارج: كان هو من يتسوق في طريق عودته من المدرسة، وهو من يجمع إيجارات الشقق والدكاكين التي ورثاها عن ظريفة. وحين رأى أن رسول لا يطلب شيئا إلا إذا كان مضطرا إليه، وأنه لا يسأله الحساب أبدا، فقد استخدم القوة المتجمعة في يده بالطريقة التي يجيدها: لم تستهوه مثل أمه فكرة استبدال البيت لأن بيتا خشبيا ذا حديقة، حتى لو كان صغيرا وغير معتنى به، أصبح يستهوي الناس أكثر، لكنه راح يستبدل ملبسه بملابس جديدة مرة كل خمسة عشر يوما تقريبا، ويشتري حاجيات البيت وفقا لما يشتهيه من طعام؛ واستخدم امرأة نشيطة لتقوم بأعمال الطبخ والتنظيف ثلاثة أيام في الأسبوع لرؤيته أن جده لا يجيد تلك الأعمال؛ بدأ بتدخين المارلبورو، بل بلغ به الأمر حد تغيير دخان جده حين قال له: «من الآن فصاعدا، لن أشتري لك البيرنجي. سوف تدخن «الصمصون». فأنا أعثر على البيرنجي بصعوبة، ثم إنني أخجل أن أطلبها في وقت أصبح حتى الحمالون يدخنون فيه سجائر مفلترة»؛ أتى بتلفزيون ضخم وشغَّله أمام عيني جده المدهوشتين، الذي يرى جهازا كهذا لأول مرة، وقال مع ضحكة رخوة: «تختار المؤبد وتنسحب من العالم إذن؟ هأنا آتي بالعالم إليك. اجلس وتفرج قليلا، سوف تحبه كثيرا، وحتى إذا لم تحبه، ستعتاده. فضلا عن ذلك يقال إن في غرفة كل سجين في أوروبا جهاز تلفزيون».

بسلبية مدهشة خضع رسول لحفيده، كما في كل أمر آخر. في الأيام الأولى اقتصر على متابعة الأخبار، وما إن تظهر

برامج أخرى حتى يغلق التلفزيون مجعدا وجهه بازدراء، لكنه بالتدريج اعتاد التلفزيون بعامة: ففي مساءات كثيرة تابع كل ما يبث من الثامنة وحتى منتصف الليل، من قائمة البرامج وحتى المسلسل، بل وصل به الأمر أحيانا حدود التحاور مع صور الأشخاص الذين يتحركون ويتحدثون على الشاشة، فطرح عليهم أسئلة، وأجاب عن أسئلتهم.

لكنه، في إحدى الليالي، وكان يتابع فيلما مشوقا من أفلام رعاة البقر، انتبه فجأة إلى أنه يتعاطف مع رعاة البقر الأمريكان في مواجهة الهنود الحمر، وتمتم يقول ـ فقد اعتاد في الأيام الأخيرة أن يتحدث إلى نفسه ـ: «يا للغرابة! ما الذي يحدث لي؟!» نهض وأغلق الجهاز، ثم عاد وجلس على المقعد الكبير الذي ورثه عن أبيه، ثبت عينيه على شعاع ضوء ينكسر ثم يعود إلى وضعه على التوالي، على سقف الغرفة وقال لنفسه: «إني لا أفهم ما يحدث لي. لا أفهم». في تلك اللحظة ظهر ضوء يبهر العيون وارتج البيت بأسره تحت وطأة زئير محرك مرعب يصم الآذان. قفز من مكانه مذعورا وركض إلى النافذة حيث رأى على ضوء مصباح الشارع سيارة حمراء تتلألأ بمقدمتها الطويلة، وناظم يترجل منها مرتديا سترته الجينز وبنطاله الجينز وحول عنقه فولار أزرق، كما لو كان يؤدي أكثر الأفعال طبيعية ويومية في العالم، ثم يقفل بابها. شلت الدهشة رسولا. حين دخل ناظم وهو يهز مفاتيحه، وأشعل الضوء، كان لا يزال واقفا ينظر إلى السيارة من خلال النافذة. وما إن أنار الضوء حتى التفت وسأل حفيده: «من أين جاءت هذه السيارة؟».

ابتسم ناظم، رفع المفاتيح إلى الأعلى وخشخش بها، ثم قال وهو ينظر في عيني جده:

- اشتريتها. أم أنها لم تعجبك؟

تهرب رسول من نظرات حفيده كما لو أنه خجل، وأجاب يقول:

- أنا لا أفهم في السيارات. لكني لم أفهم لم شعرت بالحاجة إلى شراء سيارة.

- «والله إنك لرجل مرموق يا جدي!»، قال ناظم وهو يطلق ضحكة عالية: «ولِمَ تظنني سأشعر بالحاجة؟ إن السيارة هي حاجة ضرورية لكل إنسان عصري. ولا تنس أنني طالب هندسة معمارية في سنته الثانية». توقف عن الكلام ونظر إلى جده، رآه خافضا عينيه فابتسم بتأثر خفي وسأله: «أريد أن أحتفل بهذه المناسبة يا جدي. قل لي هل نستقل سيارتنا «الموستانج» ونذهب إلى مطعم جميل، أم نشرب في البيت؟» وحين أدرك، لا مما تمتم به رسول، بل من التعبير الذي ظهر على وجهه، أنه لا يريد الذهاب إلى أي مكان، قال له: «حسنا، كما تشاء. اجلس أنت وسأقوم بإعداد المائدة».

كان إعداد ناظم للمائدة أمرا استثنائيا مثله مثل مبادرته إلى الاحتفال بصحبة جده. «استثنائية المناسبة» أسعدت ناظم كثيرا، فجعلته يسخن الطعام ويزين الطاولة مثل باقة ورد. جلس في مواجهة رسول ورفع كأسه وضربها بكأس جده هاتفا: «نخبك يا جدي!». ومع أن الجد كان يشرب في كل مرة يرفع فيها الحفيد نخبه، فقد رآه هذا صامتا وهادئا، فخرج عن مألوفه وتحدث مطولا عن الصعوبات التي تغلب عليها حتى حصل على هذه السيارة، وعن

سبب حبه للسيارات الأمريكية، على الرغم من أن الجميع تقريبا يفضلون الآن السيارات الأوروبية، ولماذا رجح الموستانج من بين السيارات الأمريكية، وراح يمتدح باستفاضة قوة الموستانج وسرعتها وجمالها. كان رسول كمن يصغي إلى أجنبي يتحدث لغة لا يعرفها، ولا يفهم شيئا من التفاصيل المقدمة، لذلك لم يكن يشارك في الحديث. ولكن حين أخبره الحفيد بأنه لا بد أن يكون قد صادف كثيرا من سيارات الموستانج في الأفلام الأمريكية التي يشاهدها، قاطعه فجأة وفتح موضوعا كثيرا ما فكر به: قال له دونما غضب وبصوت لم يرفعه، إنه لا يستطيع تفسير الوضع التالي: على الرغم من كل ما بذله من جهد طوال سنوات لتنشئة أمه أولا، ومن ثم تنشئته هو وفقا للمبادئ الشيوعية، كيف حدث وهربت أمه مع زنجي أمريكي متخلية عن طفلها، وكيف حدث وأصبح هو من المعجبين بأمريكا؟ وسأله فيما إذا كان له رأي ما في هذا الموضوع. شعر ناظم بوخز النقد المتضمن في السؤال، لكنه لم يشعر بالاستياء، فكر لبرهة وهو يضغط بإبهامه على وجنته وبأصابعه الأخرى على جبينه، ثم ابتسم ورد على جده بسؤال:

- هل فكرت قط يا جدي بأن الشيوعية التي علمتنا إياها، أمي وأنا، يمكنها أن تكون حلما أمريكيا بكل معنى الكلمة؟

- لا تتفوه بسخافات! لا تثر أعصابي!

هدر رسول بتلك الكلمات وتمالك نفسه بصعوبة حتى لا يلقي على الأرض بكل شيء أمامه.

لم يغضب إلى هذه الدرجة سوى مرتين: مرة حين أخبرته أم ناظم بأنها قررت مغادرة البيت لأنه لم يتزوج من ظريفة، وأخرى

حين أخبرته بقرارها بالرحيل إلى أمريكا مع الرقيب الزنجي تاركة ناظم هنا. ومع ذلك ابتسم ناظم ثانية وقال:

- أنا لا أتفوه بسخافات يا جدي. جبال الإسمنت المسلح من سبعة وسبعين طابقا، مخازن من سبعة وسبعين طابقا من الزجاج الخالص، نساء بسترات وقبعات من الجلد المدبوغ، جمال تبادل القبلات أثناء التحرك بسرعة مئة وستين كيلو مترا في الساعة.. ماذا تسمي كل هذا إن لم يكن حلما أمريكيا...؟

- «قلت لك لا تتفوه بسخافات! هذه كلها كلمات ناظم!» صرخ يقول.

حافظ ناظم على هدوء أعصابه:

- «وأنا لم أقل إنها كلمات (أوراق العشب) لويتمان» قال ذلك ثم نهض واقترب من جده وهو يتأرجح في مشيته وداعب كتفيه بتفهم.

أثير رسول ثانية ودفع يد حفيده.

في الأيام التالية واصل عبوسه وهو يرى الموستانج الحمراء تقف أمام البيت في حركة عنيفة كما لو كانت تقص بلاط الشارع بمنشار، وكذلك عند انطلاقها، فيتذكر ملاحظة حفيده الشاذة. تقريبا لم يتحدث إلى حفيده قط منذ ذلك المساء من سبتمبر حين قفز من مكانه على هدير محرك الموستانج، وحتى ذلك اليوم من ديسمبر حين عرف بموت نجمي الموجيك.

ما كان من عادته قراءة صفحات النعي في الجرائد. من ضيقه في ذلك اليوم خَطَر له أن يقرأ بتمحيص كل صفحات جريدة «جمهوريت»، وهكذا قرأ عن وفاة نجمي الموجيك

بمحض المصادفة. وقعت الجريدة من يده وامتلأت عيناه بالدموع. غمغم يقول:

«كان عقلا رائعا،

كان قلبا رائعا.

كان رجلا بقبضتيه،

طفلا بعينيه.

كان رأسا بلا حدود (...)

كان رفيقا».

وأضاف يقول: «لقد نام في السجون ما مجموعه ألف وتسع مئة وسبعة عشر يوما» سحب من المكتبة واحدا من ديواني شعر نجمي الموجيك، وقرأه من الغلاف إلى الغلاف وهو يجفف عينيه من حين إلى حين. تذكر الأيام البهيجة حين لم يكن هذا الكتاب طبع بعد، أيام الحماسة حين كانوا يتحدثون عن الثورة والشعر ليلا ونهارا. أراد أن يعود إلى ذكرياته بصورة محسوسة فأفرغ فوق السجادة محتويات علبتي أحذية مغبرتين، من صور عهد الشباب بين كبيرة وصغيرة. على الأقل في تسعين في المئة من هذه الصور المصفرة كانت فريدة لا تزال تبتسم ابتسامتها المتألقة، حاول أن يعزل من بينها تلك التي يظهر فيها نجمي. انهمك في هذا العمل إلى درجة أنه لم يسمع عويل الموستانج وهي تدخل الشارع، ولا انتبه إلى وقوف ناظم فوق رأسه ومراقبته له. لكنه، حين جثا ناظم قربه وسأله عما يفعل، أراه الصور التي عزلها جانبا، كأن موت صديقه فعل فعل إسفنجة امتصت كل ما يحمله على حفيده، وتحدث عن صداقة نجمي الموجيك وحياته وشعره.

تأثر ناظم بصورة حقيقية إزاء هذا البوح غير المتوقع، فأصغى حتى النهاية على غير عادته. قال رسول إنه يريد أن يحضر جنازة نجمي، ولكن الجنازة ستنطلق من جامع شيشلي، وإنه على الرغم من معرفته منذ الطفولة بحي يدعى شيشلي وراء ساحة تقسيم في استانبول فهو لا يعرف كيف يذهب إلى هناك، فتضاعف تأثره وانقلب إلى حميمية، داعب كتفه بتفهم كما لو كان يداعب طفلا، وقال:

- لا عليك يا جدي، سأوصلك بالسيارة إلى جامع شيشلي.

نظر رسول إلى وجهه بذهول وتأتأ:

- بالسيارة؟ كيف؟

- وكيف تريده أن يكون؟ من فوق الجسر.

- من فوق الجسر؟ هل تسخر مني؟ عن أي جسر تتحدث؟

على الرغم من كل تأثره الحميمي لم يتمالك ناظم نفسه عن الضحك بصخب، ثم عاد وربت على كتفه بتفهم:

- أنت أعجوبة يا جدي، حقا إنك أعجوبة! لقد مضت ست سنوات على بناء جسر البوغاز، ولو مددت رأسك من نافذة غرفة نومك لرأيته. لكنك لم تعبره مطلقا منذ ست سنوات، ولا حتى تعرف بوجوده!

- بل أعرف بوجوده، قال رسول.

كان يعرف بوجوده، ولعله رآه مئة مرة، كما رأى أرتالا من الآليات بمختلف الأحجام تعبر فوقه، لكنه لم يفكر قط بوظيفة هذا الجسر، لأنه خارج مألوف عادته. وفي اليوم التالي حين عبر فوقه للمرة الأولى على متن الموستانج التي يركبها للمرة الأولى لم

يحاول تصور أبعاد تلك الوظيفة(*) ولا حاول تحديد خصائصه البارزة: لا سرعة ناظم الرهيبة كانت تسمح بذلك، ولا ذهنه المشوش المنشغل بنجمي الموجيك وجامع شيشلي والأصدقاء القدامى الذين سيقابلهم في تشييع الجنازة.

لم يعرف فيما إذا كان عدد مشيعي نجمي الموجيك كبيرا أم لا، لأن عدة جنازات شيعت معا في الجامع نفسه. رأى بضعة وجوه مألوفة وحسب، سبق أن التقى قسما منهم في الماضي، في حين يعرف القسم الآخر من خلال صورهم المنشورة في الجرائد. لكن أحدا لم يقترب منه لا من هؤلاء ولا من أولئك، بل إنه لاحظ أن عددا من مبدعي جيله قد هربوا بنظراتهم من نظراته، وعزا سبب ذلك إلى أنهم ما زالوا يشكون في عمالته. لكن يدا قوية حطت فوق كتفه وسمع صوتا مألوفا يقول له: «واي(**) يا رسول واي! أما زلت تسعى فوق هذه الأرض؟» التفت فرأى روائيا شهيرا سبق له أن رأى صورته العجوز، يبتسم وقد فتح له ذراعيه. فجأة وبلا أدنى تفكير ألقى بنفسه بين الذراعين المفتوحتين وراح يجهش في البكاء. ظن الروائي أن رسولا يبكي على نجمي الموجيك وحسب، قال له: «أعرف أنك أحببته كثيرا، لكنه عاش حياة شريفة، نام خمس سنوات في المجموع(***)»، ثم أضاف كما لو أن رفع الكلفة هذا يضايقه: «البقية في

(*) يدور الحديث عن الجسر المعلق الذي يربط طرفي استانبول عبر البوسفور. حيث كانت البواخر تقوم بهذا الربط قبل بنائه.

(**) صوت تعجبي رأينا تركه كما هو.

(***) تعبير نام في هذا السياق يعني دوما سُجن.

حياتك. إلى اللقاء» وابتعد. سمع رسول واحدا من الشبان المحيطين به يسأل وهو يشير إليه: «من يكون هذا الوسيم؟» والروائي يجيبه قائلا: «آه، ذاك؟ ألا تعرف؟ إنه رسول! واحد من مصلومي الأذن القدماء». فيما كان رسول يحاول أن يفهم ما عناه الروائي بذلك التعبير، انتصب أمامه شخص آخر من معارفه، كان قد كتب الشعر مثله فيما مضى، ونُسي مثله أيضا. قال له: «واي يا رسول! أما زلت على قيد الحياة؟»، ورفع جسده إلى الأعلى ليقبل رسولا من خديه، ثم شابك ذراعه بذراعه وراح يصافح عددا من الشبان ويعرفهم عليه: «رسول: صديق قديم جدا!» وهكذا انفصل رسول مرة أخرى عن رحمي سونمز. ثم ذهب إلى المقبرة في باص متداع دلوه عليه، بصحبة عدد من الرجال لا يعرفهم قط ولا يعتقد أن لهم أي علاقة بالأدب، وامرأتين مسنتين انتفخ وجهاهما من البكاء. فكر في أنه قد أحسن التصرف بذهابه إلى المقبرة، ذلك أنه باستثناء امرأتين وقفتا بعيدا لم يكن ثمة حول القبر سوى ستة أشخاص. ساعد في إنزال النعش على الرغم من عدم اعتياده ذلك، وهو من ألقى التراب الأكثر فوق نجمي الموجيك. وحين قال الشيخ أخيرا: «الفاتحة!» بسط يديه مثل الجميع نحو السماء، وعلى الرغم من الغم البارد والثقيل الذي أثاره التراب الذي ألقي فوق نجمي الموجيك ملء الرفوش، ملأه شعور بالارتياح، أو تقريبا بالسعادة لم يشعر بمثله قط منذ وقت طويل جدا. كان هذا ينبع، على ما يبدو، من رؤيته لنفسه في بيئته القديمة، ومن استعادة تواصله - وإن بصورة منقوصة - مع الأصدقاء القدامى، فوق نعش نجمي الموجيك.

نتيجة لهذا الشعور بالراحة، بدأ طور جديد في حياة رسول: من ذلك اليوم وصاعدا ما عاد يفوت جنازة أي شاعر، سواء انتمى إلى قائمة الشعراء الذين تعرضوا للاعتقال أم لا، وسواء كان من أبناء جيله أم لم يكن؛ ثم وسع الدائرة أكثر، فراح يشارك في تشييع الكتاب والأساتذة الجامعيين الذين تعرضوا للاغتيال في الطريق بين بيتهم وعملهم، وكل كاتب أو رسام أو ممثل لم يشتهر بأنه من الثورة المضادة، بل وكل أستاذ جامعي له أدنى علاقة بالوسط الأدبي، وبذلك اختلط مجددا بوسطه القديم. لا شك في أنه لا يمكن تسمية الأمر اختلاطا بكل معنى الكلمة: ففضلا عن كونه اقتصر دائما على باحات الجوامع والمقابر، فقد كان يبقى غريبا دائما عن عالم الشعراء الثوريين، لأنه عاجز عن إظهار ذراع معطوبة أو أنف مكسور أو ظفر تم اقتلاعه ليقول: «هذه هدية صغيرة من الفاشيين»، الأمر الذي يمنعه أيضا من القول: «أنا الشاعر رحمي سونمز»؛ غريبا عنهم أم لا، فهو على الأقل يدخل عالمهم ويحتك بالناس. والأهم من ذلك أنه جعلهم يعتادون وجوده: ففي كل الجنازات كان يعزي كل الكتاب والشعراء شيبا وشبانا دون تمييز، مع ابتسامة راعشة تتراوح في تعبيرها ما بين ألم فقدان شخص عزيز، وفرح رؤية شخص آخر عزيز مجددا، فيتمتم بصوته الطفولي الذي يلفظ الراءات غينا: «ها هو يغحل قبل أن يفى المستقبل» وحتى لو لم يتلق ردا، فهو يعرض السجائر على الجميع في جو رفع الكلفة الذي جاء به الموت: «كما تفى، فقد انتهينا إلى تدخين الصمصون» ولأنه لا يجرؤ على إلهاء الناس أكثر من ذلك،

باعتباره شخصا عاديا لم يدع أبدا إلى الانضمام إلى الجماعة، يغمغم حتى قبل أن تنتصف سيجارته: «إلى اللقاء، سلم كبغاؤنا» ثم يبتعد باتجاه مجموعات أخرى ليكرر الأفعال والكلمات نفسها. أما إذا كان المشيع شاعرا أو كاتبا من جيله، فإنه يضيف إلى أفعاله النمطية فعلا - باحتمال تسعين في المئة على أقل تقدير - مع الابتسامة نفسها المترددة على شفتيه، يخرج من محفظته صورة فوتوغرافية مصفرة ويطرح هذا السؤال: «انظغ، هل يمكنكم التعغف على هؤلاء الشباب؟»، فيمسك المحيطون به بالصورة على مضض، ويرون فيها الرجل الذي يرقد الآن داخل نعشه على بعد خطوات منهم في صورة شاب يمكن أن يكون حفيدا له بشعره الكثيف وياقته الكبيرة ورابطة عنقه الرفيعة جدا، وإلى جانبه رسول مشابها له في الملبس، لكنه وسيم إلى درجة لا تصدق وشاب وبلا لحية، وهما يبتسمان؛ فينتابهم شعور غريب إزاء الصورة التي يرونها. دع عنك أن تعيده تلك الصور إلى الانضمام إلى عالم الشعراء بإعادة توحيد رسول ورحمي سونمز، فقد كانت على العكس تضيف انقساما جديدا إلى الانقسام الأصلي: رسول/ رحمي سونمز: هو هذا الانقسام بين الشاب الوسيم في تلك الصور والعجوز ذي اللحية البيضاء في باحة الجامع. لعل جهدا صغيرا كان يكفي لقلب الانقسام إلى نقيضه، ولكن مثلما يحيا سكان مدينة دُمرت ثم أعيد بناؤها دون أن يخطر في بالهم قط أن مدينة أخرى وجدت يوما تحت التراب الذي يطأون، كذلك فإن أولئك المشاهدين لصور رسول ما كانوا قادرين على تجاوز المستوى المرئي لها.

إن أردتم الحق فقد وقع أحد كتاب هذه الأسطر بدوره في الخطأ الذي وقع فيه كل كتاب وشعراء جيله، ففي الوقت الذي حاز فيه نجومية تضاهي بريق إيزيدور دوكاس حتى أكثر الشعراء المغمورين من جيل الأربعينيات، الذي سماه أشخاص لا يرحمون «جيل المساكين»، وقارنوهم بجيل الغريب ـ وحتى لو لمع نجم أولئك الشعراء بتأخير بلغ أربعين عاما ـ لم يخطر في باله قط أن رسولا يمكن أن يكون شاعرا مثلهم، بل يفكر في أنه مهووس بالأدب، يعتبر التحدث مع المبدعين برفع الكلفة والتظاهر بصداقتهم، شرفا له، أو أنه عجوز خرف. لهذا، فهو حتى لم يسع إلى معرفة اسمه الحقيقي لفترة طويلة. واكتفى بربط لقبه الذي يثير الدهشة حين يسمعه المرء للمرة الأولى بلحيته المتفرقة، وشعره الأبيض الخالي من التجاعيد الذي ينسدل أحيانا حتى كتفيه، والخطوط الجميلة والنبيلة لوجهه الطويل النحيف التي تعطي انطباعا بالغربة والبراءة، وجسده الطويل النحيل والمتناسق. وهكذا فعل مثل كثيرين غيره بأن اختزل رسولا كله في صورة ثانية في بضع جمل. والحال أنها كان يكفي حكُّ ما علا تلك الجمل قليلا لإدراك حقيقة أن رسولا قد تجاوز تلك الصورة بأكثر من المطلوب.

-٦-

لا شك في أن تكراره للكلمات نفسها في المواقف المتشابهة، بسبب الشيخوخة والأفكار الثابتة على مر السنين، وكذلك تلك الكلمات المكرورة، كانا جديرين بانتزاع ابتسامات الناس. فمثلا عبارته «قد رحل قبل أن تتسنى له رؤية المستقبل» التي يرددها بعد موت كل شخص، لا تبدو ـ للوهلة الأولى - سوى تعبير عن إحدى حقائق (La Palisse). في حين أن الرحيل قبل رؤية المستقبل كان في ذهن رسول يعني ما يشبه أن يموت المرء قبل أن يحمل في حضنه ابنه الذي سيولد في اليوم التالي، أو قبل أن يحضر زفاف ابنته التي ستتزوج بعد أسبوع، ذلك أن «المستقبل» في قاموسه يعني ديكتاتورية البروليتاريا، ورؤية ديكتاتورية البروليتاريا وهي تتحقق، أحد أكثر حقوق المبدع طبيعية. وحين يقول: «كما تغى، انتهيت بدوغي إلى تدخين الصمصون» كان إيمانه المستقبلي نفسه هو الذي يوجهه: فقد رأى في استبداله بالبرنجي الصمصون - اقتداء بالميل العام الملحوظ في السنوات الأخيرة عند العمال والموظفين والبوابين والشعراء ـ انحرافا ولو صغيرا في التقدم الحتمي للطبقة العاملة التي من المفترض أن يزداد بؤسها باطراد تسريعا في قدوم المستقبل السعيد، لكنه يؤكد ـ في الوقت نفسه ـ أن التنازل الوحيد الذي قدمه في حياته الثورية هو انتقاله من البرنجي إلى الصمصون، واضعا بذلك حياته الثورية في ميزان التقييم من وجهة نظر معينة. أما فيما يتعلق بعبارته: «إلى اللقاء. سلِم كباغنا» فلم تكن تعبيرا عن

مشاعر امتنان، بقدر ما كانت تعبيرا عن احتجاج صامت وعميق في مواجهة سحق حق طبيعي: بالرغم من حياته سنوات طويلة كثوري لم يقدم أي تنازلات، لم يعتقل مرة واحدة كأنه عنصر عادي في النظام القائم، ولا يمكن تفسير ذلك إلا باعتباره سخرية فظة من أولئك الذين يوجهون ويقودون الطبقة البورجوازية؛ وهو بدلا من النواح والشكوى كان يرد على السخرية بمثلها، وبطريقة محسوبة، ويريد الإيحاء بأنه لا دور له على الإطلاق في تلك المفارقة الفظة.

ونظرا لعدم مسؤوليته عن تلك المفارقة، ولتصميم الآخرين ـ كما يبدو ـ على الاستمرار في تلك اللعبة، كان رسول يعرف جيدا أنه بات محكوما عليه بالبقاء خارج عالم الشعر والثورة، لكنه بفضل العزاء الذي تقدمه له الجنازات ـ التي كانت في حياته الراكدة بمنزلة مغامرات مثلها مثل الدور الذي لعبته الكلمات في حياة فلوبير ـ أصبح يرضخ لقدره بسهولة أكبر، بل يحتمي به مثل مريض يحتمي بلحاف دافئ، بفعل تماهيه بمعنى من المعاني مع ذلك الذي «يتعلم من التراب ويعرف دونما حاجة إلى كتاب». ومع ذلك، حين استولى الباشوات على السلطة(*) مرة أخرى، ذات صباح أيلولي، وطليت الأشجار وأعمدة الكهرباء حتى منتصفها بالكلس، بدا لرسول بصيص أمل كما لو أن أشجار الحور اكتست بالقطن والكرز قادم، وأعد في مساء اليوم نفسه حقيبة سفره الصغيرة كثوري يعرف عن كثب حياة الاعتقال. لكنه سرعان ما فقد الأمل: فالنظام الجديد يلاحق بصورة خاصة شبانا يتهمهم بالقيام بأعمال مسلحة،

(*) الباشا لقب يطلق على الجنرال، والمقصود الانقلاب العسكري لعام ١٩٨٠.

وإذا كان بين حين وآخر يمد يديه نحو بعض المتقدمين في العمر، فهو يختارهم من أعضاء بعض النقابات والجمعيات وليس من بين الكتاب والشعراء، وغالبا ما يكتفي بفصلهم من العمل بدلا من تقديمهم إلى محاكم استثنائية. يمكن أن نتوقع بسهولة أن رسولا قد اعتبر هذا الموقف غبنا كبيرا، وتحايلا من قبل المسؤولين لهضم حقوق الثوريين الحقيقيين. لهذا السبب، وعلى الرغم من تأكيده اشمئزازه من النظام الجديد (الذي من جهة عرضه لأكبر غبن، ومن جهة ثانية شخص أكثر أشكال الثورة المضادة إثارة للخجل)، فإنه بدأ بصورة تدريجية يوجه غضبه - وفقا لانحراف محير حقا - إلى خصوم النظام، أكثر منه إلى النظام نفسه، وراح يردد: «هؤلاء من إنتاج النظام، وسبب وجوده الوحيد!» مجرما بذلك الفار أكثر من المطارِد، والمتمرد أكثر من الساحق. راح يلعنهم ويشتمهم تماما مثل أولئك الذين يمسكون بتلابيبهم ليلقوا بهم في السجون. وخاصة حين يعرض التلفزيون في المساء وجوه شبان شاحبة وملتحية، فقدت تعابيرها وحيويتها، بفعل الضرب والجوع والسهاد أو الخوف، خلف طاولة غريبة امتلأت بالكتب والبنادق والمسدسات والآلات الكاتبة وطلقات الرصاص، يجأر رسول قائلا: «ما هذا؟ ما بهم هؤلاء الأولاد؟ لا أفهم شيئا من كل هذا!» ثم يتذكر مرة أخرى أنه بروليتاري لكونه طرق يوما ما بالمطرقة في ورشة أبيه لصناعة المدافئ، فيقول: «إن كل من هو من خارج البروليتاريا، يتنطع لتنكب مهامها. والآن ظهر الطلاب. ما هي علاقتهم بالبروليتاريا؟! ماداموا خارج ميدان العمل، ما شأنهم والكفاح؟ سخيف، سخيف، كل شيء سخيف!»

بدا له أن كل هذه الأخطاء مردها إما إلى المعرفة الناقصة بالنظرية الماركسية والتفسير المغلوط لها، وإما إلى أن الفاشيين يخدعون عن سابق تصميم هؤلاء الشبان الجهلة. والكتب المصادرة مع أسلحة الطلاب تؤكد تلك الحقيقة: بالطبع ليس بوسع المرء أن يصبح ماركسيا بقراءته لـ «زنبقة الوادي» لبلزاك أو «نانا» لزولا! كيف إذن يدعي هؤلاء الشبان المقزمون الماركسية ما دمنا لا نصادف كتبا لناظم بين الكتب المصادرة التي يرى نظام القمع في عرضها كل مساء بين المسدسات والطلقات والقنابل اليدوية، واجبا من واجباته؟ كانت أعصابه تتوتر بصورة جدية فيقول: «إن هؤلاء غير قادرين على المجيء بالاشتراكية، دع عنك ملاحقتهم واعتقالهم، بل حتى لو دفعت لهم راتبا شهريا بمبلغ مليون ليرة: فهم لم يسمعوا قط بأعمال ماركس!». أمر آخر كان يثير أعصابه في سلوك هؤلاء الأولاد: ففي الوقت الذي تؤكد فيه التجربة أن المرء يكتسب شخصيته الحقيقية في الزنزانة ومن خلال التعذيب، فإن هؤلاء يخافون الاعتقال، ويستخدمون أسماء حركية ليغطوا بها على هويتهم الحقيقية. كلما سمع كلمتي «اسم حركي» من نشرة الأخبار في التلفزيون، كان يتوتر كما لو أن الأسماء الحركية تحول دون اعتقاله هو، وليس أصحاب تلك الأسماء ، فيبربر قائلا: «أسماء حركية! تبا لهذا! إن اسم الثوري هو اسمه أيا كان! إنهم يحاربون وفقا لمبدأ اضرب واهرب. يتنطعون للقتال باسم البروليتاريا، ثم يختبئون بلا حياء وراء أسماء حركية! على المرء أن يستحي!» اللافت في الأمر أن ناظم كان يستاء من تعليقاته تلك ويُسكته قائلا: «وما شأنك والاهتمام

بالأسماء الحركية لهؤلاء الصعاليك؟ أبعدهم عن ذهنك، وليأكلوا ما شاءوا من (...)! اجلس واشرب كأسك واقرأ كتابك وتابع تلفزيونك وانشغل بقصائدك»؛ وإذ يحاول جده أن يواصل الكلام، يحسم الأمر هكذا: «أفهمك، أفهمك: أنت غير قادر على الخروج من كتبك ولذلك أنت مشوش، أريد أن أقول لك افتح عينيك قليلا وانظر حولك، ولكن تأخر الوقت: حتى لو نظرت فلن ترى شيئا: عمرك سبعون!» عندئذٍ يتنهد رسول ويسكت: من الواضح أن ناظم، مثله في ذلك مثل كل البورجوازيين، يرى أن كبار السن متطفلون على الحياة، ولا يحق لهم أن يفكروا ويبدوا رأيهم في أي موضوع، فضلا عن مشكلات المجتمع، بل لا يحق لهم حتى أن يدخلوا السجن. ربما لهذا السبب منذ سنوات وناظم لا يشركه في أي من شؤونه، وإذا حدث وسأله عن دراسته، كان يسد فمه بكلامه قائلا: «جيدة، جيدة، لا تفكر بشؤوني!». لو أنه على الأقل اختار طريق هؤلاء الصبية لابسي السترات العسكرية(*)، وكرس نفسه لنشاط ثوري سواء أكان صحيحا أم خاطئا، بل لو أنه جلس من حين إلى آخر ليقرأ كتابا شعريا أو رواية أو كتابا نظريا، ففي تلك الحالة كان سيتفهم ازدراءه وإن لم يوافقه الرأي، ولكن أين هو من ذلك! صحيح أنه من حين إلى آخر، وهو يراه داخلا من الباب وقادما نحوه، كان ينتابه الشعور بأنه هو من يمشي باتجاه مرآة كبيرة، يرى فيها نفسه بكامل قامته، لكن التشابه بينهما كان يتوقف عند هذا الحد: فهذا الولد فظ وبلا مشاعر إلى درجة لا تصدق.

(*) الفيلدات.

في الفترة الأخيرة تغير بصورة تامة وأصبح سمجا ولا مباليا بصورة تامة: كان يبذر باستهتار إيجارات شقق ودكاكين ظريفة؛ مستبعدا عن ذهنه تراكم آلاف السنوات من الفكر البشري والغاية الكبرى التي بلغها في عمل ماركس، ويرتدي ملابس غريبة تذكر بأشكالها وألوانها بتخيلات معتوه أكثر من تذكيرها بملابس رجل، أو حتى امرأة، تفوح منه روائح عطور حلاقة قوية ومزيلات عرق، ولا يكتفي بذلك، بل صار يصطحب صديقاته للمبيت في البيت من غير أن يستأذنه مرة واحدة: صديقات يرتدي البعض منهن مثل تلميذات الابتدائية، والبعض الآخر مثل نساء الأزمنة السالفة، شعور بعضهن منفوشة ومبعثرة مثل الجنيات، وبعض آخر كأنما ألصقن رؤوسهن بالصمغ. وهكذا كان يدخل البيت، ثلاثة مساءات على الأقل من كل أسبوع، دونما إذن أو دستور، على وجهه ابتسامة لا مبالاة، شابكا ذراعا بذراع واحدة من صديقاته اللواتي ترتدي كل واحدة منهن وتطلي وجهها بطريقة مختلفة عن الأخريات، لكنهن يتماثلن في الغرابة وانعدام الحياء، يلقي التحية على جده من أطراف شفاهه ثم يختلي مع صديقته في غرفته؛ وبعد ذلك، حتى قبل أن ينتهي رسول من شرب العرق، تمر الضيفة من أمامه وهي تضحك، مرتدية برنس (روب) ناظم الذي بلون الورد الجاف، وفي قدميها خف ناظم المنزلي، تدخل الحمام وبعد دقيقة تشد السيفون.

كان في كل مرة يشد فيها السيفون، يقفز من مجلسه كما لو أن المياه انسكبت فوق رأسه ويبربر: «هذا يفوق كل حد!» ماذا كان يقصد بـ «هذا»؟. لقد صادف خلال حياته المديدة الكثير من

الفظاظات وانعدام اللباقة، ولكن المثال المجسد لأقصى ضروب الفظاظة وانعدام اللباقة في نظره الآن هو شد هؤلاء البنات المرتديات وفقا لأحدث أنماط الأزياء، والمتحدرات على الأرجح من عائلات بورجوازية ثرية، للسيفون في حمام بيته. إذا أردتم الحق فإنهن لم يتصرفن أبدا تصرفا غير لائق، بل إنه في الصباحات التي يستيقظ فيها ناظم مبكرا ويذهب إلى الكلية، حين كان يضطر لتناول الإفطار وتبادل الحديث مع البعض منهن، كان يرى أنهن يُجِدن التصرف باحترام إذا اقتضت الحال، ولكن مهما تصرفن بلباقة، كان يشعر بفظاظة مفزعة تتضح من كل ما فيهن: بدءا من الشال الثمين الذي يلقين به على أكتافهن وحتى تنوراتهن (بعضها قصير جدا، وبعضها الآخر يصل حتى أعقاب أقدامهن)، وبدءا من جلوسهن والساق فوق الساق وانتهاء بنظراتهن الغائمة. وهو ينظر إليهن، كان رغما عن إرادته يتذكر شبابه الخاص مع أصدقائه، والثياب التي ارتدوها سنوات طويلة في كل الظروف، فبدت كامتدادات طبيعية لأجسادهم، وجزءا من حياتهم، وأصبحت لها شخصيات خاصة بها وأسماء خاصة بها، يتذكر «الشقراء» و«شوبان» و«مهمتجك»، ثم يغمغم وهو يمسح عينيه الغائمتين: «إنه حفيد فريدة! كيف يكون ذلك؟ لا يمكن فهم هذا الأمر»، فيبحث - دون إرادة منه - عن تفسير مقنع لما يراه من انحطاط يعاكس مجرى التاريخ، فيصل إلى برنامج ناظم حكمت لعمر التسعة عشر، فيكرر أبياته القائلة:

«٢٤ ساعة من ٢٤: لينين

٢٤ ساعة: ماركس

٢٤ ساعة: أنجلز
مئة درهم من الخبز الأسمر
٢٠ طنا من الكتب
٢٠ دقيقة من ذاك الشيء!».

ثم يقول: «ومثلا ناظمنا هذا، لو أنه قرأ كتبا بعدد القمصان في خزانة ثيابه، أو بعدد الفتيات اللواتي يدخلن سريره، لأصبح إنسانا أرقى، حتى لو لم يصبح ثوريا»، ويتنهد ويفكر بأن النسب في حياة ناظم وأشباهه معكوسة، لذلك فهم محكومون بأن يظلوا أفظاظا أبدا: فلأنهم استبعدوا عن حياتهم تماما كتب لينين وماركس وأنجلز، كتب الشعر والرواية والنظرية، فلا خلاص لهم من الفظاظة، وإذ يشبعون جوعهم الجسدي على بعد خطوات قليلة من مجلسه، يمرون أمامه دون أدنى شعور بالحرج من وجوده، بل ينفخون صدورهم كمن أنجز عملا يعجز الآخرون عن إنجازه، فيختالون في مشيتهم إلى الحمام حيث يشدون السيفون.

في ليلة من ليالي الشتاء، استمر شد السيفون في الحمام حتى الثالثة أو الرابعة صباحا، ورسول يتقلب في فراشه وهو يصارع هذه الأفكار المشؤومة. وبعد أن أخذ الفجر يضيء، رغب أن يكسر روتينه اليومي ويهرب إلى الشارع مبكرا حتى قبل تناول الإفطار، ليتجنب بذلك رؤية وجهَيّ ناظم وصديقته اللامباليين واللذين يظهران سخرية بالحياة كلها، وليوفر على نفسه سماع ضحكهما الصاخب. لكنه حين خرج من الحمام - وكان يرتدي بيجامته المخططة بالأزرق وخفه المنزلي - بعد أن غسل وجهه، كاد يصطدم وجها لوجه بشابة شقراء يرتفع شعرها عشرين سنتيمترا فوق

رأسها، فأحنى رأسه واعتذر راغبا في العودة إلى غرفته. لكن الفتاة باغتته بأن قطعت عليه الطريق: «مهلا، مهلا.. لا يحق لك أن تهرب بهذه السرعة! دعني ألقي عليك نظرة». أمسكَتْ بيديه وهي تبتسم بفرح غير مفهوم كاشفة عن أسنانها الاثنين والثلاثين، وقالت متلعثمة: «لكنك.. لكنك.. لكنك أكثر وسامة من حفيدك!»، ثم أضافت حينما حاول رسول تخليص يديه والعودة بسرعة إلى غرفته: «نحن وحدنا في البيت، هل تعرف ذلك؟»

استغرب رسول وسألها:

- كيف ذلك؟ هل خرج ناظم؟ أليس اليوم هو الأحد؟

- نعم، هو كذلك، لكنه خرج في الخامسة صباحا قبل انقشاع الظلام.. إنه ناظم.. ومن يعرف ما يمكن أن يفعله!

أكد رسول كلامها من غير تفكير:

- صحيح... لا أحد يدري بأموره.

كان يفكر بشيء واحد، هو التخلص من هذه الفتاة. قال لها وهو يخلص يديه: «أنا أيضا مضطر إلى الخروج مبكرا هذا الصباح، عن إذنك!».

دخل غرفته وأغلق على نفسه.

حين خرج وقد ارتدى ثياب الخروج، وجد الفتاة الشقراء مسترخية في مقعد أبيه بلا احتشام. سألته:

- هل أعد الفطور؟

- لا، شكرا، أنا مضطر للخروج باكرا.. بإمكانك إعداده لنفسك.

- لا، لا أريد، سأهرب فورا مثلك.. لِنرى ما الذي يدفع بالناس إلى الشوارع في هذا الصباح البارد من شباط!

لم يرد رسول، غير أنه حين فتح الباب وأحس بلفح الصقيع على وجهه، سأل نفسه السؤال ذاته، وفكر: بما أن ناظم انصرف، وقالت الفتاة بأنها خارجة بعد قليل، تساءل عما إذا لم يكن من الأفضل أن يشعل المدفأة ويجلس بارتياح. ولكن بما أنه خرج، فيحسن به ألا يعود قبل أن تغادر هذه الفتاة البيت. رفع ياقة معطفه، ومشى بخطوات واسعة فوق بلاط الشارع الذي تجمد الماء بين مفاصله، وفي قلبه ضيقٌ بثقل الرصاص. خرج إلى الشارع الإسفلتي العريض الذي تصطف على جانبيه بنايات وصفها فهمي غولمز يوما بالفاخرة، ويظنها هو الآخر كذلك. لم يكن ثمة أي أثر للحياة إذا استثنينا براميل النفايات الكبيرة، وعددا من الكلاب السائبة تتحرك بين أكوام النفايات المتناثرة حول البراميل، وعددا من القطط تراقبها من بعيد. لا ضوء يلتمع ولا سيارة تمر. وفي الشارع النازل باتجاه الميناء، تابع سيره محاطا بالصمت نفسه والجمود نفسه. لكنه رأى على يمينه، حيث يتوسع الرصيف إلى ضعفَيّ ما هو عليه في الأماكن المجاورة، قسم شرطة المنطقة بأنواره المشتعلة وقد تغبش زجاج نوافذه جيدا، كأنما أريد أن يوحي للمارة بوجود بشر في الداخل، ولكن بدلا من أن يشعر رسول بالدفء من علامة الحياة الوحيدة هذه، اقشعر حتى نقي عظامه. سرَّع خطواته حتى يتدفأ قليلا، وحتى يبتعد بصورة أسرع، ولم يكتفِ بذلك، انحرف إلى الشوارع الفرعية. بهذه الطريقة أطال مساره إلى ثلاثة أضعافه تقريبا. حين وصل هكذا إلى ساحة المرفأ لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. فكر أن يدخل مقهى يفتح مبكرا ليشرب كأسا من الشاي

الساخن، غير أنه استصعب كثيرا أن يطلب الشاي من النادل ويرد على تحيات من يصادفهم ويتحمل نظراتهم الفضولية. تابع المشي فترة أخرى. على حافة البحر، في مكان يتوسط الحديقة والساحة الخالية رأى بضعة مقاعد مرمية بين أكوام الورق والبلاستيك المحيطة بحاويات القمامة ذات اللون البرتقالي. قرر أن ينتظر الشمس هنا.

استدعت الشمس إلى مخيلته وبصورة مفارقة، المقبرة، والأحرى قبر فريدة. فرك يديه وتساءل: «كيف لم أفكر به؟» ثم قال لنفسه: «الأفضل أن أذهب إلى فريدة. فضلا عن أنه ليس لي شخص آخر يمكنني أن أذهب إليه». لقد تهيب دوما فكرة زيارة قبر فريدة في الضائقات. هذه المرة فعل. حين وقف عند القبر تبدد شعوره بالضيق إلى حد كبير، ربما بفعل الجو الذي انكسرت برودته كثيرا، أو الأصح أن شعوره بالضيق قد تشوش. بقي هكذا واقفا لا يفكر بأي شيء، ثم فجأة ظهرت في مخيلته بلا أي مقدمات، مشاهد من تلك الليلة حين جاءته فريدة في فراشه للمرة الأخيرة، وحركات تلك الليلة؛ ليس فقط في مخيلته، بل في كل أناه: على الرغم من الشمس التي تبهر عينيه، انتشرت المشاهد والحركات في جسده في شكل دفء لذيذ، أغمض عينيه وتنهد بشوق ورغبة. لكنه على الفور انتبه إلى شذوذ الموقف، أحنى رأسه وبقي هكذا فترة طويلة لا يجرؤ على النظر إلى قبر فريدة:

فقد فكر أن الفتاة الشقراء (على الرغم من غضه للبصر طوال الوقت) هي السبب في وصوله إلى هذه الحالة الشاذة؛ ولكن بما

أن مـرأى الشـقـراء لم يكفـه ليـسـامح نفسـه فـقـد غـمـغم يقـول: «أصبحت حالتي غريبة في الأيام الأخيرة».

مهما يكن من أمر، عندما رفع رأسه أخيرا وحدق في اللوحة التي كتب عليها:

فـريدة سـونمز (٣ شـبـاط ١٩٢١ ـ) لم يكن قـد بقي أي أثر من الشعور بالارتياح الذي انتابه عند وصوله إلى القبر قبل نصف ساعة على أكثر تقدير: فقد شعر بالارتياح لأنه جاء إلى أقرب كـائن إلى قلبـه هاربا من قبـضـة عـالم يزداد برودة وغـربة وعداء، أمـا الآن، فإنه يقشـعـر أمام الدليل القاطع لفقـدانه هذا الكائن الفـريد، على الرغم من الفـراغ الذي يلي الشـخطة(*). مع هذه القشـعريرة لم يسع وراء أشيـاء جميلة ليبلغها إلى فريدة، كما اعتاد أن يفعل: فمـا الذي يمكن أن يبلغهـا به؟ أصوات السـيفـون، أم فتيات ناظم نصف العاريات، أم قمصـانه الحمـراء والخضـراء، أم صوت مـحـرك سيـارته الـذي يوقظ كل الحـارة، أم حيـاة الرجل الذي تركتـه وحيـدا، التي ذهبت هدرا؟ أن يقـول: «الحيـاة، الحيـاة! لقـد ضـقت ذرعـا بهـذه الحـيـاة، أريـد أن آتي إليكِ!». وكـان على وشك البكاء. لكنه كـان يعـرف أن فـريدة تشـمـئـز من العـاطفيـة والقنوط: ابتعد ببطء عن قبـر فريدة محني الرأس.

لم يكن يعـرف إلـى أين يذهـب، كمـا أنه لم يميز الأمـاكن التي يعـبـرها. كـان من حين إلـى آخـر، أثنـاء سـيـره على طول شـارع إسفلتي مملوء بالحفـر، يصطدم، بين أكيـاس البلاستيك الطائرة

(*) إحالة إلى ما بين القوسين على شاهدة قبر فريدة. حيث التاريخ المذكور هو تاريخ ميلادها والفراغ بعد الشخطة يحمل دلالة أنها لم تمت.

بفعل ريح شباطية، بشجرة أو بجدار، فيتمتم من دون أن يرفع رأسه وينظر، بكلمة «عفوا» ثم يتابع سيره. في إحدى اللحظات أراد أن يعود إلى البيت تحت وطأة نعاس تصعب مقاومته، وإرهاق داهمه فجأة. رفع رأسه وألقى نظرة على ما حوله: كان فوق طريق منحدر، تحيط به من الجانبين بيوت كبيرة وصغيرة، وظهر البحر من بعيد، لكنه لم يستطع تحديد موقعه؛ ومن جهة أخرى كان الشارع خاليا من البشر، لا يعرف إن كان السبب هو الوقت المبكر، أم برودة الجو، أم إخلاء المنطقة من سكانها. قال لنفسه: «أتراهم أعلنوا مجددا منع التجول؟»، ثم واصل سيره. مشى مطولا نكاية بالنعاس والإرهاق. في الشارع الذي دخله مرت عدة سيارات في رتل متلاحق، ثم رأى بعض الأولاد يلعبون الكرة، فقال لنفسه: «ليس ثمة منع تجول اليوم» وأضاف: «ثم كيف كان بوسعي الوصول إلى المقبرة لو أن ثمة منعا للتجول؟» مشى مجددا. رأى أخيرا في حديقة صغيرة بضعة مقاعد تحت الشمس، فأسرع خطواته كما لو كان يخشى ظهور منافسين، ثم جلس على أقرب مقعد. وما إن جلس حتى سقط رأسه فوق صدره وأُغمضت عيناه من تلقاء ذاتهما.

حين فتح عينيه وجد أولادا يتراكضون حوله، وامرأتين مسنتين تحيكان الصوف على المقعد المقابل وتتحدثان. واحدة من المرأتين المسنتين نظرت إليه وابتسمت بود، لكن رسول لم يكترث، بدا كمن لا يهمه أي شيء بعد على هذه الأرض، وحدق في السماء من بين الأغصان الجافة. حدق مطولا ثم تمتم فجأة:

«اليوم هو الأحد
للمرة الأولى أخرجوني إلى الشمس»(*)

لكنه، فجأة، بدأ يرتعش كما لو أن تيارا جارفا حمله: مع إدراكه بالتناقض المخيف لهذه الأبيات نطقها لتوه بصورة عفوية، باعتبارها من جهة أولى ملاحظة يعبر عنها للمرة الأولى لإظهار الوضع الذي يجد نفسه فيه، ومن جهة أخرى باعتبارها الأبيات الشهيرة لناظم حكمت. وكأن هذا ليس كافيا، فقد انتابه الشعور بأنه في اللحظة نفسها موجود في هذه الحديقة تحت شمس شتائية، وكذلك في باحة سجن مسيجة بأسوار عالية لا تتيح رؤية أي شيء باستثناء السماء. وكنتيجة لذلك، كان يعي ذاته باعتباره هو نفسه، وشخص آخر في اللحظة عينها. قال لنفسه: «ماذا يحدث؟ أتراني أجن؟».

سؤاله هذا أعاد إليه رشده: فاستوعى نفسه - إن لم يكن هذا وهما بدوره - باعتباره الشاعر العجوز والموظف المصرفي المتقاعد رحمي سونمز الجالس على مقعد في حديقة صغيرة تحت شمس شتائية، قبالة عجوزين تحيكان الصوف وتتحادثان، مرتديا معطفه وعلى عنقه وشاحه الذي يعود إلى عهد فريدة. غيرأن تثبيت الحقيقة في مكانها الصحيح زاد من قلقه بدلا من إزالته: فلا شيء أشد مجافاة للمنطق من جلوس شاعر ثوري - خاصة في مرحلة كهذه - في الحدائق مثل أي بورجوازي، محاطا بالأطفال والنسوة العجائز، بدلا من إخراجه من الزنزانة إلى الشمس، كما عاش ذلك قبل قليل في خياله. نهض من مجلسه بغضب، كأن

(*) من قصيدة لناظم يصف فيها خروجه من الزنزانة للمرة الأولى بعد أشهر من الحبس الانفرادي.

مـجـافـاة المنطق قـد حـدثـت للتـو، وراح يتـمـشـى ذهابا وإيابا أمـام العجـوزين اللتين لا تزالان تتـحـدثان بالحيوية نفسـهـا، مثل معـتقل سـابق استـعـاد عـادته في التنزه. أحس بالتـنـاقض بين طريقـة المشـي والمكان الذي يتـحـقق فـيـه، أحس بوجع حـاد، وارتجف تحت وطأة شعـور احـتـجـاجي يستـحيل إحبـاطه: «هؤلاء الـنـاس كيف يعـتـقلون اليساريين؟ عن طريق الطرة أم النقش؟ لم أفهم هذا الأمر»، غمغم ثم عـاد وجلس في مكانه الأول، تنهد بعمق. فكر فـجـأة بأنه سـواء كـان الأمـر يتم وفـقـا للطرة أم النقش أو بأي طريقـة أخرى، فـإن هذا الموضوع قد أقفل تماما ليس فقط بالنسبة إليه، بل بالنسبة إلى كل الماركسيين الحقيقيين من أمثاله: إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنهم لم يدقوا عليه البـاب مـرة واحدة طوال سنوات، فعلى المرء أن يرتاب في كـون أولئك الذين يتم اعـتـقـالهم بدعوى أنهـم يسـاريون، يسـاريـين حـقـيـقـيـين. بـدا له أن نشـاطات النظام وعلى الأقل في السنة أو السنتين الأخـيـرتين تعطينا مـؤشـرات سليـمـة بهـذا الخصـوص: فـهم يلملمون شـبـانا غيـر ناضـجين من غيـر المحـتمل حـقـا أن تكون لهـم مـعـرفـة بماركس، تحت توصـيـفـات رنانة مـثل الشـيـوعـيـة والماركسيـة واللينينية والماوية، خـالقين بذلك تضليـلا فحـواه أن غـايـة الماركسية ليست الثورة البـروليتـارية العـالمـية، وإنمـا لعبـة أطفـال خطـرة، مستـهـدفين بذلك حرف المجـتمع عن طريقـه. تمتم يقـول لنفسـه: «مـا كـان بوسع الفـاشـيـة أن تجـد نهـجـا أكـثـر فعالية لحفـر هـوة من الغربة بين الشعـراء الثوريين وشعبهم»، وهـو يشـعـر بانسـحـاق من أعـيـد إلى الزنزانة بعـد برهـة تشـمس. بغـريزة النجاة من هذا الشعور حدَق في السمـاء: لا تزال صـافية ولا تزال

زرقـاء. فكر في أن التمـاع سـمـاء كـهـذه فـوق أرض كـهـذه، شـيء يجـافي المنطق. ولكن من يعلم؟ فليس مـن المسـتـحـيل أن تـتـحـد السماء بالأرض فجأة، بهدير قنبلة مروع، إبان الفوضى المخيفة لما قبل الثورة، وتتلبس شكلها. غـمغم بكلمة: «هـيروشيـمـا!». كان قد قرأ في مكان مـا أن الأمـريكيـين لم يقـتـربوا من هيـروشيـمـا لفـتـرة طويلة، ثم، وفي يوم مشرق مثل هذا اليوم، ألقوا بالقنبلة من سماء بهـذه الزرقـة. ليس من المسـتـحـيـلات إذن أن يكون الفـاشـيـون قـد أعدوا مـصـيـرا شـبيـهـا بمصـيـر هيروشيـمـا للشـاعـر الذي كتب أكثر القصـائد ثورية في السنوات الخـمسين التـالية لناظم. لكنه ضـحك بنفسـه على افتـراضه، قال: «لقد بدأت أخرف بصـورة جدية». من غيـر المجدي الركض وراء الأحـلام: هو شـاعـر مـيت بيـومـه وغـده على السـواء، حـتى أنه كـان بوسـعـه القـول إنه لم يعش قط لولا ذكرى فـريدة الحيـة دومـا. فـضـلا عن ذلك واسـتـنادا إلى الثـلاثيـة [الأطروحـة /الأطروحـة النقيض/ التـركيب] فكمـا يتعين وجـود من يميت حتى نموت، كذلك يتعين وجـود فـاشـيين واعين أمـامنا حتى نبـرهـن على أننـا شـيـوعـيـون حـقـيـقـيـون. تمتم يقـول: «أين هم الفـاشـيـون من هـذا النوع؟ هـؤلاء النـاس ليـسـوا حـتى فـاشـيين كـمـا يجب». أحنى رأسـه وأغـمض عينيه وشـابك ذراعيه فوق صدره، ولم يمضِ وقت طويل حتى غفـا.

حين فتح عينيه كانت الشـمس قد غابت ولم يبق أحد غيره في الحديقة الصـغيـرة. نهض واقـفـا، فـرك يديه وبدأ يمشـي بسـرعـة وهو لا يفكر بأي شيء. مـشى مطولا عـبر شـوارع خـالية لا يعـرفهـا كـأنه يبـغي الوصـول إلى مكـان مـا. ثم، وهو ينـزل أحـد المنحـدرات،

اشتعلت مصابيح الشارع فجأة، فتوقف في مكانه، وراح ينظر إلى الأضواء الملونة التي يزداد عددها مع كل ثانية، على الشاطئ المقابل، تذكر ناظم مرة أخرى:

«الاشتراكية،

تعني الكهربة!».

تتهد بعمق: بما أنه من غير الممكن تصور كثافة في الكهرباء أكثر من هذه، فمن الجائز الاعتقاد بأن الاشتراكية، وإن لم تأتِ تماما بعد، فقد أصبحت على الأبواب. ولكن، على الأقل في هذه اللحظة، لم تكن مشكلة رسول هي الاشتراكية: ما أكثر ما حلم بالمهاجع وأسرتها الحديدية والاستجوابات تحت ضوء يعمي العيون أو بأعين معصوبة واليدان مقيدتان خلف الظهر والقدمان في الأصفاد، والأصابع التي تسحق تحت أعقاب الأبواط؛ إلى درجة جعلته يرى في الاعتقال شرطا لا بد منه لأي إنسان يريد أن يكون شاعرا وثوريا، وإلى درجة أن اشتراكية تتحقق في البلد قبل أن يُعتقل، ستكون ثورة ناقصة بالنسبة إليه شاء ذلك أم أبى. مهما يكن من أمر، إذا كان صحيحا أن الاشتراكية تعني كهربة البلاد، فهذا يعني أن الأمر قد انتهى: لن يطرقوا بابه أبدا. قال لنفسه: «إن دفترنا قد أغلق».

لذلك، في مساء اليوم نفسه، بعد أن مر عبر شوارع ظن أنه يراها للمرة الأولى ـ وكأن الثورة الاشتراكية قد تحققت ـ وبعد أن تمكن أخيرا من الوصول إلى بيته ومن فتح الباب بأصابعه المتجمدة من البرد، في حوالي الواحدة صباحا، في اللحظة التي دخل فراشه مرتديا بيجامته، حين راح الباب الخارجي يُرفس

فجأة وقبل أن يتسنى له السؤال عمن يكون الطارق انطلق صوت تردد صداه في كل مكان: «الشرطة! افتحوا الباب! ولا تحاولوا القيام بحماقة، فالبيت محاصر!» وإن تمتم يقول لنفسه: «هيروشيما! أخيرا جاءوا!» لكن دهشته غطت كثيرا على فرحته.

من جهة ثانية، بتأثير من المذكرات التي قرأها، كان يتوقع قدومهم دوما بين التاسعة والنصف والعاشرة، لذلك أزعجه حقا قدوم الشرطة في هذا الوقت المتأخر. لا شك أنه لن يعترض على هذا، لأنه من حقهم أن يختاروا التوقيت بأنفسهم بما يناسب ضرورات عملهم. ومع ذلك لم يستسغ أن يضبطوه بهذه الهيئة الشبيهة بالبورجوازيين الصغار مرتديا البيجامة ومنتعلا الخف المنزلي. أراد أن يرتدي ملابسه، إلا أن الباب رفس مجددا كأن الجرس قد وضع من باب الزينة. هتف يقول: «سمعت! سمعت! إني قادم! دقيقة واحدة!»، ثم تخلى عن ارتداء ملابسه وفتح الباب بثقة، دون خوف أو شحوب أو تعثر، كما لو كان بصدد استقبال صديق أو جار. في اللحظة نفسها اندفع إلى الداخل لا شرطي واحد، ولا اثنان، أو ثلاثة، بل أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية شرطيين اندفعوا كالكارثة وأصابعهم فوق زنادات بنادقهم الرشاشة. مكث اثنان منهم معه عند المدخل، في حين توزع الآخرون في الغرف وأصابعهم فوق الزنادات، وهم يلتصقون بالجدران. ابتسم رسول رغما عنه وأراد أن يقول: «أليس هذا كثيرا بعض الشيء من أجل رجل مسن؟!»، لكنه تخلى عن جملته بعد أن أجالها في رأسه، لأن سؤاله قد تأخر قليلا، ثم إن الأمر يخصهم. لكنه، بعد برهة، بدأ يسمع من الغرف أصوات جر

الأسـرة وإسقـاط الكراسي وإلقـاء الجوارير على الأرض، ففكر في أنهـا اللحظة المناسـبـة تمامـا ليقـول تلك الكلمـات التي بنـاهـا في ذهنه منذ سنوات طويلة، فـالتـفت إلى الشـرطي الذي يتـضح من صغر مسدسه أنه الرئيس وقال له:

ـ سـيـدي الموظف، قل لزمـلائك أن يكفوا عن تقليب البـيت بلا جدوى ـ دعوني أدلكم بنفسي على ما تبحثون عنه.

نظر رئيس الشرطة بدهشة إلى وجهه وقال:

ـ «لا؟ صحيح؟ حسنا، هيـا دلنـا» ثم التفت إلى زميله وقال: «اذهب مع العم وألقِ نظرة إذن، لنرى مـا الذي يريد أن يرينا إياه» كـان في صوته ما يشبه السخرية، ومع ذلك وجه مسدسه إلى رسول.

لم يتأثر رسول لا بالسخرية ولا بالمسدس، اتجه بخطوات واثقة وثابتة، متقدما الشرطي، نحو المكتبـة المنتصبة أمام الباب مباشرة. ثبت الشرطي نظراته على صورة فريدة التي تنظر بطريقة ساخرة من خـلال نظارتهـا ذات الإطار الدائري، من غيـر أن يتنـازل ويلقي نظرة واحدة على صـورتي لينين وماركس البارزتين، وسـأل دون أن يرفع إصبعه لحظة واحدة عن الزنـاد:

ـ من هـي هذه الفتاة؟ أهـي حفيدتك؟

ـ «لا، إنهـا زوجـتـي»، قـال رسـول وأشـار ـ حـتى قـبل أن يـتـغلب الشـرطي على دهشـتـه ـ إلى الكتب في الرف العلوي الأوسط، وأضـاف: «هاهي مـؤلفـات مـاركس، وهـذه مـؤلفـات لينين، وتلك دواوين ناظم، وهـذه قصائدي أنا، وهـي قصائد ثورية...».

دون أن يشك في ما تركه من أثر، التفت إلى الشرطي، لكنه رآه يرمـقـه لاويا شـفـتـيه، وإصـبـعـه لم تبـرح الزناد. لم يدرك إن كـان

غاضبا أم مستهزئا. مهما كان الأمر، فقد شعر بالسرور لأنه حقق أخيرا ما خطط له سنوات، وكذلك لأنه حل المشكلة بطريقة مختصرة؛ ولا أهمية للأمور الأخرى، فهو ليس في وارد وضع افتراضات بخصوص ردود فعل شرطي عادي، وهو الشاعر الثوري المخضرم. عاد إلى الشرطي ذي المسدس الصغير الذي كان يراقبهم عن بعد، وقال له:

- سيدي الموظف، لو سمحتم لي أعددت نفسي خلال خمس دقائق.

- لأي شيء تريد أن تعد نفسك؟

للمرة الأولى ابتسم رسول، ابتسامة امرأةٍ دخلت دكانا للمرة الأولى، وتحاول تذكير البائع بأنها زبونة قديمة، قال:

- لآتي معكم.

نظر الشرطي إلى وجهه كما لو كان يبصق فيه، ودفعه بقسوة من صدره، ربما لأنه اقترب أكثر مما يجب. حاول رسول أن يتمسك بالباب الداخلي لكنه لم يفلح في ذلك، وقع على ظهره بحيث تمددت ساقاه في الردهة وجذعه داخل الغرفة، أحس بارتطام رأسه بالكرسي وتفكك بيجامته من تحت الإبط الأيسر أو تمزقها. وبالرغم من الألم الفظيع في رأسه لم يُصدر أي صوت، بل استقام وجلس في عتبة الباب. وبهذه الطريقة استطاع أن يريهم أنه - كثوري حقيقي - لن يستسلم بسهولة. غير أنه لم ير أي معنى لردة الفعل العنيفة هذه.

كثيرا ما قرأ وسمع قصصا عن أخذ اليساريين من بيوتهم: يفتشون الخزائن والجوارير والمكتبات تفتيشا دقيقا يحشرون

الكتب والمجلات والرسائل التي يعتبرونها مشبوهة، بفظاظة في أكياس. هذا يعرفه، لكنهم على العموم يأخذون المتهم دون أن يصرخوا فيه، بل دون أن يقيدوا يديه؛ لا هو سمع بمجيئهم في مجموعة من ثمانية أشخاص مسلحين بمسدسات آلية، ولا بأنهم يبطحون أرضا الشعراء المسنين الذين يدلونهم بأيديهم إلى أدلة الجريمة. على الأقل ما كانوا يفعلون هذا بالمرء في بيته. ثم عن أي شيء ما زالوا يبحثون داخل الغرف على الرغم من تنبيهه لهم؟ لِمَ لم يلمسوا الكتب؟ وهاهم قد انتهوا من التفتيش، فما الذي ينتظرونه؟ ولِمَ يوجهون مسدساتهم نحوه مع معرفتهم بأنه وحيد في البيت ولن يتمكن من الهرب بهذه البيجاما الممزقة؟

أتراهم يلعبون؟ وأي لعبة؟ فجأة خطرت في باله كلمة قالها له حفيده قبل بضعة أيام: «إن حياتك كذبة يا جدي!»، أيكون هو من رتب لهذه اللعبة؟ هل أراد بلعبة كريهة من هذا النوع أن يبرهن على ملاحظته الظالمة؟ قال لنفسه: «مستحيل، لا يمكن لناظم أن يتمادى إلى هذا الحد، ثم من أين له كل هذا العدد من الرجال القبيحين؟ هو لا يعاشر سوى البنات». ثم تذكر تشبيه هيروشيما: في سماء هيروشيما الصافية صفاء شعر ناظم، انفجار مباغت ومرعب، نار وغبار ودخان وزوبعة، تداخل السماء والأرض في فوضى يوم القيامة، خاتمة الشاعر الثوري. أهذا ما كان يريده؟ للمرة الأولى شعر رسول بالخوف. حانت منه نظرة إلى يده اليمنى فوق ركبته: كانت ترتعش. خجل من نفسه. استقام بصعوبة وارتدى خُفَه، ألقى قطعتي حطب داخل المدفأة، ثم سار نحو النافذة المطلة على الشارع حتى يُظهر انه غير خائف، لكن

الشرطي صرخ به قبل أن يصل إليها:

- اجلس مكانك يا عجوز! لا تتحرك بين الأقدام!

جلس رسول على أقرب مقعد، لكن الشرطي صرخ به ثانية:

- ليس هناك، بل هنا! وإياك أن تنهض ثانية إذا لم آمرك بذلك!

وكان يشير بطرف السبطانة إلى الكرسي الذي بجانبه. جاء رسول وجلس عليه. ثم جرب، بعد تهيب أن يستدرج الشرطة إلى الكلام. قال:

- لا أفهم لِمَ ننتظر؟ لِمَ لا تأخذونني؟

للمرة الأولى ابتسم رئيس الشرطة:

- أنت؟ وإلى أين سنأخذك؟

- وما أدراني يا سيدي الموظف؟ الثكنات كثيرة، أقسام الشرطة كثيرة! ترى إلى خان صنصريان أم الحربية أم إلى بال مومجو أم مال تبه؟ أنتم أدرى بذلك. من أين لي أن أعرف؟

رمقه الشرطي من رأسه حتى قدميه بسحنة ساخرة، وقال له:

- حسنا، ولكن لِمَ ننقلك إلى تلك الأمكنة؟ هل ظننت خان صنصريان دار عجزة؟

هذه الكلمة أثارت غضب رسول، بحث عن رد قاس بقدر المستطاع، لكنه تراجع قبل أن يعثر عليه: أحرى به أن يسايس حتى يتخلص من هذا الجهل المخيف بشخصه. قال:

- عفوا سيدي الموظف، ولكن لا بد أن ثمة شيئا ما... مثلا كتبي، قصائدي...

أطلق الشرطي قهقهة عالية ثم قال بقسوة مصطنعة:

ـ أيها الخرفان، هل تسخر مني؟ ألم يبق لدينا عمل نقوم به، حتى ننشغل بكتبك؟ أم أنك تريد أن تخدرنا؟ الأزعر الذي هو ابنك يريد تغيير النظام الدستوري؛ فيشكل العصابات ويقتل الناس ويسطو على البنوك ويطلق النار على أقسام الشرطة، في حين تتحدث أنت عن الشعر! هل تظننا بلهاء؟

ـ «مستحيل!» هكذا صرخ رسول ورفع يديه إلى الأعلى، ثم احتضن رأسه بيديه وانكمش كما لو كان يتلقى الصفعات من الجهات الأربع، أن يقول: «مستحيل، مستحيل، مستحيل!»، اختلطت في أناه حزمة من المشاعر: خيبة الأمل والخوف والغضب والتمرد، كرر يقول: «لا، مستحيل!» قفز واقفا على الرغم من الأمر القطعي للشرطي وراح يتأتئ: «هل تقصدون أنكم لستم من أجلي... يعني أنتم... يعني ابني ناظم...».

أسند الشرطي السبطانة إلى جبينه وقال له:

ـ اجلس وأغلق فمك!

عاد رسول إلى الجلوس مكانه، لكنه لم يتمالك نفسه عن تكرار كلمة «مستحيل!» مرة أخرى. بدا له أن كل هذا عبارة عن لعبة فظّة وقبيحة في غير مكانها وزمانها المناسبين. هؤلاء الرجال الذين داهموا بيته في وقت غير متوقع ولووا شفاههم بازدراء لكتب ناظم وماركس ولينين، لا يمكن أن يكونوا شرطة هذه الدولة. رفع رأسه وراح يجول بنظراته على الرجال الذين ازدحموا حوله، ساعيا إلى استخلاص نتيجة ما من وجوههم وسلوكهم، ومثلا لمعرفة فيما إذا كانوا من ثوريي الشوارع الذين يخفون هوياتهم وراء الأسماء الحركية، أم لا، لكنه لم يصل إلى نتيجة.

فكَر مرة أخرى في أنه إزاء لعبة قبيحة. ولكن إذا لم يكونوا يؤدُون أدوارهم ببراعة لا تضاهى، فمن الواضح أنهم لا يستمتعون كثيرا بلعبتهم: أصابعهم على الزناد، وجوههم متوتِرة وشاحبة، يُصغون إلى أصوات لا يسمعها هو، لا يتكلمون ولا يأتون بحركة، ويستمرون هكذا في الانتظار. هل يمكن حقا أن يكونوا بانتظار ناظم؟ «لا، مستحيل!»، لعل كل المسألة هي أن إرهابيا اختار اسم ناظم اسما حركيا له. لولا أن أعصابه متوترة إلى هذا الحد، ولولا كل هذا الألم في رأسه، لكان رسول قهقه ضاحكا من كل ما يجري. قد يحدث له في لحظة ضعف أن يشكك في شاعرية ناظم أو في صحة أفكار ماركس، فمهما يكن، هو يعرفهما من خلال الكتب؛ ولكن ليس ثمة أدنى احتمال في أن يشكِك في أن حفيده الذي نشأ قربه تحت هذا السقف طوال سنوات، ليس إلا شخصا تافها منحطا لا علاقة له بالثورة.

فجأة ومضت فكرة في دماغه: «الجستابو! نعم إنهم الجستابو الذين تخلفوا حتى عن العدالة البورجوازية، يرون أن يقتلوا حفيدي ليثأروا مني!» ثبت نظراته في عيني الشرطي ذي المسدس الصغير وصرخ به بصوت ثابت:

- عليكم أن توضحوا لي ما الذي تبحثون عنه في بيتي!

بدلا من أن يقدِم له التوضيح المطلوب، اقترب منه الشرطي ذو المسدس الصغير وهو يمشي على رؤوس أصابعه، ضغط بيده التي تحمل المسدس فوق رأسه، وبيده الأخرى أمسك بشفتيه وراح يشدهما كأنه يريد أن يقطعهما ويرمي بهما. في تلك اللحظة ارتج البيت بالعاصفة التي أثارتها سيارة ناظم. انحنى الشرطي على أذن رسول

وهمس له: «إذا أصدرت أدنى صوت قتلتك». ولعله خشي ألا يمتثل لتحذيره، فقد ضغط بيده اليسرى على فمه بكل ما يملك من قوة. أكثر من شعوره بالألم والخوف، شمَ رائحة البصل الكثيفة التي انبعثت من راحة الشرطي مثل سائل لزج. تلك الرائحة غطت كل كيانه مثل طبقة ثقيلة من الوحل، فصلته في لحظة واحدة عن كل ما حوله. لذلك فقد راقب دبيب الذعر بين الشرطة ودوران المفتاح في القفل، وانفتاح الباب ودخول ناظم، وانقضاض أربعة من الشرطة - بدوا جميعا صغارا بالقياس إلى ناظم - عليه في لحظة واحدة وإسقاطه على الأرض، وانضمام البقية إليهم وتقييدهم ليديه وراء ظهره، ثم رفعهم إياه عن الأرض، ضربهم على رأسه وظهره وبطنه وساقيه وأينما صادفوا، راقب كل ذلك إذن كما لو كان يحدث في عالم آخر، ومثلا في مسلسل أمريكي، بحياد ودون أن يصدر منه أدنى صوت، ودون أن يتحرك من مكانه بالرغم من أن الشرطي كان قد تركه. ثم فجأة أدرك الجهد المحموم واليائس الذي يبذله ناظم ليحرر يديه من القيود، فقفز من مكانه بسرعة لا يمكن توقعها ممن في مثل عمره، أمسك بعنق أقرب شرطي إليه وشده إلى الخلف. ترنح الشرطي، لكنه استقام بسرعة والتفت إليه، لكمه لكمة مخيفة على بطنه. وفيما كان رسول يجهد للبقاء واقفا، وقد التوى جذعه ويداه تشدان على بطنه، التقت نظراته للمحة قصيرة جداً بنظرات ناظم، لاحظ بصورة غامضة أنه يغمز له وعلى وجهه ما يكاد يكون سرورا. فصرخ به:

- لا تخف يا ناظم!

في اللحظة عينها انفجرت فوق عينه اليسرى لكمة أخرى. انهار مثل شجرة على الأرض.

القسم الثاني

الأيام الخمسة الأخيرة لرسول

ـ ١ ـ

طوال الليل وقسم كبير من اليوم التالي، أحس رسول بآلام وجهه وجسده، معتقدا أنه في مكان آخر. كان هذا المكان حينا زنزانة تابوتية، وفراشا يفوح بروائح القذارة والعرق على سرير حديدي ضيق حينا، وكرسيا أعرج تحت مصباح عار، داخل غرفة كبيرة، أسفل جدار كتب فوقه بالخط العريض: «لا منقذ لك هنا» حينا آخر. في جميع تلك الأمكنة كان وحيدا وبانتظار شيء ما أو أحد ما. لا يعرف ما الذي سيحدث، أما ما حدث، فالشيء الوحيد الذي يعرفه هو أنه هنا وأنه ينتظر أحدا ما. لكنه لا يتبرم، فبما أنه موجود هنا، سوف يأتون عاجلا أو آجلا ليبدأوا استجوابه، سواء هنا أو في مكان آخر، الأمر الذي يعني أنهم أخيرا سيتوجون حياته الثورية الممتدة على مدى نصف قرن: كان قد انتظر طوال سنوات، بوسعه إذن أن ينتظر بصبر بضع ساعات إضافية. لكنه، حين لم يأت من ينتظرهم بدأ يشعر بالضيق ويتبرم في مكانه. في البداية اجتاح الألم كل عضلاته عند أصغر حركة، بعد ذلك راح يتقبل تدريجيا الألم الذي يحسه في رأسه باعتباره الم راسه هو، والوجع الذي يحسه في عضلاته وعظامه باعتباره وجع عضلاته هو، وعظامه هو. ارتعش بشعور يختلط فيه الخوف بالقنوط، وتفاقم به الارتعاش حتى اصطكت أسنانه. ثم رن جرس التلفون،

رن مطولا كما لو كان يرن في لحمه ومفاصله. فتح عينيه فجأة وفيما هو يئن مغمغما: «مستحيل!» ثم أغمضهما من جديد. تفقد بيديه وجهه وصدره وساقيه وقدميه. ليس ثمة من شك: ما لمسه هو وجهه وصدره وساقاه وقدماه هو. ولكن ليس ثمة ما يثير الدهشة في ذلك. ليس ما أثار دهشته كون الوجه وجهه هو والجسد جسده والقدمين قدميه، بل كونه موجودا هنا في بيته فوق سجادة تساقط وبرها، متمددا بطوله. غمغم مرة أخرى: «مستحيل!»: إنه شذوذ لا يصدق أن يفتح عينيه في بيته بعد كل تلك الأحلام من الزنازين التابوتية. تحرك في أعماقه شعور من تعرض لمقلب شرير. كان التلفون لا يزال يرن. استدار بمشقة، استند على يديه حتى استقام وجلس، ثم استند مرة أخرى على يديه لينهض واقفا. في اللحظة التي رفع فيها السماعة شعر بدوار وترنح فترك سماعة التلفون وتمسك غرزيا بجدار، وبقي فترة على تلك الحال. ثم ذهب إلى المرحاض متمسكا بالجدار أيضا بصورة غرزية، بال مطولا وهو يستند باستمرار إلى الجدار. وفيما هو يستدير ليعود أدراجه، خيل إليه أنه يلمح وراء المغسلة خيالا غريبا يتحرك. فتوقف وأشعل الضوء، رأى نفسه في المرآة فاندهش مرة أخرى؛ لقد اختفت عينه اليمنى وراء تورم أزرق، وتمزقت بيجامته بدءا من الكتف اليسرى وحتى الخصر، إلا أن المرآة هي مرآة بيته والمغسلة هي مغسلة بيته. تذكر فجأة لحظة انهياره على الأرض في قلب ظلمة غريبة مزقتها شرارات قدحت مثل نبضات ألم شديد. غمغم يقول: «السفلة!». خرج من المرحاض متمسكا بالجدار مثلما دخل، راح التلفون يرن من جديد

فيما هو عائد بتثاقل. غرزيا غير وجهته وسرَّع خطواته. حمل السماعة إلى أذنه. جاءه صوت نسائي: «آلو. ناظم، أي نوم هذا! ناظم، ناظم، ما الذي يحدث؟ لِمَ لا تتكلم؟». في مواجهة هذه الأصوات التي تدوي في أذنه، شعر رسول فقط بإنهاك لا حدود له، أغلق التلفون دون أن يفكر بأي شيء، ثم اتجه، دون أن يفكر بأي شيء أيضا، غرزيا، إلى غرفته، فتح بابها ودخل، ألقى بنفسه فوق السرير كأنه تلقى اللكمة الرهيبة الآن. لكن الشعور بدأ يقاوم، وعلى الرغم من عجزه عن الربط ما بين مشاهد المسدسات والصفعات والملابس الرسمية التي تظهر وتختفي بسرعة، راح يجهد للعودة إلى ما قبل ذلك. أخيرا بدأت الأحداث تحتل مواقعها في الزمان والمكان وإن كان ذلك بصورة مشوشة. غمغم رسول مرة أخرى: «السفلة!».

غير أن وضع الأحداث في مواقعها على شكل مشاهد، لم يكن كافيا من أجل فهمها: أي علاقة يمكن أن تكون لناظم بما قاله أولئك الرجال؟ فقط جنود الثورة البروليتارية يمكن أن يعتقلوا هذا الولد - في حال حدثت ثورة ماركسية - بسبب رفعه للقيم البورجوازية فوق أي اعتبار آخر، وبسبب تحويله الحياة إلى لهو وسخرية دائمين، وأخيرا بسبب احتقاره للثورة والثوريين. وليس لأحد - في تلك الحالة - أن يلومهم. لكن رئيس الشرطة قال بوضوح: إنهم يعتقلون ناظم لأنه يريد هدم النظام القائم. كز رسول على أسنانه وغير مكانه فوق الفراش. وغمغم يقول: «تناقض، تناقض، تناقض». قاد هذا التناقض رسولا بصورة لا إرادية إلى تناقض آخر: لقد قيدوا يدي ناظم وراء ظهره وأخذوه

وهو البورجوازي المنحط، على أنه ثوري، ولم يتنازلوا ليأخذوه هو. كان من الصعب عليه إيجاد تفسير مقنع لهذا التناقض وحياته وأعماله واضحة للعيان. ولكن إذا أمعنا قليلا في الأمر فسنجد أنه ليس بالاحتمال المستبعد أن يكونوا فكروا أن أمره منته منذ وقت طويل كثوري، بل حتى كمحض إنسان، نظرا لتقدمه الكبير في السن ولحياته المتنسكة المنعزلة عن الناس، وبالتالي انتفت الحاجة إلى اعتقاله بل يمكن الاعتقاد بأنهم اكتفوا بالورم الذي فوق عينه والتمزق الذي أصاب بيجامته تصفية للحسابات القديمة. ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو، أي إذا كانوا صفوا الحسابات القديمة بهذا الثمن الزهيد وتلك الطريقة المختصرة، فمعنى ذلك أنهم يعرفونه منذ زمن بعيد، بل يقرأون داخل دماغه. عاد وكرر كلمة: «السفلة!». وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة تطابق رأيه في فعاليات الشرطة مع رأي اليساريين الآخرين: الشرطة في كل مكان. وفي الوقت الذي كان هو يجأر متبرما: «كيف يعتقلون اليساريين الحقيقيين؟ أوفقا «للطرّة أم النقش؟»، قاموا ببناء شبكاتهم عبر زوايا الأزقة وباحات الجوامع ومكاتب المجلات والخمارات بل حتى بين جدران بيته بحيث أحصوا عليه أنفاسه وهو نائم - لعل هذا هو السبب في أنهم لم ينظروا إلى صورتي ماركس ولينين الكبيرتين وكتب ناظم المصفوفة في أبرز مكان من المكتبة، فهم يعرفون بوجودها هناك منذ سنوات. إذا صح هذا الافتراض، إذا فعلوا كل ما فعلوه عن دراية، إذا قالوا: «لم يعد هذا الرجل يستحق حتى أن يسجن» وهم يوجهون اللكمة إلى عينه، فمعنى ذلك أن حياته كشاعر ثوري لن تتوج أبدا.

غرق رسول في يأس عميق، تثبتت نظراته على نقطة في السقف، وبقي متمددا بلا حركة مثل جثة. ثم زعق بصورة مفاجئة: «ترهات، ترهات، ترهات!» واستقام جالسا. كل الدلائل كانت تشير إلى أن ناظم بورجوازي، ولكن باستثناء كونه حفيدا له، لم يكن ثمة دليل واحد على أنه ثوري. فإذا كان أولئك الرجال يتصرفون بوعي، لما اعتقلوا ناظم على أنه ثوري. كرر يقول: «ترهات سخيفة!». إذا لم يكن كل هذا علامة جديدة من علائم لا عقلانية ما قبل الثورة، فلا بد أن أحدهم أراد أن يسخر منه. ولكن من هو أو هم؟ «وناظم؟» قال لنفسه: «أليس جائزا أن ناظم دبر هذا المقلب ليسخر منه؟». كان ارتعاشه قد هدأ قليلا بعد أن أوى إلى الفراش، الآن عاد يرتعش فجأة. لكنه على الفور تذكر انتفاض ناظم تحت اللكمات والركلات التي انهالت عليه من كل حدب وصوب، وغمزه له بعينه قبل أن يقتادوه خارج البيت، ففكر في الاحتمال الذي كان حريا بذي عقل أن يفكر به من الأول: «لقد ارتكبوا خطأ فظيعا: فقد تلقوا أمرا باعتقالي، غير أنهم أساءوا قراءته فخلطوا بيني وبين ناظم». ثم أضاف يقول: «نعم، لقد اختلط عليهم الأمر لأنهم في الفترة الأخيرة لا يعتقلون سوى الشبان، ويلفقون قصصا عديدة عن سطوهم على البنوك واعتداءاتهم المسلحة على أقسام الشرطة. يا لهم من أغبياء! سوف ينالون حقهم من التوبيخ قبل أن يطلقوا سراح ناظم، ربما مساء اليوم، في التوقيت نفسه ويأتوا لاعتقالي أنا». ابتسم وقال من بين أسنانه، كما لو كان يحدث أحدا قربه: «أعرف ما سأقول لهم».

في الحقيقة ما كان يعرف ما الذي سيقوله، ولا سعى إلى معرفته، لكنه بقدر ما كان يرى متانة في موقفه بهذا الخصوص،

يرى موقف الشرطة مثيرا للسخرية بحيث لا يساوره أدنى شك في أنه سيقول الكلام المناسب تماما. قال لنفسه: «على المرء أن يعرف كيف يواجه المجهول. لنر حين يأتون». تمدد وشد اللحاف إلى حافة ذقنه. ارتأى أن ينتظرهم في السرير ويظهر أمامهم ببيجامته التي مزقوها بأيديهم. ولكن بعد أن اهتدى إلى التفسير الأخير، بعد أن فهم أنه وحفيده ضحيتا خطأ نابع من غباء الشرطة المضحك، بدا له انتظارهم في السرير دون القيام بأي عمل نوعا من القبول بذلك الخطأ. أشعل الضوء ونظر إلى الساعة قرب السرير، قال: «هاهي أربع وعشرون ساعة كاملة مضت... إن رجالا بهذا العقل يمكن أن يستمروا في خطئهم أسبوعا آخر، بل عشرة أيام، أو حتى شهرا كاملا. بل ليس من المستبعد ألا يصلحوا خطأهم، وبدلا من الاعتراف بخطئهم قد يلفقون للولد تهما كفيلة بسجنه سنوات لا تعد». فجأة وبقوة غير متوقعة قفز خارجا من السرير ومشى بخطوات واثقة، ومن دون أن يمسك بأي شيء نحو خزانة الحائط. ارتدى بنطاله وسترته فوق البيجاما وخرج من الغرفة. عند مدخل البيت ارتدى معطفه وأقحم قدميه العاريتين في زوجي الحذاء بسرعة مدهشة وفتح الباب. انتابته الدهشة وارتعش حتى نقي عظامه: لقد تغير الجو تغيرا كاملا عما كان عليه البارحة: الثلج الأبيض غطى كل شيء، وسيارة ناظم الحمراء استحالت صخرة بيضاء، والثلج يواصل انهماره بشدة. شعر رسول بدوار، انتابه شعور بأنه سينهار حيث يقف، فتمسك بالباب. تردد لفترة ما بين العودة إلى داخل البيت وإقفال الباب والمشي تحت الثلج المنهمر،

ثم حسم أمره وأقحم المفتاح الضخم في قفل الباب وأداره وهو يغمغم: «علي أن أعثر على ناظم، علي أن أنقذه بأسرع وقت». بدأ يمشي تحت الثلج الذي يهطل بغزارة رافعا رأسه وشادا جذعه قدر المستطاع، كما لو كان متجها لملاقاة عدو. وكما لم يعرف التناقض المتضمن في فكرة أن التبادل في المواقع بينه وبين ناظم سينقذهما معا، كذلك لم تكن لديه فكرة واضحة عن المكان الذي يمكن أن يجد فيه ناظم، وعمن يمكن أن يسألهم عنه، وأين سيحكي عن الخطأ الذي وقع فيه رجال الشرطة ولمن، لكنه، وهو يمر أمام بنايات فهمي غولمز الفخمة، تذكر فجأة قسم شرطة الحي الذي نظر من بعيد إلى زجاج نوافذه المضبب قبل يومين، فمشى باتجاهه بأقصى سرعة دونما خشية من الانزلاق والسقوط فوق الثلج، ثم دفع الباب بثقة العارف بتميزه.

كان داخل القسم حارس وشرطي يدفئان أيديهما على مدفأة من الحديد الصب، في حين جلس شرطي آخر وراء طاولة خشبية صغيرة يكتب بإصبع واحدة على آلة كاتبة قديمة من طراز رمينجتون. حين دخل رسول باندفاع يغطيه بياض الثلج بالكامل - باستثناء عينه المتورمة - قفز الثلاثة واقفين. هرع إليه على الفور الشرطي الذي كان جالسا خلف الطاولة:

- «خيرا إن شاء الله يا عم؟ ما الذي حدث لك؟ من الذي ضرب عينك؟ متى وأين؟».

من غير أن ينتظر الجواب دفع إليه بكرسي وأضاف: «تفضل اجلس، خذ نفسا في الأول».

واعيـا أنه في وسـط مـعـاد، لم يلق حـتى نظـرة على الكرسي، انتـصب حـيث هو وراح يدور بعـينيـه على وجـوه الشـرطة وعلى الكتابات المعلقة على الجدار المقـابل، ورزنامة مقتطعة من جريدة، وصورة أتاتورك من ذلـك النوع الذي نصادفه في كل مكان، مؤطرة بإطار ذي واجهة زجاجية، سعل وقال:

ـ جئت أسـألكم عن حفيدي. أين هو؟

الشـرطي الـذي قـدم لـه الكرسي ظـن أن العـجـوز قـد تعـرض لاعتداء، فارتاح حين دخل على الخط موضوع الحفيد، سأله:

ـ حفيدك؟ وما الذي جرى لحفيدك؟

قطب رسول حاجبيه:

ـ أرجوكم لا تتعبوني. لا تتحدثوا كأنكم لا تعرفون. أريد أن أراه، وهذا حقي لأنه في الوقت نفسه ابني.

نظر رجـال الشـرطة كل منهم إلـى الآخـر وابتـسـموا. الشـرطي الواقف أمامه وضع يده على كتفه وقال له:

ـ «أنت مـريض يـا عم، ترتجف بقـوة. اجلس هـنـا أولا»، قـال ذلـك وضـغط بيده على كتفـه حتى أجلسه بالقوة تقـريبـا. ثم التفت إلى الحـارس الذي كـان يـنظـر إلى الـرجل العـجـوز بدهـشـة وقـال له: «اسكب للعم كأسا من البابونج».

حين جلس على الكرسي شـعـر رسـول بإعيـاء شديد. لذلك فقد أراد أن يأخذ كـأس البابونج الممدودة إليه، على الرغم من معرفته أنه في وسـط مـعـاد، لكنه عـجـز عن الإمـسـاك بالكـأس لأن يديه ترتعشان بشدة. قال الشرطي:

ـ اتركها له فوق الطاولة، ليأخذ نفسا ويدفأ حتى يشربها بعد ذلك.

عاد الشـرطي ليجلس مكانه وراء الطاولة وراح يجول بنظراته على وجه رسـول وشـعره ومعطفه وبنطاله ومنتهى سـاقي بنطاله وأطراف البيجامـة المبللة الظاهـرة فوق كـاحليـه العـاريين من الجـوارب: منذ سنوات وهـو يعمل في هـذا القسم، ويعـرف هـذا العجوز. لا يعرف اسمه ولا عمله، لكنه كل فترة وفترة يراه مـارا أمام القسم بخطوات بطيئة ووحيدا على الدوام، ولا بد أنه خرف بالنظر إلى قوله أن حفيده هو في الوقت نفسه ابنه، ولعله مصاب بالجنون. قال لـه: «لا تقلق يا عم، تدفأ قليـلا وخذ نفسـا واشـرب مغلي البابونج. لدينا الكثيـر من الوقت للكلام». تنهد وفكر: «ما أجمله من عجوز».

تمالك رسول نفسه قليلا وراح يتجرع كأس البابونج على مهل، ومع انتشار الدفء في جسـده شـعـر بالاسـترخـاء ولم يعـد ينظر بعدائية إلى المحيطين به، لكنه لم ينس سبب مجيئه إلى هنا، قال بعد أن شرب الجرعة الأخيرة:

- نعم، إني أسألكم مجددا: ماذا فعلتم بناظم سونمز؟

كـان ثلاثتهم يعرف من هـو نـاظم سـونمـز، أولا بسـبب شـبهـه الكبيـر برسـول، وثانيا لأنهم كثيرا مـا تحدثوا فيما بينهم عن كيفية نجاحه في إقامة علاقات مع فتيات بتلك الكثرة وبذلك الجمال، وأخيرا لأنهم كانوا ينزعجون بصورة جدية من ضجيج سيارته في الأشهر الأخيرة. لذلك فكر ثلاثتهم هكذا: «من يعلم في حـضـن أي فـرخـة هو الآن؟» ورأوا في بحث العـجـوز عن حفيده في القسم في مثل هذه الساعة أثرا من خرفه، أو أقله مظهرا من مظاهر الحماقة.

ابتسم الشرطي الجالس وراء الطاولة وقال له:

- لا علم لنا بأي شيء يا عم. وأي مصلحة يمكن أن تكون لنا مع حفيدك؟

- سيدي الموظف، أرجوك رجاء حارا ألا تتظاهر بالجهل. لقد جئتم مساء البارحة ثمانية أو تسعة شرطيين، قيدتم يديه وأخذتموه وأنتم تضربونه. كنت في البيت ورأيت بعينيّ.

اندهش رجال الشرطة، قال له ذاك الجالس قرب المدفأة: «مستحيل، مستحيل!» وهز رأسه ثم أضاف: «إنه ولد منشغل بفتياته، أعرفه جيدا» كما لو كان يقول: «رجل في حاله وشغله»، وأنهى كلامه قائلا: «لعله حدث خطأ ما».

لمعت عينا رسول، فاندفع يقول:

- نعم، وهذا ما أردت أن أقوله. يذهب بي الظن أنهم خلطوا بيني وبين ناظم. ذلك أنني معروف كشيوعي، في حين أنه لا يشتهر بشيء كهذا.

ابتسم الشرطيون. هز الشرطي الذي قرب المدفأة رأسه مجددا، قال:

- لا يا عم، من المحتمل أن يخطئوا في أمور أخرى، أما في هذا الأمر فلن يقعوا في خطأ مماثل. لعل جماعة السياسية تلقوا وشاية خاطئة، فأخذوه على أنه فوضوي.

- لا يمكن أن يكون ابني فوضويا.

أثار أعصابه اتهامهم ناظم بالفوضوية قبل أن يقنعوه لماذا لا يحتمل أن يخطئوا بينه وبين حفيده. لكن الشرطي الذي قرب المدفأة ابتسم من جديد وقال بصوت ودود:

ـ أردت أن أقول إن ذلك هو ما ظنوه. لقد قلت لا بد أنهم ظنوه فوضويا.

أجفل رسول فجأة، فللمرة الأولى منذ أخذوا ناظم، فكر في احتمال أن يكون شارك بالفعل في بعض العمليات، وشعر فجأة بما يشبه الاحترام نحوه على الرغم من استخفافه الدائم بتلك العمليات، وعلى الرغم من أن مشاركة ناظم في تلك العمليات تعني إلغاء لاحتمال اعتقاله هو، وانبرى يقول:

ـ هذا سخيف جدا... لا أحد يستطيع أن يقول عن حفيدي إنه فوضوي. يمكن لحفيدي أن يكون شيوعيا، أما أن يكون فوضويا فلا.

الشرطي الجالس وراء الآلة الكاتبة ابتسم مرة أخرى من تحت شاربيه: من المؤكد أن عقل هذا الرجل ليس في رأسه مادام يقول في القسم وأمام مسؤولين إنه شيوعي، ثم يجعل من حفيده شيوعيا في غمضة عين. من المحتمل إذن أن ما حكاه عن اقتحام تسعة شرطيين لبيته لا يعدو كونه مما يراه في التلفزيون. إنه يعرف مثل هذه الحالة من أبيه. فمساء البارحة رأى في أحد إعلانات التلفزيون سمكا يفرغ من شبكة صيد في زورق فقال له: «السمك كثير هذا الشتاء يا بني، لكنك لا تجلب قط شيئا منه إلى البيت».

تنهد وقال لرسول:

ـ حسنا أيها العم، ليكن ما تقوله صحيحا وأنهم وشوا به على أنه شيوعي. نحن شرطة حارة، لا يسمح لنا بالتدخل في أمور من هذا النوع. لذلك ـ والكلام بيننا ـ فإنهم يلقون في السجون بالشبان

المتعمين ملاحقي الفتيات على أنهم فوضويون، أعني شيوعيين. باختصار أيها العم، لا علم لنا بأي شيء بخصوص حفيدك.

- أين إذن يمكن لي أن أجده الآن؟

- «الآن؟»، قال الشرطي متلعثما «الآن، أليس كذلك؟» نظر في ساعته:

«لقد تجاوزت الواحدة. ليس بوسعك أن تجده في أي مكان الآن. وكيف لك أن تجده، وهم لن يسمحوا لك بدخول أي مكان؟ ولكن لا تزعج نفسك، فلن يحتفظوا به طويلا. بعد خمسة عشر يوما على الأكثر يكون في البيت. سوف يصورونه أمام طاولة عليها بضعة مسدسات وبندقية كلاشينكوف وبضع دزينات من الرصاص وآلة كاتبة وعدد من الكتب، ليعرضوه على التلفزيون، ثم يطلقوا سراحه. ادع من أجله كي يعرضوه على التلفزيون: فبعد أسبوع من ذلك يكون في البيت».

ألح رسول في السؤال: «حسنا، أين يحتمل أنهم أخذوه؟» كانت لديه مشكلة بأهمية إنقاذ ناظم، يتعين عليه حلها هي الأخرى.

لكن الشرطي رفع يديه إلى الأعلى، قال:

- ليس بإمكاني أن أعرف أيها العم. وحتى لو كنت أعرف وأخبرتك، فهم لن يسمحوا لك برؤيته، إذا كانوا اقتادوه بالطريقة التي حكيتها لنا، فقد أخذوه بتهمة الإرهاب. وهم لا يسمحون برؤية المعتقلين من هذا النوع بسهولة.

- لكن اعتقال ناظم بتهمة الإرهاب أمر في منتهى السخافة!

- «حسنا يا عم، ليكن ما تقوله»، قال الشرطي وابتسم بتفهم «طيب. لنقل إنهم أخذوه على أنه شيوعي. لكن في وسط ينعم

بالاستقرار والأمان فإن كل الدروب تؤدي إلى الطاحون. أفضل ما تعمله الآن أن تذهب فورا إلى البيت وتنام نوما هنيئا. بعد ذلك ستفكر بما ستفعله. حسنا؟».

بعد أن ثبت رسول، بنوع من التحدي، أن ابنه يمكن على الأكثر أن يكون شيوعيا فقط، بدأ من جهة أولى يميل إلى قبول فرضية أنه شيوعي بالفعل، ومن جهة ثانية بدأ يرى في أولئك الشبان الذين يقومون بالعمليات ـ والذين دأب إلى حينه على احتقارهم ـ أناسا يتعرضون للقتل والاعتقال والتعذيب على أيدي القوى المحافظة، أي أناسا قريبين من الماركسيين وبالتالي قريبين منه هو. لذلك فقد عاند أيضا وألح، لكنه عندما لم يحصل على شيء نهض واقفا وهو يقول: «حسنا ليكن الأمر كما تقولون». وصافحهم رغبة منه في إظهار رضاه عنهم. بدورهم ردوا على تحيته بأحسن منها: كلف الشرطي الجالس وراء الآلة الكاتبة، زميله الشاب الجالس قرب المدفأة بأن يرافق رسولا حتى باب بيته، غير عابئ باعتراض هذا الأخير. ولم يعترض الشرطي الشاب، ارتدى معطفه وقبعته وشابك ذراعه بذراع رسول وخرجا. قال له وهما يمشيان تحت وقع الثلج الذي كان يجلد وجهيهما بقسوة:

ـ لا تزعج نفسك أبدا يا عم. ستتضح الحقيقة عاجلا أم آجلا: يندر في هذا الحي أن تجد أناسا لا ضرر منهم مثلك ومثل حفيدك. نحن نعرف الوضع. لا تحزن قط.

كان رسول يشعر بقشعريرة أمام الشذوذ المتمثل في السير في الشارع برفقة شرطي متشابكي الذراعين، أكثر منه أمام شذوذ

تقييمه باعتباره عديم الضرر من قبل شرطي في فترة تسود فيها الأحكام العرفية. أراد أن يضع النقاط على الحروف، قال:

- أنت محق، فالشيوعيون عملوا على الدوام من أجل خير الناس لا من أجل إيقاع الأذى بالناس، وسوف يستمرون في ذلك دوما.

بحركة غرزية ترك الشرطي ذراعه وسأله:

- هل تعني أن ناظم هذا شيوعي؟

- نعم، هذا ما أقوله. ولكن إذا أردت الحق، فأنا لم أتوقع يوما أن يصبح ناظم شيوعيا جيدا.

- «شيوعيا جيدا؟ شيوعيا جيدا إذن!»، قال الشرطي وهو يتلعثم: «طيب لماذا؟ لماذا لم تتوقع له أن يصبح شيوعيا جيدا؟».

- «إذا أردت الحق، فلا أعرف ماذا أقول»، قال وهو يتنهد: «نحن أصبحنا شيوعيين، لكننا كنا نقرأ كثيرا. أما ناظم فلم يقرأ كتابا واحدا في هذا الموضوع. بل كان يكره مجرد فتح الحديث عن الماركسية. لذلك أخشى كثيرا أنهم أخذوه بدلا مني مرتكبين بذلك خطأ فادحا.

ضحك الشرطي، شابك ذراع رسول واقتاده مجددا، قال:

- لا يا عم، أيمكن لشيء بهذه السخافة أن يحدث؟ التلفزيون يعرض والجرائد تكتب: إنهم فقط يعتقلون الشبان الشيوعيين، وحسنا يفعلون. إن السطو على البنوك وإطلاق النار على أقسام الشرطة واغتيال الأشخاص ليست أعمالا جميلة.

هذه المرة توقف رسول وسط الشارع، حدق في عيني رفيقه وابتسم ابتسامة رسول:

- أتقول جميلة؟ لا مزاح مع الجميل. هل تعرف من أين ينبع الجميل؟ من جذور المستقبل المزروعة في تربة اليوم. ونحن

الشعـراء الثوريين ندل على طريق الشيوعيـة المضيء بقـراءتنا للعلامات التي نهتدي إليها في تلك الجذور، وتجد نبوءات ماركس صحتها مرة أخرى في شعرنا. أم أنك تراني على خطأ؟

لم يفهم الشرطي الشاب شيئا مما سمعه، ولكن لم يبق لديه أدنى شك في جنون هذا العجوز الذي يمدح الشيوعية ويرفعها إلى السماء السابعة من دون أن يرف له جفن. لذلك استسخف الاعتراض عليه، قال:

ـ لا، لست مخطئا.

شابك ذراعه مجددا وأرغمه على السير، جعله يمشي بأسرع ما يستطيع. أمام باب البيت صافحه بود: «نم الآن باستغراق أيها العم. بعد يوم أو يومين سترى كل شيء على ما يرام، بل من يعلم؟ قد يحكمنا الشيوعيون».

ـ ما الذي تقوله؟ هل تتوقع أنت شيئا مماثلا؟ هل بوسعنا حقا أن نتوقع ثورة من هذا النوع في مستقبل قريب؟

ـ ممكن... ولِمَ لا؟

انتظر الشرطي الشاب حتى فتح العجوز باب البيت، ثم تمنى له ليلة هانئة وابتعد في شبه ركض.

على الرغم من تسرب الثلج إلى الداخل لم يغلق رسول الباب على الفور، تابع الشرطي حتى اختفى عن أنظاره وراء المنعطف. قال لنفسه: «إنه ولد طيب». كان الآن بعيدا عن شعوره بالقشعريرة حين شابك الشرطي الشاب ذراعه للمرة الأولى، وعلى العكس تماما كان يبتسم لخطئه. فإلى حينه كان يرى في الشرطة آخر من يمكن أن يفهموا الفكر الثوري، وأنه لهذا السبب

لا مكان للشـرطة في مجتمع حقق ثورته، ولكن هـذا المساء برزت «دلائل إيجـابيـة» تشيـر إلى أن الفكر الثوري قـد انتشـر في هذا البلد حتى في أوساط الشرطة. أشعل الضوء وأغلق الباب وقال لنفسه: «لا شك في أن هذا الولد قد التقط بدوره جذور الغد في الحاضر». ليس من المغالاة في التفاؤل التفكير في أن الآخرين أيضا لن يتأخروا في وعي الحقيقة، إذا كان موظفو قسم الشرطة واعين إلى هذا المستوى.

تمدد في فراشه بهذا التفاؤل المحسوب.

- ٢ -

حين فتح رسول عينيه كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف. وكان الجوع يقرص معدته، وبرد الغرفة يتسرب إلى ما تحت اللحاف. شد اللحاف حتى فمه كما لو أن ما فكر به قبل النوم، اكتسب مزيدا من القوة أثناء النوم، بقي متمددا هكذا وعيناه تحدقان في السقف. فكر أنه إذا جاء رجال الشرطة وفتحوا الباب بمفتاح ناظم، فسوف يستقبلهم وهو في الفراش، أما إذا رفسوا الباب وصاحوا: «الشرطة! افتحوا الباب! ولا تقوموا بأي حماقة، فالبيت محاصر!»، فسوف يتحرك بأبطأ ما يمكن، وحين سيدفعون بناظم إلى الداخل كأنه شيء لا حاجة لهم به ويقولون له: «قد حدث خطأ، وأخذنا هذا بدلا منك. هيا أسرع نحن ذاهبون» فسوف يرد عليهم - على الرغم من معرفته أنهم سيجعلونه لاحقا يدفع ثمن تصرفه بصورة فظيعة - قائلا: «لست أنا المسؤول عن هذا التأخير بل أنتم. سيكون عليكم أن تنتظروني حتى أرتدي ثيابي وأتناول فطوري». وسوف يمشي إلى المطبخ لإعداد الشاي، ببطء شديد ورأس مرفوع. ولكن عندما تأخر رجال الشرطة وزاد ألم معدته جوعا اضطر للتخلي عن تلك المتعة. نهض وذهب إلى المطبخ، ملأ الإبريق بالماء وأشعل الموقد تحته. ثم رفع - مثل كل يوم - الجريدة المدسوسة من تحت الباب ولما رأى صورتين كبيرتين لحفيده. تحت عنوان لافت في الزاوية اليسرى من أعلى الصفحة الأولى: «سحق رأس الإرهاب: إلقاء القبض على ناظم سونمز»، صعقته المفاجأة وجلس إلى الطاولة

وهو يتمتم بدهشة: «الله الله! الله الله!»(*). نظر مطولا إلى الصورتين حيث ظهر ناظم في الأولى بمفرده، وفي الثانية محاطا بالشرطة، ثم راح يقرأ خبر الاعتقال الذي احتل ثلاثة أعمدة وهو يعود في كل سطر تقريبا إلى الأول، ثم قرأ في إحدى الصفحات الداخلية جردة تفصيلية بالعمليات التي نفذها ناظم غطت ربع صفحة تقريبا. ظل يتمتم بعد كل جملة تقريبا: «الله الله! الله الله! شيء لا يصدق!». إذا صدقنا ما هو مكتوب أمكننا القول إنه بين العمليات الإرهابية التي تمت خلال السنوات القليلة الماضية، خصوصا في استانبول وأنقرة، فإنه لم تجر أي عملية تقريبا من عمليات التفجير أو الهجوم المسلح على أقسام الشرطة أو السطو على بنك أو الخطف أو الاغتيال أو الجرح إلا وكان لناظم يد فيها، وكذلك ليس ثمة «فصيل يساري» لم يتول ناظم التنظير له لمدة طويلة أو قصيرة. كأن كل شيء قد حدث من تحت رأسه، كل شيء خطط له هو، ونفذه هو. ووفقا للصحيفة فإن القائد الأكبر والأقوى لليسار داخل حدود البلاد، هو ناظم سونمز. وبما أنه تم إلقاء القبض عليه، فمن المؤكد أن أعمال الإرهاب سوف تنتهي تماما، ونتيجة لذلك يمكن الاعتقاد بأن حال الطوارئ سترفع ويعود الجنود إلى ثكناتهم.

أعاد قراءة الخبر المطول للمرة الثالثة، فلم يستغرب ما قيل عن حفيده من أنه «قاطع طرق مديني شاب دوخ الصبايا بوسامته، واستطاع أن يموه نشاطاته الهدامة لفترة طويلة بتبذيره للمال مثل الوجود في أماكن اللهو الأكثر غلاء، حيث كان يظهر برفقة أجمل

(*) تعبير يفيد التعجب الشديد.

الفتيات»، كما لم ير ابتعادا عن الحقيقة في وصفهم لبيته بـ«عش نسر فوق مرتفعات أسكدار»، لكنه بالمقابل لم يتمالك نفسه عن ترداد «إنهم يبالغون، لا، لا، يبالغون» كلما حملوه جرما جديدا. لكنه حين قرأ أن ناظم سونمز يقيم في «عش النسر» مع «جده العجوز» أثار غضبه كما لو أن الحقيقة تعرضت للتحريف أكثر ما تعرضت في هذا الكلام فبربر يقول: «أيها الفاشيون!»: هؤلاء الصحافيون لم يقصدوا حتى المنطقة التي يقوم فيها «عش النسر» الذي يتحدثون عنه، ولم يستقصوا عما كتبوه، بل اشتغلوا خدما للفاشية باكتفائهم بالمعلومات والصور التي أعطتها الشرطة، غمغم يقول: «كان بوسعهم على الأقل أن يكتبوا أن هذا الجد العجوز هو شاعر ماركسي، وبهذه الطريقة يكتسب الخبر الذي حرروه بعدا جديدا!». في هذا الموضوع، كما في كل المواضيع الأخرى، رأى أنه تعرض للغبن، فرمى الجريدة بعيدا. لكنه على الفور استعادها وراح يعيد قراءتها من جديد.

في قراءته الرابعة هذه، فكر رسول أن قسما من الاتهامات على الأقل يمكن أن يكون صحيحا، بما أنهم يذكرون كل شيء بصورة تفصيلية مع تحديد المكان والتاريخ، فانتابت كل جسده قشعريرة. أشعل سيجارة أتى عليها في بضعة أنفاس، قائلا: «كل ما بذلته من جهد ذهب أدراج الرياح، تماما مثل قصائدي». بعد ربع ساعة عاد يقرأ الخبر من أوله، كانت الجريدة المعروفة منذ القدم بميلها اليساري على الدوام توجه إلى ناظم الكثير من الشتائم من مثل: «قاطع طرق مديني، مجرم، قاتل، إرهابي وحش فاقد الصواب»، ومن جهة أخرى تصفه بالماركسي المتمرد غير

المتعقل، ما دفع برسول إلى التفكير بأن كل تلك العمليات التي قالوا إن ناظم حققها ربما هي أعمال لا بد منها من وجهة النظر الماركسية. لا شك في أن هذا الافتراض يبدو للوهلة الأولى مشكوكا فيه إلى حد كبير. وكما قال في قسم الشرطة لم يقرأ ناظم كتابا واحدا في الماركسية، ولم يكن يحب أن يفتح هذا الموضوع. ولكن بما أن الدولة بفخامة قدرها قد أرسلت ما يناهز دزينة من الرجال المسلحين ليقبضوا عليه، وبما أن الجريدة الأكثر يسارية في هذا العهد قد حملته مسؤولية أكثر من خمسين عملية «ماركسية - لينينية الهدف» بين قتل وجرح وسطو مسلح، يبدو إذن أن القراءة ليست بالشرط الضروري حتى يصبح المرء ماركسيا حقيقيا. تذكر رسول دروسه في الماركسية، الطويلة والقصيرة، التي لقنها لناظم منذ طفولته، وهو يدرس على الطاولة أو يتناول طعامه، أو ماشيا معه في الشارع يدا بيد بين الناس؛ فعلى الرغم من ظهوره بمظهر من لا يحب فتح هذا الموضوع (ربما للتمويه على العمليات التي قام بها أو لأسباب أخرى) فإن حفيده قد تعلم الماركسية منه؛ ثم تذكر كيف أن قرويين سجنوا بسبب قضية ثأر أو جريمة حب، تحولوا في غضون بضعة أيام إلى ماركسيين بارزين، وذلك أيام الانتشار الشفوي للماركسية، فتحول افتراضه إلى أمر مؤكد، وتحرك في أعماقه ما يشبه الزهو. والآن بقي شيء واحد لم يستطع إيجاد تفسير له: وهو كيف تجعل الماركسية من القتل أمرا اضطراريا لا مفر منه، وهي التي من المفترض أن تنقل البشرية إلى الغد المضيء؟ لكنه لم يرغب في إجهاد ذهنه بهذه المسألة مطولا، ربما بسبب الإرهاق والبرد، أو لخشيته من

خلق مسافة بينه وبين ناظم مرة أخرى. تذكر الأبيات الشهيرة التي رأى فيها، منذ سنوات الثانوية، الشرح الأكثر ملموسية للتطور التاريخي، تمتم يقول: «سواء قرأ أو لم يقرأ، يجب أن يكون ناظم متقدما علي» وتابع يقول: «إنها لحقيقة أن المسألة هي مسألة أجيال، كل جيل يخوض معركته بأسلوبه الخاص. وهذا أمر حتمي لأن العالم يدور والتاريخ يتقدم كل يوم إلى الأمام في طريقه الذي لا يرتكس».

لكنه نسي كل فرضياته حين سمع فجأة صوت فرامل قويا فوق الشارع المبلط. فكر أن الشرطة أدركت أخيرا خطأها الفادح فأطلقت سراح ناظم وجاءت لاقتياده. اقترب من النافذة المطلة على الشارع حيث رأى في العتمة الزرقاء التي راحت تهبط ببطء، رجلا بملابس كثيرة الزخارف مثل بذات ضباط العجم، يترجل من سيارة ضخمة، فكاد ظنه يتحول إلى يقين. وحين رأى الرجل المزخرف ينحني ويفتح الباب لرجل عجوز يرتدي ثيابا مدنية، كاد قلبه يتوقف، قال لنفسه متلعثما: «لكن هذا الرجل يشبه صاحبنا فهمي... نعم إنه فهمي نفسه! الله الله!»(*). شعر بدوار، ضغط بيديه على عينيه، لكنه لم يعرف فيما إذا كان ما أدار رأسه هو الفرح أم الغضب.

لم يتصرف فهمي غولمز بطريقة تسهل عليه الوصول إلى نتيجة بهذا الخصوص: دخل البيت لا كصديق قديم يظهر فجأة بعد سنوات وسنوات من الغياب، بل كجار قريب يلتقي به أكثر من مرة كل يوم. لا أطلق صرخة ولا ابتسم. سأله وحسب:

(*) تعبير استغراب.

- ما الذي حدث لعينك؟

لمع في ذهن رسول وميض مفاجئ فتذكر الكلمة التي طالما حلم بقولها لأحد ما ذات يوم، ويئس من حدوث ذلك، قال:

- إنها هدية صغيرة من الفاشية.

- ماذا تعني؟

- وما الذي بإمكاني أن أعني؟ إنه كما ترى أثر لكمة من الشرطة.

ابتسم رسول، كاد يطير فرحا لأنه أخيرا اهتدى إلى إمكان أن يستخدم بدوره تعبير نجمي الموجيك. بل إنه كان يرى في هذه العبارة التي تعبر عن ضعف المرء إزاء القوة الفظة، تعبيرا من وجهة نظر معينة عن القوة، ما جعله ينظر إلى صديقه القديم نظرة متعالية بعض الشيء. غير أن فهمي غولمز عبس وهدر قائلا:

- «القذرون! سيأتي يوم وأحاسبهم على فعلتهم هذه»، قال هذا وقد اقترب من رسول، رفع نفسه إلى الأعلى وقبله من خديه، ثم تراجع قليلا ورمق صديقه من رأسه حتى قدميه، واتجه إلى المطبخ بخطوات واثقة. عاد بعد قليل حاملا في صحن مشروخ شريحتي خبز وقطعة جبن، وضعها فوق الطاولة. ضحك رسول وسأله:

- هل جعت كثيرا؟

- لا، بل إنها من أجلك. أنا أعرفك جيدا، أراهن على أنك لم تضع لقمة في فمك منذ اقتادت الشرطة الولد. ثم إن الأمر واضح، فأنت تقف بصعوبة. هيا اجلس هنا.

جلس رسول حيث أشار له صديقه القديم وحدق في عينيه، تمتم يقول:

- فهمي، يا فهمي.

إنه لا يشعر الآن بأي غضب نحوه، بل يحس بأنه اشتاق إليه بصورة مخيفة.

- كل أولا الخبز والجبن. لدينا الوقت الكافي للكلام. لقد وضعت إبريق الشاي، سآتي به بعد قليل.

- كنت قد أعددت الشاي.

- لا، أنت لم تعد شايا. لقد وضعت ماء فقط، وقد تبخر كله. وجدت الإبريق على وشك أن ينصهر.

اقتطع رسول قطعة خبز وقطعة جبن وراح يلوكهما ببطء بمواقع ملائمة من لثته، في حين جلس فهمي غولمز على الجهة الأخرى من الطاولة، في مواجهته تماما، كما في الأيام الخوالي، وراح يجول بنظراته فيما حوله بصمت، فرأى أن البيت لم يتغير عما كان عليه حين رآه آخر مرة قبل سنوات. شعر بالحزن أمام المفارقة الكامنة في قضاء شخص يفهم الحياة على أنها تغير مستمر، كل حياته داخل إطار واحد ثابت. قال:

- أرى أن شيئا لم يتغير في البيت.

ضحك رسول من جديد، قال:

- صحيح. وأنا أيضا لم أتغير. ما زلت أفكر اليوم بالطريقة نفسها التي كنت أفكر بها في العشرين. أي أنني لا أزال ذاك الرجل الشيوعي. فقط تقدم بي العمر.

- «جميل جدا» قال فهمي غولمز وتنهد، ثم ذهب إلى المطبخ وعاد وبيده كأس من الشاي وضعه بصمت أمام صديقه.

- «لِمَ لم تسكب لنفسك؟» سأله رسول.

- الشاي ممنوع علي.

- «لقد أصبحت رب عمل بكل معنى الكلمة!» قال رسول لكنه ابتسم بود:

- طبعا أصبحت! ألا يعجبك ذلك؟

- أنت تعرف رأيي بخصوص أرباب العمل.

- نعم أعرف.. اشرب الآن الشاي.

احتسى رسول الشاي ببطء وبلا كلام. لعله بتأثير سخونة الشاي، فقد لانَ أكثر مع كل جرعة جديدة. قال لنفسه: «إنه فهمي، إذا عجز عن فعل أي شيء فهو يصنع الشاي»، ثم تنهد بعمق وفكر: «لكن المسكين تردت أحواله كثيرا، أصبح من الصعب التعرف عليه»، ناسيا أنه عرفه من النظرة الأولى وفي شبه ظلام. وهو يحتسي كأس الشاي الثانية حدث ما هو أكثر من اللين: شعر بما يشبه السعادة من وجوده هنا، أمامه، لكنه في اللحظة نفسها تذكر ناظم فقال:

- لعلك رأيت الجرائد. لقد أخذوا ناظم، حفيدي أنا... أخذوه بدلا مني.

- أعرف، ولذلك جئت، قال فهمي غولمز ثم قطب حاجبيه «لكني ما كنت لأسمح لهم أن يأخذوك. كما لم أسمح لهم في أي وقت».

جمد رسول وفي يده الكأس الفارغة، لم يستطع أن يفكر بأي شيء لبرهة طويلة، ثم تلعثم كمن يحدث نفسه:

ـ هل تعني... هل تعني... هل تعني أنك أنت من منعهم؟ هل قلت لهم اتركوه وخذوا حفيده؟

لم يتفوه فهمي غولمز بكلمة، فهو لا يحب أن يظهر نفوذه أمام صديقه القديم. أما رسول فقد فكر بأنه أساء استخدام نفوذه بصورة شنيعة، رمقه بحقد وكرر سؤاله:

ـ قل لي، هل حقا منعتهم من إلقاء القبض علي؟

ـ نعم، فقط مرة واحدة ومنذ زمن بعيد جدا. بعد ذلك لم يبق أي سبب لاعتقالك. فقد التزمت الصمت وجلست.

اسودت الدنيا في عيني رسول، شعر برغبة في أن يمزق شيئا ما:

ـ ربما فعلت، لكني لم أرتد مثلك. بقيت وفيا لإيماني.

ـ جميل جدا. أهنئك.

لم يعرف رسول ما يقول. صديق من أصدقاء الطفولة قطع علاقته به منذ وقت طويل، ومن غير أن يطلب منه، يحول بينه وبين دخول السجن برفقة أمثاله، حارما بذلك إياه من تحقيق ممارسته الشعرية. ليس قادرا على أن يغفر له هذا، ولعله لن يغفر له أبدا. وقف وراح يتمشى داخل الغرفة بعصبية ثم وقف أمام فهمي غولمز وقال:

ـ لماذا إذن لم تنقذ ناظم؟ لقد كان جزءا مني.

نهض فهمي غولمز وأمسك بذراع رسول وأجلسه فوق الكنبة، جلس بجانبه ووضع يده على كتفه:

ـ اسمع.. أولا ما كنت أعرف، وثانيا لم يكتف هذا الولد بكتابة الشعر مثلك.

- «نعم، كان مشغولا بفتياته»، قال رسول وضحك بسخرية.

- صديقي رحمي، هذا الأمر ليس كما يبدو لك، ليس فيه ما يدعو للضحك.

أخبره بأنه قرأ الجرائد هذا الصباح، وتأكد خاصة من الشبه الكبير بين ناظم سونمز ورسول، فاتصل بخمس جهات على أقل تقدير، وتلقى الجواب نفسه من الجميع: «حذار يا سيدي، هذا الموضوع حساس جدا: لا أنت سألتنا، ولا نحن سمعناك. الوضع ليس كما تتصور». لكنه مع ذلك تابع الموضوع وأراد أن يعرف أين هو الشاب وفي أي حال، لكنهم تهربوا من تزويده بأي معلومات. أمله الوحيد أن يكون قد أوحى لهم أن الولد ليس بلا سند، لعلهم بهذه الطريقة لن يؤذوه كثيرا. ومهما كان الأمر، فلا شيء يمكن عمله الآن سوى الانتظار.

- «أنا لست في وارد الانتظار»، قال رسول بصوت هادر وهو يطفئ سيجارته بغضب في المنفضة «لا. عن أي انتظار تتحدث؟ على العكس سأقلب الدنيا ومنذ الغد! سأريهم من هو الجد العجوز لناظم سونمز!».

ابتسم فهمي غولمز وربت على كتف صديقه:

- صديقي رحمي، هذا الأمر بالفعل في منتهى الصعوبة، صدقني، لا تعد إلى دون كيشوتيتك! هذا الولد متهم بالقيام بعمليات عسكرية تستهدف إسقاط النظام الدستوري، وبقتل دزينة من الرجال، وليس بكتابة قصائد ثورية.

- أعرف، أعرف، ولكن من وجهة نظر الثورة كلها تؤدي إلى النتيجة نفسها. الأمر كله مسألة أجيال. رأى جيلنا طريق هدم هذا

النظام في الشعر، في حين يراه الجيل الجديد في السلاح. هذا كل ما في الأمر! مساء البارحة أردت أن أقول هذا للشرطة أيضا.

أجفل فهمي غولمز وقال متلعثما:

- كيف؟ كيف؟ للشرطة؟

- «نعم، في قسم شرطة الحي، حين ذهبت إليهم للاستفسار عن ناظم»، قال رسول ثم حدق في عيني صديقه كأنه يريد السخرية من إجفاله، وأضاف يقول: «ما كان لي أن أخفي أفكاري بطبيعة الحال. تحدثت في مواضيع أخرى أيضا».

- وما الذي قالوه؟

- رأوا أني محق. العالم يتغير يا صديقي. يبدو أن الثورة باتت على الأبواب.

ابتسم بصورة خفية: إنه يفكر في هذا للمرة الأولى، في هذه اللحظة بالذات، بل يمكن الزعم بأنه قال ذلك بلا تفكير. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تحدث به مساء البارحة في القسم أمام الشرطيين الثلاثة، ثم ما قاله للشرطي الذي رافقه حتى باب بيته، لأصبح الدفاع عن الزعم المضاد أكثر صعوبة. أضاف يقول: «أنا أيضا لدي ما أعرفه».

لأن فهمي غولمز لم يتمكن من هضم فكرة موافقة الشرطة في قلب القسم على تلك الأفكار «اللافتة»، فقد ذهب به الظن إلى أن صديقه إما يهذي وإما يسعى إلى إثارة دهشته. سأله:

- حسنا، في رأيك إلام نحن مدينون بهذا التطور؟

- «وإلام تريدنا أن نكون مدينين؟ إلى الحقيقة التي عبر عنها ناظم بصورة رائعة: نحن مدينون به إلى جريان التاريخ»،

قال رسول ثم رفع صوته وتابع يقول: «أنا متقدم فحسب على أبي الذي مات ومتخلف عن ابني الذي لم يولد بعد».

ابتسم فهمي غولمز(*)، وأكمل عن صديقه: «وأنت الجندي المجهول في معركة». ثم ليَّن صوته بقدر ما استطاع: «اسمع ما سأقوله لك. ارتد ثيابك لأصطحبك إلى بيتي لنشرب معا. وتنام عندي في الليل. ثمة منافع كثيرة في إقامتك عندي في هذه الأيام. ونتابع وضع ناظم معا. ما رأيك؟».

- لا. غير ممكن! لم أنم ليلة واحدة خارج بيتي باستثناء فترة الخدمة العسكرية.

ابتسم فهمي غولمز مرة أخرى:

- هذا ما أسميه الثورية حقا!

قال ذلك وعاد يلح في اقتراحه: قال إن تغييرا للجو لبضعة أيام لن يضره في شيء، وإنه سيسعدهما معا مداواة الشوق المتراكم بعد سنوات الانقطاع الطويلة بينهما، وحدق في عيني صديقه، تغامزا بود. وعلى الرغم من أنه خيل إليهما في البدء أنهما تغيرا إلى درجة يصعب عليهما التعرف أحدهما على الآخر، فإنهما أحسا الآن بأنهما يستعيدان دفء طور الشباب الذي لم يتغير تقريبا، انتابهما الشعور بأنهما لم يفترقا قط، واستعادا فجأة شيئا من عاداتهما القديمة. «لعل السبب هو أن كل شيء حولنا قد تغير أكثر بكثير مما فعلنا نحن»، هذا ما فكر به فهمي غولمز وكرر اقتراحه مرة أخرى على أمل استعادة جو الشباب نفسه في بيته أيضا، لكنه تيقن من أن رسول لا يرغب أبدا في

(*) نلفت الانتباه إلى أن معنى كنية فهمي المختلقة هو «الذي لا يضحك».

مغادرة بيته، فكف عن الإلحاح، وقال له:

- حسنا، لنبق هنا إذن، كما كنا نفعل قديما. لعله عندك عرق؟

كان عنده عرق. ذهب فهمي غولمز إلى المطبخ، تماما كما كان يفعل في الأيام الخوالي، نقل إلى الطاولة زجاجة الـ «يني راكي» والكؤوس وإبريق الماء وسلة الخبز. وهو يهم بالجلوس تذكر كلاما لفريدة: «صحيح أن مطبخنا يبدو كأنه فارغ، ولكن إذا ما فتشته ستجد فيه دوما أشياء تؤكل وتشرب»، عاد إلى المطبخ ثم عاد بصحن من الزيتون في يده ووجهه يتهلل، قال:

- هاهي فريدة على حق مرة أخرى.

- إن فريدة دائما على حق، قال رسول.

- إنها لكذلك. هيا، نخب فريدة!

ضرب كأسه بكأس صديقه كما في الأيام الخوالي، وأفرغ منها في جوفه، ثم نهض واتجه نحو المكتبة حيث استغرق في النظر إلى صورة فريدة وظهره إلى صديقه. كان رسول يراقبه من مجلسه، قال:

- أتعرف ما الذي قاله أحد رجال الشرطة الذين جاؤوا مساء البارحة لاعتقال ناظم؟

- ماذا قال؟

- سألني عما إذا كانت هذه الفتاة حفيدتي؟

ظلَّ فهمي غولمز في مكانه يحدق في صورة فريدة:

- قد أحسن القول. فقد عرفت فريدة كيف تبقى شابة على الدوام.

قال ذلك وتنهد، ثم عاد ليجلس ثانية في مواجهة رسول،

ضرب كأسه بكأسه وأضاف: «هيا في صحتك! نخب فريدة ونخبنا نحن!».

من تلك الدقيقة فصاعدا دخلا في مباراة استعادة الذكريات. نسيا كل شيء، بما في ذلك الحدث الذي جمعهما مجددا بعد فراق سنوات، وراحا يتحدثان عن فريدة وممازحاتها وثورات غضبها وثقافتها وجمالها، كما لو كانا يتحدثان عن حفيدة مشتركة. نهض رسول ودخل غرفته، ثم عاد ومعه علبة أحذية كان يخبئ فيها صور فريدة. أفرغ جميع الصور فوق الطاولة. وضعا نظارتيهما وراحا يستعرضان الصور مطولا، وكل منهما يدل رفيقه على صورة ما ويبديان الملاحظات، ووافق كل منهما على ملاحظة الآخر في كل مرة. فقد أقلعا عن المناكدات المتبادلة. امتلأت عيونهما بالدموع وارتعش صوتاهما بصورة غريبة، وكأن ما سبب ذاك الارتعاش هو فرح العثور على حفيدة أضناهما الشوق إليها، أكثر منه الألم النابع من رؤية صورة حبيبة فقداها. بل يمكن القول إنهما لم يريا الماضي في هذه الصور على الإطلاق: فقد كان من المستحيل التفكير بأن فريدة لم تعد تحيا، نظرا لأنها كانت مثل جنِّيَّة تنظر من وراء نظارتها بحيوية، وتبدو في غاية الصبا.

على العكس بدت كمن تبشر بالأيام القادمة الجميلة، وهي تبتسم وحدها في بعض الصور، ومع رسول متجاورين أو متقابلين في صور أخرى، ومتوسطة رسول وفهمي غولمز في قسم آخر. وبدلا من التوقف عند منعطفات الحياة المؤلمة منذ ذلك العهد، استعادا أمام تلك المشاهد الحية في الصور مشاعرهما أيام كانت

فريدة على قيد الحياة، متطلعين إلى مستقبل سعيد يشق طريقه من داخل مشاهد الماضي المصفرة، كأنهما لم يعيشا قط ما تلا عهد فريدة. ومع ذلك تنهدا بعمق بعد إعادة الصورة الأخيرة إلى العلبة. غمغم رسول:

ـ وكأنه البارحة... ومع أن سنوات كثيرة مضت وأشياء كثيرة حدثت.

وافقه فهمي غولمز بهزة من رأسه وقال:

ـ لم يحدث أي شيء كما حلمنا في تلك الأيام. تطورت أمور كثيرة بصورة لم نرغب بها قط. لو لم تصر فريدة على إنجاب تلك الطفلة، لربما لم تمت.

ـ نعم تلك الطفلة التي قتلتني.

ـ ولكن كم كانت جميلة تلك الطفلة! لم أحب أي طفل كما أحببتها. أصبت بالجنون عندما سمعت بهروبها إلى ذاك الأبله. هل تصدق أنني فكرت حتى بقتله؟ لكني قضيت عليه، تعرف أنه لم يمض عليه عام حتى بدأ انهياره. للأسف لم أعرف أن النتيجة ستكون أكثر سوءا.

هاهو رسول يعرف حقيقة جديدة: كما يتضح أيضا من ظهوره الفوري بعد اعتقال ناظم، كان صديقه القديم يراقب حياته عن كثب. في البداية سره هذا السلوك، لكنه سرعان ما استدرك موقفه متأثرا بالإيحاء السيئ للمراقبة في أوساط الثوريين، قال لنفسه: «لقد أراد إذن أن يتحكم بنا عن بعد، كأننا طلبنا منه أن يتفضل ويتحكم بنا!» وتوتر فجأة فاندفع يقول:

ـ ما كان بوسعك أن تعرف! ألست رأسماليا؟ أنت لا تفكر

برأسك بل بجبيك!

- «إذا وقعت على فرصة للتفوه بكلام لامع، فأنت لا تفوتها أبدا»، قال فهمي غولمز «المهم أنك لن تنبري الآن لحماية ذاك الطائش الوقح!» احتسى جرعة عرق وخفض بصره صامتا.

سكت رسول كذلك. فكر في أنه ظلم صديقه هذه المرة. إن التاريخ يتقدم في الاتجاه الصحيح ولا يحيد عنه، لكن كثيرا من الانحرافات الكبيرة والصغيرة تحدث في حياة الأفراد، ولا يستطيعون شيئا يذكر حيال ذلك، فهم غير قادرين على رسم مصائرهم بأيديهم. لعل هذا ضرورة من ضرورات التطور التاريخي. ألم يقل فهمي غولمز نفسه إن شيئا لم يحدث كما حلم به؟ أراد أن ينقل إليه ما يفكر به، لكنه فوجئ حينما رآه نائما في مقعده. بقي فترة يراقبه وهو يبتسم دون أن يصدر صوتا، ثم أيقظه:

- «يا إلهي! لقد غفوت»، قال فهمي غولمز.

أطلق رسول قهقهة وقال:

- قل إنك صرت عجوزا! قل إنك لم تحتمل كأسين من العرق!

- وماذا بوسعنا أن نفعل يا صديقي، ثمة أناس في مثل عمرنا خرفوا أو يفعلونها تحتهم. لنحمد الله على حالتنا!

- «لا تقل نحن، قل أنا!» قال رسول وهو يضحك. ما كان بصدد إزعاج صديقه، لكنه هذا المساء يشعر بالتفوق عليه، فهو قد تزوج من فريدة وواصل كتابة الشعر وربى حفيدا قاد العمليات الثورية، وأراد أن يعبر عن هذا بصورة غير مباشرة، أضاف يقول:

- «أنا مثل الحديد. رأسي وجسدي مثل الحديد».

نظر فهمي غولمز إلى وجه صديقه الشاحب، ولحيته البيضاء، وعينيه وقد تورمت إحداهما وانطفأ بريق الأخرى. قال له:

ـ أهنئك من كل قلبي.

ـ «شكرا لك»، قال رسول ومد يده إلى علبة «الصمصون» أمامه: «يا إلهي! نفدت السجائر!» دَعَكَ العلبة ثم سأل فهمي: «هل عندك سيجارة؟».

ـ لا. أقلعت عن التدخين منذ وقت طويل.

ـ «لا بد أنك فعلت ذلك حتى تعيش أكثر»، قال رسول الذي لم يتمالك نفسه في ذلك المساء عن توجيه التعليقات إلى رفيقه «أنت بكل هذا الثراء والقوة، ولكنك لا تملك سيجارة تعطيها لصديقك!»

ـ غدا آتيك بقدر ما تشاء من الدخان.

ـ «أشكرك، لكني بحاجة إليه الآن»، قال رسول ثم التقط أكبر عقب سيجارة من المنفضة كأنه يقوم بفعل طبيعي جدا، سواه بأصابعه وأشعله.

قفز فهمي غولمز من مجلسه بغضب، التقط المنفضة وأفرغ كل ما فيها من أعقاب سجائر في المدفأة. لم يتفوه رسول بكلمة، أنهى عقب السيجارة وهو يحدق في الفراغ. بقيا صامتين لفترة. سيطر عليهما معا جمود مفاجئ. على الرغم من سروره الشديد برؤية صديقه بعد كل تلك السنوات، سيطر على فهمي غولمز شعور بأنه لن يتخلص من هذا الجمود إلا خارج هذا البيت. نهض واقترب من رسول، ضغط بيده على كتفه وهو يقول: «علي أن أذهب الآن»، ثم طلب منه ألا يرتكب أي جنون بخصوص ناظم، ألا يذهب مثلا إلى القسم أو ما شابه، بل الأفضل ألا يخرج من

البيت قبل مجيئه. لكن الشك ساوره فجأة في فهم صديقه لما قال: صحيح أنه كان ينظر إليه مبتسما، لكن كلا من نظرته وابتسامته بدتا كأنهما تجمدتا وراء حاجز شفاف يستحيل تخطيه. انتابت فهمي غولمز قشعريرة: «لم لا تقول شيئا يا رحمي؟»، رد عليه رسول بالابتسامة نفسها: «مع السلامة». بالنظر إلى أنه وقف وقال إنه سينصرف، فلا يمكن تصور جواب أكثر ملاءمة، ومع ذلك خيل لفهمي أنه جواب في غير محله. قال له: «عزيزي رحمي، إن شئت بقيت معك، مثل أيام زمان، حين كنا ندرس معا».

هز رسول يده بحركة طرد ذبابة:

- أي دراسة؟ أي دروس؟ كل شيء بالنسبة إلينا قد انتهى... العهد هو عهد ناظم، لكنه في الداخل.

داعب فهمي غولمز لحية صديقه البيضاء وسأله:

- هل أحببت ناظم كثيرا؟

- «لا أعرف إذا كنت أحببته كثيرا أم لا، لكني الآن أحبه أكثر فأكثر. الآن، كلما فكرت بأنه في الداخل» صمت فجأة وحدق في عيني صديقه: «طيب ولكن من أين هبط عليك الإلهام لتهتم بناظم؟ أنت لم تره قط».

- «صحيح أنني حتى لم أره، لكني صدمت حينما قرأت الجريدة، أردت أن أفعل شيئا ما»، قال فهمي غولمز وبلع ريقه مرة أو مرتين ثم أضاف: «كذلك أدركت أني مشتاق إليك كثيرا»، بلع ريقه مرة أخرى «ثم إني - لا أعرف كيف أقولها - خفت عليك أكثر مما خفت عليه. وإذا أردت الحق فما زلت أخشى عليك الآن أكثر مما أخشى عليه».

هز رسـول يده كـمن يقـول: «لا عليـك» وأجـاب: «هـذا سـخـيف جدا. فقد نسوني منذ وقت طويل، أما ناظم...».

ـ لا تبتئس، سوف ننقذ ناظم... إن لم يكن غدا، فسوف ننقذه عاجلا أم آجلا... حتى أننا يمكن أن نشرع له قانونا خاصا إذا اقتضى الأمر.

عادت إلى رسول روح المناكدة:

ـ ألن تقع في التناقض بمساعدتك لناظم وأنت رأسمالي؟ أنت تعرف أن ناظم يقاتل مثل سميه من أجل الثورة البروليتارية.

ـ حتى لو كان الأمر كذلك، فلن أتهرب من مساعدته، فضلا عن أنني لا أشاركك الرأي في أن عمليات هؤلاء الصبية المسلحة تستهدف حقا رأس المال وأرباب العمل.

ـ لا تتفوه بسخافات!

ـ «لا... لست أتفوه بسخافات»، قال فهمي غولمز، وهو يجادل صديقه ظنا منه أن عقله متوازن «هؤلاء الصبية لم يفعلوا بنا شيئا. لو أنهم بادروا بقتلنا، لربما كان بوسعنا التفكير ـ وفقا للنظرية القديمة ـ بأنهم يريدون التعجيل بالثورة عن طريق إنقاص عددنا. لكنهم، على العكس، يقومون بقتل أشخاص أقرب إليهم مما إلينا، أي أنهم ينقصون من أعداد أولئك الذين سيصطفون إلى جانب البروليتاريا وليس إلى جانب أرباب العمل.

ـ لا تتفوه بسخافات!

ـ أنا لا أفعل! فكر في الأساتذة الذين يرشقونهم بصليات بنادقهم! من جهة ثانية فإن هؤلاء الصبية يستقدمون أنظمة حكم

استثنائية. وتلك الأنظمة تلائم مصالحنا دوما وإن كانت تكلف الآخرين كثيرا. إنها تعمل من أجلنا وتزيد من قوتنا أضعافا.

ـ ولكن كلما ازددتم قوة، نقصتم عددا شئتم ذلك أم أبيتم. هذا ما يقوله ماركس.

ـ لا. إن عددنا لا يتناقص، بل العكس هو الصحيح. إنه يتزايد وكلما ازددنا عددا، زادت المزابل التي ننقب فيها وتنوعت. هل تفهمني؟

ـ لا. إني لا أفهمك. والآن أجبني عن هذا السؤال: سواء كنت رب عمل أو عاملا، ألا يتعين عليك كمواطن، أن تحارب الفاشية؟

حدق فهمي غولمز في عيني صديقه، قال:

ـ لا شك في أنه يتعين علي ذلك. إذا احتل الأجانب بلدك فإنك تقاتل بصورة جيدة، ولكن إذا احتله أناس من بلدك نفسه، فسيصبح الأمر صعبا، حتى لو كانوا أسوأ من الأجانب، ذلك أن كل شيء يتشوش ويختلط. هل تفهم؟

ـ لا. لست أفهم.

ـ دعك من هذا! قل لي فقط، هل أبيت ليلتي هنا أم لا؟

نظر رسول إلى صديقه بمحبة: الحق أنه يريده أن يبقى، ولكن على الرغم من سعادته الحقيقية بلقائه مجددا، فقد ساوره الشعور بأن إظهاره لحميمية زائدة تجاهه قد يعني أنه يوافقه آراءه الشاذة من نوع أن العمليات الثورية للشباب تقوي أرباب العمل، أو ما يقترحه من حلول بورجوازية من نوع «استصدار تشريع خاص إذا اقتضى الأمر»، فضلا عن أنه لم يرغب في الظهور بمظهر الضعيف أمام أي كان، وهو الشاعر الثوري الذي

يحمل فوق عينيه هدية الفاشية.

- لن ترتاح هنا؛ وأنا بخير، أنا مثل الحديد.

ادعاء رسول بأنه «مثل الحديد» أثر كثيرا في فهمي غولمز، أحس بالدموع في عينيه. ود لو يأخذه بعيدا، إلى حيث لا يُكَذَّب ادعاؤه، إلى حيث لا يرى أي غريب شيخوخته وحالته البائسة، والأهم من ذلك إلى مكان يريحه أخيرا. لكنه لا يعرف إلى أين. غير أنه من الممكن أن يجد مكانا كهذا، كل المسألة الآن تكمن في تحطيم عناده. قال فهمي لنفسه: «يا له من رجل عنيد!»، مهما يكن من أمر، فهو مصمم ألا يتخلى عنه مرة أخرى، وأن يمنعه من ارتكاب أي جنون. قبل صديقه مجددا: «أنا ذاهب الآن. تصبح على خير. وأنت يحسن بك أن تنام فورا». ارتدى معطفه بتثاقل ثم خرج.

ظل رسول حيث هو فترة طويلة وهو ينظر إلى الباب، ملأه شعور بالضيق والفراغ، تأسف لرفضه اقتراح صديقه بالمبيت عنده، كما تأسف لأنه تقصد فقط تشويش صديقه بتفوهه بأفكار لم يسبق له أن فكر بها، وتنتابه الشكوك إزاء صحتها؛ إذ يفكر بها الآن، مثل أن المسألة هي مسألة أجيال، وأن الإرهابيين ثوريون. وحين شعر بالحاجة إلى تدخين سيجارة تذكر إلقاء فهمي غولمز لأعقاب السجائر في المدفأة، فثار من جديد: «القمع دائما، الفاشية دائما! مع أننا بدأنا التدخين معا!». تذكر كيف كانا يشعلان سجائر «البرنجي» واحدة بعد الأخرى، وهما يحتسيان نبيذ «مرمرة». ثم انتقل بذاكرته إلى فريدة وهي تسحب الدخان عميقا داخل رئتيها. ومن جديد شعر نحوها بالإعجاب: فكما

كانت يسارية حتى العظم، كذلك كانت مدمنة حتى العظم: كان بوسعها أن تستغني عن المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمال وكل شيء، لكنها كانت حريصة دوما على وجود السجائر في الخزانة أو في محفظة اليد. قال لنفسه: «أين نحن من الإدمان؟ كانت هي المدمنة الحقيقية! تماما مثل حفيدها!». في تلك السنوات حيث كان من الصعب الحصول على السجائر، لم يحرم ناظم منها قط، كما حرص على تأمين سجائر جده أيضا على الدوام. لمع في ذهنه فجأة مثل البرق: لا بد أن توجد سجائر في غرفة ناظم إن لم تكن الشرطة سطت عليها! مع ذلك لم يركض فورا إلى هناك: فأولا لأن ناظم لم يكن يريد أن يدخل أحد غرفته باستثناء عشيقاته؛ وثانيا هو لم يكن يدخن سوى «المارلبورو»، كأنما كان يريد إثبات أنه يقف في صف الإمبرياليين لا في صف الثوريين: إذن فلن يجد سوى المارلبورو، ولسبب ما كانت المارلبورو تذكره بالقبلة التي تبادلتها ابنته مع الرقيب الزنجي. قال لنفسه: «أفضِّل ألا أدخن قط». ولم يكتف بهذا، بل عاد إلى التشكيك بيسارية ناظم لمجرد أنه يدخن المارلبورو. ومع ذلك فكر هكذا: «لعله اضطر إلى تدخين المارلبورو للتمويه، فكَّر بذلك!» ربما مدفوعا بإدراكه التام أنه لم يعد قادرا على البقاء من دون سجائر، أو لأنه بدأ يعتاد فكرة أن ناظم ثوري. ثم كما تغيرت صفة ناظم غيَّر المارلبورو صفته في ذهن رسول، بصورة تدريجية، إلى حد أنه كاد ينقلب إلى مظهر من مظاهر الثورية. سار بخطوات واثقة إلى غرفة ناظم.

وجد الغرفة في فوضى تامة: أُخرجت جوارير الطاولة والخزانة وكُوِّمت في إحدى الزوايا، وأُلقي بالقمصان والملابس

الداخليـة وربطات العنق وغيـرها من الثـيـاب على الأرض أو فـوق السرير الغارق في الفوضى. لكن رسـول وجد علبة مارلبورو نصف مليئـة بانتظاره فوق الطاولة، كمـا رأى «كـروزين» مـارلبـورو كـاملين بين الأغـراض المبـعثـرة على الأرض. أشـعل سـيـجـارة على الفـور. سعل منذ النفس الأول، قـال لنفسـه: «أليـست سـيـجـارة أمـريكيـة!» ومع ذلك دخنهـا حتى النهـاية وهو يعود حنجـرته عليهـا. في هذه الأثناء أجـال ناظريه في الغـرفـة فـساوره شـعور بأن غـرفـة ناظم تتكامل مع سيجارة المارلبورو أكثر من كونها جزءا من بيت عائلي: فـثـمـة إحـسـاس بالـغـربة يتـولد من الشـراشف الملونـة والخـزائن الجـديدة والزجاجـات والقـوارير من كل لون وحجـم المصفوفة أمـام مـرآة كبيـرة. وقع نظره على ورقـة وردية اللون عنـد قدميـه، انحنى والتقطهـا: كانت رسالة موجهة إلى ناظم. وضع نظارته فوق عينيه وراح يقـرأ على أمل الحـصـول على معلومـة مـا بخصـوص نشـاطات ناظـم، لكن وجـهـه اصطبغ بلون الورقـة حـتى قـبل أن يصل إلى منتصفها: كانت إحدى الفتيات تتحدث في الرسالة عن أمـور من الصـعـب أن يحكيـهـا رجل لرجل. قـال لنفسـه: «كـيف يحـدث أن يصادق ثوري مثل ناظم فتاة كهذه! شيء غير معقول!».

أشعل سيجارة أخـرى: «فتاة كهـذه ورسـالة كهـذه!». عـاوده الشك في ثورية حفيـده. ثمـة احـتمـالان على الأقل: إمـا أن ناظم ليس بثوري، وإمـا أن هذه الرسـالة تضليلية، أو بالأحرى رسـالة مشـفرة. قال: «نعم، لا بد أنها مـشفرة. فهي تخفي كل شيء لدرجة». شـعر بالخجل لأنه شكك في ناظم، ثم سيطر عليه حب جارف فـأطفـأ السيجـارة التي في يده وتعـرى فجأة إلا من ثيابه الداخليـة، اندس

في فراش ناظم، التحف ودفن وجهه في الوسادة. امتلأ أنفه بعطر كثيف هو مزيج من لوسيون الحلاقة والديودوران والبارفان النسائي، فجعد وجهه. إنه شاعر من جيل الأربعينيات، ولا يحب هذه العطور الاصطناعية، لكنه فكر في أنها قد تكون أيضا من وسائل التمويه، بل خيل إليه أنه يشم رائحة ثوري شجاع تتسرب من خلال تلك العطور الاصطناعية. ثم تذكر كيف غمز ناظم له بعينه من فوق أكتاف الشرطة وقال: «كان أطول منهم جميعا. لم يصل أولئك البورجوازيون حتى إلى كتفي الثوري». في تلك اللحظة، ربما في جزء من عشرة من الثانية، فكر أن كلا منهما فهم الآخر بصورة كاملة، وأنهما تصالحا بصورة نهائية، ودفن وجهه ثانية في الوسادة. لكن هذا العطر مزعج بصورة جدية، حتى لو تسربت من خلاله من حين إلى حين رائحة ناظم الحقيقية: انزلق تدريجيا نحو حافة السرير على أمل أن تخف الرائحة قليلا.

حين انقلب من جهة إلى أخرى أحس بشيء صلب تحت ردفه، فتوقف وراح يراقب هذا الإحساس كمن يصغي إلى صوت بعيد، ثم نهض ورفع الفراش، ثم فتح البطانية المطوية أربع طيات تحت الفراش، فأطلق صرخة ابتهاج: لقد تأكد الآن بما لا يقبل الشك أن ناظم ثوري حقيقي: استلقى بين طيات البطانية مسدسان أحدهما أكبر من الآخر، مثل أم وابنتها، مع مخازن احتياطية. قال رسول في سكرة نصر: «هكذا هم هؤلاء الشرطة! يقلبون البيت رأسا على عقب، ثم ينصرفون دون أن يلاحظوا الرسالة المشفرة والمسدسين!». قلب المسدس الصغير طويلا بين يديه، سحب منه

المخزن وأفرغه من طلقاته، ثم عاد وملأ بها المخزن الذي أعاده إلى مكانه، دفع بإحدى الطلقات إلى السبطانة، ثم وضع المسدسين جنبا إلى جنب. مسدسان جميلان اعتُني بهما بصورة جيدة. فكر: «إذن فقد أشعل الدنيا بهذين المسدسين!». إن ناظم هو ابن البارحة، لا بد أنه موهوب جدا في هذا المجال أيضا بما أنه يستخدم هذه الأسلحة بكل هذه البراعة. ولكن على الرغم من شعور واضح بالفخر ببراعة حفيده في استخدام السلاح، فإن رسول لم ينس أنه يشمئز من كل أنواع الأسلحة، وبالأخص من المسدس والحربة. وعندما تذكر أيضا ملاحظات فهمي غولمز جعد وجهه بضيق. بدأ يفكر وذقنه في راحته، واقفا أمام المسدسين بالملابس الداخلية: ليس واثقا تماما، لكنه قرأ ذلك في الجريدة صباح اليوم: كان ناظم ورفاقه يقولون إنهم يقاتلون النظام البورجوازي ورأس المال والفاشية، لكنهم يقتلون أناسا لا علاقة مباشرة تربطهم بهذا الصراع. إذا كانت الثورة - وفقا لنظرية ماركس التي لا تخطئ - ستتحقق حين يصل عدد أرباب العمل إلى أدنى مستوى، وعدد البروليتاريا إلى أعلى مستوى، أوليس قتل أناس أقرب إلى العمل منهم إلى رأس المال، تناقضا بين النظرية والتطبيق؟ تنهد بعمق. وجده أمرا مشينا من الزاوية النظرية أن يجيد رب العمل التفكير أكثر من الثوري، سواء بالنسبة إلى نفسه أو بالنسبة إلى حفيده. قال لنفسه: «لا.. لا.. من الزاوية النظرية لا بد أن يفكر الثوري بصورة أصح من رب العمل، وأن يقيّم الوقائع بصورة أفضل»، ولكن كان واضحا أنه لم يتمكن من دحض دعوى رب العمل. إذا كان مخطئا فأين الخطأ؟

إذا كانت ثمة معطيات فاتته ملاحظتها، فما هي؟ كيف سينجو من هذا التشوش؟ وهو على حافة اليأس، ومضت في ذهنه مرة أخرى أبيات ناظم حكمت الشهيرة: بما أن المرء يكون متقدما على أبيه الذي مات، ومتأخرا عن ابنه الذي لم يولد بعد، فإنه يتعين التأكيد أن ناظم هو الذي على صواب، كما يتعين الوقوف بجانبه «كفرد يؤدي دوره». حدَّق في المسدسين وابتسم. ليقل فهمي غولمز ما يشاء، إن العمليات المسلحة التي يقوم بها ناظم ورفاقه ستأتي بالثورة. أما فيما يخص أولئك الذين يتعرضون للقتل، فإن فهمي غولمز ينظر إلى الأمر بعين بورجوازي، فتنحرف به الرؤية: لا شك في أنه من الصعب إلصاق تهمة الثورة المضادة بأستاذ جامعي أبيض الشعر، أو بحارس حي أو بموظف في بنك، ولكن علينا ألا ننظر إلى الأمر من زاوية نظر فردية. إذا قالت الثورة إن عددا محددا من الناس سوف يموت، فهذا يعني أنهم سيموتون. علينا أن ننظر إلى الموضوع من زاوية نظر اجتماعية وليس من زاوية نظر شخصية. «إن صاحبنا فهمي ينظر إلى الأحداث من زاوية ضيقة، ولا يعرف الجدل. الأطروحة، نقيض الأطروحة، التركيب! لا أسئلة، بل تقدم إلى الأمام، لا توقف!». بات الآن لا يكتفي بالدفاع عن صحة خط ناظم، بل يرى ضرورة الانضمام إلى المعركة التي أطلقها.

غير أنه كان يرتعش من البرد ويغالب النعاس. رأى بيجامة ناظم قرب المسدسين، فارتداها على الفور، وبدلا من أن يندس في الفراش، وقف أمام المرآة وتفحص هندامه بدهشة: إحدى ذراعي البيجاما بلون بنفسجي والأخرى باللون البرتقالي، وعلى

الجذع الأسود كتب بأحرف كبيرة وردية لماعة:

UNITED STATES

OUTSIDERS

وإلى الأسفل بأحرف أصغر: «**Levi- Strauss & Co**» هز برأسه وقال لنفسه: «لا أعرف من أين يحصل ناظم على هذه الملابس ولِمَ يرتديها؟ هل من أجل تضليل الفاشيين؟ أم أن وراء هذه الألوان والكتابات معاني خاصة؟».

ازدادت وطأة النعاس عليه، فألقى بنفسه فوق السرير قبل أن يصل إلى جواب قاطع على سؤاله، ودون أن يطفئ الضوء. دس المسدس الكبير تحت الوسادة، وضم المسدس الصغير في راحته. في اللحظة التي كان سيغفو فيها تذكر لثانية أو اثنتين الشرطي الذي كان يكتب بإصبع واحدة على الآلة الكاتبة، فارتخت أصابعه القابضة على المسدس وقال: «مثل نقار الخشب»، ثم أضاف كما لو أمره أحد بشيء ما: «لا... لن أطلق النار على أولئك الأولاد! لن أطلق!».

- ٣ -

أفاق رسول باكرا ربما لأنه ينام في غير سريره، أو لأنه ترك الضوء مشتعلا. في اللحظات الأولى وجد صعوبة في معرفة أين يكون، لأنه قضى ليلته في أحلام مزعجة يصارع فيها الشرطة ووكلاء النيابة، يجهد حينا للبقاء واقفا وهو يتلقى اللكمات والركلات ويداه مقيدتان خلف ظهره، ويبحث حينا عن أجوبة عن سيل الأسئلة التي تطرح عليه وهو معصوب العينين. ثم لامست يده سبطانة المسدس الباردة فاجتاحته قشعريرة طاولت نقي عظامه، لكنه سرعان ما سيطر على نفسه ونهض.

مر أولا على المرحاض، ثم عرج على المطبخ حيث وضع إبريق الشاي على الموقد وعاد إلى غرفة النوم، ارتدى كنزة كثيرة الألوان وراح يلملم ملابس ناظم المبعثرة على الأرض ويحاول ترتيبها في الخزانة. والحق أن هذه الملابس طالما أثارت أعصابه بألوانها وأشكالها وأحجامها وخاصة بالكتابات المرسومة بأحرف ضخمة فوقها. أما الآن فهو يلمسها بنوع من الاحترام وهو يرفعها عن الأرض ليعلقها على مشاجب أو يطويها ليضعها داخل الجوارير. لعل هذه الملابس التي أثارت جنونه في السابق هي علائم العصور الحديثة، لعلها ثمرة منطق ثوري وفكر جدلي: غمغم يقول: «بالطبع لن يدخل الثوريون الشباب العصور الحديثة بثياب الأمس البورجوازية. الأطروحة ونقيضها». جاء بكأس من الشاي من المطبخ وأشعل سيجارة مارلبورو راح يدخنها بشراهة. نظر إلى سترات وبنطالات ناظم بتفحص، فانتهى إلى أنها ملائمة جدا

للنشاط الثوري: فهذه البنطالات الضيقة تقوم مقام البنطالات العسكرية، وتحت هذه الكنزات الفضفاضة السميكة والمعاطف المنتفخة من كل لون، والسترات الطويلة والواسعة يمكن إخفاء المسدسات والقنابل اليدوية بسهولة.

لكن تفكيره هذا ذكره فجأة بوضع ناظم: هو الآن لا يملك مسدسا. بدأ قلبه يخفق مدويا: إذا وجد طريقة يوصل إليه بها مسدسيه، فربما يتمكن الولد من الفرار من جلاديه ويتابع نشاطه من حيث انقطع. لم يكمل ترتيب الملابس داخل الخزانة، ارتدى ثيابه بسرعة. ألقى في فمه قطعة من الخبز اليابس وشرب كأسا ثانية من الشاي مع سيجارة مارلبورو ثانية، ثم جاء بكيس بلاستيك متين ووضع في أسفله بيجامة، وفوقها مسدسي ناظم وكروزي المارلبورو، وفوق الجميع جريدة «جمهوريت» التي تتحدث عن ناظم. ارتدى معطفه وأمسك بالكيس بطريقة واثقة. فكما لم يعد لديه أدنى ارتياب في ثورية ناظم وصحة نشاطه الثوري، كذلك لا يساوره أي شك في أنه سينجز مهمته بنجاح. خشيته الوحيدة هي احتمال أن يحاول صديقه فهمي غولمز عرقلة المشروع. فتح الباب الخارجي فوجد أن الثلج توقف عن الهطول وانجلى الطقس بعض الشيء، لكن سيارة ناظم لا تزال مدفونة بكاملها تحت الثلج.

تنفس رسول بعمق ودمدم يقول: «خرج النسر من عشه». خطا بضع خطوات ثم التفت ونظر إلى بيته. وسط البنايات العالية كان يوحي ببيت لعبة أكثر منه عش نسر، ومع ذلك بوسعه أن يوحي بعش «عائلي» بصغره وشكله وأشجار حديقته، بالإضافة إلى أن

بناة البنايات المطوقة للبيت من الجانبين، فتحوا أبوابها باتجاه مخالف، كأنما أرادوا بذلك توكيد عزلة البيت وشذوذه عن محيطه. استدار ومشى. فكر أن عليه الوصول إلى ناظم بأسرع ما يمكن. لكن الجريدة التي كتبت عن كل ما فعله ناظم بالتفصيل، لم تعط اليوم أيضا أي معلومة عن مكان احتجازه. في هذه الحال سوف يحصل على المعلومات الموثوقة من أولئك الأولاد في القسم.

في القسم وجد الشرطي الذي تحدث معه مساء البارحة، لا يزال جالسا إلى طاولته كما لو كان قطعة من أثاث الغرفة. أجفل عندما رأى رسول. فقد قرأ الجرائد، وعلى الرغم من تشكيكه في صحة ما كتب عن حفيد العجوز (فهو لا يعتقد أبدا أن تافها متأنقا مثله يمكن أن يقوم بتلك الأعمال)، فهو لا يحب أبدا الدخول في حديث مع والد وجد شخص معتقل بتهمة أنه فوضوي عدواني خطير. لكنه لم يتمالك نفسه عن دعوته بعبارة «تفضل يا عم» حين رأى العجوز «الخرف المسكين!» منهكا ومنهارا إلى هذا الحد. لم يكتف بهذا بل طلب من الحارس الواقف قرب المدفأة أن يقدم له كأسا من مغلي البابونج كما في المرة السابقة. ثم قال له بصوت خافت:

- «صح ما قلته، كل الجرائد كتبت عن حفيدك».

لم يرغب رسول أن يحلل الموقف، قال:

- جئت لهذا السبب، أردت أن أسألك أين يمكنني البحث عنه.

نظر الشرطي إلى وجهه بإشفاق وقال:

- لا أعرف يا عم، قد يكون في «بال ممجو» أو في «مال تبه» أو «صنصريان» أو «غيرت تبه». كما يمكن أن يكون في مكان لم

نسمع به قط. في أجواء الأمن والاستقرار التي نعيش في ظلها يعتقلون الكثير من الفوضويين إلى درجة لا يجدون فيها أماكن تتسع لهم.

- إن ناظم شيوعي حقيقي، قال رسول.

- يؤدي إلى النتيجة نفسها!

- كيف يكون ذلك!، اندفع يقول، وكان يريد أن يتابع لولا أن الحارس قدم له في تلك اللحظة كأس مغلي البابونج:

- تفضل سيدي العميد.

أجفل رسول: وما كلمة العميد هذه! أتراهم مجانين، أم أنهم يريدون قلب كل شيء إلى نقيضه بصورة واعية؟ مهما يكن الأمر، لم يرغب أن يظل صامتا إزاء تشويه الحقائق بهذه الصورة، كرر يقول:

- إن حفيدي شيوعي.

- هل تريد القول بأنه معتقل رأي؟ ليكن. أعتقد أن كل الدروب تؤدي إلى الطاحون نفسه. هل يقلقون طمأنينة الشعب أم لا، وهل يسببون الألم لأهاليهم أم لا، هذا هو ما يهمني. ويحسن بك يا عم ألا تتفوه بتلك الكلمة دوما.

اغتاظ رسول فجأة من النصيحة وكذلك من كلمة «يا عم». حينما بدأ الغرباء ينادونه في الشارع بكلمات مثل العم والخال والجد، كان قد أدرك بذلك تقدمه في السن، ولم يزعجه ذلك ولا أزعجه تذكيرهم له بشيخوخته؛ أما الآن فإن مخاطبة الشرطة له بكلمة «يا عم» في سياق إسداء النصح، بدت له تذكيرا لا بفقدانه الشباب وحسب، بل الرجولة أيضا؛ لذلك أراد أن يظهر لهم أنه من المخضرمين، قال:

ـ على أيامنا كانوا يقتادون الشيوعيين إلى «الحربية».
ـ الحربية يحولونها الآن إلى متحف، رأيي أن تبدأ بالأقرب: اذهب إلى «بال ممجو». انتقل إلى «بشيك طاش» بواسطة الباخرة، ثم استقل سيارة توصلك إليه.
ـ هل تعني أنه هناك؟
ـ لا. أنا لا أعرف، قال الشرطي وقد بدأ يضيق ذرعا، الحق أني أفضل ألا تبحث عنه أبدا، ولكن مادمت مصرا، فعليك أن تبدأ من مكان ما على كل حال. وفي هذه الحال الأفضل هو الأقرب. أليس كذلك؟
حمل رسول كيسه ونهض واقفا:
ـ شكرا لك. هذا ما سأفعله.
لكنه لم يتحرك بسرعة: هبط المنحدر ببطء شديد. كلمات الشرطي شوشت ذهنه: إن تحويل «الحربية» إلى متحف يقلب كل شيء إلى حلم بما في ذلك اعتقال ناظم، ويكسب قصص الزنازين التي قرأ عنها في الكتب والجرائد أو سمعها من الأصدقاء، صفة رواية غير واقعية عن أشياء لم ولن تحدث. دونما تفكير، وربما بدافع غرزي للبحث عن شذرة حقيقة يمكن التعلق بها، انحرف إلى الزقاق الذي اشتغل فيه أبوه سنوات طويلة، فوجده مزدحما جدا على الرغم من كل هذا البرد.
مشى داخل الزحام وقدماه تغوصان في الوحل حتى الكاحلين، إلى أن وصل إلى المحل الذي اشتغل فيه في زمن مضى، غير أنه من الصعب القول إنه يقف أمام المحل نفسه: لقد غيروه بالكامل، زودوه بواجهة زجاجية من قطعة واحدة ملأوها بالقمصان وربطات العنق

والسترات والكنزات والبنطالات من كل طراز ولون. حدق بدهشة، المحلات المجاورة تبيع البضاعة نفسها. فكر: «من سيلبس كل هذه الملابس؟» اشتد إحساسه بأنه في حلم، فأغمض عينيه بفعل هذا الإحساس، وانتظر برهة كما لو كان يريد أن يسمع أصوات المطارق القديمة، لكن أي أصوات مطارق لم تصدر إلا ما صدر من داخله هو، وبدلا منها انبثقت من داخل المحل انبثاق هواء قذر أغنية: «من أي أحياء استانبول أنت يا صبية؟»، بدا كمن فقد الثقة بنفسه. لكن ملابس الواجهة الزجاجية ذكرته فجأة بناظم: لم يمسك ناظم بمطرقة قط، لكنه ارتدى مثل هذه الملابس واستخدم المسدس في سبيل الثورة. كل هذه التغييرات هي إذن علائم تطور إيجابي: عليه أن يصل إلى ناظم. مشى بخطوات واثقة نحو المرفأ.

على باب الثكنة أوقفه جندي وهو يهم بالدخول:

- قف يا عجوز. إلى أين؟

أخرج رسول جريدة «جمهوريت» من غير أن يخطر في باله احتمال رؤية الجندي كروزات المارلبورو والمسدسات، وعرض عليه صورة ناظم:

- أنا أبو هذا المعتقل، الأصح أنني جده، أريد أن أراه.

تلعثم الجندي وهو يجيب: «هذا... هذا... هذا من شأن حضرة الرقيب»، ثم قبض على ذراع رسول كأنه يخشى وقوع ما لا تحمد عقباه، واقتاده إلى شباك زجاجي يقف وراءه ضابط صف بدين: «هذا العم يريد شيئا يا سيدي ولم أفهم عليه».

اغتاظ ضابط الصف قليلا عندما اضطر إلى رفع رأسه إلى الأعلى حتى يتمكن من رؤية وجه رسول، وانفجر غضبه حينما

أراه رسول جريدة «جمهوريت» وكرر عليه ما سبق وقاله للجندي، دعك الجريدة وألقى بها في وجهه وهو يصرخ بصوته القاسي: «اغرب عن وجهي! إذا لم تكن تريد أن يلقى بك في الداخل مثل ابنك، فانقلع فورا من هنا!».

ابتسم رسول وهو يمسك بالجريدة فوق صدره: مؤكد أن الرجل الواقف أمامه قد تصرف بفظاظة، ولكن إذا استثنينا الليلة التي اعتقلوا فيها ناظم، فلم يحدث قط أن اقترب إلى هذا الحد من زنازين أحلامه. خيل إليه للحظة أنه يرى على الصفحة الأولى من «جمهوريت» عنوانا يقول: «تم اعتقال الشاعر رحمي سونمز». بما أن المسألة الأهم الآن هي إنقاذ ناظم، فهو يعرف أن عليه البقاء في الخارج، وعلى الرغم من ذلك أراد أن يظهر أنه لا يخشى الاعتقال، بل هو مستعد لذلك، فقال:

ـ أي طريقة في الكلام هذه حضرة الرقيب؟! أهكذا تخدمون المواطن؟

ازرق وجه ضابط الصف وصرخ به:

ـ انظر إلي أيها الملتحي، وانتبه أين تكون ومع من تتحدث! نحن لسنا بلدية، ولا نقدم خدمات لأحد! نحن هنا نحمي الوطن!

ـ هكذا إذن! تحمون الوطن؟ قال رسول وابتسم ساخرا: «طيب، ممن تحمونه؟ من المواطنين؟».

ـ أحسنت، نحن نحميه من المواطنين!

ـ حسن، لتهن عليك، قال رسول وضحك ثانية: «لكني مع ذلك أريد أن أرى حفيدي ناظم سونمز»، ثم أضاف يقول: «متى أستطيع أن أراه؟»

- لن تراه، لن تراه أبدا.
- لقد أحضرت له أمانات.
- أمانات؟ أي أمانات؟
- سجائر، بيجاما وما إلى ذلك.
- يا سلام! هل ظننت هذا المكان فندق هيلتون أيها العجوز؟ وهل أحضرت له خفا منزليا أيضا؟

ابتسم رسول: واضح جدا أن هذا الرقيب يريد افتعال مشاجرة ليلقي به إلى الداخل. ولكن قد يكون هذا هو الطريق الأقصر لإيصال المسدسين إلى ناظم، قال بصوت قاس:

- لا. لم أحضر خفا. متى بإمكاني أن أراه؟
- ألم أقل لك إنك لا تستطيع أن تراه؟ أي رجل عديم الفهم أنت!
- ولِمَ؟ هل صدر قانون خاص من أجل ناظم سونمز؟ أنا أبوه وجده. من حقي أن أراه.

هز ضابط الصف رأسه بغضب، ثم أخرج من جارور أمامه ورقة تطلع فيها مطولا ثم قال:

- حتى لو كان هنا، ما كان بوسعك أن تراه، لكنه ليس هنا.
- حسنا، ولكن كيف أصدقك؟

عند ذلك طاش صواب ضابط الصف، اندفع خارج الغرفة الزجاجية كالبرق وانقض على رسول، رفع نفسه فوق أطراف أصابعه وأمسك بياقته بكلتي يديه، صرخ به:

- هل تبحث عن مشكلة أيها العجوز؟ أأنت شيوعي أم ماذا؟

تراجع رسول بسرعة إلى الخلف وخلص ياقته من يدي الرقيب وقال له بصوت مرتفع:

ـ نعم أنا شيوعي، أعندك اعتراض؟ إن كنت تريد مناقشة الماركسية، تفضل نتناقش. لكني لم أجئ هنا من أجل ذلك. جئت لأرى حفيدي.

التفت ضابط الصف، بوجهه المحمر إلى الناس الذين تجمعوا في الشارع وراحوا يراقبون المشهد بدهشة، وقال لهم:

ـ سمعتم أليس كذلك؟ هذا العجوز الخرف يمارس الدعاية الشيوعية أمام ضابط تركي!

كان رسول يتهيأ لرد مفحم عندما تدخل ضابط برتبة ملازم أول على ذراعه الشريطة الحمراء للضابط المناوب وسأل الرقيب:

ـ ما الذي يريده السيد؟

ـ قال بأنه يريد أن يرى رجل حرب العصابات المديني ناظم سونمز، ويقول إنه أبوه وجده في الوقت نفسه. يبدو أنه ينتمي إلى المنظمة نفسها.

ابتسم الملازم أول: على المرء أن يكون مجنونا حتى يقف أمام باب إحدى الثكنات هذه الأيام ويطالب برؤية ناظم سونمز. قال للرقيب: «اذهب إلى مكانك» ثم شابك ذراعه بذراع رسول وهو يبتسم، وقال إن من يبحث عنه ليس في هذه الثكنة، ولا مجال لرؤيته أو تزويده بأغراض أو رسالة حتى لو كان موجودا هنا، فضلا عن أنه لا ضرورة لذلك بما أن ابنه موجود بين أيدي دولة كبيرة جدا وقوية جدا.

لكن رسول عجز عن التغلب على اندفاعه:

ـ حسنا، ولكن أين هذا الولد؟ تعلنون في الجرائد عن اعتقالكم له، تعددون ما قام به من أفعال، لكنكم تلتزمون الصمت عندما يتعلق الأمر بمكان اعتقاله، أو بحالته. أهذا معقول؟!

ترك الملازم أول ذراع رسول، وقف أمامه ورازه بنظره: إنه رجل وسيم، ملبسه وكلامه مرتبان. ولكن بما أنه يتفوه بمثل هذا الكلام في زمان كهذا وفي مكان كهذا، وبما أنه (وهذا أكثر هولا) يريد أن يقابل إرهابيا خطيرا مثل ناظم سونمز، فمن المؤكد أنه معتوه. يؤكد هذا بوضوح كروزات المارلبورو التي تظهر في كيس البلاستيك الذي يحمله: فهذا وحده يكفي لسجنه. ابتسم مجددا وطلب منه أن يغلق كيسه جيدا وأضاف:

- الأفضل أن تعود إلى بيتك مباشرة. إن دولتنا دولة كبيرة. حالما يحين وقت لقائك بالمعتقل، سوف نبلغك على الفور.

أراد رسول أن يقول له، إن هذه الدولة الكبيرة التي يقول عنها الملازم أول إنها ستصل إليه وتبلغه على الفور، لم تدق عليه الباب طوال سنوات على الرغم من كل حملات الاعتقال التي جرت، لكنه فكر فجأة بأن الملازم أول ربما أراد أن يقول له شيئا مختلفا تماما. هذه المرة هو الذي شابك ذراعه بذراع الملازم أول وقال له بصوت خافت:

_قل لي، بأي حالة هو ناظم؟ لن أخبر أحدا بأني سمعت منك، بإمكانك أن تثق بي، لأني شيوعي أيضا.

حدق الملازم أول بدهشة في وجهه. فكر بأن الرجل مجنون حقا، غمز له:

- أتكون أنت من ربى هذا الناظم سونمز؟

- نعم. أنا ربيته.

تنهد الملازم أول لمرأى رجل مثل الأسد في هذه الحال المزرية بفعل الشيخوخة أو أمور أخرى. كان قد سمع في وقت ما عن

كتاب بعنوان مرض اليسارية الطفولي، ثم التصق في ذاكرته، لسبب غير معروف بهذا الشكل: الشيوعية، هذا المرض الشبابي، وهكذا منطلقا من هذا العنوان الذي هو ثمرة خياله، اعتقد على الدوام أن الشيوعية انحراف مرضي يصيب الشباب حصرا. ولذلك تأكد له مرة أخرى أن هذا الرجل مصاب بالجنون، بما أنه من غير الممكن أن يكون شيوعيا وهو بهذا العمر. ربت على كتفه وقال:

- عد الآن إلى بيتك فورا. لا تتجول هنا وهناك. تعرف أن الجو خطر جدا في هذه الأيام.

- أتقصد أنه لا داعي لذهابي إلى الثكنات الأخرى؟

- لا، سوف تتعب نفسك بلا جدوى. أرى أن تعود فورا إلى البيت.

- حسنا. ليكن ذلك.

صافح الملازم أول، خفض رأسه بين كتفيه وهبط المنحدر على مهل. وقف برهة وتمتم:

«الزنزانة صامتة مثل بهيمة تنزف إلى الداخل»(*)، لكن البيت الشعري لم يجسد في خياله صورة أي زنزانة، ربما لأنه لم ير أبدا أي مبنى يشبه الزنازين.

تسارعت خطواته رغبة في الامتثال لنصيحة الملازم أول والوصول بأسرع ما يمكن إلى البيت، ربما بسبب الجوع والإرهاق. لكنه حينما وصل إلى قسم شرطة الحي فكر أن الواجب يقتضي بصورة لا مفر منها أن يعطي الشرطي الصديق معلومات حول ما قام به من بحث. دفع الباب بغير تردد كما لو أنه يدخل بيته، رأى

(*) من شعر ناظم.

الشرطي في أقصى الغرفة - وكانت مزدحمة إلى حد ما - يكتب على الآلة الكاتبة بإصبع واحدة، شق طريقه بين المزدحمين واقترب منه ثم جلس على الكرسي الذي أمام الطاولة من غير انتظار دعوة للجلوس، قال:

- أنا قادم من «بال ممجو». لم يسمحوا لي برؤية ناظم. قالوا لي إنه ليس عندهم، وإنهم لن يسمحوا لي برؤيته حتى لو كان موجودا. أي أناس هم هؤلاء! في رأيك، كيف سأتمكن من رؤية هذا الولد؟

حدق في عيني الشرطي، وكان يفكر في أنه سيتلقى منه الجواب الأكثر إقناعا لأنه من جهة ودود معه، ومن جهة ثانية يعرف هذه الأمور عن قرب. لكن واحدا من زملاء الشرطي كان قد حذر من هذا العجوز الخرف الذي يقتحم القسم في أي وقت، وعبر عن خوفه من أن يورطهم فيما لا يرغبون. هو نفسه كان يشعر بذلك، فقرر أن يبعده عن القسم، هدر في وجهه يقول:

- اسمعني أيها العجوز، بدأت تضايقني بصورة جدية. كم مرة سنقول لك إنه لا علاقة لنا باعتقال حفيدك؟ كف عن أكل رأسي، مفهوم؟

دهش رسول وارتاب أن يكون هذا الذي يوبخه، هو نفسه الرجل الذي تحدث معه صباحا. دقق النظر في وجهه: على الأقل يشبهه كثيرا. مهما يكن فقد فضل أن يقابل القسوة بالقسوة، كما فعل في الثكنة، قال:

- انتبه لكلامك. أنت تتحدث مع شاعر من شعراء هذا البلد!

عند هذا الحد ثارت أعصاب الشرطي بالفعل: قال لرسول إنه في الوقت الذي يسهرون فيه جنودا وشرطة في الليل والنهار

لحماية النظام في البلد، ويكدح البقال والقصاب والسائق والفلاح لتأمين لقمة الخبز، ينبري بعض الطفيليين - شعراء ومعراء - ليمارسوا التحريض الفوضوي، أي الشيوعي، وهذه أكبر جريمة بحق الإنسانية. وإذ حاول رسول مرة أخرى تنبيهه بضرورة عدم الخلط ما بين الفوضوية والشيوعية، صرخ به:

- كفى! اخرج واغرب عن وجهي! انقلع من هنا وإلا ألقيت بك في السجن! نحن هنا نخدم الدولة ولسنا نعتني بالمجانين!

- طيب، وحفيدي؟

ضرب الشرطي الطاولة بقبضته وصرخ به:

- اخرج من هنا! لا تجعلني أبدأ بحفيدك! برّا!

سحب رسول كرسيه قليلا إلى الخلف وراح يتفحص وجه الشرطي مطولا، وعلى وجهه ابتسامة تتراوح بين المحبة والازدراء، فسر التغيير غير المتوقع في موقفه باعتباره واحدا من الظواهر الكثيرة غير المنطقية لما قبل الثورة، تنهد ونهض مستندا بيديه على ركبتيه، خرج بخطوات متثاقلة دون أن ينظر في وجه أحد، دون أن يقول كلمة لأحد. وفيما كان يتقدم باتجاه بيته تحت الثلج الذي عاد يهطل من جديد. قال لنفسه: «شيء غير قابل للفهم. أي بلد هذا، أي بشر هؤلاء؟ أين ذهب المفتش الشاب الذي بدا أنه يؤيد الثوريين هذا الصباح بالذات؟ هل ينقلب كل شيء إلى نقيضه؟ ما الذي حدث للحقيقة التاريخية؟ هل يسير التاريخ القهقرى؟ ترى أهناك تاريخان منفصلان أحدهما ماركسي والآخر فاشي؟ والله من اليسير أن يجن المرء!». توقف، ضغط الكيس في حضنه وهو يلهث بشدة، شعر بما يشبه الدوار، لكنه شعر

بالارتياح فجأة حين رأى من بعيد سيارة فهمي غولمز الكبيرة عند باب البيت. ربما كان فهمي أقرب إلى الفاشيين منه إلى الماركسيين، لكنه صديق قديم، فضلا عن أنه رجل عاقل، والأهم من ذلك أنه عرف فريدة وأحبها، بوسعه إذن أن يناقشه ويصل معه إلى نتيجة مقنعة. قال له حتى قبل أن يصافحه:

- فهمي يا صديقي، قل لي، هل يتقدم التاريخ أم أنه يتقهقر؟

نظر فهمي غولمز مندهشا وحزينا إلى وجه صديقه المصفر وأطراف بنطاله الغارقة في الوحل حتى الركبتين، قال له:

- دعك الآن من التاريخ. ألم أقل لك ألا تخرج من البيت؟ قل لي أين كنت؟

ضغط رسول بيده الحرة على كتف صديقه:

- بحثت عن ناظم، لكني لم أعثر عليه.

فتح الباب، وراح يحكي لصديقه ما فعله من البداية، وهو يخلع معطفه وحذاءه.

كان هدفه أن يناقشه في التغير الذي بلبل ذهنه، بعد أن يمهد للنقاش بسرد تفصيلي عما جرى معه، والوصول بالتالي إلى أجوبة متينة عن أسئلته النظرية (هل من الجائز الحديث عن انحراف في مسار التاريخ باتجاه المستقبل؟) والعملية (كيف يمكن إنقاذ ناظم في أقرب وقت، داخل هذه الفوضى وكيف يمكنه متابعة نشاطه من حيث توقف؟). لكن فهمي غولمز ظن أن صديقه يكرر قصته اليوم السابق بالنظر إلى تكرر ظهور كلمات مثل القسم والمفتش، ولذلك فهو لم يهتم كثيرا بما سمعه. قال:

- حسن ما تقول ولكن هذا البيت بارد جدا.

استعد لإشعال المدفأة: بدأ بإفراغ الرماد، ثم رتب قطع الحطب ببطء وقد أهمل قصة رسول كثيرا. شعر بمتعة عصية على التعبير وهو يرى أنه لم ينس صف الحطب داخل المدفأة، مفكرا بأن حياة الفقير لها أيضا جماليات الخاصة بها. بدا له وهو يصف قطع الحطب، أنه لم ينفصل أبدا بصورة تامة عن هذه الحياة، ففيها جذوره، ولم يستطع قط أن يتأقلم بصورة حاسمة ومريحة مع حياته اللاحقة التي عاش فيها مثل قائد عسكري في بلد العدو المهزوم، يشهد على ذلك الكثير من العمالقة الذين سحقهم عند الاقتضاء مثل مدحلة. حشر بضعة عيدان صمغية ما بين قطع الحطب واستعد لإشعالها، التفت فجأة إلى رسول وأراد أن يقول له بأنه أحسن التصرف بعدم سماحه بهدم هذا البيت، غير أنه جمد في مكانه ممسكا بعلبة الكبريت في يده حين سمع في اللحظة ذاتها كلمة «بال ممجو». ثم وقعت علبة الكبريت من يده حين بدأ رسول يحكي قصته مع ضابط الصف، اندفع يسأله:

- كيف، كيف؟ أحقا قلت له هذا؟

- نعم، هذا ما قلته.

ثم تكررت المفردات نفسها تقريبا: كل حين وحين يقاطع فهمي غولمز القصة ليصرخ قائلا: «أقلت هذا أيضا؟!» أو «أفعلت هذا أيضا؟!» فيرد عليه رسول كأنه يتحدث عن أكثر الأمور طبيعية في العالم: «نعم قلت» أو: «نعم فعلت» ثم يتابع سرد قصته. وفهمي غولمز يرتعد لفكرة أن مغامرة صديقه في القسم والثكنة كان من الممكن أن تنتهي إلى نتيجة مختلفة، ويلوم نفسه لأنه لم يتحكم بتصرفاته منذ الصباح. حين وصل الحديث إلى تنبيه الملازم أول

لرسول بخصوص كيس البلاستيك ارتعش فهمي غولمز حتى نقي عظامه، نهض فورا وفتش داخل الكيس الذي تركه صديقه على الأرض مثل شيء عادي، فرأى جريدة جمهوريت وكروزي المارلبورو والبيجاما والمسدسين، قال متأتئا:

- أنت... أنت قد جننت!

وإذ بدأ رسول يحكي عن النقاش الذي قام به في قسم الشرطة، فكر بأنه من المحتمل أن صديقه جن فعلا. قال:

- نعم، نعم، لقد جننت! لقد أنقذك الله!

شعر رسول باستمتاع كبير من إثارة دهشة صديقه فأطلق ضحكة رخوة على الرغم من إرهاقه وقال:

- يبدو يا فهمي أنك لم تكتف بكونك رأسماليا، هأنت أصبحت متدينا أيضا. ولكن لا شأن لله بهذا الأمر. هؤلاء الناس لا يعرفون من الذي ينبغي اعتقاله، هذا كل ما في الأمر.

قال فهمي غولمز وقد اصفر وجهه تماما:

- عدني يا رحمي أنك لن تذهب إلى القسم أو الثكنة بعد الآن! هل تعدني؟

برم رسول شفتيه وقال:

- ليكن. في كل الأحوال لا جدوى من الذهاب.

تذكر المسائل التي أراد أن يناقشها مع فهمي غولمز، لكن جرس الهاتف رن في اللحظة نفسها فهرع إليه ورفع السماعة، ثم مدها إلى فهمي مع تعبير خيبة أمل على وجهه.

تحدث فهمي بصوت خافت ثم أغلق السماعة واقترب من صديقه، وقال:

ـ أنا مضطر للانصراف الآن، فثمة أمر في منتهى الأهمية علي معالجته. أتمنى لك مساء طيبا، وأرجو ألا ترتكب أي جنون. لا تخرج من البيت وسأعود إليك في أقرب وقت، سأكون هنا في الغد على أبعد احتمال.

وفيما كان على وشك تخطي عتبة الباب، عاد وأخرج من جيبه بطاقته وقال وهو يعطيها لصديقه: «ضعها في محفظتك. اتصل بي إذا وجدت نفسك في ضائقة ما، هذا الرقم يصلك بي فورا. هيا اجلب محفظتك وضعها فيها أمام عيني». امتثل رسول لما طلب منه. وهكذا شعر فهمي بقليل من الطمأنينة. لكنه، بعد أن أخبر سائقه الخاص بالوجهة التي يقصدها، فكر بأنه لم يحسن صنعا بعدم تأجيله للعمل الذي وصفه بالمهم جدا. قال لنفسه: «هذا المجنون يمكن أن يفعل أي شيء. يمكنه أن يقتل نفسه أو يقتل الآخرين بذينك المسدسين». قال له السائق: «نعم يا سيدي؟ لم أسمع ما قلت»، فأدرك فهمي غولمز أنه يكلم نفسه بصوت مسموع، وجعَّد وجهه كمن يشعر بألم. ما الذي يحدث؟ ما الذي يدفعه إلى كل هذا الارتباك والتشوش في اعتقال فتى لم يره قط أو في رعونة وطيش صديق من أصدقاء الشباب انقطع عنه منذ سنوات؟ إنه لا يملك جوابا. إذا كان ثمة ما يعرفه، فهو أنه يشعر بحميمية كبيرة نحو صديقه منذ يومين، وأنه عاجز عن مساعدته. بدا كما لو أن كل شيء يتسرب من بين أصابعه. غمغم قائلا: «لا أفهم ما الذي جرى لي». طلب من السائق أن يعود أدراجه، وعندما توقفت السيارة عند باب البيت دس في يد الرجل بضع قطع نقدية من فئة العشرة آلاف وقال له: «اشتر طعاما لنا

ولنفسك وتدبر بضع علب صمصون». ثم عندما فتح صديقه الباب وقال له «تفضل» ابتسم بسعادة وقال:

- لا تبدو عليك الدهشة.

- لا، لم أدهش. بالعكس تماما، أدركت أنني على صواب.

- في أي موضوع؟

أخذ رسول معطفه وعلقه على المشجب:

- لا عليك.

قبل قليل حين رأى رسول صديقه يهيئ المدفأة ثم ينسى إشعال عود الثقاب، كان قد قال لنفسه: «مسكين فهمي... ترى هل خرف؟ لقد أعد كل شيء ثم انصرف قبل أن يشعلها. لِمَ جاء أصلا إذا كان سينصرف على الفور، إلا إذا كان خَرِفاً؟». ثم أشعل المدفأة بشظية صحيفة صغيرة، فملأه صوت طقطقة الحطب المشتعل ووهج ألسنة النار المتراقصة التي طفحت من فتحة المدفأة، بطمأنينة عذبة. جعله هذا الشعور يتمالك نفسه قليلا فذهب إلى المطبخ وأعدَّ شريحة من الجبن وبضع كسرات من الخبز البائت وكأسا من العرق أضاف إليه ماء باردا من الصنبور ثم عاد إلى طاولته. وراح يتجرع العرق ويمضغ الخبز مع الجبن وهو يستعيد ما مر به طوال اليوم من مواقف ومن قابلهم من أشخاص: لا يزال يساوره الشك في أن الشرطي الذي جادله في القسم هو نفسه من تحدث إليه في المرات السابقة. وكما لم يستوعب عقله فظاظة الرقيب الذي قابله في الثكنة، فهو كذلك لا يجد أي معنى لموقف هذا الشرطي، فتمتم قائلا: «يصرخون في وجه المرء! يا لهم من أناس أفظاظ!»، كأنه ليس

هو من قــرأ طوال سنوات كل تلك القـــصص عن الزنازين والتعذيب. لا شك أن صعوبة التفاهم مع هؤلاء الرجال يمكن تفسيرها بمنطق الانهيار السابق للثورة، باعتبارها من تناقضات المجتمع البورجوازي الذي يعيش أيامه الأخيرة. لكن هذا التناقض يستدعي في ذهنه تناقضا آخر: بما أن التاريخ يتقدم إلى الأمــام، هل علينا أن نرى في ازدياد فظاظة الناس باطراد تقدما أم تقهقرا؟ إذا نظرنا إلى معاملة المسنين بلا احترام باعتبارها تقدما، فهل يمكن القول بأن غاية الثورة البروليتارية هي سعادة الإنسان؟ ملأ لصديقه كأسا من العرق دون أن يأخذ رأيه وسأله:

ـ قل لي يا صديقي العزيز، هل البشرية تتقدم أم تتراجع؟

سحب فهمي غولمز كرسيا وجلس وكأسه في يده، حدق في صديقه. بما أنه ينشغل حتى أمام أقرب أصدقائه ـ وبعد سنوات من الانقطاع ـ بمسـائل عــامــة من هذا النوع على الرغم من كل مشكلاته الخاصة التي يغرق فيها، فلا بد إذن من التشكيك بقواه العقلية. هز يده بما يعني «لا عليك». ألح رسول:

ـ قد سألتك سؤالا. هل البشرية في تقدم أم تقهقر؟

ـ ما همَّ إن كانت تتقدم أم لا؟ هل سيخرج حفيدك من السجن إذا كانت البشرية تتقدم؟ وما شأنك أنت بتقدم البشرية أو تراجعها؟

فكر رسول مرة أخرى بأن فهمي غولمز قد خرف، أو أنه يخرف الآن، ابتسم ابتسامة المتفهم:

ـ لكني أتحدث علميا.

ـ هكذا إذن؟ جميل جدا!

تابع رسول:

ـ نحن جميعا جزء من البشرية، وكل مشكلات البشرية هي مشكلاتنا أيضا. ليس بوسعنا أن نعزل أنفسنا عن البشرية. ولا أن نعزل حالة ناظم.

تنهد فهمي غولمز بضيق وأجاب:

ـ لكن البشرية التي تتحدث عنها هي نفسها مفهوم مجرد. لنفترض أن المجتمعات في أوروبا أو أفريقيا تتقدم كثيرا فهل في ذلك ما ينفعك؟ هل ينقذك ذلك من الطغم المحافظة؟ وهل يمنع ذلك حفيدك وأمثاله من قتل الناس؟ هل سبق ومنع؟

ـ مع الزمن، طبعا.

ـ حسنا، وهل يكفي عمرك للوصول إلى ذلك؟ بل هل يكفي عمر حفيدك؟

ـ وأي أهمية لنا كأفراد؟

ـ إذا كان مصير الأفراد لا يهمك لماذا إذن تبحث عن حفيدك في الثكنات وأقسام الشرطة؟ على الأقل اسأل عما إذا كان مجتمعنا نحن يتقدم أم يتراجع.

ـ يا عزيزي، ثمة شيء اسمه البشرية، وشيء اسمه التاريخ. وكلها أمور مترابطة. ولكن كما تشاء، سأطرح السؤال بطريقتك أنت: هل مجتمعنا نحن يتقدم أم يتراجع؟

ـ إذا أردت الحق، لست أملك الجواب عن هذا السؤال أيضا. كل شيء يتعلق بما تفهمه من كلمة التقدم.

في تلك اللحظة قرع الباب. نهض فهمي غولمز وهو يقول:

ـ لا بد أنه سائقي. سأفتح له.

فتح الباب فناوله السائق كيسا بلاستيكيا ضخما، قال: «هاك يا سيدي، أتيتك بوجبتين من الكباب بلا فليفلة، حصة ونصف لكل واحد، بالإضافة إلى اللبن الرائب».

شكره فهمي غولمز وأغلق الباب. وضع الكيس فوق الطاولة، أخرج منه زجاجتي لبن وخمس علب صمصون، ثم أخرج مغلفا ذا أزهار زرقاء ووردية، فتحه ببطء. داخل علبتي بلاستيك بيضاوين اصطفت أرغفة خبز البيدة وتحتها قطع كباب يبلغ حجمها ثلاثة أضعاف الكباب المألوف، وتحتها كبة مشوية بلون أحمر فاتح، وسلطة خضراء مفرومة جيدا، وبصل، وقد التصقت بكل ذلك حبيبات السماق، ورائحة بصل تعبق من المغلف كله. تشوش ذهناهما، و تذكر رسول رائحة البصل القوية التي كانت تفوح من يد الشرطي الذي هصر شفتيه ليلة القبض على ناظم، فارتعش. أما فهمي غولمز فقد ظن السماق فليفلة فجعد وجهه وقال:

ـ غريب! قال السائق بأن الكباب خال من الفليفلة، مع أن الطعام يمتلئ بها.

انحنى رسول فوق العلبتين ووافقه الرأي:

ـ هذا ما يبدو، وإنها لفليفلة عجيبة. ثم من أين جاءت أرغفة البيدة هذه؟ فنحن لسنا في شهر رمضان!

هز فهمي غولمز رأسه بعصبية، أراد أن يضب المغلف ليلقي به في علبة القمامة، غير أن رسول أراد أن يتحدى صديقه مرة أخرى بصفته صديقا للبروليتاريا، قال له:

ـ انتظر. دعنا نجربه.

بمزاج بروليتاري اقتطع قطعة من رغيف البيدة، ثم اقتطع قطعة من الكباب بواسطة قطعة البيدة التي أمسكها بيده اليمنى وسبابة يده اليسرى، حدق في عيني صديقه وراح يمضغها ببطء وبمزاج من يصغي إلى صوت قادم من بعيد. تمتم قائلا: «ليس لاذعا» ومضغ أكثر حتى ابتلع اللقمة وشرب فوقها جرعة عرق: «والله لا بأس به» ثم ألقى في فمه قطعة أخرى من البيدة وقطعة من الكباب، كرر يقول: «نعم، لا بأس به أبدا. بل هو طيب المذاق جدا. انتظر لآتيك بشوكة حتى تجرب بنفسك» جلب شوكة وسكينا من المطبخ ووضعهما أمام صديقه.

كف فهمي غولمز أيضا عن دلاله فاقتطع لقمة من الكباب بواسطة الشوكة وألقى بها في فمه، مضغها ببطء وعيناه تحدقان في نقطة ثابتة كمن يصغي إلى صوت بعيد، ثم بدأ يبتسم، قال:

- نعم لا بأس به، ولا هو باللاذع، بل إنه ألذ نكهة من الكباب المألوف. في هذه الحال فإن هذه الحبيبات الحمراء، والأقرب إلى البنفسجي ليست فليفلة. ولكن ماذا تكون إن لم تكن فليفلة؟

جس رسول بشوكته تلك الحبيبات «الحمراء والأقرب إلى البنفسجي» وقال:

- لا أعرفها. لا بد أنها شيء جديد، منتج جديد.

- معك حق، إنها منتج جديد. وربما هي أحد منتجات العالم الجديد.

- أتعني منتجا أمريكيا.

- أجل، ربما، قد تكون كذلك.

قطب رسول وجهه، ثم فكر بمارلبورو ناظم وثيابه، فابتسم وقال:

ـ كل العنب ولا تسأل عن الكرم الذي جاء منه.

ـ حسنا، ليكن ما تقول.

على الرغم من رائحة البصل المزعجة بعض الشيء أتيا بسرعة على الكباب المدعم بالعرق بين حين وحين، دون أن يرفعا رأسيهما أو يتكلما. بعد ذلك حدق رسول في عيني صديقه وكرر السؤال الذي يشوش ذهنه منذ فترة طويلة:

ـ ما رأيك: هل يتقدم التاريخ أم يتقهقر؟

قطب فهمي غولمز حاجبيه وقال:

ـ هل هذا أوان هذا النوع من الأسئلة؟ سواء كان يتقدم أو لا، ما أهمية ذلك؟ إذا كانت ثمة حقيقة فهي أننا بدأنا نعيش في عالم لا يشبه قط العالم الذي عرفناه نحن واعتدناه نحن.

ـ ما الذي تعنيه؟

ـ وما الذي يمكن أن أعنيه. انظر مثلا إلى الطعام الذي أكلناه: منذ وقت طويل لم نأكل طعاما لذيذا إلى هذا الحد، لكنه يفوح برائحة البصل بصورة فظيعة، ومليء بالفليفلة، لكنها ليست لاذعة، بل حامضة. فتيان في مقتبل العمر يسطون على البنوك ويقتلون ويصارعون قوات الدولة. هذا العالم ليس عالمنا. هل يتقدم التاريخ؟ لا أظن ذلك أبدا، لكن العالم يتغير، والأصح قد تغير.

أصغى رسول كاتما أنفاسه واستيقظ في أعماقه شعور من اهتدى إلى الجواب عن أسئلته في ملاحظات صديقه، فانبرى يقول:

ـ بالضبط: التاريخ يتقدم. كل شيء متناسق ويؤكد هذا: التاريخ يتقدم.

ـ أنا لم أقل شيئا كهذا، قال فهمي غولمز وتنهد، على العكس تماما يبدو لي أن كل شيء يفسد وينحط. ألا ترى كيف تجد المذاق اللذيذ داخل رائحة بصل خانقة، وأولئك الذين يصعدون فوق رؤوسنا ويصدرون إلينا الأوامر كل يوم، لا أقبل أن أشغّلهم سعاة عندي، والطلاب الجامعيون...

ـ حسنا، كل شيء يؤكد كل شيء، ألا ترى يا صديقي أن التاريخ يتقدم، وأننا نقترب من ديكتاتورية البروليتاريا؟ رائحة البصل، ساسة غرباء عن قيم البورجوازية، طلاب جامعيون آثروا المسدس على الكتاب. أتعرف أن ناظم كان يشمئز من الشعر؟

ـ طيب، وهل هذا أمر جيد؟ برأيي لا. برأيي أننا بصدد تراجع لا تقدم. برأيي أن تاريخك يتراجع أقله في مجتمعنا نحن.

ـ لا، لا، إنه يتقدم، قال رسول ثم كرر بإيمان جاليلي: مهما قلت فإنه يتقدم. إنه يتقدم مع ذلك.

نظر فهمي غولمز إلى صديقه مشفقا. فكر مرة أخرى أن عقل صديقه ليس في رأسه وأنه من السخف الدخول معه في جدال. ومع ذلك لم يتمالك نفسه فقال:

ـ حتى لو كان التاريخ يتقدم، فليس بالطريقة التي تفكر بها، أي ليس بالطريقة التي قال بها ماركسك: ليس ما يخاض صراعا ضد حفنة من المستغلين الذين جمعوا رأس المال في أيديهم، بل الرعاع يحطمون الرعاع.

ـ لم يبق عليك إلا أن تقول أيضا إن السلطة ليست منحازة إلى رأس المال.

ـ صحيح، إنها منحازة إلى رأس المال. لكن من في السلطة ليسوا رأس المال، بل خدم رأس المال. ويخدمونه بالقوة، أي على الرغم من رأس المال. لو أننا نختار خدمنا بأنفسنا، فسنختار من هم أفضل بكثير. باختصار، إذا أردنا استخدام كلمة تحبونها كثيرا، أمكننا القول إن الطبقة الرثة هي في السلطة الآن. والحرب تدور بين طبقتين رثتين. باختصار...

لم يستطع رسول أن ينتظر صديقه حتى يكمل كلامه، قال مقاطعا:

ـ ليس من حقك أن تصف الشبان الثوريين بالرثاثة(*)!

ـ حسنا، لن أصفهم بذلك. ولكن إذا كان بالإمكان تسمية لعبة الكر والفر التي يمارسها حفيدك وأشباهه، حربا، فمن المؤكد أنها ليست حربا داخل الإطار الذي يكرر بلا توقف منذ ماركس. ذلك أننا أولا لم نصل بعد إلى ذاك الطور: على سبيل المثال في هذه البلاد آلاف مؤلفة من الرأسماليين من أمثالي...

توقف رسول أمام هذا البرهان، غير أنه كان قد بدأ يؤمن في الآونة الأخيرة أن التاريخ يتقدم وأن الحرب قد أزفت، بحث عن تفسير ما فلم يهتد، ولكن لا بد من وجود تفسير. لا بد من وجوده حتى لو لم يهتد إليه. قال:

ـ علينا ألا ننخدع بالمظاهر. حين نتجاوز ظواهر الأشياء فإننا نرى أن التاريخ يتقدم. إنه يتقدم مع ذلك. يتقدم مع ذلك!

ـ حسنا، ولكن كيف؟

(*) يستخدم الكاتب Lumpen التي استخدمها ماركس في تعبير «البروليتاريا الرثة».

ـ يا صديقي فهمي، ألا تعرف أن رأس المال لا يحارب بنفسه أبدا؟ إن رأس المال يستخدم خدمه، أدواته، يدفع بهم إلى الخنادق الأمامية. سواء قبلت أم لا، فإن رأس المال هو الذي يقوم بالحرب.

ـ حسنا، والآخرون؟ أعني أولئك الذين يقاتلون جنود رأس المال؟ هل ستقول لي بأنهم ليسوا طلابا بل بروليتاريون حقيقيون؟ أم أنك ستصفهم بأنهم الأدوات التي تستخدمها البروليتاريا أو أنهم طبقة رثة تخدم البروليتاريا؟

ـ لا، كلا، لا، كلا، تأتأ رسول، لا، كلا، إنهم أناس مثقفون جدا، ولأنهم كذلك فإنهم يتخندقون في خندق البروليتاريا مثل جميع المثقفين. لكنهم يواجهون الرثاثة بالرثاثة والجهل بالجهل، خاضعين في ذلك إلى ضرورات الحرب، أي أنهم يستخدمون سلاح العدو نفسه، هذا كل ما في الأمر.

ـ ألهذا يشمئز ولدك من الشعر؟

ـ نعم، لا بد أن الأمر كذلك. ألا يقولون إنه لن تبقى حاجة إلى الشعراء حينما تتحقق الثورة؟ إن الشباب قد أبعدوا الكتاب من الآن واتجهوا إلى نوع من الوحدة.

ضرب فهمي غولمز كأسه بكأس صديقه وقال:

ـ أهنئك على منطقك.

ـ شكرا لك، أجابه رسول، ابتسم بسرور وسكب الكأس في جوفه.

لقد لاحظ السخرية المتضمنة في النخب الذي رفعه صديقه، لكنه لم يهتم بذلك. فقد استفاد من النقاش الذي خاضه معه بأن اهتدى أخيرا إلى التفسير الذي كان يبحث عنه: التاريخ يتقدم، والثوري يقاتل بأسلحة عصره، فيواجه العنف بالعنف، والجهل

بالجهل. تلقى فهمي غولمز نداء هاتفيا جديدا، فقطع المسامرة واستعد للانصراف، فقال له رسول بأنه سيسلك الطريق نفسه، ابتسم فهمي غولمز وسأله:

- لقد تجاوزت الستين يا صديقي، هل بوسعك أن تقتفي أثر شاب في الثانية والعشرين؟

- نعم، أستطيع.

وكرر الكلمتين بعد انصراف صديقه، عندما عاد إلى الطاولة وأمسك بكأسه: «نعم، أستطيع».

لا يعرف كيف، لكنه ربى ناظم وأوصله إلى ما هو عليه الآن، أي أنه كان رائدا يتقدم ناظم ويقوده، بوسعه إذن أن يقتفي أثره أيضا. وإذا كان لم يفهم ناظم حتى لحظة اعتقاله، فسبب ذلك هو تمويه ناظم وتكتمه الشديدين. أما الآن فيما أنه عرف كل شيء، وفهم المنهج ومسدسات ناظم بحوزته: لن يصعب عليه إذن أن يسير في أعقاب ناظم. نهض بثبات عن الطاولة كأنه سيخطو الخطوة الأولى فورا، حمل كيس البلاستيك الذي وراء الباب وانتقل إلى غرفة ناظم. وضع المسدسين والبيجاما وكروزي المارلبورو على طاولة ناظم. وعلى الرغم من أنه يرتاح أكثر في تدخين الصمصون الذي جلبه فهمي غولمز، فإنه أشعل سيجارة مارلبورو. ابتسم عندما فكر بأنه يعيش على ما تركه ناظم منذ يومين: السجائر من ناظم، الإيمان من ناظم، والقتال من ناظم. وإذا حدث وتم اعتقاله في هذه الأيام، فسيكون ذلك بسبب ناظم بلا شك. جلس أمام الخزانة كما لو أنه يريد إظهار حبه لناظم، وراح يرتب قمصانه وثيابه الداخلية في الجوارير. فكر مرة أخرى

بأنه لم ير قط كل هذا العدد من القمصان والسراويل والقمصان الداخلية معا. لكن الوفرة سرته هذه المرة، فقد رأى في تلك الملابس عتاد الحرب الثورية أكثر من كونها مظاهر للبرجزة.

بعد أن رتب كل شيء في مكانه جلس على سرير ناظم وأشعل سيجارة تعب. أدار عينيه حوله بابتهاج وقال لنفسه: «تبدو الغرفة الآن أكثر ترتيبا. ولكن يا للغرابة، ليس ثمة كتاب واحد في هذه الغرفة الكبيرة! عدد من مجلات الهندسة المعمارية ورسالة، هذا كل ما هنالك. ولكن ما الذي بإمكاني أن أقوله ما دام هذا ضرورة من ضرورات التاريخ!». ثم تذكر فجأة الكتب التي يعرضها التلفزيون كل مساء بين الأسلحة وطلقات الرصاص، فجعَّد وجهه وظل كذلك فترة، لكنه ما لبث أن ابتسم مجددا: إذا استثنينا الكراريس النضالية المكونة من عشرين أو ثلاثين صفحة، فإن تلك الكتب كتب قديمة جدا، كتب طبعت منذ وقت طويل جدا. هذا يعني أن رجال الشرطة الذين يعيشون خارج العصر يعرضون تلك الكتب إما لأنهم ما زالوا يعتقدون أن الكتب يمكن أن تضر بالناس، وإما لأنهم يجمعون إلى أسلحة الشباب كتب أهاليهم فيصادرونها معا.

مهما يكن الأمر فإن موقف ناظم وحده يظهر لنا أن الكتاب لا مكان له تقريبا في دكتاتورية البروليتاريا، والأفضل من ذلك أن الثورة أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

ولا شيء في هذا يدعو إلى الدهشة: بما أن الخاصية الأساسية التي تجعل الأدب والعلم علما أدبا وهي واقعيتها النقدية، وبما أن الجنة الأرضية التي ستأتي بها الثورة

البروليتارية لن تنطوي على أي شيء يمكن انتقاده، فما الذي سيفعله الناس بالشاعر والمفكر وبالتالي بالكتاب؟ لعل الرسام والنحات سيستمران في تجميل الحياة، بطريقة مختلفة عن اليوم، باعتبارهما عاملين خاصة وقبل كل شيء، لكن الشاعر، كاحتمال مرجح، سوف يتخلى عن القلم ويضيع بين العمال بحيث لا يظهر بعد ذلك أبدا. رمش رسول بعينيه وقال: «من يدري؟» من يدري، فربما كونه شاعرا فهو منسي منذ وقت طويل، هو حتمية لا مفر منها من حتميات المعاصرة، وبرهانا على تقدم التاريخ الثابت باتجاه الثورة وعلى اقتراب هذه الثورة كثيرا.

وقف فجأة وتعرى بسرعة غير متوقعة ممن في عمره، ارتدى بيجامة ناظم، ثم نظر مطولا إلى صورته المنعكسة في مرآة ناظم الكبيرة، شعر بالتماهي مع ناظم، دس المسدسين تحت وسادة ناظم، اندس في فراش ناظم وأطفأ الضوء. لكن النوم جافاه وهو يبني أحلاما ثورية ربما بتأثير من سرير ناظم وبيجامته ومسدسيه: يساعد ناظم على الفرار من «الزنزانة» ثم يشابك ذراعه في ذراع ناظم، يتقدمان جمهورا كبيرا وحماسيا وهما يحملان المسدسات والرايات، وتعلو هتافات «تحيا الثورة!» وهو يداعب خدود الأطفال ويربت على أكتاف المسنين ويدوي صوته بخطابات نارية لا يقلب فيها أحرف الراء إلى غين، ويبشر فيها بقرب انتهاء الحرب. لكن المشاهد شحبت باطراد حتى امحت تماما. قال لنفسه: «طبعا. فلا مجال لخوض حرب بمسدسين» جلس في الفراش وأشعل الضوء، ثم ذهب إلى الهاتف بقدميه الحافيتين وأدار أكثر رقم يديره منذ دخول الهاتف البيت، ألا وهو

رقم بائع الكتب في سوق الكتب. رد عليه صوت بائع الكتب:

- ألو، من تكون وماذا تريد؟

- أنا رحمي.

- أي رحمي؟

- رحمي سونمز، أي رسول.

- نعم، فهمت. حسنا، هل تعرف كم هي الساعة؟

- كلا، لا أعرف.

- اعرف إذن: إنها الثالثة والربع.

- أردت أن أقول لك شيئا.

- وما هو؟

- قررت أن أبيع الكتب.

- فهمت. سبق وقلت لك إني أشتريها بمليون.

- كان هذا قديما. الآن ارتفع سعر كل شيء.

- لنقل مليون ونصف المليون، أيناسبك؟

- حسنا، لكني أريد المبلغ نقدا.

- نقدا.

- أنتظرك في التاسعة والنصف من صباح الغد كحد أقصى.

- ولِمَ العجلة؟

- حسنا، لنقل في العاشرة.

- حسنا، اتفقنا. تصبح على خير.

- تصبح على خير.

بعد أن وضع سماعة الهاتف مكانها شعر بجفنيه يتثاقلان بفعل نعاس لذيذ. قال لنفسه: «لكل شيء أوانه، لأن كل شيء هو

داخل التاريخ» وتابع يقول: «ما خطر في بالي قط أنه يمكن أن أستعيد شبابي مجددا بعد هذا العمر، ولكن هأنا أفعل. بل إني أكثر شبابا مما كنت عليه أيام شبابي: إني أفكر بكل شيء، ثم أضع ما أفكر به موضع التطبيق فورا. حياتي حركة مستمرة: منذ أيام وأنا لم أفتح التلفزيون مرة واحدة. يذهب بي الظن أن ناظم يوجهني عن بعد».

أطفأ الضوء واندس في فراش ناظم، أسند رأسه إلى وسادة ناظم وغفا وهو يتنشق رائحة ناظم.



- ٤ -

عندما مد إليه بائع الكتب رزمة من الأوراق النقدية الخضراء من فئة العشرة آلاف وقال له: «مليون ونصف المليون تماما. عدها أنت أيضا!»، ترنح رسول كمن تلقى لكمة غير متوقعة، اتكأ على الجدار وراحت عيناه تتنقلان ما بين رزمة الأوراق النقدية في يده، وصفوف الكتب وأكوام المجلات على الأرض. شعر بشيء يتقطع في أحشائه. لا شك أنه يتذكر ما قاله لبائع الكتب على الهاتف، كان واعيا بضرورة بيع هذه الكتب، فضلا عن أنه من المؤكد أنه لم يعد متعلقا كثيرا بكتبه ومجلاته منذ الوقت الذي اتصل فيه ببائع الكتب. ومع ذلك فثمة شيء مزعج حتى في اختلال التوازن الحجمي ما بين هذه الرزمة الصغيرة التي يمكن إمساكها بيد واحدة، وأكوام الكتب والمجلات التي تملأ أرجاء البيت، والتي يحكي كل منها حكاية مختلفة. ثم إن تلك المجلات المتحمسة التي صدر من كل منها عدد أو عددان أو أربعة أعداد ثم توقفت، ودواوين الشعر وكتب القصص وذكريات السجون والتعذيب، بدت له دوما، على رفوف المكتبة - حتى حينما لا يفتحها أحد - كما لو أنها تأخذ قسطا من الراحة في عالم الخلود؛ أما الآن بعد أن أنزلت من أماكنها، فهي تذكر بجنود الثورة القدماء وقد قيدت أيديهم وراء ظهورهم وصفوا بمحاذاة جدار استعدادا لرميهم بالرصاص.

مهما يكن الأمر فقد أحس بأن ثمة خطأ ما في هذا العمل، من الثقل الشديد الذي ناخ على صدره. حثه الكتبي على عد النقود، فخشي رسول أن يداهمه بكاء كالأطفال أو أن يقترف

جنونا من مثل إلقاء النقود التي في يده داخل المدفأة المشتعلة. ركض إلى غرفة ناظم دون أن يتفوه بكلمة وأغلق على نفسه الباب، ألقى بالنقود فوق المنضدة وبنفسه فوق السرير.

زال الثقل عن صدره بتأثير - ولا بد - من وجود ناظم المبثوث في كل شيء هنا. فكر أنه قد بالغ كثيرا في مشاعره وأنه وقع أسير عاطفة بفعل غريزة بورجوازية تماهي الملكية مع الروح، فشعر بالخجل من نفسه: كان عليه أن يتخلص منذ وقت طويل من هذا النوع من الغرائز وهو الثوري منذ أربعين عاما! فضلا عن ذلك فهو أولا بحاجة لثمن هذه الكتب من أجل الثورة، وثانيا عليه ألا يحزن لتخليه عن الكتب بما أن الثوري ما عاد بحاجة إليها كما تؤكِد ذلك حياة ناظم، بل إن البورجوازيين بدورهم حذوا في هذا حذو الثوريين. نهض وذهب إلى الكتبي وعلى وجهه ابتسامة غامضة بدلا من الحزن والدهشة. رازه الكتبي من رأسه حتى قدميه كما فعل أكثر من مرة منذ دخل البيت وقال له:

- بيجامتك متميزة جدا.

تظاهر رسول بأنه لم يسمع:

- أليس بك فضول لمعرفة سبب بيعي لكتبي؟

- بلى، تساءلت كثيرا، لكني لم أهتدِ إلى جواب. قل لي إذن، هل هو الخوف من حالة الطوارئ؟

عاد رسول يبتسم تلك الابتسامة الغامضة، أجاب قائلا:

- لا يا صديقي، أنا رحمي سونمز، لم أقع أبدا أسيرا لمخاوف من هذا النوع. لم أقم أبدا بإخفاء كتبي أو إحراقها. وكما بقيت يساريا على الدوام، كذلك بقيت كتبي في أماكنها.

ـ لِمَ تبيعها إذن؟ هل أنت في ضائقة شديدة؟

ـ لست في ضائقة، بل أبيعها لأن الكتاب أصبح جزءا من التاريخ، وابتسم ثانية مثل أولئك الذين يعرفون سر كل شيء، لقد بين لنا الشبان الثوريون أن المستقبل يمكن بناؤه دون حاجة إلى الكتب. على المرء أن يعرف كيف يساير العصر.

نظر إليه الكتبي بدهشة، لم يستوعب أن يتفوه مهووس مزمن بالكتب بهذا الكلام، فكر قليلا ثم قال:

ـ لعلك على حق. لقد أصبحت هواية اقتناء الكتب مثل هواية تربية الحمام: فبقدر ما يبدو كش الحمام في مدينة تعد عشرة ملايين نسمة، حماقة، كذلك يبدو اقتناء الكتب. لذلك بإمكانك أن ترى أنك بعت كتبك بسعر ممتاز. وللسبب نفسه إذا كان ثمة كتب أثيرة لديك فبوسعك أن تستعيدها.

شكره رسول: وعلى الرغم من انتهائه من قصة الكتب بصورة كاملة، فإنه قال إنه يريد الاحتفاظ بكتاب «مشاهد إنسانية من بلادي» بطبعتها ذات الحجم الكبير، رغبة منه في الاحتفاظ بذكرى من الأيام الخوالي، وفي التأكيد على عدم خوفه من وجود كتب يسارية في بيته. اهتدى إليه فورا بين أكوام الكتب وأخذه، ثم التقط صور فريدة وماركس ولينين، وأخذ الجميع إلى غرفة ناظم كما لو أن كل الغرف الأخرى والأشياء الأخرى في البيت لم تعد عناصر في حياته. ثم عاد وجلس على مقعد، أشعل سيجارة مارلبورو وراح يراقب الشابين اللذين جاءا بصحبة الكتبي وهما ينقلان الكتب في رزم من عشرين أو ثلاثين كتابا إلى الشاحنة الواقفة عند الباب، ولا يتنازلان ليلتفتا إذا وقع منهما كتاب أثناء

النقل، تلك الكتب التي طالما أزال عنها الغبار وأعادها إلى أماكنها مرارا، وقضى في قراءة كل منها ساعات، ويعرف مكان كل منها بعينين مغمضتين. الغريب في الأمر أن هذا لم يسبب له أي ألم، وأنه راقب نقلهم للكتب بلا مبالاة كمن يراقب حدثا لا صلة له به، بل حدثا خياليا. في هذه الأثناء وصل الدور إلى كتب ناظم حكمت، فقفز الكتبي من مكانه وقال للشابين: «ضعوا هذه الكتب في الأسفل يا شباب، فربما أوقفونا في الطريق وقاموا بتفتيش، لا نريد أن نتورط في مشكلة!» فلم يتمالك رسول نفسه من الضحك، وكذلك فعل أحد الشابين قائلا:

- هذه الكتب كلها خطرة يا معلم، فأيا منها نضع في الأسفل؟

هدر المعلم وهو يضرب بقدمه الأرض:

- أأنت معي أم مع قناصي الكتب ولاك!

ضحكوا جميعا. تابع الشابان نقل الكتب بدأب النمل وبسرعة مدوخة. ابتهج رسول لانتهاء عملية النقل كأن بداية النشاط الثوري مرتبطة بخروج آخر كتاب من البيت. في تلك اللحظة اقترب منه أحد الشابين وقال له:

- أتبيعني يا عم هذه الحدوة المعلقة فوق باب بيتك؟ سوف يكون من المناسب جدا تعليقها تحت مرآة شاحنتي.

بهت رسول وسأله:

- أي مرآة؟ أي حدوة؟

- الحدوة المعلقة فوق باب البيت الخارجي.

- ليس فوق باب بيتي حدوة أو ما شابه، ولا كان ذلك في أي وقت.

ـ وكيف ذلك يا عم! تعال لترى إن شئت.

خرج رسول برفقة الشاب ببيجامته الكثيرة الألوان التي تحمل على صدرها عبارة United States/ Outsiders ورأى فوق إطار الباب المسود حدوة صغيرة جدا وصدئة يخيل لمن يراها أنها حدوة مهر لم يولد بعد، على الرغم من كونها تبدو جزءا عضويا من الإطار. شعر في وقت واحد بالدهشة والتأثر: منذ طفولته لم يدرك وجود هذه الحدوة، أما الآن وقد أدرك وجودها، فقد وجدها جميلة وتحرك فيه شعورا بأنها تحمل معنى البيت ـ بيت أبيه. لكنه ما لبث أن فكر بأنها ترمز إلى قيمة من قيم البورجوازية التي من المفترض أنها أصبحت في خبر كان منذ وقت طويل، أما تأثره برؤيتها فيدل على وجود رواسب بورجوازية في شخصيته. في هذه اللحظة التي يستعد فيها لخطوة كبيرة، عليه أن يبتعد عن العاطفية دامعة العينين. قال للفتى:

ـ خذها، إنها لك!

صعد الفتى على أحد الكراسي وانتزع الحدوة في غمضة عين. ابتسم الكتبي ومد يده يريد أن يصافح رسول، لكنه تراجع عن ذلك حين رأى يديه مسودتين من الغبار، رفع نفسه على أطراف أصابع قدميه وقبله من خديه: «هيا إلى اللقاء يا عزيزي رسول، أتمنى لك التوفيق في حياتك الخالية من الكتب». واكتفى رسول بالرد: «مع السلامة!». حين رأى الشاحنة تبتعد ببطء خيل إليه أن الكتب وصديقه الكتبي ومساعديه إنما يتجهون نحو زمان آخر وليس إلى مكان آخر. تنفس بعمق مرتاحا إلى البقاء في زمانه الخاص.

كانت الرفوف الفارغة ومواقع الكتب ظاهرة عليها، تبعث على الحزن، لكن هذا الفراغ هو قبل كل شيء علامة التكافؤ الناشئ بينه وبين ناظم.

دخل غرفة ناظم، نظر إلى النقود فوق المنضدة وإلى فوهتي المسدسين البارزتين من تحت الوسادة، فرك يديه وقال: «كل شيء أصبح جاهزا الآن. إذا لم نشأ لناظم أن ينتظر أكثر، أي إذا لم نشأ تأخير الثورة أكثر، علينا أن نبدأ العمل فورا. نعم فورا؟» تقدم بخطوات قوية وواثقة من خزانة ناظم وفتحها، نظر بإعجاب إلى السترات والمعاطف والفلدات والصديريات والقمصان والبنطالات من كل لون ومقاس المعلقة على المشاجب جنبا إلى جنب. جاس بيده فوق ربطات العنق الرفيعة مثل خيط والمعلقة على حبل ثخين مثبت على الباب الأيسر للخزانة من الداخل، قال كأنه يرد على سؤال لم يسمعه أحدٌ غيره: «أجل يا صديقي، أجل، أجل، أجل». ثم خلع بيجامته بحركة مفاجئة وألقى بها فوق السرير، اختار من بين القمصان الكثيرة جدا واحدا ذا لون وردي فاتح باستثناء ياقته الصغيرة البيضاء، ارتداه فوق قميصه الداخلي، واختار من بين ربطات العنق التي تشبه برفعها رباطات الأحذية، الأشد حمرة وعلقها على عنقه، واختار بعد بحث ومقارنات طويلة، بنطالا أسود فضفاضا من الأعلى مثل سراويل الفلاحين وضيقا جدا عند الفتحتين، وسترة كبيرة جدا بلون القهوة بالحليب مقلمة بخطوط برتقالية رفيعة وعريضة بالتناوب وقد كتب تحت الشعار الموشى فوق جيب المنديل الصغير Indiana University،

وزوجا من الجرابات البيضاء وزوجا من الأحذية من طراز «الموكاسن» ذات الرأس المدبب، وقبعة كحلية من طراز لينين. انتهى من ارتدائها ووقف أمام المرآة ونظر إلى صورته. هذه القبعة من طراز لينين وهذه السترة الفضفاضة جدا والطويلة جدا، وهذا البنطال العجيب، وهذا الزوج من أحذية الموكاسن الذي يذكِر بالأحرى بخف نسائي، لم تغيِر من هيئته فحسب، بل غيرت له جلده، فشعر بأنه استعاد الشباب والحيوية فجأة وتحول إلى ناظم ثان. بالثقة المستمدة من شعوره هذا دس ثمن كتبه في الجيب الداخلي الأيمن للسترة ذات الخطوط البرتقالية، سحب المسدس الصغير من تحت الوسادة، لقم رصاصة ثم دسَّه في جيبه الداخلي الأيسر. نظر مرة أخرى في المرآة وقال كما لو كان يجيب عن سؤال في عيني رجل المرآة ذي اللحية البيضاء والقبعة اللينينية: «نحن مرغمون على مواجهة البورجوازية بأسلحتها الخاصة». ثم فتح الحقيبة السامسونايت التي دأب ناظم على حملها كل يوم مثل النساء قبل شرائه سيارته الموستانغ، ووضع فيها المسدس الكبير وألقى فوقه كيفما اتفق عددا من القمصان والثياب الداخلية والجوارب والمناديل، وفوق الجميع وضع كتاب: «مشاهد إنسانية من بلادي»، وأغلق الحقيبة. ارتدى معطف ناظم المطري الكحلي الواسع الذي يشبه عباءة وعلق حقيبة السامسونايت على كتفه واتجه بخطوات واثقة إلى الباب، قال بصوت مرتفع كأن ثمة من يتبعه: «بوسعنا الخروج الآن». نتيجة لتمكنه من أن يضع موضع التطبيق كل ما يخطر في

باله على الفور، خرج وهو يفكر أن كل شيء يتقدم بسرعة، وأنه ليس ثمة قوة قادرة على منعه من الآن فصاعدا من التحرك بسرعة باتجاه حل جميع المشكلات، بدءا بإنقاذ ناظم وانتهاء بالثورة البروليتارية. كان الثلج يهطل مجددا. خفض قبعته اللينينية حتى عينيه ورفع ياقة معطفه المطري ودس يديه في جيبيه، مشى بسرعة كأنه يمشي بساقي ناظم، وزاد من سرعته أمام القسم، هبط المنحدر كأنه يتدحرج.

كانت السرعة تمنحه الثقة وتنعش قلبه بشعور بالارتياح. ثم انتبه إلى أنه في سوق أسكدار واقفا بلا حراك أمام المحل الذي شارك فيه أباه في طرق التوتياء إبان صباه، ينظر إلى القمصان المعروضة في واجهته، ارتعش كل جسده وقال لنفسه: «ما الذي يحدث؟ ثمة خطأ في هذا». ومرة أخرى طبق فورا ما خطر في باله فأوقف سيارة أجرة، فتح بابها وألقى بنفسه داخلها.

انتظر السائق برهة بصمت، وإذ لم يأته أي صوت من زبونه، نظر إليه من خلال المرآة الداخلية. لم ير أي معنى في ارتداء رجل بهذه الشيخوخة لملابس متأنق عشريني، فكر بأنه قد يكون دون جوان عجوزا أو شاذا، كائنا من كان فهو شخص مخالف للمألوف. لكن أكثر ما فيه مخالفة للمألوف هو جلوسه داخل السيارة صامتا وهو يحدق في نقطة بعيدة. سأله:

- إلى أين نحن ذاهبان يا جدي؟

أجفل رسول:

- نعم؟ ماذا قلت؟

- سألتك أين سنذهب؟

ـ هه، نعم، قال رسول ثم وضع موضع التطبيق ما خطر في باله على الفور فسمى له المقبرة التي ترقد فيها فريدة.

أقلع السائق بالسيارة، لكنه رأى في ذهاب رسول إلى المقبرة شذوذا آخر عن المألوف:

ـ وما الذي ستفعله في المقبرة في مثل هذا الجو يا جدي، هل رأيتها في منامك؟

لم يرد رسول، لكنه قال بعد بضع دقائق:

ـ سيدي السائق، ألا يمكنك أن تسرع أكثر؟

ـ لماذا؟ هل أنت في عجلة؟

ـ نعم، أنا في عجلة.

ـ ولِمَ؟ فلا خوف من تخلفك عن موعد حيث تذهب.

ـ قد يكون.

ـ ليس قد يكون، بل هو هكذا: يدا المنتظر مكبلتان.

ـ هل سأقدم لك الحساب لأنني أريد الوصول بسرعة إلى قبر زوجتي؟

قال ذلك واستند إلى مسند المقعد ورتب قبعته اللينينية. فكر بأنه لا ينبغي إفساح المجال لسائقي التاكسي في النظام الاشتراكي الذي سيبنى لأنهم يرهبون الناس بدسِّهم لأنوفهم في كل شيء. قال لنفسه: «أسمِّي هذا بالفاشية. لقد كفت الفاشية عن كونها مجموعة تعاليم سياسية، وبدأت تتسرب إلى أصغر تصرفات الناس وأكثر أحاديثهم عادية، وأفضل من يطبقها هم الطبقة الرثة». نظر بطرف عينه إلى كتفي السائق ورقبته وشعره الجعد والدهني، بحث عن كلام مناسب للتعبير عن فكرته، لكن

جملة تروق له لم تخطر في ذهنه. أوقف السائق السيارة وقال له: «استيقظ يا جدي. وصلنا إلى مقبرتك» فلم يجد ردا عليه إلا في القول: «إن الفاشية تقوم على أيدي الطبقة الرثة».

ترجل من السيارة، وتوجه إلى مدخل المقبرة. ناداه السائق:

- أين أجرتنا يا جدي؟

توقف رسول، بحث عن محفظته في جيوب ناظم، فتبين أنه لا يحملها. لوهلة لم يعرف كيف يتصرف، لكنه تذكر رزمة المليون ونصف المليون التي أخذها من الكتبي، استل منها ورقة من فئة عشرة آلاف مدها إلى السائق الذي ينظر إليه نظرة سخرية.

- أليس معك قطعة صغيرة؟ من الذي سيصرف لي ورقة العشرة آلاف في هذا المكان الخالي من الناس!

آثر رسول أن ينهي الموضوع بسرعة:

- حسنا، دع الباقي معك.

- أهذا معقول يا عم؟ إنها عشرة آلاف ليرة. هل تريدني أن أنتظرك هنا كي تعود معي؟

- حسنا، حسنا، لا داعي! أنا لم أنطلق كي أعود!

هكذا بت في الأمر ودخل المقبرة بخطوات واثقة.

على العكس من الشوارع، كانت المقبرة مغطاة بثلج مائع وقذر. حينما وضع قدمه غاصت بعمق أربعة أصابع ثم خلفت أثرا بلون الوحل الأحمر. وهكذا غرق في الوحل منذ الخطوات الأولى، ليس فقط زوج أحذية ناظم من نوع الموكاسن، بل ساقا بنطاله أيضا، لكنه لم ينتبه إلى ذلك ولا اكترث للبرد الرطب الذي أحاط بقدميه. كان يحدث فيما مضى أن يعود من باب المقبرة قبل أن يدخلها، خوفا من

أن يفكر في ابنته أو حفيده فوق قبر فريدة فيسبب الألم لعظامها. في حين أنه قادم إليها هذه المرة وقد تماهى مع حفيده الذي تأكدت ثوريته بالبرهان القاطع، وقرر بشكل حاسم أن يخوض المعركة. وكما يفعل دائما وقف عند قدمي فريدة، فخورا هذه المرة بملبسه ملبس الثوري الشاب، سعل كأنه يريد إعلامها بوصوله، ثم جثا عند أسفل القبر وفي خياله صور ناظم التي نشرتها الجرائد وقال: «فريدة، سأواصل العمل الثوري من حيث تركه ناظم، بل سأقوم بما هو أفضل، إذ إنني لا أنوي الاكتفاء بالعمليات الفردية. لهذا السبب بعت كل الكتب، أي - كما تعرفين - أحرقت كل سفني». سكت وانتظر موافقة أو جوابا وعيناه تحدقان في القبر الذي يغطيه الثلج. لكنه لم يحصل على موافقة ولا على رد؛ بل حدث العكس: تشكل في أناه سؤال لم يعرف إن كان صادرا من فريدة أو منه هو: كيف؟

«وكيف تريد للأمر أن يكون؟» قال لنفسه، وشعر أن وجهه احمر. فقد تحدث كما لو كان للسؤال جواب واحد، أي كأنه يعرف كيف سيبدأ العملية وكيف سيحققها، وكما لو أن فريدة لا بد أن تعرف مثله، لكنه الآن أمام فريدة يحس بأنه لا يعرف كيف سيبدأ العملية ومتى ومع من. وكمن ينتظر الجواب منها كرر يقول: «وكيف تريده أن يكون؟» ظهر أمام عينيه عدد من الفرسان يعتمرون القلبق(*)، ثم رأى أنه بينما كان ينطلق بسرعة السهم فوق حصان أحمر معتمرا قبعة ناظم، مرتديا ملابس ناظم، وفي يده مسدس ناظم، يتلقى فجأة رصاصة في منتصف جبينه فيسقط فوق الثلج. تنهد وفكر أن دفنه هنا إلى جانب فريدة بعد أن

(*) القلبق عمرة روسية.

يصاب في جبينه ويموت، يستحق كل ما يعانيه من عناء. نظر حوله بعينين متفحصتين دون أن تساوره أدنى رعشة. لقد امتلأ ما حول فريدة بالغرباء، ويرجح أنهم من البورجوازيين، لم يتركوا له أي مكان. عدم رقوده بجوار فريدة، وكذلك بقاؤها بين هؤلاء البورجوازيين. خطأ ينبغي تقويمه. وبما أنه ليس واردا إخراج كل هؤلاء الموتى من قبورهم، لا يبقى إلا حل وحيد: نقل فريدة من هنا وتأمين دفنها في مقبرة ثورية ينبغي إحداثها. لوهلة منحته هذه الفكرة شيئا من الراحة. لكنه عندما تخيل تحقق فكرته أحس فجأة بأن جسده يتناثر مثل كومة عظام داخل كفن مصفر ومهترئ، حاول أن يمسك بشاهد قبر فريدة، وأمسك به فعلا، لكنه في اللحظة نفسها تقريبا انهار مثل كومة عظام عند أسفل القبر.

بعد ذلك بكثير، عندما كان حارس المقبرة الأسمر الناحل يمسك به من تحت إبطيه ويحاول رفعه، كان رسول يتطلع بعينين زائغتين وهدير مرعب يملأ كيانه، عاجزا عن التمييز بين جسده وجسد الحارس، وبين حركاته وحركات الحارس. تقدم فترة مستندا إلى الحارس، مجرجرا قدميه، ثم توقف فجأة وقال له:

- ما الذي يحدث وإلى أين تأخذني؟ لا يحق لك ذلك.

- وإلى أين سآخذك؟ إلى مقصورتي حيث بإمكانك أن تنال الدفء وتستعيد وعيك. وننظف ثيابك أيضا.

على الرغم من ليونة الجواب فقد أخاف رسول، تخيل مكانا للاستجواب والتعذيب داخل المقبرة. هؤلاء الناس يمكن أن يفعلوا أي شيء:

ـ منذ متى يسمى قسم الشرطة مقصورة؟

بُهتَ حارس المقبرة، وشعر بالظلم أن يخلط الرجل بينه وبين حرسِ الشرطة، في حين يعرفه هو جيدا، لكنه كان ميالا للتسامح معه لأنه ذلك الرجل الذي نفحه كثيرا من النقود. لا بد أنه لا يعرف ما يقول، ويرى بصورة مشوشة. لم يجد حتى ضرورة للرد عليه، أطبق بقوة على خصره واقتاده إلى مقصورته. جر كرسيا خشبيا اسود من القذارة، إلى منتصف المقصورة حيث يشتعل حطب داخل مدفأة صفيح، ودعاه للجلوس.

جلس دون أدنى مقاومة، وإذ رأى إبريق الشاي يغلي فوق المدفأة الصفيح لم يبق لديه أدنى شك في أنه اقتيد إلى قسم الشرطة. كان قد برد إلى درجة امتدت فيها يداه بصورة غرزية نحو المدفأة. عندما اقترح عليه حارس المقبرة أن يخلع ثيابه لتجفيفها، فاستند على ركبتيه ونهض، لم ير مانعا في خلع معطفه المطري. لكنه حين قال له الحارس: «اخلع الحذاء أيضا، فهو غارق في الوحل»، رفض قائلا: «لا، لا يجوز» وفي ذهنه أنهم يريدون بذلك منعه من الفرار، أضاف قائلا: «لا يجوز قطعا!». لكن الحارس بدا مصمما للغاية: «وما الذي لا يجوز؟»، قال ذلك وهو ينتزع زوجي الموكاسن ثم زوجي الجوارب، ولمس أطراف البنطال وقال: «إذا عصرته سيخرج منه ماء!». رفع رأسه: «هيا يا جدي لنخلع البنطال ونجففه جيدا». لا بد أن تجريد المرء من ثيابه بالتدريج هو طريقة الفاشيين الجديدة في التقييد، أما التصرف مع الثوريين الذين يقعون في أيديهم بهذه النعومة والبشاشة، والتظاهر بتقديم يد العون لهم، فهو أحدث وسيلة تعذيب بلغت

الحدود القصوى للسخرية. أراد رسول أن ينتفض ويقاوم على الرغم من الهدير في دماغه والشلل في جسده: «لا! لا!». لكن الرجل لم يكترث، استمر في ابتسامه وهو يدور حوله ويتكلم، يرخي له نطاق بنطاله، يمسك به من كتفيه ويرفعه، يخلع بنطاله. وما أسرع ما فعل كل ذلك، ورسول يشعر بدوار رهيب، ثم حين بقي في سرواله الداخلي فقط، اجتاحته رعشة شديدة فتمسك بعدوه الباسم أمامه حتى لا يقع على الأرض.

طلب منه العدو أن يجلس، غطى ركبتيه ببطانية عتيقة، وأدخل قدميه في زوج من القباقيب جاء به من عند العتبة، ثم صب له كأسا من الشاي وضعه في يده. بدأ رسول يشرب الشاي بسرعة وشراهة دون أن ينسى أنه من العدو. غير أن ارتخاء لا سبيل لمقاومته استبد به منذ رشفاته الأولى من كأس الشاي، ولم يعد قادرا على رؤية الرجل الذي أمامه والموضوعات من حوله بوضوح. تحطمت مقاومته أخيرا واستسلم. الضجيج الصادر عن كأس الشاي الفارغة التي انزلقت من يده وتحطمت على الأرض، ونداء الحارس: «يا جدي، يا جدي!» بالكاد تجاوزا حدود وعيه. ثم أحس بأنه يجرجر وقد أمسك به من تحت إبطيه، ففتح عينيه بمجهود أخير وتأتأ يقول: «إذن وضعتم في الشاي...؟» ولم يتمكن من إتمام جملته. وبعد أن مدد في سرير ما وغطي بغطاء، داهمته رائحة ثقيلة ونتنة فحاول النهوض هربا منها، لكن رأسه سقطت مجددا فوق الوسادة. أهذا تابوتٌ أم زنزانة تابوتية؟ هكذا تساءل ثم امحى كل شيء مرة أخرى.

حين فتح عينيه بعد ساعة أو ساعتين ورأى فوقه تماما مصباحا عاريا ظن أنه بين يدي العدو داخل زنزانة، تفقد جسده خفية: يداه غير مقيدتين، ولا يزال المسدس الصغير في جيب سترته الداخلي. خفق قلبه بفرح: مرة أخرى قصر العدو في عمله، وهذا يعني أن ثمة أملا في النجاة: «تررررن! / تررررن!/ تررررن!!!!../ أطلقت ثلاث طلقات»: يباغت الحراس وينهارون على الأرض مثل أكياس قنب فارغة، وينصرف هو بيديه الطليقتين. بيده اليمنى سحب المسدس من جيبه الأيسر الداخلي، وهو يتظاهر بأنه يتقلب في نومه، حرر مسمار الأمان، انتظر فترة بلا حراك، ثم استقام بسرعة مستندا على يده اليسرى. لو أن مدنيا أو عسكريا ظهر أمامه في تلك اللحظة، من المحتمل جدا أن ثلاث رصاصات كانت انطلقت من المسدس. غير أن جدارا كان ينتصب أمامه وقد علقت في أعلاه حافظة مصحف خضراء، تحتها صورة ملونة لفريق كرة قدم مقصوصة من جريدة، أحاطت بها من اليمين واليسار والأسفل صور لنساء مقصوصة أيضا من الجرائد. علقت على الجدران الأخرى بواسطة مسامير من كل الأحجام مناشف وخِرق للتنظيف وثياب داخلية وجوارب وقمصان وسترات وبنطالات. رأى رسول بينها بنطاله ومعطفه المطري وقد نظفا جيدا. ثم تفحص ما حوله بدقة، فرأى إبريقا يغلي فوق المدفأة، وزوج الموكاسن خاصته قريبها وقد نظف من الوحل العالق به، وزوج جواربه معلقا على مسند كرسي خشبي قذر، وحقيبته تحت السرير وكل سحاباتها مغلقة، فأعاد المسدس إلى جيبه. لكنه لم يصل إلى يقين راسخ بخصوص المكان الذي يحتويه.

في تلك اللحظة سمع صوت ماء، ثم رأى الباب الضيق والمنخفض يفتح ليدخل منه رجل داكن البشرة عريض الكتفين يعطي انطباعا باختلال التوازن ما بين شاربيه الأسودين الكبيرين وقامته المفرطة في القصر. امحت كل شكوكه بخصوص المكان. ابتسم لحارس المقبرة. أما هذا فقد رد على ابتسامته بصرخة ابتهاج:

- مرحى! أنت بخير أيها الجد. ها قد عاد إلى وجهك لونه بعد النوم. لقد أخفتني كثيرا. أي حال كانت حالك؟! كنت تتهاوى على الأرض. ترى هل بردت كثيرا؟ أتشرب كأسا من الشاي؟

ابتسم رسول ثانية وهو يجيب:

- نعم والله أشرب.

من الإبريق الذي يقرقر فوق المدفأة سكب الحارس الشاي في كأس مزينة بخطوط حمراء. وضع الكأس فوق الكرسي وأضاف إليها أربع ملاعق صغيرة من السكر الناعم حركه بنفسه، ثم مد الكأس لرسول. من غير الجائز أن نقول إن الشاي كان طيب المذاق، كان يفوح بالأحرى برائحة أعشاب، كما كان حلوا بإفراط. ومع ذلك شعر رسول بلذة تستعصي على التعبير والجرعة الأولى تنزلق ساخنة في جوفه. أخرج علبة المارلبورو من جيبه وأشعل سيجارة ومد أخرى إلى الحارس. وإذ انضافت نكهة السيجارة إلى لذة الشاي اجتاحه إحساس بالراحة والأمان. هبط عليه شيطان الشعر، ففكر: «يومي الأول في المقبرة: إذا كانت الحال هكذا دائما، شاي وسيجارة وأناس من الشعب، فإن عالم الآخرة ليس سيئا على الإطلاق». ذكرته فكرة عالم أخروي يمكن للمرء أن يأكل

فيه ويشرب، ويقابل بشرا، بالأفكار التي ساورته عند قبر فريدة، فقال كمن يتابع حديثا سابقا:

- ماذا سيحدث بالنسبة إلى موضوع قبري أيها الحارس؟ ألن أحصل على أرض تتسع لنعشي بجوار زوجتي؟

لم يستغرب الحارس أبدا، على العكس اتخذ فورا هيئة شخص مسؤول وصاحب صلاحيات:

- آه يا جدي، القبور الآن بين أنياب الأسود(*). لقد امتلأت المقبرة عن آخرها. ليس بوسعنا أن نفعل شيئا.

- لكني أريد أن أدفن بجوار زوجتي. أليس هذا من حقي؟

- يا جدي.. يا جدي.. بعد أن يموت المرء...

- لكني لم أمت بعد. ما زلت حيا. أريد ذلك وأنا على قيد الحياة. أريده كمواطن على قيد الحياة. أليس لي الحق؟

- لك الحق يا عم ولكن كما ترى: السيدة الجدة محاطة بالقبور. كان عليك التفكير بهذا مسبقا.

- أتعني أنه كان علي أن أموت من قبل؟

- لا يا جدي، ليس هذا ما عنيت، قال الحارس وفكر برهة ثم سأل فجأة: كم مضى على موت السيدة الجدة؟ أكثر من خمس سنوات؟

تنهد رسول وغمغم:

- وكم من الخمسات!

- حسنا، فما حاجتك إذن إلى قبر آخر... يمكن أن تدفن في القبر نفسه، أعني في قبر السيدة الجدة.

(*) تعبير يعني: أصبحت عزيزة المنال.

التمعت عينا رسول:

- هل يجوز ذلك؟

- يجوز، يجوز. ليس ثمة مانع ديني: سوف تدفن في قبر السيدة الجدة.

- ما كنت أعرف. فإذا كان هذا جائزا، فهو شيء جميل، شيء جميل جدا، شيء جميل بصورة رهيبة.

وضع كأس الشاي الفارغة فوق الكرسي وأشعل سيجارة مارلبورو جديدة وأعطى الحارس أخرى، وأضاف يقول: «على هذا الخبر الجميل أشرب كأسا أخرى من الشاي إذا كان ثمة مزيد منه».

- وكيف لا يا جد؟ لا يخلو بيت «آش قلالي» من شاي.

أشاعت سخونة الشاي السعادة في جسد رسول:

- شكرا لك يا صديقي: الشاي طيب والخبر حلو.

ابتسم الحارس. بدا سعيدا بدوره، سأل رسول:

- كم عاما مضى على وفاة السيدة الجدة؟

- أكثر من أربعين عاما.

- أوووه! كانت فتية جدا إذن؟

- نعم، كما تقول، إنها فتية، قال رسول وتنهد، الموتى يظلون شبابا.

- أنت على حق أيها الجد.

سكتا. لكن رسول يحس منذ فترة بحاجة فاترة وخفيفة للتبول، اضطر إلى كسر الصمت:

- هل لديك مرحاض هنا يا صديقي؟

- نعم؟ هه! تسأل عن المرحاض؟ هناك، قال الحارس وهو يشير

إلى الباب الضيِّق والمنخفض بجوار المدخل.

طوى رسـول قـامـتـه ودخل. على الرغم من اعـتـيـاده على رائحة المقصورة الحامضة الثقيلة، عذبته رائحة البـراز والبول الحـادة هنا، ومع ذلك تشـجع لتـحـمل هـذه الرائحـة باعـتـبـاره شـاعرا قـريبـا من شعبـه، فصعـد فوق بروزين على شكل القدم تغطيهما طبقة صفراء قـاتمة، وبال مطولا داخل حفرة واسعـة أمامـه. فكر: «إلى أين يذهب هذا؟» وارتعش كمن يتعرض لريح قوية. هذا الارتعاش هو ما دفعه للتفكير بالانصراف. عندما خرج من المرحـاض، ربت على كتف حارس المقبـرة الذي كـان يبتسم له بود:

ـ أنا مضطر للانصراف الآن يا صديقي.

ـ حسنا يا جدي. ملابسك قد جفت.

جلس رسـول على الكرسي وارتدى ببطء بنطاله النظيف والجاف وجوربيه وحذاءه، ثم ارتدى معطفه الكحلي واعتمر قبعته اللينينيـة. أخرج من جيب سترته الداخلي ورقة نقدية من فئة العشرة آلاف أراد أن يدسها في يد الحارس، لكن هذا سحب يده كما لو أنه لمس نارا.

ـ هل جننت يا جدي هذه عشرة آلاف ليرة!

ـ أعرف. وأعي ما أفعل، قال رسول وهو يدس الورقة في جيب الحارس، هيـا إلى اللقـاء. أشكرك على كل مـا فعلتـه من أجلي، وخصوصا على المعلومة الأخيرة التي أخبرتني بها.

حين أصبح في الخارج بُهِتَ: حل الظلام واشتعلت الأضواء الملونة على ضفتي البوغاز. قال لنفسه: «كأنه العيد. وكأن المدينة

لا ترزح بعد، في هذا الربع الأخير من القرن العشرين، تحت نير الفاشية!»، لكنه منذ عرف من الحارس أن في وسعه أن يدفن في قبر فريدة كان ينظر إلى الأمور بتفاؤل أكثر: إذا كانت الاشتراكية هي «الكهربة» فإن أوان الثورة قد آن ولا بد منذ وقت طويل، ولعل القوى الثورية كفت الآن عن الإمساك بالقلم وبدأت تنهض، وبما أن التاريخ يريد هذا فإنه لا يمكن الوقوف في وجهها بأي شكل من الأشكال.

«سينهضون واحدا بعد آخر، مع الجبال والأمواج، مع أمواج مثل الجبال، مع جبال مثل الأمواج». أما كيف سيكون ذلك، فهذا ما لم يستطع تحديده بعد، لكنه يحس بأنهم سينهضون بقوة كبيرة، فجأة، ومن كل مكان، وأنه سيكون في الصفوف الأولى لجيش الثوريين هذا الذي سينبثق من كل مكان. قال لنفسه: «إما أن يهتدوا إلي وإما أهتدي إليهم. إذا كان ثمة ما هو مؤكد، فهو ضرورة أن أسرع». مرة أخرى وضع فورا موضع التطبيق ما خطر في باله، فسرَّع خطواته تحت الثلج المنهمر بغزارة البرد وقد ركز فوق رأسه قبعته اللينينية. خرج من المقبرة وبدأ يهبط منحدرا ذا منعطفات تغطيه طبقة قاسية من الثلج. المدينة غارقة في أضوائها، لكن هذا الطريق المنحدر مظلم ومقفر إلا من كلاب تظهر من حين إلى آخر وهي تمشي في رتل متتابع. غمغم قائلا: «أتسألون إلى أين تمضي الكلاب يا ضعيفي الملاحظة؟ إنها ذاهبة في شؤونها». فكر بأن الكلاب وهي تتتابع هكذا في حركة انسيابية، تولد بالفعل الانطباع الذي عبر عنه الشاعر الفرنسي، وبأن الأدب هو الذي يعبِّر عن الواقع بالشكل الأصح والأجمل،

حتى لو كان قد باع كتبه؛ وبأن ناظم - باعتباره شاعرا يعرف أن الحياة «أمر في منتهى الجدية» - قال لهذا السبب: **«اقرأ /اكتب /امح /اصرخ /اهتف /تنفس بملء رئتيك»**؛ وبأنه ينبغي تعليم الأطفال الألف باء - بعد تحقيق الثورة - انطلاقا من هذه الأبيات لناظم. عزى نفسه لفترة بهذا الحلم، ثم عاد إلى الواقع ثانية: رأى في خلو الشوارع إلا منه ومن الكلاب في ساعة لا يمكن اعتبارها متأخِرة كثيرا، أي في انسحاب البورجوازيين إلى أوكارهم مبكرا - ربما خوفا من المصير الذي ينتظرهم - أمرا يبعث على الأمل من وجهة نظر الثورة، لكنه يبعث على الخجل من وجهة النظر الإنسانية. غمغم يقول: «إنهم هكذا».كأنه هو في الخارج دائما ويحيا حياة مفعمة بالحركة «ينسحبون دائما إلى زواياهم. لا أحد منهم يشبه صديقي الآش قلالي، يخافون كل شيء، بل يموتون خوفا. لهذا على المرء ألا يستغرب أن الفاشية ما زالت حتى اليوم تصول في العالم وتجول: البورجوازي يساوي الأنانية، الأنانية تساوي الفاشية».

وصل أخيرا إلى شارع عريض. هنا أيضا لا بشر، بل فقط سيارات تمر وهي ترشق الوحل على الجهتين بارتفاع قامة رجل، ويغطيها الوحل هي نفسها. بدت كما لو كانت هاربة من انهيار عظيم أكثر من كونها تسعى للوصول إلى مكان ما. أما سير قسم منها في هذا الاتجاه، والقسم الآخر في الاتجاه المعاكس فلا يعدو كونه دلالة على حيرتها ويأسها. سيطر على رسول فجأة شعور بالتأزم دفعه إلى الرغبة في الانضمام إلى الهاربين ناسيا أنه ثوري. طوال عشر دقائق على الأقل أشار بيده للسيارات المارة بسرعة يريد

إيقاف إحداها، وقلبه يخفق بقوة، ولكن لم تتوقف أي واحدة. كان قائدو تلك السيارات يجلسون خلف المقود مثل المومياوات، وعيونهم تحدّق إلى البعيد، لا يلتفتون لحظة واحدة. في لحظة خفت فيها زحمة السير انتقل إلى الرصيف المقابل وهو يرشق الوحل بدوره. طوال دقائق أومأ بيده إلى السيارات المارة حتى يبتعد عن هذه المنطقة المقفرة بأسرع ما يمكن. أخيرا توقفت أمامه سيارة أجرة. فتح له الباب سائق يعتمر قبعة، قال له: «انفض ثيابك ثم اصعد يا جدي، فقد تحولت إلى رجل ثلج». نفض رسول ثيابه ثم صعد إلى السيارة وقال للسائق: «امشِ إلى الأمام» وقاد السائق سيارته إلى الأمام مع أولئك الهاربين من الانهيار. عند المنعطفات كان يسأله: «إلى اليمين أم إلى اليسار؟». على الرغم من رغبته في أن يقول دائما: «إلى اليسار» فقد رأى أن «إلى الأمام» تعني أيضا «إلى اليسار»، بموجب المسار التاريخي، فاكتفى بالقول: «إلى الأمام، إلى الأمام!»، لكنه عندما وصل إلى شارع يمشي على أرصفته الناس - وإن كانوا بأعداد قليلة - وتتألق واجهات محلاته بالأضواء، قال للسائق: «قف. سأنزل هنا» كما لو أنه بلغ محطة التاريخ الختامية. دعكم من معرفته بالمكان الذي ترجل فيه، فقد ملأه شعور من يصل إلى مدينة غريبة. فضلا عن أن هذه الواجهات على طرفي الشارع تشير إلى أنه موجود في بيئة بورجوازية بكل معنى الكلمة. لكنه على الأقل في بيئة إنسانية، والثورة، إذا كانت ستقوم، بحاجة إلى بورجوازيين تواجههم.

على الرغم من استمرار هطول الثلج بالكثافة نفسها فإن الناس على الرصيف كانوا يتصرفون كأنهم لا علم لهم بشيء، يضيّعون

الوقت أمام الواجهات، أو يمشون دونما أي عجلة. بدأ يمشي مثلهم. تذكر فجأة نزهاته برفقة فريدة متشابكي الذراعين في شوارع المدينة قبل سنوات بعيدة: بالنسبة إليهما كانت الشوارع والأزقة والساحات مجرد وسائل للعبور من نقطة إلى نقطة أخرى بسرعة، كانا يعبرانها بسرعة دون أن ينظرا إلى أي شيء تقريبا. أما الواجهات فهي آخر ما يمكن أن يلتفتا إليه؛ وإذا حدث وفَعَلاَ مرة كل فترة، فإنما ليريا فيها ظواهر العالم البورجوازي المعادي المثيرة للاشمئزاز. باختصار ما كانا يشبهان أبدا هؤلاء الناس. غير أنه بعد فترة من المشي كاد يشعر بالغيرة تجاههم: فهم يلاحقون دوما السهل والمألوف، يبحثون عما تستطيع أن تطاله أيديهم، فيظلون بذلك في منأى عن الأشواق الحقيقية وعن الأزمات الحقيقية. أما هو فيمشي في ساحة دروبها مشوشة وخطرة إلى أبعد الحدود، على الرغم من وضوح النهاية بصورة قاطعة، ولا يملك الآن دليلا سوى حسه السليم وخبرته ووعيه الثوري. وهذه الأدلة ليست كافية دائما، على أهميتها. هاهو قد أصبح بين الناس - بورجوازيين أو بروليتاريين - بعد أن وضع موضع التطبيق الفوري كل ما عن على باله، غير أنه ليس على يقين من أن هذا هو المكان الذي ينبغي أن يكون فيه في هذه اللحظة، وبالتالي المكان الذي سيلتقي فيه مع الثوريين. بدا له أن الثورة، إذا نظرنا إليها من بعيد، هي جبل شاهق يظهر بمظهر الحدود النهائية للعالم: إذا بلغت قمة الجبل انفتح أمامك أفق جديد وابتعدت الحدود مجددا. وهكذا، على الرغم من وضعه موضع التطبيق بسرعة مدوِّخة لكل ما يخطر في باله، كان ينتهي

دائما إلى النقطة ذاتها التي انطلق منها أولا. وإن كان من شيء مؤكد فهو أنه قد أحرق الجسور، ولن يعود أبدا مهما كان الثمن. وقف في عتبة أحد الأبواب ليفكر بما سيفعل.

في تلك اللحظة دنا منه بخطوات متردِّدة شاب ملتح يرتدي فيلد أخضر، وقف قربه، دس في يده ورقة خفية عن المارة وابتعد بسرعة. حين أحس رسول بملمس الورقة في راحته كاد يفقد رشده فرحا، ضغط بيده الأخرى فوق قلبه وأغمض عينيه. ثم تغلب على انفعالاته وفتح عينيه، فرأى الشاب على بعد بضع خطوات يشابك ذراعه بذراع فتاة ترتدي مثله فيلد أخضر وبنطالا جينز، ويبتعدان بسرعة. غمغم يقول لنفسه: «الآن تم الأمر!» ومشى وراء الشابين. بالنظر إلى أنهما يمشيان بسرعة وحزم من غير أن يتوقفا لحظة واحدة، ومن غير أن يدسا أوراقا أخرى في أيدي من يصادفونهما في طريقهما، فإن هذين الشابين لم يخرجا من أجل توزيع بيان على البورجوازيين، بل جاءا خصيصا ليبلغاه خبرا، وهما إذن على صلة بناظم ويعرفان من هو رحمي سونمز. غمغم: «هذا يعني أن منظمة ناظم هي بالفعل منظمة قوية جدا!». تردد فترة ما بين قراءة الورقة التي في يده فورا، وبين اللحاق بالشابين للحصول على معلومات منهما مباشرة. ثم فكر بأن المنظمة كانت سترتب الأمور من أجل لقاء مباشر لو أنها وجدته ضروريا، فانتهى إلى أن أول ما يجب أن يقوم به هو قراءة الورقة. بعد أن انعطف الشابان إلى اليسار، وقف هو أمام إحدى الواجهات وفتح الورقة بعناية: وجد أنها ظاهريا على الأقل، بيان منسوخ، فهي لا تتوجه إليه مباشرة باعتباره جد ناظم سونمز،

الشاعر الثوري رحمي سونمز. ومن جهة ثانية كررت الشعارات النمطية المألوفة التي نصادفها في كل مكان من قبيل «حرب حتى النصر» أو «الموت للفاشية» أو «الحرية للشعب». تأسف لأنه لم يلحق بالشابين. ومع ذلك فكر قليلا فانتهى إلى ضرورة عدم الاستسلام للتشاؤم: فأولا يدل هذا البيان على أن الثورة مستمرة؛ ثانيا: حتى لو لم يتوجه إليه مباشرة، فإنه ينادي كل قوى الشعب الثورية من كادحين ومثقفين وطلاب، ويؤكد أن إسقاط القوى الفاشية التي تلعب الآن ورقتها الأخيرة، في وقت قصير، بات أمرا يسيرا جدا بفضل تسارع العمليات العسكرية الثورية في كل المناطق الريفية والمدينية؛ وثالثا وهو الأهم: بما أن الشابين سلماه البيان من دون الآخرين، فمن المحتمل جدا أن لناظم إصبعا في هذا الأمر، كما يبدو طبيعيا أن يلجأ حفيده إلى تمويه الرسالة التي يريد إيصالها إليه في صورة بيان عام، وهو الذي دفعه الحرص إلى كتابة مراسلاته الثورية في شكل رسائل غرام إباحية. تكمن كل المشكلة الآن في تحليل البيان كما ينبغي.

وهكذا وجد نفسه مرة أخرى في نقطة البداية، لكن أمامه ليلة بطولها: في بحر هذه الفترة سيحل شيفرة البيان بطريقة أو بأخرى حتى لو لم يأت إليه جنود ناظم، وعلى هذا الأساس يخطّط للخطوة التالية. ولكن بما أن انتقاله إلى ساحة العمل بأي شكل من الأشكال بات مؤكدا، وبما أن العمل يستدعي معه احتمال الموت، فقد ارتأى أن من النافع أن يحل أولا موضوع القبر. وقف على حافة الرصيف وبدأ يشير إلى السيارات. أخيرا وقفت أمامه سيارة أجرة، نفض ثيابه وجلس داخلها، قال للسائق:

- إلى البريد، إلى أقرب بريد مفتوح.

داخل أول مكتب بريد يدخله في حياته، أمسك بالقلم وأمامه ورقة أخذها من الموظف. كتب في خانة العنوان اسم فهمي غولمز واسم الأكثر شهرة بين شركاته، ثم كتب البرقية التالية: «عندما أموت اجعلهم يدفنونني في قبر فريدة. هذا طلبي الأخير إليك». مد الورقة مع قطعة نقدية من فئة العشرة آلاف إلى الموظف. خرج قبل أن يتسلم الإيصال وبقية الحساب. مشى فترة على غير هدى. شعر ببرد مؤلم في وجهه ويديه وقدميه. قال لنفسه: «علي أن أجلس الآن في مكان دافئ وأحاول فك رموز هذا البيان». لكنه لم ير في الجوار مكانا يصلح للجلوس. فكر في العودة إلى البيت. ولكن بما أنه أرسل البرقية فلم يعد بوسعه أن يعود إلى البيت: إذ إن فهمي غولمز يمكن أن يعمل على عرقلة مشروعه. قال لنفسه: «علي أن أجد مكانا آخر». كان قد وصل إلى زقاق مقفر ومعتم إلى حد كبير، ولم ير ثمة سيارات أجرة أيضا. لحسن الحظ رأى على الرصيف المقابل ثنائيا مسنا يمشيان وأحدهما يسند الآخر، ركض نحوهما بفرح:

- عفوا يا سيدي، لقد أضعت طريقي، كيف يمكنني أن أصل إلى موقف الترامواي؟

- موقف الترامواي؟

- نعم، موقف الترامواي. في أي اتجاه يقع؟

رمقه الزوجان بنظرات مبهوتة. ثم قال له الرجل، بعد أن لكزته زوجته في ذراعه: «لا الزمان مناسب ولا المكان للسخرية من الناس» وابتعدا. لاحقهما رسول بنظراته مذهولا وتمتم لنفسه: «ما أغربهما من بشر. يعتبرون الاستفسار عن الطريق سخرية».

ثم تابع: «سنهتدي إلى طريقنا بأنفسنا!» لم يضطر إلى البحث عن الطريق مطولا، فبعد أن مشى قليلا وجد نفسه ثانية في الشارع المضاء الذي غادره قبل قليل. عند تقاطع رباعي سمع سائقا ينادي: «واحد إلى تقسيم! واحد إلى تقسيم!». فكر بأنهم ربما ينتظرونه هو بصفة خاصة. لوح للسائق بيده من بعيد وصاح قائلا: «أنا قادم! أنا قادم!».

في ساحة تقسيم انقلب الجو إلى عاصفة ثلجية. لكن رسول شعر بنفسه أكثر قوة من ذي قبل لأنه من جهة وصل أخيرا إلى مكان يعرفه، ومن جهة أخرى حصل على شيء من الدفء داخل السرفيس. من غير أن يفكر في السبب ولكن بخطوات واثقة اتجه نحو درج حديقة تقسيم. على الرغم من انطمار قدميه في الثلج حتى الكاحلين وعلى الرغم من خلو الحديقة من الناس وظلامها، صعد حتى الدرجة الأخيرة.

بقي واقفا فترة وهو ينظر إلى الأسفل، على رأسه قبعته اللينينية وفي جيبه محفظته ومسدساه. عدد قليل من المارة كانوا يمشون بخطوات سريعة تحت الثلج المنهمر، وغالبا ما يسرعون إلى ركوب سيارات الأجرة القليلة التي تمر ببطء. لم يتذكر رسول أنه رأى هذه الساحة فارغة وهادئة إلى هذا الحد. لكنه يتذكر بالمقابل ازدحامها بالناس إلى درجة يصعب فيها التقدم خطوتين، وهديرها بالأصوات المنبعثة من المكبرات الموزعة في جهاتها الأربع. فكر في أن تلك كانت أكثر حالات ساحة تقسيم امتلاء بالمعنى. لا شك في أن الناس المتجمعين في هذه الساحة هم دائما البورجوازيون، ولكن مع ذلك فإن إصغاء عشرات ألوف

الناس إلى شخص واحد وانفعالهم معه، كان شيئا رائعا. لعلهم سينفعلون أكثر إذا سمعوا حقائق أكبر وأكثر يقينا. لذلك كان أمرا مؤسفا للغاية الوقوف في أعلى الدرج وفي جيبه بيان «حرب حتى النصر» ورؤية الساحة مغطاة بالثلج بدلا من طوفان البشر. قال لنفسه: «ترى هل شرعت في هذا العمل في غير أوانه؟» ١٤ تموز (يوليو) ١٧٨٩، ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧، أول تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩: يتضح أن الثورات الكبرى تتحقق في فصلي الصيف والخريف. لكن ناظم في السجن والمسدسات معه هو، والبلاد تحت أبواط الفاشية، ليكن الفصل شتاء، ليكن الثلج والبرد، من السخف إضاعة الوقت في تفاصيل من هذا النوع. هبط الدرجات ببطء واتجه نحو شارع الاستقلال. وفيما هو يمشي تحت العاصفة الثلجية راح يتشكل في داخله شعور من يمشي في المقدمة، على الرغم من معرفته أن أحدا لا يمشي خلفه.

ـ ٥ ـ

كم عاما مضى على رسول لم يأت خلالها إلى شارع «بيوجلو». بؤرة الجذب هذه في سنوات الصبا، امحت تدريجيا من حياته. فضلا عن أنه لا ينتقل كثيرا إلى هذه الضفة، فإنه حين يضطر إلى ذلك للاشتراك في تشييع جنازة كاتب أو مفكر ما، كان يأتي بالسرفيس إلى «شيشلي» أو «نيشان طاش» فيدخل جامع شيشلي أو جامع تشويقية، ثم يعود فور انتهاء المراسم إلى أُسكُدار.

باختصار، إن شارع بيوجلو الذي كان يشتاق إليه إذا غاب عنه يومين، لم يعد يحتل مكانا واسعا حتى في ذكرياته. في اللحظة نفسها التي كان يفكِر فيها بذلك، تذكر مشوارا له في شارع الاستقلال وذراعه تشابك ذراع فريدة، ذات مساء مثلج كهذا بعد خروجهما من مجمع «جحك ». كانت فريدة تحكّي له بحماستها المعهودة أين أخطأ الكاتب الشاب الذي خالف بعضا من آراء رسول - في مجلسهم في الخمارة - بل سخر من طريقته في إيضاح فكرته؛ في حين انحنى رسول عليها كعهده دوما حتى لا تفوته من حديثها كلمة واحدة. وقد كانت فريدة تتحدث بصوت مرتفع جعل المارة يقفون لينظروا إليهما. تباطأ رسول فجأة وحاول أن يتذكر اسم الكاتب الشاب الذي سخر في تلك السهرة من آرائه الثورية. «هه!إنه معروف! كان يسخر من كل شيء ومن كل الناس. لكنه كان فتى ظريفا. من يدري أين هو الآن؟» لعله مات مثل الكثير من الأصدقاء. إذا كان من شيء يعرفه بصورة مؤكدة، فهو أنه مثله لم ينضم إلى أهل الشهرة، ولم يعتقل مثله أيضا. «وكلا

الأمرين واحد»، قال لنفسه «مثل قصة الدجاجة أم البيضة» جال بنظراته حوله: هذا المكان أكثر ازدحاما بالناس بالقياس إلى المناطق التي مر بها، فضلا عن أن الناس هنا يمشون بخطوات ثقيلة موزونة وليس كالهارب أمام عدو. لكن هؤلاء ليسوا أناس أيام الصبا اللطفاء في شارع الاستقلال بملبسهم الداكن وربطات العنق والقبعات. إذا استثنينا النساء المتشبِّهات بالرجال أو الرجال المتشبِّهين بالنساء، الذين يمرون من حين إلى آخر مثنى وثلاث بملابسهم الغريبة وأصبغتهم الكثيرة، كما لو كانوا يتحدون العالم، فإنهم جميعا يعتمرون القبعة ويرتدون ثيابا بائسة، بوجوه غير حليقة ومهملة، لكنهم جميعا يمشون بخطوات واثقة كأنهم يتجولون في «الطوب خانة»: كأن الطبقة العاملة قد حررت بيوجلو من البورجوازيين. كما أن تجمعهم عند الأبواب في مجموعات صغيرة وتبادلهم الحديث يدل على أن شيئا ما يدور هنا. تفقد رسول البيان في جيبه ثم وقف بدوره في أحد المداخل حتى يراقب المكان بصورة أفضل وحتى يأخذ نفسا. أراد أن يشعل سيجارة. علبة المارلبورو التي في جيبه نفدت. دَعَكَها وألقى بها على الأرض. ولكن في اللحظة نفسها ظهر أمامه صبي يصيح: «مارلبورو! مارلبورو!» ربما بفعل المصادفة، وربما نتيجة ترتيب ما يمتد ليصل إلى ناظم سونمز. ناداه رسول:

- هات!

كان صبيا أحدب، اقترب منه ببطء وسأله:

- أتريد مارلبورو يا عم؟

- نعم.

- كم علبة؟
- علبتين.
انحنى الصبي، رفع طرف بنطاله وأخرج علبتي مارلبورو من فردة جرابه وحدد ثمن العلبتين. مد له رسول بورقة من فئة العشرة آلاف وفتح إحدى العلبتين، أخرج منها سيجارة وضعها بين شفتيه ثم راقب الصبي بانتباه وهو يعد بقية الحساب: لعله يدس بيانا ما بين الأوراق النقدية. لم يتحقق رجاؤه. وحين قال الصبي: «مشى الحال يا عم، قد أكملت ذخيرتك» فكر بأنه إيحاء مهم. أجابه قائلا:
- أجل يا صديقي، السجائر هي ذخيرة أيضا وفقا للظروف.
حاول أن يشعل السيجارة، لكن قداحته لم تشتعل. قال له الصبي:
- أكملت الذخيرة ولكن ليس لديك صاعق. أشعلها من ناري.
انحنى عليه رسول ليشعل سيجارته، فأجفل وقال:
- آآآه! أنت لست صبيا!
لم يكن صبيا. بالرغم من صوته الرقيق كان أحدب أمرد وأحول امتلأ وجهه بالتجاعيد. ابتسم بسخرية وقال:
- ومن قال لك بأني صبي يا عم؟ ثم أضاف كأنه يريد إظهار عدم استيائه من ملاحظة رسول: على بعد عشر خطوات على اليمين ثمة بائع غاز. املأ قداحتك عنده!
فكر رسول: «واضح أن أمورا ستحدث هذا المساء، وإلا لِمَ يظهر الرجل بمظهر صبي؟» شكره ثم مشى وهو يعد خطواته والسيجارة في فمه. بعد عشر خطوات بالضبط، على الرصيف الأيمن، رأى

جهازا لتعبئة الغاز يلتمع في أحد الأبواب، فكاد يصرخ فرحا: واضح أن كل شيء قد حُددَ ورُتِبَ بدقة مسبقا. هذه الملابس الغريبة، هذه الوجوه المصبوغة، بل هذا الثلج الذي لا يريد أن يتوقف أبدا، وكل شيء، كل شيء يتجه نحو الهدف المبشر به في البيان الذي دس في يده قبل بضع ساعات؛ هو الآخر يُوجَه خطوة خطوة على الأقل منذ خروجه من المقبرة وحتى الآن. لذلك نظر إلى الرجل الجالس وراء جهاز تعبئة الغاز بعينين أكثر تفحصا: لقد رفع ياقة معطفه وخفض قبعته حتى عينيه وغطى شارباه الكثان فمه بالكامل. فكر رسول: «جندي مجهول من جنود الثورة». ابتسم له بحب حقيقي ومد إليه قداحته. استند الرجل بيديه على ركبتيه ونهض واقفا، فراقبه رسول بدهشة وتأتأ يقول: «لكن.. لكنك.. لكنك بطولي» وكأن شيئا كهذا غير ممكن، وإذا حدث، فلا بد أن له معنى خاصا.

- إن كبري هو كبر القامة أيها الجد! قال بائع الغاز وهو يحاول فك برغي القداحة.

أخذ رسول جواب الرجل أيضا باعتباره ذا معنى خاص، وراح يراقبه دون أن تفوته أدنى حركة من حركاته: إذا صح ما يعتقده وكان مقاتلا ثوريا فقد أحسنوا اختياره حقا: فلا عيب في شكله وجسمه وملبسه وكلامه وتصرفاته التي لا تفضح هويته قط؛ أما إذا كان مخطئا في ظنه، ولم يكن الرجل مقاتلا ثوريا، بل واحد من الرعاع يحلم بالصعود الطبقي عن طريق تعبئة قداحات البورجوازيين، فينبغي اعتباره خسارة لا يستهان بها من وجهة نظر الثورة. لكنه لا يعتقد ذلك. وحتى يحدد وضعه الخاص بصورة أوضح أراد أن يستدرج بائع الغاز إلى الكلام، سأله:

- لماذا تُعبِّئ الغاز؟

حدق البائع في وجهه وأجابه:

- طلبت مني ذلك، ففعلت يا جدي. أم أنه يجدر بي ألا أفعل؟

- ألم تجد عملا يناسب قامتك أكثر؟ هذا ما عنيته بسؤالي.

- وما الذي لا يعجبك في مهنتي أيها الجد؟ إنها تدر علي دخلا لا بأس به. كذلك أبيع بطاقات اليانصيب. أتسحب واحدة؟ لعلها تدفع بك إلى الأعلى.

- لا، لست من هواة الصعود، قال رسول، ثم سأله وهو يدفع الحساب على أمل الحصول على جواب عن السؤال الذي يشغله: ما رأيك بتناول طعام ساخن معا؟

أجفل بائع الغاز وتراجع إلى الخلف ليروز رسول من قمة رأسه حتى قدميه: كثيرا ما صادف في هذا الشارع رجالا غريبي الأطوار بهيئات شاذة من هذا النوع، والبعض منهم كان يدبِّق عليه. لكنه لم ير قط شخصا بهذا العمر وهذا الطول يأتي بهذه التصرفات. جعد وجهه باشمئزاز وقال:

- لا، لست ممن تستهويهم هذه الأمور.

لم يلح رسول، لكنه توتر قليلا. بما أنه يقول بأن تلك الأمور لا تستهويه، معنى ذلك أنه على علم بالتحضيرات من أجل الثورة، لكنه يؤثر الاستمرار في كونه رعاعة يسعى إلى الصعود الطبقي عن طريق تعبئة غاز القداحات في مداخل البنايات، على اتخاذ موقع له بين جنود الثورة المجهولين ببنيته القوية هذه. غمغم يقول: «النظام اللعين الساقط! النظام البورجوازي اللعين الساقط!».

ذكره اقتراحه بتناول «شيء ما ساخن» بأنه لم يأكل شيئا منذ الصباح: بدأت معدته تصرخ كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة، اشتهى فجأة طبقا من الجظ مظ(*) الساخن، ولكن ليس أي جظ مظ ساخن: بل طبق جظ مظ مع كثير من الفليفلة ومع كأس بيرة ببرودة الثلج، على طاولة رخام صغيرة في محل ضيِّق وطويل يصعد إليه بثلاث درجات. في السنة الأولى في الجامعة كان يأتي إلى المحل الموصوف برفقة فهمي غولمز مساء بعد خروجهما من السينما، فيطلبان البيرة والجظ مظ، وإذا كان حظهما مواتيا رأيا عن قرب عددا من ممثلي المسرح. إنه يتذكر اسم المحل واسم الشارع، غير أنه لم يستطع تحديد موقع الشارع بالنسبة إلى موقعه الآن. لذلك راح يمشي ببطء باتجاه «غلطة سراي» وهو يقرأ أسماء المخازن والشوارع أكثر من قراءته لوجوه الناس. منذ الخطوات الأولى ساوره الشك في وجوده في شارع الاستقلال فأجفل: التمعت فوق كل المخازن تقريبا أسماء أجنبية بكل الألوان، تعطي الانطباع بأنه في مدينة أجنبية، أما الأسماء التركية التي يصادفها قليلا فهي إما محورة بشكل أقرب إلى الأجنبي مثل «Tombiche»، أو أنها نادرة جدا، وهي لذلك تزيد الإحساس بالغربة بدلا من أن تنقصه. فكر رسول بأن هذا أيضا يمكن أن يكون نوعا من التمويه أو نوعا من خداع العدو على أعتاب الثورة. غير أنه من المؤكد أن الشعور بالغربة الذي تخلفه تلك الأسماء الأجنبية يؤدي إلى أزمة مخيفة تثقل على الصدر مثل حجر ثقيل. بهذا الشعور المتأزِّم انتقل إلى الرصيف المقابل ومشى مجددا

(*) البيض مع البندورة.

باتجاه ساحة تقسيم. لم يختلف الوضع على هذا الرصيف أيضا، فقد تغير كل شيء وأصبح غريبا. لكنهم - ولا أحد يعرف بفعل أي معجزة - لم يغيروا اسم الشارع الذي فيه بائع الجظ مظ. انعطف إليه بأمل. صحيح أن اسم الشارع لم يتغير، غير أنه ليس الشارع القديم الذي يعرفه، كما أنه لم ير المحل الصغير. مع ذلك لم يفقد الأمل، وتابع سيره مفكرا أنه من المحتمل نسي موقع المحل. بدأ الشارع يُقْفِر تدريجيا، ويظهر فيه من حين إلى آخر رجل منفرد، أو امرأة منفردة، يمشون بسرعة لصق الحائط ثم يختفون عن الأنظار. بدا لرسول أن هؤلاء الناس يتجهون دوما إلى المكان نفسه، والأغرب من ذلك بدا له أنهم يلاحقونه، على الرغم من أنهم يسيرون أمامه. لهذا السبب كان يفكر في أنه في الاتجاه الصحيح، في الزمان والمكان، وفي أنه عليه أن يتقدم في هذا الاتجاه، سواء اهتدى في النهاية إلى بائع الجظ مظ أو لم يهتد.

رأى أخيرا أمام باب ذي أضواء حمراء عددا من الرجال ذوي هيئات غريبة. واحد، من هؤلاء - شاب ذو شاربين ضخمين يرتدي سترة حمراء وسروالا أسود وطربوشا أحمر - هرع إليه كما لو كان يهرب من ظلمات التاريخ وقال له: «تفضَّل يا سيدي تفضل، برنامجنا غني جدا، ولم يبق أماكن كثيرة، بسرعة»، وأمسك بذراعه بلا كلفة، جره إلى حيث يقف الآخرون تحت الضوء. بما أن هؤلاء الرجال كانوا أيضا ذوي شوارب ضخمة وسراويل وسترات وطرابيش، فمن غير الوارد ظاهريا أن يكون له شأن بهم، ولكن في هذا المساء الاستثنائي الذي غير فيه كل شيء وكل شخص هيئته، من المحتمل جدا ألا يعرف ما يختفي وراء المظاهر،

ومن المحتمل جدا أنهم يقودونه في الوجهة الصحيحة، بما أنهم ظهروا أمامه واقتادوه ممسكين بذراعه، دعك من كل هذا فإن معدته تحرّضه إلى درجة فكر فيها بأن من الخطأ رفض اقتراح الرجل ذي الطربوش. سأل الرجل:

- هل لديكم ما يؤكل؟ على سبيل المثال صحن من الجظ مظ.

- لدينا يا سيدي، لدينا كل شيء! المهم أن تكون لديك نقود!

- النقود أمرها سهل.

- تفضل إذن يا عم، تفضل من هنا، قال الرجل ذو الطربوش وأقحمه خلال باب مزخرف دون أن يفلت ذراعه، ثم مرره عبر باب آخر إلى أن أوصله إلى مكان ضيِّق يضيؤه ضوء أحمر خافت. قال له: «المكان دافئ. أعطني معطفك، وكذلك قبعتك وحقيبتك» انتزع القبعة عن رأسه وسلمها إلى امرأة كثيرة الأصبغة تبتسم وراء نُضُد منحوت على اليمين، ثم ساعده على خلع معطفه، وسأله: «ألن تسلِّمني الحقيبة؟»

- لا. لا أستطيع أن أسلمك حقيبتي.

- كما تشاء. قال الرجل ذلك ودفع بابا آخر. وجد رسول نفسه في مكان نصف معتم يضج بموسيقى راقصة، وأمامه على بعد مترين على الأكثر رأى امرأة ممتلئة الجسم، وقد رفعت يديها فوق رأسها، وراحت تزلق عنقها من كتف إلى آخر كما لو كانت تتحدى قوانين الطبيعة، في حين بقي جسدها جامدا بلا حراك؛ ثم مع ارتفاع إيقاع الدربكة برفقة آلات الساز(*)، راحت تؤرجح بطنها كما لو كانت تسعى إلى انتزاعه عن جسدها. خلف المرأة وعلى

(*) آلة وترية شبيهة بالبزق.

مستوى أكثر انخفاضا رأى رجالا بسترات سوداء لامعة وقمصان وردية، يصدرون أصواتا تقطع أحشاء المرء مثل السكين بكمنجاتهم وكلاريناتهم ورقوقهم ودربكاتهم؛ وحول هؤلاء جلس إلى طاولات صغيرة رجال بدينون ذوو شوارب كثة، يراقبون بأفواه مفتوحة، حركات البطن الذي يريد أن ينفصل عن الجسد.

انتصب أمامه نادل يرتدي سترة سوداء لامعة مثل العازفين، قال له:

ـ أهلا بك يا سيِّدي. قيل لي إنكم تريدون أن تتناولوا الجحظ مظ. هل آتيكم بويسكي إلى حين إعداد الجحظ مظ؟

فيما كان رسول يستعد للإجابة داهمته عطسة لئيمة كأنها مندفعة من قعر رئتيه، وقبل أن يتسنى له أن يغطي فمه بيده، انطلقت من بلعومه بسرعة رصاصة قطعة التصقت ببطن المرأة العارية. أحس رسول باحمرار وجهه، فأحنى رأسه ورفع منديل ناظم إلى فمه وعطس مرة أخرى وأخرى وأخرى. ولم يشعر بالراحة إلا بعد أن غرغر بضع مرات داخل فمه بالويسكي الذي أتاه به النادل. أخذ نفسا عميقا ونظر حوله بخجل، فرأى المرأة التي كانت ترقص قبل قليل على المسرح وقد استلقت الآن على ظهرها وتابعت حركاتها السابقة على الأرض. شعر بالدهشة وبالخجل كأنه هو السبب فيما يحدث، فكر أن يقوم وينصرف قبل أن يأتوه بالجحظ مظ. ولكن فضلا عن شعوره بالإرهاق الشديد ـ فكأنه فرغ عن آخره حينما عطس ـ فقد أراد أن يتيقن ما إذا كان ثمة عناصر يمكن أن تقوده إلى الرفاق الثوريين بين هذه المناظر الفظة والشاذة، وما

إذا كان سبب اقتياده من ذراعه إلى هذا المكان العجيب هو كونه شاعرا من هذا البلد يعشق الثورة، أو على الأقل جد ناظم سونمز. «ليكن ما سوف يكون» قال وأفرغ الويسكي في جوفه. فكر في احتمال أن يجد ما يشير إلى هذا المكان في البيان الذي دسوه في يده، وأراد أن يعيد قراءته. لكن النادل أتاه بالجظ مظ في هذه اللحظة:

- تفضل يا سيدي. لقد أعده الطباخ خصيصا من أجلكم، ذلك أن أحدا لا يأكل الجظ مظ عندنا.

ولم يبتعد بعد أن شكره رسول، راح يتفحص هيئته مطولا كما لو كان بصدد فك شيفرة، ثم سأله مع ابتسامة لا يبدو مستوى الاحترام فيها مرتفعا كثيرا: «هل ستتناولون الجظ مظ مع الويسكي أم آتيكم بمشروب آخر يا سيدي؟».

ابتسم رسول فرحا بحصوله على الجظ مظ أخيرا وقال:

- بيرة، وأضاف كما لو أنه مضطر لشرح سبب اختياره: ذلك أنها ترتبط بذكرى.

- حسنا يا سيدي. حالا.

- أريد أيضا.. صحنا آخر من الجظ مظ.

- أمرك يا سيدي.

دون أن ينتبه إلى من يراقبونه بدهشة، أنهى رسول صحني الجظ مظ بسرعة ومسح الصحن بالخبز. فكر يقول لنفسه: «ساعدني الجظ مظ في استجماع قواي».

ونادى النادل:

- واحد جظ مظ أيضا.

ـ أخشى أن تصابوا بالتخمة يا سيدي. الجظ مظ ليس طعامنا الوحيد.

ـ لا تهتم. «لا يصيب المرض الباذنجان المر!»(*)

التهم رسول طبق الجظ مظ الثالث أيضا بسرعة، ثم أراد أن يستنبط معنى ما مما يراه فراح يراقب ما حوله: على المسرح الآن رجل ذو سترة حمراء وشعر أشقر وحاجبين أسودين، يمسك بميكروفون ضخم، يغني متمايعا، ويتوقف عن الغناء من حين إلى آخر ليرغم جمهور المستمعين على التصفيق أو على مشاركته في الغناء. لكن الأغنية كانت من الابتذال ما دفع رسول إلى تجعيد وجهه. فحتى لو كنا بعيدين كل البعد، من وجهة النظر الاقتصادية، عن المرحلة التي تنبأ بها ماركس، فلا ريب في أننا، من وجهة النظر الذوقية، عند الحد الأقصى للانحطاط. فكر: «معنى هذا أن ناظم قد أحسن صنعا بانتقاله إلى الفعل دونما انتظار لكل العوامل الاقتصادية». في تلك اللحظة أنهى المغني ذو الشعر الأشقر والحاجبين الأسودين أغنيته وانحنى بحركات مبالغ فيها؛ ثم أشار إليه بيديه الاثنتين وضحكته تصل إلى شحمتي أذنيه وقال: «أحبائي المستمعين، أهدي أغنيتي التالية إلى هذا الفتى الوسيم الذي يجلس أمامكم»، ضرب بالميكروفون راحة يده وبدأ يغني. بصورة غرزية جعد رسول وجهه ثانية وفكر في أن غناء أغنيات بهذا الابتذال وهذه الميوعة في بلد أنجب شاعرا مثل ناظم، هو علامة من علائم الانهيار، أما إهداء أغنية كهذه إلى شاعر معاصر يقتفي خط ناظم فمعناه السخرية من الحس

(*) مثل.

السليم. قال لنفسه: «هل أكون وقعت بين أعداء؟»، لكنه سرعان ما تمالك نفسه حين سمع في منتصف الأغنية ما ذكره ببيت من شعر ناظم، فأصاخ السمع: كرر المغني البيت نفسه، فشعر براحة من أنزل عن كاهله عبئا ثقيلا، فلم يبق لديه ذرة من الشك في أنه جاء إلى حيث يجب أن يأتي: إنه بين الثوريين والثورة على الأبواب. مع هذا الشعور بالراحة راح ينظر بتسامح أكثر إلى الأغنيات التي سمعها باشمئزاز قبل قليل: بما أن ناظم الكبير قد اقتبس من حين إلى آخر شيئا من هذه الأغنيات، وأدمجها عضويا في شعره، فلا بد أنها ليست بهذا الابتذال والسوقية؛ بل إذا نحن فكرنا قليلا أمكننا القول بأنها تتحدر - مثل الأغنية الشعبية - من النبع الذي لا ينضب للشعب الذي **«يتعلم من التراب ويعرف بغير كتاب»**. ابتسم ورفع كأسه باتجاه المغني ذي الشعر الأشقر والحاجبين الأسودين الذي لم يتأخر في رد التحية بأحسن منها: فور انتهائه من الغناء استدار من الخلف وجاء إليه. انحنى بطريقة يصعب وصفها إلى الأمام وإلى الجانبين في اللحظة نفسها وقال:

- مرحبا. أنا أتيلا. أتسمح لي بالجلوس؟

- تفضلوا.

سحب المغني كرسيا وجلس قبالته، طلب مشروبا من النادل الذي ظهر فورا، ثم راز رسول مطولا وهو يبتسم بطريقة غريبة، ثم هتف يقول:

- آآآه! إن عينيك خضراوان! صدقني يا أستاذي، أنا مغرم بالعيون الخضراء.

لا يحب رسول رفع الكلفة ولا الحديث عن حاجبيه أو عينيه، ولكن بما أن كلمة «أستاذي» تؤكد حدسه، فقد فكر أن الموقف الأصح هو تجنب التفاصيل الصغيرة ومواصلة الحديث.

في هذه الأثناء كان أتيلا قد احتضن يده في يده وراح يداعبها. همس يقول: «يداك في برودة الجليد! قد تجمدت!» ثم ابتسم غامزا بعينيه: «لقد ورَّموا عينك. قل لي ما الذي أو من الذي كنت تلاحقه في هذا البرد؟ وأنت في أناقتك وتألقك هذين!».

دهش رسول وتضايق قليلا، لكنه كان مصمما على انتظار ما ستؤول إليه الأمور، فاكتفى بالابتسام.

ـ نعم، من الذي ركضت خلفه؟ كرر أتيلا ضاغطا على يده أكثر، أم أنهم كانوا يركضون خلفك؟ أنت وسيم إلى درجة أن ذلك لن يثير استغرابي. هل سبق وقالوا لك كم أنت وسيم؟

ـ نعم، أحيانا. ولكن ليست هذه مشكلتي.

فتح أتيلا عينيه بدهشة:

ـ أووه، هكذا إذن؟ إن لم تكن مشكلتك هي هذه، فما هي إذن؟

قال رسول لنفسه: «كأنه لا يعرف!» وفكر في أن الأمر قد طال أكثر مما يجب بغض النظر عن متطلبات الموقف، فانحنى نحو أتيلا وهمس له:

ـ الثورة!

تظاهر أتيلا بالإجفال وقال:

ـ هكذا إذن؟ يا الله!

حدق في رسول كأنه ينتظر توضيحا. غير أنه لم يتسن لرسول أن يقول أي شيء، فقد انتصبت فوقهما امرأة ممتلئة ترتدي **ثوباً**

يتلألأ وقالت: «انظروا إلى هذا الثنائي كم هما متآلفان مثل حمامتين!». ثم انحنت على أتيلا وسألته: «ما الذي تطبخانه همسا هكذا يا سكرتي؟». أجابها أتيلا: «تحدثي بأدب، إن أستاذنا رجل ثوري»، فقالت: «أهكذا؟ ما أجمل ذلك!» قالت وجلست إلى الطاولة ونادت النادل: «هات لي كأسا من البولر يا جواد، لقد جف حلقي».

نظر رسول إلى المرأة وفكر في أنها قد تكون المرأة التي كانت تتلوى على المسرح لحظة دخوله، فاحمر وأحنى رأسه. لكن ثلاث نساء أخريات بالامتلاء نفسه وبطلاء الوجه نفسه وبالزينة المبالغ بها نفسها في أصابعهن ومعاصمهن وآذانهن وأعناقهن، انضممن إليهم تلك اللحظة، وطلبن بالطريقة نفسها كأسا من البولر لكل منهن، ففكر أنه ربما على خطأ: بالرغم من الاختلافات البينة بين ألوان أثوابهن البراقة، فقد بدون جميعهن نماذج مختلفة لامرأة واحدة. من المحتمل أن تكون أي واحدة منهن تلك المرأة، كذلك من المحتمل ألا تكون ولا واحدة منهن. مهما يكن فقد منعه أتيلا من إرهاق ذهنه في هذا الموضوع: عرفه بحركات وكلمات مبالغ بها بأولئك النسوة واحدة واحدة. كان البعض منهن مغنيات والبعض الآخر راقصات، لكن جميعهن ظهرن على التلفزيون وجميعهن فنانات تجاوزت حدود شهرتهن البلاد. جاءت المشروبات، أتيلا والنساء طرقوا كؤوسهم الواسعة بكأس رسول نصف الفارغ، وقالوا: «في صحتك!» فردد وراءهم الكلمة نفسها ودلق البيرة في جوفه. قال أتيلا موجها كلامه إلى البنات: «لتَعْرِفْنَ يا بنات، هذا آخر ما تشربنه على حساب أستاذنا. ليس أستاذنا في عمر يسمح

له بإرواء عطشكن بصورة كاملة!»، فتذكر رسول الثورة وقال موافقا: «نعم، هذا صحيح، لن أستطيع حتى لو أردت. علي أن أفكر في الثورة أولا».

اندفع أتيلا يقول وهو يغمز بعينه:

- أرأيتن؟ إن أستاذنا ثوري حقيقي.

عندئذ نظرت أول امرأة انضمت إليهما باهتمام واضح إلى رسول وقالت:

- بما أن رجلا بثرائكم ورفعة شأنكم لا يخفي أنه ثوري، فلا بد أن الثورة عمل صالح.. فكرت بهذا ليلة البارحة أيضا وأنا أشارك شابا وسيما جاء إلى هنا، بضع كؤوس. تبادلنا حديثا حلوا. اسم الشاب «دِفْريم»(*). قلت: «لا بد للثورة أن تكون شيئا جميلا بما أنهم سموا شابا بهذا اللطف وهذه الوسامة «ثورة». قال لي الشاب: دعكِ من هذا، لكنه أراد بذلك أن يظْهر تواضعه. ألست على حق يا أستاذي؟

ابتسم رسول وأجابها:

- بل أنت على حق يا سيدتي. فالثورة هي الأمل الوحيد للبشرية.

- بالطبع! كل يوم يتهجمون على الثوريين في التلفزيون، لكني لم أعد أصدِّقهم. وكيف سأثق بهم وهم يأتون بقمامة النساء ويُنصِّبونهن مطربات علينا؟ ألست محقة يا أستاذي؟

سعل رسول سعالا خفيفا وهو يفتش عن جواب عن سؤالها، غير أن امرأة أخرى تدخلت في الحديث:

(*) معناه: ثورة.

ـ من المحتمل أن يكون الثوريون أناسا طيبين، لكنهم ليسوا وحدهم على الساحة. يتحدثون عن الفوضويين، يتحدثون عن الماركسيين، يتحدثون عن الإرهابيين، يتحدثون عن الشيوعيين، يتحدثون عن المنظمات، يتحدثون عن المنشورات... يتحدثون ويتحدثون. هل هم جميعا الأشخاص أنفسهم؟ إذا كانوا كذلك فلِم أسماؤهم بهذه الكثرة؟ وإذا لم يكونوا كذلك، لِمَ يتحدثون عنهم كما لو كانوا الأشخاص أنفسهم؟ نحن الآن جهلة، لا نعرف. هل تستطيعون أن تشرحوا لنا يا أستاذي؟

فكر رسول أنه ربما يخضع لامتحان، نصب جذعه، سعل ثم قال: سؤال جميل جدا، ثم توقف برهة وأضاف: لا أعرف من أين أبدأ؟

المرأة ذات الثوب الأزرق الجالسة على يمينه وضعت ذراعها فوق كتفه وداعبت لحيته بأطراف أصابعها:

ـ ابدأ من حيث يشتهي قلبك يا أستاذي الجميل.

ـ إذا كان لا بد من إيجاز الموضوع، فعلي أولا أن أبين هذا، سعل مرة أخرى ثم تابع، علي أن أبين أننا الآن نحيا في الطور الاحتكاري من التاريخ. في طور كهذا يتحول الحماس إلى مقاومة، وكل أولئك الناس الذين تذكرينهم يركضون وراء حماسة المقاومة؛ ولكن بما أنني أعارض جمع التفاح والأجاص معا، وعلى سبيل المثال جمع الفوضويين مع...

قاطعته المرأة التي فتحت الموضوع:

ـ لا تؤاخذوني يا أستاذي، لكني لم أفهم شيئا من كلامكم هذا.

ـ صحيح؟ أحقا لم تفهمي أي شيء؟

ـ أحلف بالله أني لم أفهم شيئا!

فكر رسول: وحدق في السقف. إنه يرى مرة أخرى بوضوح، أن فهم الشعب شيء، والنزول إلى مستواه شيء آخر، ولعل المشكلة الكبرى تكمن في هذا بالضبط: فإذا دخلت على الخط جهود الطبقة البورجوازية لإبقاء الشعب في ظلمات القرون الوسطى، فإن صلاتك الفكرية ستتقطع به شئت أم أبيت، حتى لو بقيت مرتبطا به بحبل السرة. ولكن لا تجوز إدارة الظهر للشعب بدعوى أنه لا يفهم أفكارنا، أو بحجة أنه ذو نزعة محافظة، بل يتعين أن نحاول فهمه وأن نريه أين تكمن مصلحته. بدأ يشرح متوقفا عند كل كلمة، كأن السبب في عدم فهم كلامه هو سرعته في التحدث: قال إن ماركس قد بين بوضوح كيف ستتحقق الثورة البروليتارية، غير أن زمن تحقق هذه الثورة غير معروف، وبما أن كل الدروب تؤدي إلى النتيجة نفسها، فإن أشخاصا لم يتحملوا الآلام التي يكابدها الشعب، حملوا السلاح بهدف تسريع العملية. وقال إن ثمة تحليلات متنوعة بصدد استخدام السلاح، وإنه من الوارد الحديث من حين إلى آخر عن انحرافات معينة من وجهة النظر هذه، ولكن بما أن لكل جيل مقاربة خاصة به، وبما أن التاريخ في تقدم متواصل، علينا أن نصف معركة الجيل الشاب بالحق والأصالة، وألا نهتم كثيرا بالمقابل بالتسميات المفتقرة إلى الأساس النظري التي تروِّج لها بكثرة الدعاوى الفاشية، من مثل إرهابي أو فوضوي. سأل أخيرا: «هل استطعت أن أوضح؟» وما كان يساوره أدنى شك في أنه سيتلقى جوابا بالإيجاب من الجميع، لكن المرأة التي فتحت الموضوع ردت على سؤاله بسؤال:

- هل تقصد أن الفوضويين والماركسيين والإرهابيين، والشيوعيين كلهم واحد؟

- لا. لقد قلت لك إنهم ينعتون الشيوعيين بالفوضوية والإرهاب بصورة مغلوطة. إن الفوضويين كانوا دائما هدامين ومشوشين ومخربين للنظام، وهم في غالبيتهم إرهابيون، يقتلون الناس من غير أن يرف لهم جفن. هل فهمت الآن؟ إنهم يقولون عن الشيوعيين إنهم فوضويين وإرهابيين حتى يحقِروهم في عيون الشعب.

تدخل أتيلا:

- ولكن ألم تقولوا يا أستاذي إن الشيوعيين يريدون هدم النظام، بل يلجأون إلى السلاح حتى يعجّلوا في هدمه؟

استعاد رسول حيويته، واهتدى فورا إلى الجواب: صحيح أن الشيوعيين لجأوا إلى السلاح، وصحيح أنهم قد يقتلون من حين إلى آخر أناسا أبرياء؛ ولكن: فضلا عن أنه من العبث الحديث عن أبرياء في الفترة السابقة للثورة، فهم يفعلون ذلك بصورة طارئة وفي سبيل هدف أصيل. لكن المرأة التي فتحت الموضوع لم تتمكن بعد من رؤية الفارق:

- طيب، من أي صنف هم أولئك الذين يسطون على البنوك يا أستاذي؟ أهم الفوضويون أم الماركسيون؟ أم أنهم أيضا شيوعيون؟

أوشك صبر رسول على النفاد، فرفع صوته أكثر:

- إنهم شيوعيون تبنوا - بصورة مؤقتة - العمل الإرهابي، من أجل تحقيق الثورة البروليتارية بأسرع وقت ممكن، وتقترب مواقفهم لهذا السبب من الموقف الفوضوي ظاهريا.. إني أتحدث بصورة علمية.

فتحت المرأة ذراعيها بيأس إلى الجانبين:

ـ هاك إذن: والآن طلعت لنا البروليتاريا...

فكر رسول بأن هذه المرأة ميؤوس من وضعها. أمسك أتيلا بيده مجددا وراح يداعبها ويحدق في عينيه:

ـ أعرف يا أستاذي أنكم تتحدثون بصورة علمية، لكني بدأت أضيِّع أيضا. ففي رأيكم أن الفوضويين ليسوا بشيوعيين؛ ولكن في رأيكم أيضا أن الشيوعيين فوضويون وإرهابيون معا.

المرأة التي دأبت على طرح الأسئلة أيدت هذه الملاحظة:

ـ نعم، أنا أيضا فهمت الأمر على هذا النحو.

هز رسول رأسه بيأس:

ـ أنتم تقيِّمون كلامي بصورة خاطئة، وتخلطون ما بين المفاهيم.

ـ ممكن. فأنا امرأة جاهلة. طيِّب وما هي المنظمة يا أستاذي؟ إن مالكي البيوت عندنا في «جيها نغير» يتجنبون أكثر ما يتجنبون هؤلاء الناس. لا أحد يرضى أن يؤجِّرهم بيته.

لم يتوقع رسول قط سؤالا كهذا: كان الجهل واضحا إلى درجة اكتفى فيها بابتسامة متسامحة. لكن المغني أتيلا لم يبدِ التسامح نفسه، وبخها قائلا: «والله إنك جاهلة حتى العظم يا فتاتي!». فردت عليه المرأة بالفظاظة نفسها، ودخلا في جدال. راح الجميع يتحدثون في وقت واحد، البعض يطلب من الآخرين أن يتحلوا بالمنطق، والبعض يصرخ، البعض يستشهد بالتلفزيون، والبعض بأحد الزبائن، والبعض بأحد جيرانه، وبعض آخر بـ «أستاذي»، ويطول الجدال.

قال أتيلا:

- لنغلق هذا الموضوع أيتها الفتيات. ففي كل الأحوال لن نصل إلى نتيجة. فكما أنه لا يستطيع أن يرقص مثلكن، لن نستطيع نحن معرفة ما يعرفه، ذلك أننا لسنا ثوريين مثله.

- ولِمَ ذلك؟ اندفعت إحدى النساء تقول: هل يتخرج الثوريون من مدارس؟ أم يحصلون على دورات تعليمية؟

- طبعا يا عزيزتي «أداء»، أجابتها امرأة أخرى، سمعت ذلك قبل أيام في التلفزيون، قالوا بأنهم يتخرجون في الجامعات.

- لم أكن أعرف بوجود كلية في الجامعة باسم كلية الثورة.

- طبعا لا وجود لها.

- إذن؟

- إذن ماذا؟

- إذن فأستاذنا لم يتخرج في مدرسة الثورة.

- وماذا في ذلك؟

- وماذا سيكون؟ لم يتخرج من مدرسة الثورة، لكنه ثوري مع ذلك. مرة أخرى أخذ أتيلا يد رسول في يده، حدق في عينيه، كأنه يشرب منهما:

- أتسمح لي يا أستاذي أن أسألك عن مهنتك الأساسية؟

- أنا شاعر.

- أرأيتم؟ إنه شاعر. هذا يعني أنه ليس ثوريا.

لم يرق لرسول قط عدم اعتبارهم إياه ثوريا. ولكن ليس من غير المحتمل أن هؤلاء الناس المتحمسين يخبئون تحت ألسنتهم شيئا ما. رأى أن عليه أن يشارك في النقاش ليصحح الخطأ وليفهم هدفهم السري إن وجد، قال:

- كل من ماو وهوشي كان شاعرا.

نظرت النسوة بدهشة إلى وجهه، كما لو أنه تحدث بالصينية. أراد أتيلا أن ينوِّرهن:

- يريد أستاذنا أن يقول إن الثورية هي مسألة فكر. أي أنه من الممكن أن يكون الشعراء ثوريين، ولكن عليكن التهام خبز عشرة مخابز لكل منكن حتى تفهمن في الثورة. أليس كذلك يا أستاذي الجميل؟

لم يعجبه هذا الإيضاح أيضا، خلص يده من يد أتيلا وشرب بضع جرعات من كأس البيرة، قال:

- لعلك على حق في نقطة واحدة. إن فهم النظرية الثورية يتطلب معرفة بالتاريخ والاقتصاد والفلسفة وعلم الاجتماع، وحتى الرياضيات. لكنك مخطئ في نقطة أخرى: فمن الناحية العملية، الثورة تهمنا جميعا، ذلك أن الثورة هي خلاصنا جميعا، ونحن جميعا...

في تلك اللحظة انبثق أمامه رجل بدين وضخم على صلعته جرزة من الشعر تنطلق من نقرته لتدور بضع دورات فوق رأسه ثم تلتصق في أعلى جبينه، صرخ قائلا:

- لكن هذا رسولنا! نعم رسول بذاته! عرفته من أول نظرة! رسول! شيء لا يصدق!

بهت رسول. ووقف الآخرون وعلى رأسهم أتيلا ووضعوا أيديهم فوق بطونهم، وراحوا ينقلون نظرات عيونهم الجاحظة بين القادم الجديد ورسول. القادم الجديد لم يكترث بهم قط، دار حول الطاولة حتى أمسك بذراع رسول وأنهضه على قدميه،

ثم عـانقـه باندفـاع، قـبـله من خـديه، تـراجع خطوتـين ورازه من رأسـه وحتى قدميه:

- ياالله! انظر إلى رسـول! عرفتـه من أول نظرة. عرفتـه حتى في هذه الهيـئـة. طيب يا رسـول، قل لـي مـا هـذه الهيـئـة؟ هل كنت في عرض أزياء؟ وما الذي أصـاب عينك؟

كان رسـول ينظـر إليـه بدهشـة، لكنه لم يـرض أن يتـرك السـؤال الأخير بلا جواب:

- إنها هدية صغيرة من الفاشية.

- هدية من الفاشية؟ ما معنى ذلك؟

أراد رسول أن يوضح، لكن أتيلا تدخل في الحديث:

- لقد هبط على الفاشية كرم مفاجئ وراحت توزِّع على الثوريين هدايا رأس السنة! ذلك أن الأستاذ ثوري.

عبس الرجل، كان يريد أن يتكلم، لا أن يصغي إلى أتيلا. قال:

- أعـرف، أعـرف. إنه ثوري، إنه جندي مـجـهـول فـي إحـدى المعـارك، إنه مـتقـدِّم على أبيـه الذي مـات، ومتـأخـر عن ابنه الذي سيولد.

عانق رسول ثانية وقبله، ثم قطب حاجبيه فجأة وسأله:

- لكن وجهك في وضع سيئ! هل أنت مريض؟

أمـسكه من ذراعـه وأجلسـه، ثم جلس قـبـالتـه. نظـر إلى الناس الذين تجـمعـوا حول الطاولة وصـرخ بهم: «يا لكم من طبـلات غبيـة ولاك! قـد وقـع بـين أيديكم صـديق مـن أصـدقـاء الصـبـا، وأردتم أن تعـملوا له خـازوقـا! وأي خـازوق! ثلاثة جظ مظ، زجـاجـتـا بيـرة، واحدة ويسكي وعـدد من كؤوس كوكتيل البوليـر. يا لهـا من فاتورة!

لقد أدهشتني فقلت لنفسي لأرى من هو الحمار الذي يأكل الجظ مظ هنا. ومن رأيت؟ عزيزنا رسول! أيفعل مثل هذا بي ولاك؟

تدخل نادل أصلع مثله:

- وما أدرانا يا معلم؟

- وما أدراه! وهل كنت تريد أن تخوزقه وأنت تدري!

مزق الفاتورة ودسها في يده قائلا:

- هيا بسرعة، املأوا هذه الطاولة بما لذ وطاب. على شرف رسول!

طلب من الآخرين أن يجلسوا، ثم قال كأنه يتحدث إلى نفسه:

- ما أغرب هذا! لو رأيت الموقف في منامي لما صدقت: بعد كل هذه السنوات وفي هذا الوقت من الليل يظهر رسول أمامي بعين متورِّمة وهيئة فتى على آخر موضة! وفي ملهاي بالذات! شيء لا يصدق!

حدق فجأة في رسول:

- لِم لا تفتح فمك قط؟ هل أنت على قطيعة معي؟ أم أنك لم تعرفني؟

هز رسول رأسه وقال:

- اعذرني، لم أعرفك.

لقد اشتهر بذاكرته الفولاذية ليس فقط بخصوص ما يقرأه، بل أيضا بخصوص كل من يراه، لكنه لا يعتقد أنه سبق ورأى هذا القبضاي المكِرشّ، بالإضافة إلى أنه شعر بدوار رهيب حين شده الرجل من ذراعه وأوقفه، ولا يزال يشعر بالدوار. نظر إليه مرة أخرى وقال: «لا. لم أعرفك». في هذه اللحظة خطر له أن هذا

هو الرجل الذي سيقدم له الإيضاحات التي ينتظرها، ولعله دس شيئا ما في جيبه حين عانقه، شرع قلبه يخفق بقوة.

- هكذا هي حال الدنيا! هدر الرجل يقول، سمه أنت رسولا، ثم لا يتعرف عليك! (أطلق ضحكة رخوة)، آه من تلك الأيام الشقية! كم ضحكنا تلك الليلة! ليس كذبا أنك انزعجت قليلا، ولكن في النهاية حتى زوجتك أعجبها اللقب. التفت إلى الجالسين، نعم أنا سمَّيت هذا الرجل رسولا، لكنكم ترون . حتى لم يتعرف علي!

ابتسم رسول:

- الآن عرفتك. أنت معروف. معروف المطرقجي.

فكر بأنه ربما متنكِّر مثله من أجل الثورة في بذته الكحلية ذات الخطوط البيضاء المتعامدة وقميصه الحرير ذي الخطوط الزرقاء المتعامدة، والبروش الضخم المحلى باللؤلؤ فوق ربطة عنقه؛ ولكن سرعان ما ظهرت علائم الشك على وجهه: في الوقت الذي جاء لينضم هنا إلى الثوريين، من المحتمل أن يكون قد اعتقل. قطب حاجبيه وسأله: «هل أرسلك فهمي؟».

دهش معروف المطرقجي:

- فهمي؟ أي فهمي؟ آه، فهمت! أنت تقصد فهمي غولمز! هل جننت يا عزيزي رسول؟ هل ينزل فهمي غولمز إلى مستواي؟ في وقت ما سألت عنه ربما مئة مرة، تركت له عناوين وأرقام هاتف. لكنه حتى لم يتصل. مع أنه كان ثمة نفع لكلينا. كان بوسعنا أن نقيم علاقة عمل جيدة. كان حصل على فتياته من عندي.

- فتياته؟ أي فتيات؟

- أي فتيات تريد! ألم تفهم؟

- وكيف لي أن أعرف!

- صحيح، كيف ستعرف؟ لكن هذا الأمر يعرفه كل الناس. رجال الأعمال الكبار يأتيهم ضيوف كبار. ولأن هؤلاء الضيوف يعملون كثيرا في النهار، يتعين أن يتسلوا جيدا في الليل.

- وهل أصبحت خبيرا في هذا العمل؟

- ليس كثيرا.. ولكن لدي خبراء جيدون. أنا أنظِّم العلاقات مع المؤسسات الكبيرة، ويقوم خبرائي بتلبية احتياجاتهم.

جعد رسول وجهه باشمئزاز وقال:

- النظام البورجوازي اللعين!

- وماذا بوسعك أن تفعل يا صديقي العزيز؟ بعض الناس يقعون على قوائمهم الأربع(*) مثل صاحبك فهمي غولمز، وبعض آخر يريد الصعود فيغطس حتى أنفه في الوحل. وأنا غطست، أمَّنت لأرباب العمل المشروب المهرب والدخان المهرب والكافيار المهرب... إلخ، افتتحت مطاعم وملاهي وفنادق، أخيرا عبرت الحاجز إلى الأعلى.

- كان الجميع يقولون بأنك ستصبح معلم فلسفة ممتازا.

ضحك معروف المطرقجي هازا كرشه:

- هل رأيت طوال هذه السنوات اختصاصيا واحدا في الفلسفة في هذا البلد؟ ثم أضاف وهو يضحك ثانية، فضلا عن أن عملي هذا يتطلب معارف فلسفية، يتطلب المنطق والدقة. من يعرف؟ لعلني ارتفعت بهذه السرعة بسبب استيعابي الجيد للفلسفة!

قال ذلك وهو يحدق في رسول. لم يجبه هذا بل فكر: «نعم، يبدو أن هذا الرجل قد غير من هيئته وشخصيته من باب التمويه.

(*) إحالة إلى المثل القائل إن القط يقع على أربع. اي لا يتأذى (لأنه بسبعة أرواح).

ولكن لِمَ اختار هذه الهيئة وهذه الشخصية؟».

سأل المغني أتيلا:

- ينادونكم بالأب(*) أيها المعلم، أهذا صحيح؟

- نعم صحيح، فأنا أب لأربعة أولاد، كل واحد منهم من زوجة مختلفة.

هتفت واحدة من النساء الجالسات:

- معلِّمي السبع!

لم تكتفِ بالهتاف بل صفقت بحماسة.

انضم الآخرون إلى التصفيق، أما رسول فقد حدق في السقف وتنهد بعمق. لقد أدرك مرة أخرى أن ناظم كان على حق مئة في المئة حين انتقل إلى الفعل المباشر دونما انتظار للحظة التي تتمركز فيها كل وسائل الإنتاج في يد حفنة من أصحاب الامتيازات، إذ إن تأخر الثورة لا ينتج عنه سوى انحطاط البشر. إن التأخر يمكن أن يصيب الثورة بالجراثيم المعدية. هاهو معروف المطرقجي، ذاك الفتى الذي كان يدهِش الجميع بمنطقه الرشيق، صديقه الذي لقب سترة فريدة بـ «الشقراء». إذا لم يكن يمثِّل، فقد انحط وتفسخ. بما أن كل شيء ينبع من النظام البورجوازي اللعين لما قبل الثورة، فليس واردا أن يغضب منه لكنه يشعر بالشفقة عليه. نظر إلى وجهه بإشفاق وسأله:

- طيِّب، هل أنت مسرور من هذا؟

أطلق معروف المطرقجي ضحكة صاخبة:

- يا له من سؤال! أأنا مسرور؟ أوتظن يا عزيزي رسول أن لدي

(*) الأب يعني العراب، أي زعيم عصابة مافيا.

الوقت لأوجع رأسي في أمور كهذه؟ أنا أهتم فقط بمواصلة عملي وزيادة حجمه. تماما مثل صاحبك فهمي غولمز! إنها لمرحلة.. لست تملك أي فكرة عنها! كل واحد يقوم بثورته الخاصة بنفسه. يحدث لي من حين إلى آخر أن أشمئز من كل شيء، لكن المفارقة أني أزداد حبا لعملي كلما سبب لي الاشمئزاز أكثر. لأنه يبدو لي أن الجميع يقتدون بي من أكبرهم وحتى أصغرهم، وينتهجون نهجي.

- تقصد عملك (...)؟

- نعم!

- لماذا؟

- وما أدراني لماذا! افهمها أنت بحساسية الشاعر الثوري.

احتسى معروف المطرقجي جرعة من الويسكي وتابع يقول: «ما هو مؤكد هو أن لا شيء بقي على حاله أيام شبابنا. لقد تفسخ كل شيء.

سأل المغني أتيلا بسذاجة مصطنعة:

- أصحيح يا معلم؟ هل يريدون تغيير اسم تركيا؟

- أف منك! الليلة هبطت عليك روح النكتة!... والحق أن ثمة شيئا من الصواب في سؤالك. أجل، هو كذلك، يريدون تغيير اسم البلاد قريبا جدا.

أعجب رسول بجواب صديقه القديم، ولكن تعين عليه أن يعارض هذه الرؤية السوداوية بإفراط، بصفته واحدا من شعراء جيل الأربعينيات المكلفين بالتبشير بالأيام الجميلة القادمة، فقال:

- إن الثورة ستوقف قريبا جدا هذا المسار الرديء.

- لا؟ صحيح؟ أي ثورة؟

تحسس رسول حقيبته بطرف قدمه وأجاب:

- الثورة المسلحة. ولذلك ينبغي أن نساند الشبان الثوريين.

- هل تسخر مني يا رسول؟ أينبغي إذن أن نتخلى عن كل شيء ونعلّق آمالنا على الأولاد؟ أننضم إليهم؟ نتخذ أسماء حركية؟ دعك من ذلك يا رجل! في رأيي أن تعليق الآمال على نبوءة ماركسك أفضل بكثير: على الأقل تجلس وتنتظر بدلا من قتل الأبرياء. وإذا كان هؤلاء الرضع راحوا يطلقون النار على من يصادفونه باسم مبادئ ماركس، فالذنب جزئيا ذنبك يا صديقي: فقد انسحبت بسرعة ولم تؤد واجبك التثقيفي!

- أنا لم أتخل عن ثوريتي في أي وقت.

تدخل آتيلا المغني مرة أخرى:

- أرأيتم؟ أستاذنا مارس الثورة بصورة متواصلة.

توتر معروف المطرقجي وصرخ به:

- أتيلا ولاك! سأقترف حادثا هذا المساء! لقد زمرت كثيرا!

ثم التفت إلى رسول:

- أما زلت تكتب الشعر؟

- ليس كثيرا. أنت تعرف، كمختص في الفلسفة، أن كل شيء يتعلق بالزمن، والأصح أنها مسألة الأجيال. وأنا...

أراد أن يقول له إنه أحرق كل السفن، وخرج للانضمام إلى الثورة المسلحة باعتباره شاعرا يحس بميول عصره، لكن آتيلا المغني قاطعه مرة أخرى ليسأل معلمه إن كانوا سيستمعون إلى بضعة أبيات للشاعر الوسيم أم لا. وكان المعلم قد أنهى ثلاث كؤوس من الويسكي منذ جلوسه إلى الطاولة، فأعجبه الاقتراح

وألح على رسول أن يتلو عليهم بضع قصائد، وأيدته النساء. اضطر رسول أمام هذا الإلحاح إلى الرضوخ، غير أنه آثر أن يلقي من شعر ناظم بدلا من قصائده الخاصة، فتلا عليهم قصائد «الأوركسترا» و«حافي القدمين» و«ربما أنا» و«الحرية الحزينة» على التوالي، ثم انتقل إلى «أغرب مخلوق في العالم» وقد ثبت عينيه في عيني معروف المطرقجي وهو يقرأ الأبيات الأخيرة من تلك القصيدة:

«وإذا كنا جوعى ومنهكين وغارقين في دمائنا

وإذا كنا لا نزال نسحق كحبات العنب لنعطي نبيذا

- لا يطاوعني لساني أن أقول -

إن الذنب ذنبك.

لكنَّ أكثر الذنب ذنبك، يا أخي العزيز!».

ترى هل استاء معروف المطرقجي من حديث صديقه، أم أنه ضاق ذرعا بإصغائه إلى عدد من القصائد المتتالية؟ نادى على النادل الأصلع:

- يا قرعة! لا تتطلع ببلاهة هكذا! ائتنا ببضع أطباق من الفاكهة(*)! لنغير الجو، فقد أتعبنا رسول.

تحمس رسول، فقال:

- هذه أشعار ثورية يا عزيزي، إنها لا تتعب المرء.

هتف آتيلا المغني كأنه كان ينتظر هذا التصريح:

- إذن هيا كلنا معا: عاشت الثورة!

فهتفت النساء بصوت واحد:عاشت الثورة! أدمعت عينا رسول:

(*) مسجوعة في النص الأصلي.

فكر أنه من المفرح حقا أن يهتف هؤلاء الناس الجهلة بل المنحطين الذين كرسوا حياتهم لتسلية البورجوازيين «عاشت الثورة!» في مرحلة يخرج فيها نظام القمع في حملات لصيد الثوريين، مندفعين بالحماسة التي ولدتها فيهم بضع قصائد لناظم. أراد أن يقول هذا لمعروف المطرقجي. لكن هذا أشار له إلى أربعة رجال يرتدون بذات كحلية مخططة بالأبيض ويحملون أربع حقائب منتفخة، وقفوا باستعداد على بعد متر منهم:

- أستأذنك لنصف ساعة يا صديقي لأتسلم من هؤلاء الرجال حصيلة اليوم. سنلتقي بعد ذلك ثانية.

- بالطبع سنلتقي.

حركات الرجال الأربعة العسكرية أيقظت فيه أملا، فأضاف يقول: «سأنتظر عودتك بفارغ الصبر». لكن ما حدث له، بعد قليل من الانتظار، كان شبيها بما حدث له في مقصورة حارس المقبرة، فقد أسند رأسه إلى الطاولة بالرغم من إرادته، وغفا حالا.

راقبه المتحلقون حول الطاولة بنظرات تمتزج فيها الدهشة بالسخرية. وحين بدأ رسول يشخر بشدة، تحولت الدهشة والسخرية إلى قشعريرة خوف، ظلوا فترة جامدين هكذا إلى أن كسرت امرأة ذات ثوب وردي الصمت:

- لقد استغرق المسكين في النوم. يستحسن أن نمدده على تلك الكنبة هناك.

حمله آتيلا المغني والنساء الخمس وعدد من الندل، ممسكين به من رأسه وقدميه وخصره وتحت إبطيه، إلى الكنبة حيث أضجعوه على ظهره، وأسندوا قدميه الطافحين في الفراغ بأحد

الكراسي. لم يصدر عنه صوت وانقطع شخيره أيضا. فقط أنّ قائلا: حقيبتي!» عندما وضعوا الكراسي تحت قدميه.

حقيبتك هنا يا أستاذي الجميل، قالت المرأة ذات الثوب الوردي وجاءت بالحقيبة التي دستها تحت قدميه، وقالت: «يا للمسكين!». ثم قالت إنه لن يرتاح هكذا فجلست على الكنبة وأسندت رأس رسول إليها وقالت لزميلاتها: «هكذا أفضل. اذهبن وكلن الفواكه». بدت بثوبها الوردي اللماع وأساورها الذهبية مثل أم منتصف العمر ينام في حضنها رضيع عملاق. حين عاد معروف المطرقجي بعد أن دقق حساباته وجد رسول لا يزال نائما في حضن المرأة ذات الثوب الوردي. رفع أتيلا إصبعه إلى شفتيه وهمس: «صه! السيد رسول نائم!».

لم يضحك معروف المطرقجي، ولا قال شيئا. انحنى فوق صديقه وحدق فيه مطولا. ثم غمغم يقول: «يا رسولي المسكين! لا بد أنه في ورطة كبيرة! هذا واضح من أثر اللكمة على عينه. وهذه الهيئة العجيبة، ترى من أين أتى بها!». استقام في وقفته، التفت إلى آتيلا المغني: «أنت تسخر منه، لكنه كان بالفعل فتى معتبرا. لقد كان شاعرا موهوبا ومنجما للمعارف. وكم كان وسيما! كانت النساء يرتعشن حين يرينه كأنهن صعقن بالكهرباء. نادرا ما صادفت من بمثل وسامته».

- ألا يزال كذلك الآن يا معلم؟

- نعم، لا يزال كذلك، قال معروف المطرقجي وتنهد، أنت تفهم في هذا الأمر، لكنك لم تره في شبابه. رسول هذا لا يستطيع أن يكون حتى جدا لذاك الذي عرفته أيام الصبا.

التفت آتيلا المغني إلى من حوله وقال:

- لقد هبط الوحي الشعري على معلمنا هذه الليلة.

تظاهر معروف المطرقجي بأنه لم يسمع، انحنى وداعب شعر رسول الأبيض، ثم أمسكه فجأة من كتفيه وبدأ يهزه ويناديه: «يا رسول! يا رحمي! يا رحمي!» فتح رسول عينيه قليلا ثم أغمضهما من جديد، ودمدم بكلمات غير مفهومة. سمعه معروف بك بصورة غير واضحة يقول ما يلي: «هيراقليط! هيراقليط! هل من الممكن وقف المياه الجارية؟»، فنهض وقال :

- قلت لنفسي ماذا لو مات الآن؟ فاقشعر بدني. تصوروا! مضت سنوات طويلة لم نلتقِ فيها، بل لعلنا نسي أحدنا وجود الآخر. ثم يظهر لي فجأة في منتصف الليل ويسلم الروح في نادِيَّ الليلي! أليس هذا رهيبا؟!

تدخل أتيلا:

- نعم يا معلم، إنه جميل بصورة رهيبة! حقا لقد هبطت عليكم شاعريتكم الليلة!

ابتسم معروف المطرقجي:

- لنعد إذن إلى الواقع. ماذا نفعل الآن برسول النائم هذا؟

- ما تشاؤونه أنتم يا معلمي. فإذا شئت جعلناه يسلم الروح كما أمرتم قبل قليل في ناديكم الليلي.

أجفل معروف المطرقجي كأن الاقتراح حقيقة، واندفع يقول:

- لا، لا! أنا أريد أن أساعده، أن أحل له مشكلته إن وجدت. ولذلك سأتحدث إليه غدا برأس صاح. أريده أن يقضي هذه الليلة بصورة جميلة.

تدخل أحد الرجال ذوي البذات الكحلية:

- حسنا يا معلم، ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأنت ترى المسكين وقد فرغت بطارياته. لا شيء بوسعنا أن نفعله سوى حمله ونقله إلى سرير، قال ذلك ثم أدرك أنه تمادى بعض الشيء فأضاف يقول: «على الأقل هذه الليلة».

فكر معروف المطرقجي قليلا ثم قال:

- لا، أنا لا أشاطرك الرأي. انقلوه فورا إلى الفندق في الأعلى، أضجعوه في غرفتي. وابحثوا عن مريم وأحضروها أينما كانت. قولوا لها ألا تريني وجهها ثانية إذا لم تنجز هذا الأمر الليلة! هل فهمتم؟

تدخل واحد آخر من الرجال ذوي البذات الكحلية:

- أتعتقد يا معلمي أن بوسع مريم أن تحيي هذا الميت؟

- نعم، نعم تحييه! هيا أسرعوا، فقد تأخر الوقت كثيرا!

اندفع الندل حالا لتنفيذ الأمر، حملوا رسول جماعة واتجهوا نحو الباب. صرخت المرأة ذات الثوب الوردي: «نسيتم حقيبته! خذوها معكم!».

- ٦ -

لطالما استخف رسول بالأحلام باعتباره ماديا حقيقيا، غير أنه هذه المرة، في طريقه من حالة الحلم إلى حالة الوعي، بل قاب قوسين أو أدنى من حالة الوعي، توقف فجأة ولم يفتح عينيه: هذه اليد التي تحط على مناطق مختلفة من جسده وترتفع مثل صنعو(*) لا يمكن أن تكون سوى يد فريدة: كانت على وشك أن توصله إلى حالة الانبساط التي سبق لها أن أوصلته إليها ذات مرة - مرة واحدة فقط - قبل سنوات، وفعل الليلة ما فعله في تلك الليلة البعيدة.

بعد وقت طويل وهو ينتقل صعودا من الأعماق إلى السطح، كان لا يزال يحس - وإن بصورة واهنة - بالرعشة التي خلفها تفاعله مع الحدث، ولا يريد - لهذا السبب - أن يفتح عينيه. لكن هذا الإحساس راح يفقد بعد فترة وضوحه، والأكثر غرابة من ذلك أنه بدأ يتبذل باطراد وينقلب إلى نقيضه كما لو أنه يريد أن يكذب أن التاريخ يسير بنا قدما نحو الأفضل والأجمل. وأخيرا شعر بثقل رهيب يشده إلى الأسفل، إلى أعماق الأرض. غرزيا أراد أن يستقيم لكنه أدرك أنه منهك إلى درجة لا تسمح له حتى بتحريك لسانه داخل فمه، دع عنك أن يستقيم. فكر قائلا: «ما الذي يحدث؟ أتراني أموت؟». في اللحظة ذاتها تحرك الثقل الرهيب الذي يكبل يديه نحو بلعومه في صورة سائل محرق يذيب

(*) الصعو: طير صغير. وقد كان لقبا للمرحومة فريدة.

كل ما يصادفه في طريقه، كما لو أنه يريد أن يأتي بجواب إيجابي عن سؤاله. أراد أن يقاوم تلك الموجة فأطبق فمه بإحكام، ولكن ما إن تجاوزت الموجة بلعومه حتى انفتح فمه تلقائيا وراح ذاك الشيء يتدفق من فمه موجة بعد موجة، على الرغم من استلقائه على ظهره، ذاك الشيء الذي لم يعرف ولم يحاول أن يعرف إن كان يتكون من انصهار كل شيء في أحشائه، أم من شيء آخر. بجهد يفوق طاقة البشر أدار وجهه جانبا نحو حافة السرير، ثم أدار كل جسده.

عندئذ تسارع التيار إلى درجة استسلم فيها للاعتقاد بأن جسده بأسره سيتحول إلى سائل محرق ولزج ومقرف ويفرغ بحيث لن يبقى من وجوده بعد بضع لحظات سوى قشرة مجعدة وفارغة. قال لنفسه: «إني أموت. نعم، إني أموت». ثم انتبه - وهو على وشك فقدان الشعور حتى بالإنهاك والثقل - إلى سطوع العالم بالضوء وأحس باليد التي تحركت على جسده في الحلم وهي ترفع رأسه وتحاول تركيزها فوق الوسادة، فتمتم: «فريدة!» وفتح عينيه. في البدء لم ير أي شيء، ثم انبثق أمامه ببطء وتدرج، مثل وردة تتفتح وجه امرأة، تخيل بأن فريدة واقفة قربه، وحاول أن يجلس وإذ رأى أمامه وجها يحيط به شعر أسود طويل خال من التجاعيد، أسقط رأسه ثانية فوق الوسادة: ليست فريدة. إنه يرى أمامه فتاة تبتسم لم تسبق له رؤيتها أبدا وفي أي مكان. ولكن كم بدت قريبة وجميلة ونظيفة وغضة كأنها ولدت من فعل الحب الذي جرى في حلمه. مهما يكن، نسي خيبة أمله ومذاق النحاس المر في فمه، وجسده الذي يستشعره كسائل مقرف، ونظر إليها

بحب، ثم فكر بأنه ربما في حلم جديد، وأن هذا الوجه الذي لم تمسسه يد، الذي ينحني فوقه مبتسما، قد يمحى ويتلاشى في أي لحظة. وحين سألته بلكنة قروية بعيدة: «كيف حالك الآن؟ هل تحسنت قليلا؟»، بهت كما لو أنه أمام إحدى المعجزات. ثم استجمع كل طاقته ليقول متأتئا:

- من أنت؟ ماذا تفعلين في بيتي؟

- اسمي مريم. أرسلني إليك المعلم.

فكر مرة أخرى أنه في حلم، سألها:

- المعلم؟ أي معلم؟ هل تقصدين فهمي؟

- لا، بل معروف بك! سمعت أنه صديقك.

قالت الفتاة ذلك ثم وقفت من غير أن تنتظر جواب رسول، أدارت ظهرها ومشت نحو باب مزجج، وعادت بمنشفة بيضاء. وقفت أمامه وفي يدها المنشفة، تبتسم بهدوء يستعصي على التعبير بدا له أن ما قالته قبل قليل هو أول كلمات تتلفظ بها على الإطلاق. وكذلك حين جلست على حافة السرير ونظفت فمه وذقنه وعنقه بالمنشفة البيضاء، ثم سحبت الشرشف من تحته ورفعت رأسه بانتباه لتغير وسادته، بدت له دائما كأنها تقوم بذلك للمرة الأولى. سألته:

- كيف حالك الآن؟

- أنا بخيغ(*)، لكني أشعغ بشيء من الغثيان.

ابتسمت مريم وقالت له:

- أذكر أن عندي دواء.

(*) نذكر بأن بطلنا يلثغ بحرف الراء ويلفظها غينا.

فتشت داخل محفظة كانت فوق الخوان، ثم جاءت بكأس من الماء وجلست ثانية على حافة السرير، رفعت رأسه بإحدى يديها، وألقمته أقراص الدواء باليد الأخرى، ثم سقته ماء وقالت له: «هذه الأقراص ستقضي على شعورك بالغثيان بصورة تامة. سأطفئ الضوء الآن حتى تنام قليلا».

وما كان رسول يريد شيئا غير هذا.

لكن مريم لم تتركه، وهي تقول: «سوف تقع على الأرض. بالإضافة إلى أن تلك المنطقة رطبة».

ثم أضافت: «وهروبك مني أمر في غاية السخف، بعد كل ما فعلناه».

استقام رسول جالسا وتأتأ يقول:

- بعد كل ما فعلناه؟ وما الذي فعلناه؟

داعبت مريم لحيته في الظلام:

- لم نفعل شيئا سيئا. ولكن عليك أن تفهم ماذا فعلنا..

- ما معنى ذلك؟

- وماذا سيكون بين رجل وامرأ؟.

- لكني كنت نائما، قال بأنين، أبعد يدها من فوق كتفه وسألها: ولم فعلت هذا؟ من الذي طلب منك أن تفعلي؟

- معروف بك.

- ولكن لا يفعل المرء شيئا مثل هذا لأن معروف بك طلب ذلك! ألم تخجلي؟ ألا تعرفين ما يسمى هذا؟

- أعرف. لكنه مهنتي. كما أن طلبات معروف بك لا ترد.

ثم دخلت في تفاصيل واسعة، لأن نومها انقطع، ولأنها تستمتع بالحديث مع هذا الرجل العجوز: بالفعل ما كان بوسعها أن ترفض

طلبا لمعروف بك. فضلا عن أنه هددها بالقول: «إذا لم تنجح في هذا الأمر، لا أريد أن تراها عيناي ثانية!» كان عليها إذن أن تقوم بالعمل شاءت أم لا، لأنها لا تريد العودة إلى حياتها السابقة البائسة. لا شك أن حياتها الراهنة لا تروقها أيضا: لكن معروف بك قال لها إنها إذا ما صبرت بضع سنوات فسوف تجمع مبلغا محترما ويكون بوسعها أن تترك هذا العمل. وليس كذبا ما قاله: فمنذ الآن لديها مبلغ لا بأس به. أما أكلها وشربها وأقراطها وخواتمها وأساورها فهي مجانا!

صرخ رسول:

- إذن معروف هذا شخص سافل!

ثم ترك رأسه يسقط على الوسادة كأن تلك الصرخة قد استهلكت كل طاقته. تمددت مريم بجانبه وشدت اللحاف حتى ذقنها:

- لا. غير صحيح. أنت مخطئ. إن معروف بك رجل طيب جدا. على الأقل من غير الإنصاف أن أغضب عليه لأنه شغلني في البغاء. سبق وقلت لك، أنا لا أستسيغ هذا العمل، لأنني أقابل أحيانا رجالا أقبل أن أعطيهم ثلاثة أضعاف ما أعطوني لأهرب منهم، ولكن ليس كل الرجال مقرفين مثل أولئك.

- رهيب، رهيب! غمغم رسول، والأصح أن. أن تصل فتاة غضة وجميلة إلى هذا الحد إلى وضع تستمتع فيه بحياة مثيرة للاشمئزاز إلى هذا الحد، فهذا هو آخر دركات الانحطاط الرأسمالي. كرر يقول: «رهيب! رهيب! رهيب!».

لم تقل مريم شيئا، وفكرت كيف بدا لها رسول في البداية

منفرا مثل كل الرجال الآخرين، بل إن لحيته البيضاء وشخيره المخيف قد أصاباها بالغثيان. ولكن بعد أن شرعت في العمل تغير موقفها، وهي تقول لنفسها: «يا إلهي ما أجمله من رجل! ما أجمله من رجل!». فجأة استقامت بحماسة ونظرت إلى وجهه مطولا تحت الضوء الشاحب المتسرب من خلال النافذة، فكرت بالشيء نفسه وعانقته بشدة وهمست له:

- قلت رهيب، ولكن لم تقل ذلك؟ حتى الطيور، حتى الذباب يفعل هذا.

كان رسول على وشك أن يغفو. توترت أعصابه لأنه من جهة منع من النوم، ومن جهة أخرى رأى في كلامها إصرارا على الانحطاط، فغمغم بغضب:

- أنا لست بذبابة، ولم أطلب من أحد أن يرسل لي نساء. لم يسبق لي أن خنت زوجتي. بسببك وقعت في تلك الخطيئة.

شعرت مريم فجأة بالبرد، سألته:

- آه.. أنت متزوج إذن؟

- أجل، متزوج.

قالت له بصوت راعش مذنب:

- لم أكن أعرف. سامحني.

ثم أحست بثقل الإثم الذي تطوعت لحمله، فأرادت أن تتخلص منه:

- ولم تركت زوجتك وجئت إلى هنا إذن؟

- ماتت.

- اعذرني. لم أكن أعرف. البقية في حياتك.

فكرت مريم بأن معروف بك قد أرسلها إلى هذا الرجل الجميل حتى ينسيه ألمه بفقدان زوجته، أرادت أن تغير الموضوع فسألته:

ـ عدم المؤاخذة على السؤال: ماذا تعمل؟

ـ أنا شاعر.

ـ بما أنك صديق لمعروف بك، فلا بد أن عملك يدر نقودا كثيرة. لكنك مسن للغاية. ألم تتقاعد بعد؟

لم يدر ما يقول أمام هذا السؤال الساذج، فكر أن هذا وحده سبب كاف لتقويض النظام البورجوازي. قال لها:

ـ لا تقاعد في مهنة الشعر، تستمر مدى الحياة، تماما مثل الثورة.

ـ اسم الشارع الذي فيه بيتي السابق هو الثورة. ثم غيروه إلى شارع الانكشاف. لكن أهل الحارة يسمونه منذ القديم بشارع البيطار أحمد بك. إذن لا تقاعد في مهنتك؟

ـ نعم، لا تقاعد فيها.

ـ الحق أني لم أحب هذا المكان. أريد أن أتقاعد بسرعة. وسوف أفعل. ليسلم معروف بك، يقول لي لا تنشغلي بذلك أبدا.

لم يرد عليها. وما الحديث الذي يمكن تبادله مع امرأة عديمة الثقافة مثلها؟ فضلا عن أنه بدأ يغضب منها: مهما بلغت من انعدام الثقافة فلا يمكن التسامح معها أبدا إزاء تفكيرها بالتقاعد من مهنتها وهي التي تملك من الجمال ما يمكن أن يكون رمزا للطهارة. تنهد بعمق بفعل الحزن الذي تسببه علاقته معها. سألته مريم: «هل يستعصي عليك النوم؟» «أكنت تحبها كثيرا؟»

تصاعد غضب رسول:

- نعم، أحببتها كثيرا. الا يعجبك ذلك! نعم أحببتها كثيرا. ثم خلتها بسببك.

- بالله عليك يا عم! إنك تبالغ كثيرا، أنت رجل، مثل كل الرجال.

- أنا لا ...!

لكن صوته خرج واهنا جدا: ذكرته ملاحظة مريم بحفيده: واحدة تذهب وأخرى تأتي إلى ناظم، ولكن كل أولئك البنات لم يمنعن ناظم من أن يكون ثوريا حقيقيا: لقد كان ناظم أكبر ثوريي جيله. هل هذا الأمر أيضا مسألة أجيال؟ قبل أن يجيب بنعم منطلقا من نفسه تذكر ناظم الكبير: بما أن نساء عديدات مررن بحياته هو أيضا، فلا يمكن أن تكون المسألة مسألة أجيال. هذا يعني أن إخلاصه لفريدة مجرد حالة شخصية. إن علاقته بهذه المرأة تجرحه كشخص، ولكن ليس كثوري. تنفس بارتياح. ثم تذكر زوجات ماو العديدات، وعلاقات هيغو مع كل امرأة صادفها أيام حياته، أي في سن متأخرة جدا، فلم تبق سوى شعرة بينه وبين أن ينظر إلى امرأة بهذا الوجه الناصع في هذه الغرفة التي لا يعرفها، باعتبارها علامة على صحة الطريق التي يتبعها. اجتاح أناه شعور بالنعاس لا يقاوم ممزوجا بارتياح كبير. قال لها:

- لي رجاء عندك يا ابنتي.

- مُرّني.

- هلا أيقظتني باكرا في الصباح؟

- نعم. لك ذلك.

قالت ذلك وابتسمت وهي تنظر إلى النافذة وقد أضاءها ضوء الصباح الشاحب. إذا كان يريد الوصول إلى مكان ما، يكفيه أن

ينهض حالا وحسب. وهكذا يصبح بإمكانها أن تعود إلى بيتها هي أيضا مرتاحة البال بما أنها نفذت المطلوب منها. لكنها لم تكن ترغب قط في أن تترك هذا الرجل العجوز وحيدا. انحنت فوقه بلطف: إنه يذكر بالموتى وهو نائم في هذه الوضعية مفتوح الفم مسبل الذراعين إلى الجانبين، قالت لنفسها: «المسكين... كأنه بنصف عقل؟» تمددت بجانبه وشدت اللحاف إلى صدرها، وسرعان ما غرقت في النوم. ولأنها لم تنم الليلة الماضية أيضا، كان بوسعها الآن أن تنام طوال اليوم. لكن جرس الهاتف رن في أحلى لحظات نومها.

طلب منها معروف بك ألا تترك ضيفه يغادر إلى أي مكان قبل وصوله إلى الفندق. ثم سألها عما إذا نجحت في المهمة الموكلة إليها أم لا. فأجابته مريم:

- لقد نجحت.

- وهل كان جيدا؟

- نعم. كان جيدا جدا.

- أحسنت! أحسنتما!

كادت السماعة تقع من يد مريم، تمتمت تقول:

- نعم؟ نعم يا سيدي؟

- أقول المرحى لرسول أولا! ماذا يقول المثل؟: الآلة تعمل واليد تتفاخر.

- لم أسألك عن ذلك. أنا أقول، صديقك، هذا الرجل **الجميل**.، أتقول بأنه رسول؟

- نعم. هو كذلك.

- كيف رسول؟!

- وكيف سيكون؟ إنه ملقب رسول!

هذه المرة وقعت السماعة بالفعل من يد مريم، غير أنها حتى لم تنتبه. مشت كما لو أنها في حلم ووقفت أمام رسول الذي كان يشخر بصورة رهيبة وتمتمت: «يا إلهي! أي مصيبة حلت بي؟!». تذكرت ما سمعته من أمها وهي طفلة عن الله والرسل والجنة والجحيم فانتابتها قشعريرة خوف. تعرف أنها في طريق السوء وأنها منذ أشهر تمارس الخطيئة كل ليلة تقريبا. ولكن بما أنها تفعل ذلك بصورة مؤقتة لتنجو من الفقر، فسوف يسامحها عاجلا أم آجلا. ولكن بعد أن أغوت رسولا بحاله وهو نائم، فمن المؤكد أنها أغلقت بيديها أبواب الجنة في وجهها. أدمعت عيناها: «يا لسواد قدري!» فكرت أن توقظه وتنكب على قدميه. هل يسامحها إذا فعلت؟ ربما. واضح أنه رسول طيب جدا ورقيق جدا. انتصبت واقفة قرب رسول كأنها تجسيد لخطيئتها، لمست جبهته تريد إيقاظه، فوجدت حرارته مرتفعة جدا. تخلت عن إيقاظه: «يخرب بيتك يا معروف بك!»، ثم حدقت في وجه رسول على الضوء الشاحب الذي يتسرب من النافذة، وفكرت في أن الذنب ذنبها بصورة أساسية: كان عليها أن تدرك من جمال هذا الوجه وهاتين اليدين وهذا الجسد وضخامته. وإذا لم يكف كل ذلك، كان عليها أن تدرك حقيقة الأمر من هيئة الرجل حتى وهو نائم. وغمغم في نومه: «ما إن يحل الصباح». قالت لنفسها: «كأن الصباح لم يطلع منذ وقت طويل... لا بد أن لديه هما... هما كبيرا. الرأس الكبير يحمل هموما كبيرة». همها ليس أضأل

شـأنا مما تفكر هـي فيـه، بعـد قليل من التـفكيـر انتـهت إلى أن الأمر ليس علامة سيئة للغاية.

في هذه الأثناء عـاد رسـول يشـخـر كـأن أحـدا يذبحـه. فكرت مـريم: «ترى هـل يحـتـضـر؟»، وانحنـت عليـه بخـوف. لفظت لفظ الشهادة، قرأت الفاتحة ثلاثا ونفخت على وجهه. حرك رسول رأسه وتراجع شـخيـره. راحت تقـرأ دعـاء جـديدا. رد على ذلك بهـذيان موصول يقطعه الشخير. ظنت مريم أنه يريد أن يقول شيئا فأدنت أذنهـا من شـفـتيـه، لم تميـز من هـذيانه سـوى اسـمي فـريدة وناظم اللذين تكررا كثيرا. قالت لنفسها: «يا للمسكين! واضح أنه يريد ابنه وابنتـه: من المؤسـف أن يرحل قـبل أن يراهمـا». لكن التـفـاؤل رجح عندهـا على التـشـاؤم منذ بدأت تحلم أن تصـبح زوجتـه. ومع هذا الشعور بالأمـان سرعـان ما غـفت هـي الأخـرى. ثم سمعت في نومها بابا يدق بإلحـاح وصـوتا لا تعـرفـه يصـيـح: «يا أخت مـريم! يا أخت مـريم!» فتحت عينيهـا على مهل، فسمعت الصـوت مجـددا، نهضت بهدوء، ارتـدت ثوب نومهـا الوردي وفتحت البـاب. رأت شـابا بشـاربين كثين وثياب سوداء يبتسم لها ابتسامة سخرية:

- أي نوم هذا يا أخت مريم؟

- حسـنا. ماذا هناك؟ هل سنسـتأذن الندل حتى ننام؟

على أثر هذا الكلام تمالك الرجل نفسه وأجابها:

- لا يا أختي، وهل هذا معقول؟ لقد انشغل بال المدير، **فأرسلني** لأسألك عما إذا كانت لديك أي طلبات.

- حسـنا، حسـنا. أحضـر فطورا. وطبـقـا **من الحساء الساخن** وخبزا محمصا.

أغلقت الباب بعنف. أثناء عودتها إلى السرير رأت رسولا يراقبها بعينيه، فقالت له بصوت رقيق ومحبب لا يشبه الصوت الذي تحدثت به منذ هنيهة إلى النادل: «صباح الخير يا سيدي. كيف حالك؟ هل أنت أحسن قليلا؟».

خفض عينيه وأجابها:

- أريد الذهاب إلى المرحاض، لكني لا أجرؤ.

- أوصلك أنا.

قالت وأمسكت به من تحت إبطه وساعدته على النهوض، واقتادته إلى دورة المياه. أغلق رسول الباب، لكنه شعر بدوار مفاجئ، فاستند إلى الجدار حتى لا يقع، وبقي هكذا لفترة. ثم سار باتجاه هدفه وهو يمسك بالجدار. استمر الدوار فلم يجد بدا من الجلوس ليقضي حاجته، ثم تسرب برد جليدي من قدميه إلى كل جسده، كأن كل شيء يعاكسه، بدأ يرتعد، فانحنى وانتزع الجرابات، لكن البرد استمر وراحت أسنانه تصطك. أراد أن ينهض، لكنه لم يجد في نفسه القوة اللازمة. فكر بأنه سيجمد هنا، وبأن كل شيء قد انتهى. لكن مريم دخلت عندما طال غيابه، وصرخت:

- يا إلهي! ما الذي حدث لك؟ وجهك في بياض ورقة وأنت ترتجف، أنت متجمد! يا الله! النافذة مفتوحة! لقد جمدت جالساً!

أمسكته من تحت إبطه وجرته نحو السرير.

لم يقاوم أبدا. مع تراجع ارتعاده شعر ببعض الدفء وأن هذا القرب الحميمي يمنحه لذة فارتعش خوفا وغمغم يقول: «إن كل شيء واضح». صحيح. كل شيء واضح. بالإضافة إلى ذلك كانت

مـريم قـد أشعلت كل الأضـواء بسـبب قلقـهـا في انتظاره، فـبـدت الغـرفـة مـضـاءة بأكثـر من ثلاثمائة شـمـعـة. لكن ذهـن رسـول كـان مشوشـا جدا إلى درجة لا تسمح له حتى بفهم ما عناه بكلمـة «كل شيء واضح». التفت فجأة إلى مريم وسألها:

ـ ما الذي حدث؟

ابتسمت مريم:

ـ نحن؟ ألا تتذكر.

لم يكن في صـوتها أدنى تهتك. فكرت أن تصـريحها هذه المرة مريح وباعث على الثقة وشرعي.

ـ سيدي؟ هل قلت شيئا؟

ـ كنت أقول بأنه في هذه المرحلة الانتقالية التي تسبق الثورة...

في هذه اللحظة دق البـاب. ارتدت مـريم على عـجل ثوب نومها وأسرعت إلى الباب قبل سماع الجواب عن سؤالها، ثم عادت وفي يدها صينية تركتها مؤقتا فوق الخوان، رتبت كل وسائد السـرير خلف ظهـر رسـول، وجلست على حـافـة السـرير، أمـسكت بـزبدية وملعـقـة وقـالت له: «قـد جـاؤونا بحسـاء سـاخن». غـرفت الحـسـاء بالملعـقـة، قـربتها من فمها ونفخت عليها قليـلا ثم قـربتها من فم رسول: «هيا بنا نتناول حساءنا».

بما أنه يحـيـا في مـرحلة انتـقـاليـة على كل حـال، لم يفكر بالمقاومة، فتح فمه كولد عـاقل. ربما لأول مـرة منذ خمسين عاما يتناول حساء على الفطور. لكنه تمثل السخونة التي بثها الحسـاء في فمه كإحساس من النوع نفسه الذي للمسـات فريدة أو مـريم، ففتح فمه بتعقل للملاعق التالية من الحساء التي دفعت إلى فمه.

والتقطت قطعة شعيريّة علقت بلحيته وأدخلتها في فمها تحول ظن رسول إلى يقين: لقد ولدت حديثا، وقطعة الشعيرية هذه هي أول غذاء تتناوله. هذا ما شعر به. حتى لو قرأ عند ماركس أو ناظم أن امرأة لها حياة كهذه يمكن أن توقظ مشاعر كهذه عند ثوري، لصعب عليه تصديقهما. لكن الحياة تستطيع أن تقدم للمرء جماليات غير متوقعة، حتى في أكثر أيام ما قبل الثورة مرارة. انتهى الحساء كوليمة مزدوجة.

- جميل جدا، ها قد أكلنا الحساء كله، هل آتيك بصحن آخر؟

ابتسم رسول للمرة الأولى:

- لا، شكرا. ثم إن علي أن أذهب.

واضح أن الحساء لم يكتف بمنحه أحاسيس شعرية، بل منحه الطاقة والثقة أيضا. لكن مريم أجفلت وقالت له باندفاع:

- أين ستذهب وأنت في هذه الحال؟ أنت مريض وتشتعل بالحمى!

- أنا مضطر للذهاب، قال ووضع يده لفترة قصيرة جدا فوق يد مريم، يداك ناعمتان وباردتان وجميلتان مثل كل ما فيك. غير أني مضطر للذهاب. ثمة من هم بحاجة إلي.

رمقته مطولا وفكرت: «يا إلهي كم هو جميل! وفي هذا العمر! ثمة نور ينبثق من وجهه!» فكرت أن بوسعها أن تكرس حياتها لتطعمه الحساء وتكنس له بيته وتخيط ما يتفكك من ثيابه، أثارت ذعرها فكرة الانفصال عنه، أمسكت بيديه، حدقت في عينيه وقالت:

- وبم سيحتاجون إليك؟ لقد فسد العالم إلى درجة يصعب معها إعادتهم إلى جادة الصواب. هل تعتقد أنك ستهديهم إلى طريق الله بضربة واحدة؟

ـ نعم، من وجهة نظر معينة صحيح ما تقولين.

ـ قد عاشوا حياتهم في ضلال، فلن يموتوا إذا استمروا على ذلك يوما أو يومين!

تنهد رسول وقال:

ـ هم بطبيعة الحال لا يعيشون. أو الأصح أني لا أسمي حياتهم بالحياة الحقيقية. مثلا رجال صاحبي معروف، أولئك الناس الذين تعرفت عليهم مساء البارحة، ذاك الولد المغني، أولئك النسوة..

ـ دعك من أولئك المنحطين عديمي الشرف. لا دين لهم ولا إيمان.

ابتسم بتسامح، قال:

ـ لا. إني لا أشاطرك الرأي في هذا الموضوع. لا شك أنهم يجهلون تماما الترمينولوجيا الثورية، ووعيهم الثوري ضامر، يخلطون كل شيء. ولكن ليس من الإنصاف في شيء أن نحملهم مسؤولية ذلك، لأن الطبقات الحاكمة أخفت عنهم الحقائق على الدوام. وعلى الرغم من ذلك رأيت ليلة البارحة أنهم قادرون على فهم الحقائق بصورة معقولة، إذا نزل المرء إلى سويتهم واستخدم لغة ثورية ملموسة وصافية.

لم تفهم مريم شيئا من هذا الكلام، لكنها حاولت إخفاء ذلك، قالت:

ـ سيدهشني إذا فهم عليك هؤلاء الناس!

ـ لا. ليس في هذا الأمر ما يدعو للدهشة، قال وابتسم لها ثانية بتفهم، إن الثورة ـ وكيف أقولها لك ـ إن الثورة مثل شمس.

أجل، إني أقولها بطريقة صحيحة: إنها شمس لا نعرف أنها تسمى شمسا. دلي عليها بإصبعك، وقولي بفمك بأن النور الذي ترونه هو الشمس، وسيفهمونك. سيقولون لك: هكذا إذن؟ لم يخبرنا أحد بهذا حتى اليوم. ولكن من المهم إيضاح: إن الثورة هي الشمس التي لم تبزغ بعد في تاريخ البشرية.

- بما أنك تقول ذلك، فإنه على نحو ما تقول. إنك تشرح بشكل جميل جدا! أنت تشرح أجمل حتى من معروف بك. هو الآخر يحكي بشكل جميل، أليس كذلك؟

لم يتوقف رسول أمام هذه الملاحظة الثانوية. تابع يقول:

- حينما تبدأ المرحلة الانتقالية التي ندعوها دكتاتورية البروليتاريا، تكون الشمس قد بزغت.

- إذا أردت رأيي فإن هداية عديمي الإيمان إلى طريق الله تتطلب وقتا طويلا جدا. أريد أن أقول إنه لا ضير في تأخرك يوما أو يومين.

- في هذا أنت على حق. حتى أننا نعرف أن ثالوث البورجوازية والبيروقراط ورأس المال يحاول بكل قوته أن يعرقل التطور. لهذا أقول بأن الطريق الوحيد هو طريق ناظم.

- أقلت ناظم؟ أي ناظم؟

- من وجهة نظر معينة كلاهما.

- كيف كلاهما؟ أتعني ناظم والثورة؟

عبس وجه رسول:

- أنت أيضا تخلطين كل شيء.

- حسنا حسنا. ها قد سكت.. نعم كنت تقول بأن الطريق الوحيد هو طريق ناظم.

ـ لنترك هذا الموضوع، فهو معقد أكثر مما يجب بالنسبة إليك، قال ذلك لكنه حين رآها تحني رأسها بحزن تأسف لأنه عاملها باستعلاء، فسألها: ألم تتناولي فطورك؟

ـ نسيت الفطور. فأنت تتحدث بطريقة حلوة جدا، مثل الكتب.

تأثر أمام هذا الكلام وفكر بأنه ظلمها: من الطبيعي ألا تفهم فتاة مثلها الأفكار الثورية. لكن عدم فهمها للأفكار الثورية لا يعني أنها لا تفهم في أي شيء. فجأة شعر برغبة في أن يحكي لها حياته. رغب في أن يضع رأسه على ركبتها ويحكي لها عن أمه وأبيه وعن فريدة وفهمي وظريفة وفريدة الأخرى وناظم، وباختصار قصة حياته كلها منذ البداية. لو أنها حثته بكلمة واحدة، لبدأ من فوره، لكن مريم طلت قطعة خبز بالزيدة وبدأت فطورها. راقبها رسول فترة، تذكر ابنته حين كانت صغيرة، فتأثر مرة أخرى.

ـ كم الساعة؟

نظرت مريم إلى ساعة معصمها التي بدت مثل لعبة وقالت من غير أن تفكر بنتيجة ما تفعل:

ـ الثانية والنصف تماما.

ألقى اللحاف عن نفسه في حركة مباغتة ونزل عن السرير، وقال لها: سوف أخرج.

ـ تخرج؟ وما الذي ستفعله في الخارج في مثل هذه الساعة، وفي هذا الجو الشتائي؟

ـ لا ساعة محددة للثورة. دعيني أخرج.

ـ إذا تركتك تذهب، قتلني معروف بك. لا. لن أسمح بخروجك

مهما حدث، قالت وأرادت إيقافه مستخدمة سلاح جاذبيتها كله، ولكن إذا كنت مصرا(...).

شعر رسول بالضيق من بقائه بهذه الحالة قالت له مريم بأنه في منتهى الأناقة والوسامة، وأضافت:

- لكن وجهك في غاية الشحوب. لا يمكنك الخروج وأنت في هذه الحال. يستحسن أن تنتظر قليلا حتى يأتي المعلم. فإذا كان لا بد من ذهابك، أخذك هو إلى حيث تشاء.

- لا. لقد تأخرت كثيرا.

اعتمر قبعته اللينينية وارتدى معطفه المطري ثم علق حقيبته على كتفه ومد يده إلى مريم:

- بأمانة الله. إلى اللقاء في أيام أجمل.

قبلت مريم يده ورفعتها إلى جبينها، لكنها تشبثت به وتوسلت قائلة:

- لا تذهب.. ابق. أرجوك ابق قليلا.

- لا أستطيع البقاء.

في تلك اللحظة تذكر البيان الذي دس البارحة في يده، فجلس على مقعد أمام النافذة وقرأه مرتين على التوالي دون أن يتفوه بكلمة: لم يستخلص منه شيئا محددا باستثناء تكرار الحديث عن المعركة في المناطق الريفية ثلاث مرات، الأمر الذي اعتبره ذا دلالة خاصة إلى حد كبير. ترك البيان فوق المنضدة التي أمامه ووقف ثم اتجه إلى الباب. توسلت إليه مريم:

- لا تذهب، أرجوك لا تذهب.

من الآن شعر بساقيه ترتجفان، لكنه عاند مع ذلك:

- أنا مضطر للذهاب.

طوقت خاصرته وضغطت بوجهها على صدره وتوسلت إليه:

- إذن دعني أرافقك. سأعتني بك، لأنك مريض. اسمح لي أن أبقى بقربك بضعة أيام على الأقل.

- لا. فهذا ليس من شؤون النساء.

قال ذلك وتملص من بين ذراعي مريم. في اللحظة نفسها تشوشت الرؤية في عينيه وكاد يقع. فتمهل لحظة وفكر فيما إذا كان من المستحسن الرضوخ لطلب مريم أم لا، لكنه يشعر بالمسؤولية تجاه البشر، وخصوصا تجاه ناظم. «هيا إلى اللقاء» قال لها وفتح الباب ثم مشى بخطوات مرتجفة نحو الدرج وإحدى يديه على الجدار، والأخرى تمسك بحمالة حقيبته.

نظرت مريم خلفه بحزن: «مؤسف، مؤسف جدا!» قالت لنفسها: لعله سيقع فوق الثلج المتراكم في الشارع قبل أن يكمل عشر خطوات. ولكن ليس بوسعها أن تحتجز رسولا بجلالة قدره.



ـ ٧ ـ

حالما خرج من الفندق تعكرت الرؤية في عيني رسول، فاستند إلى الجدار حتى لا يقع وبقي واقفا هكذا لفترة: لكنه ـ وقد اتحدت برودة الجو الاستثنائية مع وعيه المزدوج بأنه وضع موضع التطبيق الفوري مرة أخرى ما خطر في باله، وبأنه على عتبة أكبر عمل في حياته ـ ملأ كيانه بقوة غير متوقعة مثل دواء فعال بقدر ما هو مر. خفض قبعته اللينينية أكثر على جبينه، رفع ياقة معطفه المطري، مشى بخطوات ثابتة باتجاه الشارع وإحدى يديه في جيبه والأخرى على حمالة السامسونايت. بالمقارنة مع أوقات أخرى كان الشارع مقفرا. من حين إلى آخر تمر سيارة ناثرة الماء القذر بارتفاع قامة رجل. وعلى الرصيفين كان الناس يمشون بصعوبة فوق الثلج ممسكين بالجدران أو متكئين إلى عكازاتهم. نظر بازدراء إلى الناس الذين مر بقربهم متلفعين بلفاعاتهم ومحتمين بقفازاتهم ومعاطفهم السميكة، وقال من بين أسنانه: «البورجوازيون!». أراد أن يبتعد بأسرع وقت عن هذه المخلوقات التي تجد صعوبة في الوقوف على أقدامها، وأن يذهب إلى أماكن تليق بزوجته وحفيده وشعره ومعركته. كان على وشك أن يوقف سيارة أجرة حين تذكر أنه في الأيام الأخيرة أصبح يستخدم سيارات الأجرة بكثرة مثل البورجوازيين وأنه يهدر أموال الثورة على السائقين. وبخ نفسه: «وهل سنذهب إلى المعركة في سيارة أجرة؟ لا. إن معركتنا هي معركة الشعب. وسنركب السيارات التي يركبها الشعب» حدق برهة في الطريق ثم غمغم يقول: «غريب! لا

أرى ترامواي يمر ولا أتوبيس» وتابع سيره. حين وصل إلى ساحة تقسيم تعجب مرة أخرى لعدم وجود أي ترامواي، ولكن أراحه أن يرى الأتوبيسات مصطفة واحدا وراء آخر. ذهب إلى الموقف، وقرأ كلمة «أمين أونو» على أول أتوبيس فطاب له ذلك: فأمين أونو مكان سيجد فيه الشعب إلى جانبه والبورجوازيين في مواجهته. بلا أدنى تردد ركب الأتوبيس. لم يبال بالرائحة الحامضة النفاذة التي اقتحمت أنفه، صعد الدرجة وحاول أن يتقدم نحو الجزء الخلفي من الأتوبيس. شاب يعتمر قبعة ويجلس على أحد المقاعد المثبتة بوضعية موازية لهيكل الأتوبيس، شده من كمه وعرض عليه مكانه: «تعال اجلس يا خال». رازه رسول بذهول من يصادف حدثا كهذا لأول مرة في حياته. بدا له الشاب بوجهه الأصفر وعنقه النحيل وعينيه المخمدتين، أكثر إرهاقا وأكثر وهنا، بل أكثر شيخوخة منه. قال له: «اجلس. اجلس أنت!» لكن الشاب ابتعد حتى من غير أن يرد عليه، فجلس على مضض. الرائحة التي أزعجته عند الباب، زادت كثافة. فبعد أن جلس لم تعد تكتفي بقطع أنفاسه كرائحة، بل أخذت تلتصق بخديه وأنفه وذقنه كمادة لزجة، وتتسرب من عنقه إلى الأسفل لتلتصق بكل جسده، فتثير غثيانه بدفئها ولزوجتها. لو أنه أصاخ السمع، فلربما سمع صوتها أيضا. أغمض عينيه وأصغى: لا بد أنها رائحة عرق مترسبة دهورا طبقة فوق طبقة، راحت تذوب في هواء الأتوبيس الرطب والحار. مهما يكن الأمر، فإنه شيء رهيب أن يفرز الإنسان - الذي يقال إنه أكثر مخلوقات الأرض تفوقا - مادة مثيرة للاشمئزاز إلى هذا الحد، حتى لو كان ذلك داخل إطار التناقضات الكبيرة لما قبل

الثورة. أدار رأسه غرزيا إلى النافذة خلفه، فتح جفنيه فرأى الرائحة الرهيبة تنزلق خطوطا من الماء القذر إلى الأسفل، تنهد بقنوط وأدار رأسه ثانية إلى الأمام. ازدحم الباص أكثر. مهما انكمش على نفسه، ومهما سحب قدميه إلى الوراء، كان الناس الذين يشقون طريقهم أو يبحثون عن مقعد يجلسون عليه، يجدون طريقة ما لسحق حذاء ناظم الرفيع من نوع الموكاسن بأخفافهم الموحلة. كأنهم يفعلون ذلك عمدا. فكر: «ما أغربهم من بشر!». ارتدى البعض منهم معاطف وآخرون سترات وآخرون معاطف قصيرة لكن أحدا منهم لم يزرر فتحة الصدر، كما لو باتفاق مسبق. لهذا كانت حواف ملابسهم تمسح وجهه باستمرار، فتزداد الرائحة الرهيبة التي تقطع أنفاسه كثافة. حاول أن ينكمش أكثر، حنى رأسه إلى الأمام، أبعد الملابس التي تمسح وجهه بقفا يده، ولكن بدا كما لو أن هؤلاء الناس قد كلفوا بمهمة مسح وجهه بتلك الملابس القذرة باستمرار، سدى كل ما يفعله. أخيرا كف عن المقاومة وراح يتفحص هؤلاء الناس الذين يستعد لإنقاذهم بالثورة المسلحة. يرتدون بناطيل غير مكوية، وسخة وموحلة، بسحابات مكشوفة كأنها أنتجت خصيصا بتلك الطريقة. فكر قائلا: «ما أغربهم من بشر!» ورفع عينيه إلى الأعلى. رأى أجسادا ضئيلة وملتوية ومتهرمة، أعناقا رفيعة جدا تعلوها وجوه مريضة شاحبة جامدة بلحى وشوارب لم تحلق، ارتعش حتى نقي عظامه: كأن وجوه هؤلاء الناس سترت بأقنعة توحد الرائحة والقذارة والقبح والبؤس في مشهد واحد. وكانوا تحت أقنعتهم، يتركون الانطباع بأنهم انبثقوا من انهيار كبير، زلزال على سبيل المثال. مهما يكن،

لا بد أنهم تعرضوا إلى مقلب سيئ إذا لم يكونوا مجرد أقنعة. كز رسول على أسنانه كمن يكابد ألما شديدا في صدره، قال لنفسه: «السفلة، عديمو الحياء! يقولون إنهم يديرون البلاد، بل ويزعمون أنهم ينقذونها! السفلة! الكاذبون المنحطون!» لم تطاوعه عيناه في متابعة مشاهد البؤس البشرية هذه أكثر من ذلك، فأغمضهما. داسوا على قدميه، اصطدموا بركبتيه ورأسه وكتفيه، لكنه أصر على عدم فتح عينيه. بقي جامدا وهو يمسك بأنفه. ثم زادت وتيرة الحركات، داهمه برد جليدي تصاعد على طول ساقيه. سمع أحدا يصرخ: «وصلنا يا جدي، هذا هو الموقف الأخير!» ففتح عينيه على مضض. رأى سائق الأتوبيس ينظر إليه نظرة سخرية، فتدارك نفسه حالا ونزل حتى لا يضطر إلى التكلم معه. في الخارج بوغت بأنه في مكان يراه للمرة الأولى في حياته، يهطل فيه ثلج يضرب وجه المرء كلسعات السياط، وتهب فيه ريح ببرودة الثلج كادت تطير القبعة عن رأسه. «ما الذي يجري؟ أأنا في حلم؟ إذا كان هذا هو آخر موقف. فيجب أن أكون إذن في أمين أونو. ومن المستحيل أن تكون أمين أونو قد تغيرت إلى هذا الحد!». اتجه نحو الأتوبيس الذي نزل منه وضرب بابه الأمامي المغلق بقبضته، فتح السائق الباب ونظر إليه بذهول، فصرخ به رسول: «كتب على سيارتكم أمين أونو. أي أمين أونو هو هذا؟!».

- أي أمين أونو يا عم! هنا لوند.
- ولكن المكتوب أمين أونو!
- طبعا. ومكتوب أيضا لوند.
- طيب، كيف جئنا إلى هنا؟

ـ من أين أنت يا عم؟
ـ أنا من استانبول. كيف جئنا إلى هنا؟
ـ من أمين أونو! لقد أخذت خط الإياب.
فهم رسول الموقف تقريبا، سأل السائق:
ـ طيب وماذا سأفعل؟
ـ إذا قبلت الانتظار ربع ساعة، بإمكانك أن تأخذ الباص نفسه إلى أمين أونو.

تردد رسول لحظة، لم يشعر بالشجاعة الكافية لأن يسافر مرة أخرى بالأتوبيس نفسه وسط الرائحة الرطبة ذاتها، قال للسائق: «لا، شكرا» وابتعد. سيضطر إلى ركوب سيارة أجرة مجددا على مضض. ولكن ينبغي ألا يبالغ في سوء الموقف كثيرا: فسوف يركب سيارة الأجرة لا ليتجول بها مثل البورجوازيين، بل لتحقيق الثورة البروليتارية. ومع ذلك أراد أن يخفض النفقات ولو قليلا بفعل الهاجس الذي انتابه في بيوجلو. حين سأله السائق إلى أين يريد الذهاب أجابه رسول: «إلى استانبول. أعني إلى قره كوي».

استند إلى مسند مقعد السيارة وتنفس بارتياح: كانت السيارة دافئة من الداخل ولا تفوح برائحة شبيهة بالتي شمها في الأتوبيس، لكن الضيق الذي انتابه داخل الأتوبيس عاوده مجددا وهو ينظر من النافذة بعد أن تحركت السيارة: في الظلام الذي هبط فجأة وراح يشتد تدريجيا بفعل السحب السوداء التي انخفضت حتى كادت تلامس السطوح، رأى شوارع غارقة في الوحل، أكوام ثلج قذرة ارتفعت كالجبال، نوافذ وأبوابا يعلو بعضها بعضا، بيوتا متقوضة ومفرغة من

الداخل على جانبي الطريق، وأناسا بهيئات عجيبة يتجولون بين تلك الأطلال، وآليات صفراء ضخمة تذكر بوحوش عالم الكوابيس: كل ذلك خلف لديه انطباع انهيار أو زلزالا شحب بالقياس إليه شعوره بالذعر والاشمئزاز في الأتوبيس، فتمتم لنفسه: «مدينة ميتة».

سأله السائق:

- ماذا قلت يا خال؟

- لا شيء. أنا لم أقل أي شيء.

- لكنك قلت شيئا.

- لقد تحدثت إلى نفسي. قلت إنها مدينة ميتة.

- صحيح ما قلت يا خال. أجل استانبول هذه مدينة ميتة. ونحن نمضع جيفتها مثل بنات آوى. لكنهم لا يستطيعون دفنها. فليس لديها قبر يخصها.

فكر رسول: «هذا السائق شاعر»، ثم هبط عليه إلهامه الشعري:

- بل لديها. هي نفسها قبر نفسها.

التفت السائق إلى الخلف وقال له:

- أحببتك يا خال! أنت ملك. أراهن بأنك مشجع لفنربهجة. أليس صحيحا؟ ألست من مؤيدي فنربهجة؟

- أجل، أنا من مؤيدي فنربهجة.

- فلتحي! وما رأيك بحالة الفريق؟

- الفريق؟ أي فريق؟

- وأي فريق نتحدث عنه يا خال؟ فريق فنربهجة! فهو يتهاوى

هذا العام.

- حقا؟ لم أعرف ذلك. لم أهتم قط.

- أويجوز يا خال؟! تقول بأنك من مؤيدي فنربهجة، وفي الوقت نفسه لا تعيره اهتمامك. وإذا أنت لم تهتم بتدهور فريقك إلى هذه الحال، بحيث ينتهي الدوري وهو في المرتبة السابعة.

حنى رسول رأسه إلى الأمام وقال:

- لم أعرف. أنا آسف.

- حتى لو تأسفت فإنني مستاء منك. وما النفع في أن تكون ملكا وأنت لا تهتم بفريقك.

- وما الذي بوسعي فعله حتى لو كنت مهتما. ما الذي بوسعي أن أفعله من أجل الفريق؟

- ألا تستطيع أن تدعو من أجله؟

- أنا لا أدعو من أجل أي شيء كان.

ساد صمت بينهما، بدا كأن صمت موت المدينة قد سيطر عليهما. خطر في بال رسول قبر فريدة والدقائق التي أمضاها بجواره، ولكن فقط كمشاهد. ثم قال السائق فجأة: «وصلنا يا خال! أين تريد أن تنزل في قره كوي؟» فتعجب من كونه بعيدا عن قبر فريدة، ثم تعجب من وصوله بهذه السرعة إلى قره كوي. طلب من السائق أن ينزله ثم ترجل واتجه نحو المرفأ.

شعر بالراحة لكونه أخيرا في مكان مألوف. لكنه شعر بالتوتر حين رأى الناس يسرعون على الطرق الموحلة باتجاه المرفأ دافعين بفظاظة من يصادفونه، وقد صدم شاب قادم باتجاهه حقيبته؛ من الواضح أن كل هؤلاء الناس يركضون إلى بيوتهم وزوجاتهم

وأخفهم المنزلية بطريقة أنانية، حيوانية، وبالتالي جاهلة. يتلخص عالمهم في الأماكن التي تطأها أقدامهم أو تراها عيونهم. لا يخطر في بالهم أبدا من أغلق صفحة البيت مثله، أو من اعتقل مثل ناظم. قال لنفسه: «عالم البورجوازية: قبر بارد ومظلم». الغريب في الأمر، أنه موجود في القبر نفسه، ويمشي في الاتجاه نفسه الذي يمشي فيه أغلب هؤلاء الناس، على الرغم من أنه يقصد مكانا مختلفا تماما. معهم وخلفهم دخل المرفأ، وعبر البوابة الدوارة، ثم وقف قليلا. إلى أين سيذهب إذن؟ إلى الآن لم يظهر جنود ناظم ليخبروه عما ينبغي أن يقوم به، أو إلى أين ينبغي أن يذهب، تاركين كل شيء لحدسه ورغبته. في تلك اللحظة قرأ اسم مرفأ «حيدر باشا» مكتوبا بأحرف ضخمة، على يساره. قال لنفسه: «يا إلهي! كيف لم أفكر بهذا!»: البيان الذي دسه في يده الشاب ذو السترة العسكرية، أتى على ذكر الحرب الريفية ثلاث مرات بالضبط، وفي كتاب «مشاهد إنسانية من بلادي» تبدأ الرحلة كما هو معروف، من حيدر باشا. ولعل احتفاظه بهذا الكتاب من بين كل كتبه التي باعها علامة من علائم قدر اجتماعي. مرة أخرى وضع موضع التطبيق حالا ما خطر في باله، فمشى بخطوات ثابتة نحو مرفأ حيدر باشا.

ترى هل قفز سكان المدينة الميتة خارج قبورهم على الرغم من كل هذا الثلج والريح؟ فقد امتلأت باخرة حيدر باشا عن آخرها مثل الأتوبيس الذي أقله إلى لوند. الرائحة الحامضة الثقيلة نفسها التي ملأت الباص اقتحمت أنفه هنا أيضا. أتكون إذن رائحة المدينة الميتة التي تملؤها الديدان وقبرها الذي لا أول له

ولا آخر، وليست رائحة البشر؟ ألهذا السبب تحاصر المرء في كل مكان؟ على كل حال واضح أن الناس على متن باخرة حيدر باشا لا يفكرون أبدا بالفرار، ولا هم يمتلكون الطاقة اللازمة لذلك. فقط ينتظرون وقد تكوموا فوق المقاعد وفي الفسحات. هبط رسول إلى الطابق الأسفل كمريض غارق في العرق يندس في فراشه، حيث وجد المكان أقل ازدحاما وكل الركاب جالسين على مقاعد، بل ثمة شواغر أيضا. اختار أقل الزوايا إضاءة وجلس. نظر حوله مجفلا. وعلى الرغم من الحر ورائحة العرق المنتنة، فإن الركاب لم يخلعوا قبعاتهم ومعاطفهم، ورفع كثير منهم ياقات المعاطف. أهو بسبب انعدام الإحساس، أم لأنهم يبردون دائما في ظل النظام الفاسد لما قبل الثورة، سواء كان المكان حارا أم باردا؟ أم أن هناك سببا آخر؟ من الصعب الجزم في هذا، ولم يحاول رسول البحث عن السبب الحقيقي. انتبه إلى رجلين في أواسط العمر جالسين على المقعد المواجه له، وقد قطعا حديثهما وراحا يرمقانه. لم يطيلا النظر، اكتفيا بأخذ مقاييسه بعيونهما، ثم مال أحدهما على الآخر، تهامسا وضحكا. فهم رسول ضحكهما بصورة صحيحة، فنظر إليهما نظرته إلى أعداء سيحاربهم لا أشخاص يريد إنقاذهم. فكر قائلا: «يبدو أن الثوريين في هذا البلد ما زالوا نوعا من الشذوذ عن القاعدة». استند إلى مسند مقعده وأشعل سيجارة كأنه يتحدى الرجل، ثم بدأ يتفحص ما حوله ثانية. رأى رجلا مسنا جدا مع امرأة مسنة جدا وقد أمسك كل منهما بيد الآخر. تعلقت عيناه بهاتين اليدين المجعدتين المبقعتين نافرتي العروق. قال لنفسه: «يا للبشرية المسكينة!». لِمَ

مسكينة؟ ترى هل قيم إمساك العجائز بعضهم بأيدي بعض باعتباره نوعا من الشذوذ، لأنه ـ بسبب الموت ـ أحب دوما امرأة شابة، أو لأنه أمضى ليلته الأخيرة مع امرأة ولدت حديثا؟ لم ينقب في هذا الأمر، لأنه فجأة انهزم أمام سلطان النوم، ربما بسبب الجو وربما بسبب الإرهاق، استند إلى الخلف بصورة غرزية وأنزل قبعته فوق عينيه، قال لنفسه: «هأنا أغفو مجددا» ثم امحى من وعيه كل تفكير وأغمضت عيناه تلقائيا.

حين فتح عينيه مجددا، كان الجميع قد انصرفوا بمن فيهم الرجلان الجالسان أمامه، اللذان ضحكا منه، والثنائي المسن جدا. رأى رجلا أسمر ذا قميص أبيض ولحية غير حليقة، في يده صينية ملأى بكؤوس شاي فارغة، ينظر إليه مبتسما ويقول له: «إذا لم أكن مخطئا يا عم فقد ركبت الباخرة في محطة قره كوي، أنت الآن في حيدر باشا للمرة الثالثة، ألا تريد النزول بعد؟». نهض رسول دون أن يتفوه بكلمة واتجه نحو الدرج. في اللحظة التي وضع فيها قدمه على أول درجة، صاح به الرجل: «يا عم! يا عم! لحظة من فضلك. أليست هذه الحقيبة لك؟. شعر رسول باحمرار وجهه كما لو كان ماركس ولينين يراقبانه من عليائهما. عاد فورا وأخذ حقيبته، ثم صعد الدرجات ببطء يغمره الخجل من نسيان مسدسات في أنحاء البواخر، وفكر أنه قد لا يكون أهلا للمهمة. لكنه حين خرج إلى المرفأ ورأى أمامه على ضوء مصباح كهربائي شاحب، الدرجات العريضة لمحطة قطار حيدر باشا، امتلأ قلبه بالثقة كمن صحت جميع توقعاته، فغمغم بصوت ملؤه الإيمان:

«في محطة حيدر باشا
ربيع العام ١٩٤١
الساعة الخامسة عشرة
فوق الدرجات: الشمس
والتعب
والاضطراب».

ليست الساعة الخامسة عشرة، ولا شمس، ولكن محطة حيدر باشا ودرجاتها على السواء موجودان، هذا يعني أن كل شيء على ما يرام وفي موقعه الصحيح. إذا كان الجو مظلما، ولم تكن هناك شمس فوق درجات حيدر باشا، فإن الثورة ستغير الوضع: يكفي خوض المعركة مع تقبل احتمال الموت. ورسول موجود هنا من أجل هذا. قال:

«دعانا البورجوازيون
إلى معركة
قد قبلنا الدعوة!»

وصعد الدرجات بخطوات حازمة.

بيد أنه وقع في الحيرة بخصوص مكان المعركة، حينما قرأ فوق كوات قطع التذاكر «إكسبريس الأناضول» و«إكسبريس البوغاز» و«القطار الأزرق» و«إكسبريس الجنوب» وما إلى ذلك، وعلى الرغم من حزمه الدائم فيما يتعلق بالمعركة نفسها. إذ لا يساوره أدنى شك في ضرورة نقل المعركة إلى الريف، وفي بدء الرحلة من محطة حيدر باشا لتحقيق ذلك، ولكن أي قطار يستقل وإلى أين يذهب؟ إنه مرة أخرى في موقف يتطلب منه أن يتخذ القرار

بنفسه. انزوى في أحد الأركان وفكر: بما أن كل القطارات هنا تتجه نحو الشرق، فإن المسألة تكمن في الاختيار ما بين شمال الشرق وجنوبه ووسطه، ونظرا لعدم وجود إكسبريس الشمال، ولا إكسبريس وسط الأناضول، لم يبق أمامه إلا الجنوب خيارا وحيدا. اقترب من كوة قطع تذاكر إكسبريس الجنوب، وطلب بصوته الأكثر حزما: «تذكرة درجة ثالثة، إلى المحطة الأخيرة». رأى الموظف ينظر في وجهه بدهشة بدلا من أن يقطع له تذكرة، فكرر قائلا: «الدرجة الثالثة، إلى المحطة الأخيرة» وفكر: «من أجل الشعب، مع الشعب، مثل الجندي مهمت». مد له قاطع التذاكر تذكرته وقال: «سينطلق بعد نصف ساعة». لم يمح تعبير الدهشة عن وجهه بعد، كأنه لا يصدق بأن رسولا سيركب هذا القطار. لكن هذا مشى بخطوات حازمة مرة أخرى، واهتدى إلى القطار بسهولة كأنه من وضعه بيديه هناك، على الرغم من أنه لم يغادر استانبول طوال حياته. صعد إلى واحدة من عربات الدرجة الثالثة وقطعها من أولها إلى آخرها بحثا عن مقعد.

في المقصورات رجال يعتمرون قبعات ونساء محجبات، فتحوا زواداتهم منذ الآن وانهمكوا في تناول البيض المسلوق والكبة الجافة والبورك والدجاج وكل ما رزقهم به الله. في بعض المقصورات ثمة من غط في نومه، وفي إحدى المقصورات جنود يغنون. رأى مقعدا شاغرا قرب النافذة في المقصورة الأخيرة، فجلس عليه حالا وحقيبته في حضنه. انتزع قبعته اللينينية ووضعها فوق الحقيبة، ثم استند إلى الخلف وأخذ نفسا عميقا.

في مواجهته جلس شاب بفيلد أخضر يقرأ جريدة «جمهوريت» بطريقة من يتحدى العالم. جلست بجانبه امرأة مسنة بقدر ما يمكن الاستنتاج من عينيها وأنفها الذابل وجبينها الرفيع، داخل مستطيل صغير يؤطره وشاح رأس ذو مربعات. وبجانب هذه امرأة شابة بوشاح ذي مربعات أيضا ولكن فرجة مستطيل الوجه أوسع من الأخرى، في حضنها رضيع ثابر على إسقاط مصاصته التي تلتقطها الأم في كل مرة، تمسحها بطرف وشاحها وتعيدها إلى فمه. بجانبها صبي في الثالثة أو الرابعة من عمره يرتدي كنزة سميكة وسروال بيجاما ذا أزهار وينتعل زوجا من الأحذية المطاطية، يقضم تفاحة ضخمة يسيل ماؤها، يقف حينا ويجلس حينا بلا توقف. في الطرف الأقصى من المقعد رجل تجاوز أواسط العمر بكثير، على رأسه طاقية، جلس واضعا قدمه اليسرى تحته، يسبح بمسبحة من تسعة وتسعين حبة وعيناه تحدقان في السقف، كما لو كان وحده داخل العربة. أما بجانب رسول فقد جلس ثلاثة رجال يرتدون سترات وبناطيل وقمصانا وربطات عنق مخططة جميعا، وقد استغرقوا في حديث مضطرم تحتوي كل جملة فيه بضعة أرقام. حين دخل رسول حدق فيه الرجال الثلاثة والشاب ذو الفيلد العسكري والنساء والصبي آكل التفاحة جميعا كأنهم يرون عجيبة من العجائب. أما الرجل ذو الطاقية فقد بادره بالكلام وهو يضغط بيده الممسكة بالسبحة على صدره:

- مرحبا.

- مرحبا يا سيدي.

- إلى أين السفر؟
- إلى المحطة الأخيرة.
- وما هي المحطة الأخيرة؟
- المكان الذي يتوقف فيه القطار في نهاية الرحلة.
- وما اسم المكان الذي يتوقف فيه القطار في نهاية الرحلة؟

لم يكن رسول يعرف. أخرج التذكرة من جيبه ونظر فيها:

- قرت آلان.

حينئذ فعل الرجل ذو الطاقية ما فعله الآخرون، فمسح رسولا بعينيه من رأسه حتى قدميه، ثم سأله:

- أأنت سائح؟

- لا. لست بسائح.

أجابه، ثم فكر قائلا لنفسه: «واضح أن هذا الرجل سيسأل عن كل شيء. ترى أهو عميل أم ماذا؟».

غير أن الرجل ذا الطاقية لم يطرح عليه أي سؤال آخر، أنزل قدمه اليسرى ووضع بدلا منها قدمه اليمنى تحته، ثبت نظراته على السقف واستغرق في التسبيح.

بعد بضع دقائق تحرك القطار ببطء. فكر رسول أن عليه اتخاذ كل التدابير والاستعداد لكل الاحتمالات بما أن الرحلة قد بدأت بصورة قاطعة، فتفقد حقيبته أولا، ثم المسدس الصغير في جيب سترته الداخلي ورزمة الأوراق النقدية بعد ذلك. أشعل سيجارة مارلبورو وقال لنفسه: «ما أغرب ذلك! فأنا لم أدخن أي سيجارة اليوم. ربما أستطيع الإقلاع عن التدخين إذا أردت. فحتى فهمي أقلع عنه!». لكنه سرعان ما استغرب انشغال شاعر انطلق

في رحلته نحو الثورة بتوافه الأمور تماما مثل الناس العاديين المحيطين به. في هذه الأثناء انهمك الرجال الثلاثة الجالسون بجواره في حديثهم الصاخب وهم يكثرون من ذكر الأرقام وكلمات المارك والدولار والليرة. من الواضح أن كل شيء بالنسبة إليهم يتحدد بثمنه، فهم يعرفون كم ماركا تساوي قطعة أرض أو سيارة، وكم ليرة يساوي المارك. واحد منهم راح يذكر أسعار الأجهزة الكهربائية التي ينتجها المصنع الذي يعمل فيه في شتوتجارت، في حين شرع الثاني في مقارنة تفصيلية بين أسعار مختلف أنواع السيارات بدءا بالمرسيدس، أما الثالث فقد أعطى فكرة عن أسعار البيوت والأراضي التي اشتراها في مختلف أنحاء تركيا. ثم عاد الثاني إلى حديث السيارات وقال: «برأيي أن على المرء ألا يختار سوى الفورد. لا أحد يعرف هذا أفضل مني، فأنا أعمل في مصنع فورد». فكر رسول: «إذن هؤلاء بروليتاريون!» وتفحص خفية وجوههم وحركاتهم، لكنه لم يرتح لكلامهم كما لوجوههم على الرغم من معرفته بأنهم كادحون، بل إنه شعر نحوهم بنوع من الاشمئزاز. ذهب به الظن إلى أن الرائحة الثقيلة التي التصقت لزجة بجسده في الأتوبيس ثم في الباخرة والآن هنا، إنما تصدر من هذا النوع من البشر. قال لنفسه: «الأمر بسيط: إنهم طبقة رثة». وأضاف: «ليس من اليسير على أي كان أن يصبح بروليتاريا حقيقيا. على من يريد ذلك أن يبدأ في عمر صغير وأن يطور نفسه باستمرار». أدار وجهه نحو النافذة.

زجاج النافذة الأغبش الذي تتراكض خلفه الأضواء، نقله من المحسوس إلى المجرد: أحس بالخجل لأنه اشمئز إلى هذا الحد

من هؤلاء الرجـال: على المرء أن ينظر إلى الناس ـ بمن فـيـهم الرثين - من زاوية نظر اجتماعية، وبالتالي ألا يزدريهم بسبب عيوبهم الفردية. من المؤكد أن هؤلاء الرجال يعيشون ويفكرون مثل البورجوازيين، لكن المسؤولية لا تقع عليهم. إن القوى المسيطرة في المجتمع السابق للثورة، هي التي تدفع بهم إلى هذا الابتذال وتتسيهم وعيهم الطبقي. هذا هو المخيف في الأمر. حتى يتخلص من أفكاره القاتمة تلك بحثت عيناه عن الرضيع بصورة غرزية. كانت المرأة الشابة قد أجلسته في حضنها وأعطته دمية قبيحة من البلاستيك. أمسك الرضيع بالدمية البلاستيك بكلتا يديه وراح يقضم رأسها مثل فرخ آكلي لحوم البشر. انتابت رسولا قشعريرة كأن رأسه هو الذي يُقضم. ففضلا عن الوحشية التي يبديها في قضم رأس الدمية البلاستيكية: بدا لرسول أن هذا الرضيع أكبر عمرا من تلك الفتاة التي أطعمته الحساء قبل بضع ساعات في فندق معروف المطرقجي. أحس بألم داخلي وهو يتذكر الصفاء المتألق لوجه مريم ويديها وكل كيانها، وفكر للمرة الأولى منذ مغادرته الفندق فيما إذا كان مخطئا أم مصيبا في عدم اصطحابها.

في هذه الأثناء كان الصبي الصغير يتحرك هنا وهناك داخل المقصورة بعد أن أتى على تفاحته ومسح يديه بتنورة أمه. وبصورة مفاجئة اقترب من رسول وراح يشد حمالة حقيبته حتى كاد يوقعها. تشبث رسول بالحقيبة بشدة، ودفع الصبي بكوعه. صاحت المرأة المسنة بالصبي بنبرة قاسية: «تعال هنا يا كنعان! لا تزعج جدو». لم يكترث الصبي لها، علق إصبعه في الحلقة التي

تصل الحقيبة بالحمالة. أمسكته أمه من كنزته وشدته وصفعته على رقبته. راح الصبي يبكي بكاء طفل مفسد بالدلال. أحس رسول بقرف غريب إزاء فم الصبي الذي انفتح واسعا بفعل العويل وإزاء وجهه الذي تجعد. ناسيا ما فكر به قبل قليل، انتقل مجددا من المجرد إلى المحسوس، فقال في نفسه: «يا له من صبي قبيح! وكم هو مسن!». ليس الصبي وحده القبيح، بل كل من في المقصورة. بدا له أن كل هؤلاء الناس قد تعفنوا حتى العظام داخل رائحة عرق خانقة، لزجة، دبقة، بوجوههم وحركاتهم وثيابهم وأفكارهم. جل ما يمكن قوله في هذا الوضع هو أن هذه المقصورة - على الرغم من كونها من الدرجة الثالثة - لا تشبه في شيء مقصورات «مشاهد إنسانية من بلادي».

بعد فترة من الشخير توقف القطار بصخب. سمع صوت من خارج المقصورة ينادي: «بَنْدِيك! بنديك! بنديك!». ذات يوم شتائي موغل في قدمه كان رسول قد استقل قطار الضواحي برفقة فريدة وجاءا إلى بنديك حيث عبرا أزقة ضيقة تحيط بها بيوت خشبية من الجانبين، وتناولا سمكا وعرقا في مطعم على شاطئ البحر. مسح غبش زجاج النافذة بيده ونظر إلى الخارج كأنه سيرى تفاصيل من ذلك اليوم. لم ير سوى بضعة أضواء شاحبة وأشباح بضعة أشخاص يسرعون في اتجاهات مختلفة. ثم حين بدأ القطار يتحرك ببطء، أغمض عينيه وغمغم كمن يعرب عن ملاحظة: «تحرك من بينديك قطار الساعة ٤٥ : ١٥». فسمع صوتا يسأله: «نعم يا سيدي؟» لكنه لم يفكر في أن يكون السؤال موجها إليه. حتى لو كان كذلك، فهو لا يريد أن يدخل في علاقة مع الناس في هذه المقصورة. أصغى إلى

صـوت العـجـلات من غيـر أن يفـتح عـينيـه، وكـمـا يـفـعل كـثـيـر من اليـسـاريين بالغـريزة، أصـغى إليـه مطابقـا مـا بينه وبين المقـاطع الهـجـائيـة لبيت الشـعـر: **«الجندي محـمـد الجندي محـمـد!»** ثم هز رأسه وقال كأنه يوجه كلامه إلى أحد مـا: «لا. لم تمش الحال!» لقد سـمع من كـثـيـرين أن بيت الشـعـر هذا يشـخص في إيقـاعـه صـوت عـجـلات القطار، وجـرب ذلك بنفـسـه، فـسـحـره التـشـابه. لكن بيت ناظم الخـالد هذا لا يتـوافق الآن - وعلى عـتـبـة الثـورة تمامـا - مع صـوت عـجـلات القطار، أو على الأقل صـوت عـجـلات إكـسـبـريس الجنوب. شق مـا بين جـفنيـه ونظر إلى النـافـذة. الزجـاج لا يزال مغبشا، وفي الخارج تظهر من حين إلى آخر نافذة مضاءة وتختفي، وفي عمق بعض النوافذ يرى ضوءا أزرق أكثر سطوعا، مبينا أن ثمة بشـرا يتابعون التلفـزيون. في أحيـان أخـرى عندمـا يميل القطار إلى التبـاطؤ يظهـر أناس تجـمـعـوا حـول الطاولات في مـقـاهٍ ذات أنوار باهتـة: لا بد أنهم يلعبون «البشـبـرك» أو البـاصرة أو السـتـة وسـتين، من غيـر دراية بالثورة أو الطبقـات المعادية. أغـمض عينيـه مـجـددا وأصـغى إلى صـوت العـجلات. أصـغى وكـأن هذا الصـوت ينطوي على سـر كل الأشـيـاء. ثم ومض في ذهنه شـيء وميض الضـوء الكثـيف، فغمغم:

«ترررْرَمْ
ترررْرَمْ
ترررْرَمْ!
طْرَقْ طِقْ طَقْ!»(*)

(*) أصوات.

أرغب أن
أتمكَنْ!(*)»

انبثت في كيانه بهجة دافئة: لا بد أن ناظم قد استلهم هذه الأبيات من صوت عجلات القطار، أو أن العجلات استمدت أصواتها من أبيات ناظم هذه! مهما يكن الأمر، فإن العجلات تنشد أبيات ناظم هذه، وفي منتهى الجمال. فقد كان ناظم الرجل الذي يعرف لغة الآلات وتوق الإنسان الحقيقي. ألم يشعر هو أيضا بالتوق نفسه والحاجة نفسها، باعتباره شاعرا أعلى دائما من شأن المطرقة بالقياس إلى المنجل؟ لا شك أنه شعر بذلك. لكنه هذه المرة يشعر - مع أصوات العجلات هذه - أن توقه يتحول في الأعماق إلى طاقة آلية. استقام في جلسته، شعر بأنه يزداد قوة باطراد. منذ سنوات عديدة لم يشعر بنفسه بهذه القوة وهذا الحزم. بهذه القوة صلب عضلاته وكرر أبيات ناظم الشهيرة:

«سأجد حتما مخرجا ما
سألاقي سعادتي فقط
يوم أُركِّب توربينا فوق بطني
وزوجا من العَنَفات في ذيلي!».

امتدت يده غرزيا إلى أسفل ظهره. وعلى الرغم من أن يده لم تلمس سوى عظم الظهر، فإنه نفخ صدره كأن زوجا من العَنَفات قد ركب على ذيله. أغمض عينيه مجددا وغمغم مجددا أبيات ناظم:

«ترررررم
ترررررم

(*) أرغب في أن أصبح آلة (ماكينة).

ترررررم!

طرق طق طق!»

فُتح باب المقصورة فجأة بصخب، وسمع رسول صوتا غليظا يطلب إبراز البطاقات الشخصية كما لو كان يهدف إلى التغطية على اللازمة الثورية للعجلات، ففتح عينيه ليرى شرطيين، أحدهما يتقدم الآخر بيدين حرتين، في حين يمسك الآخر برشاش وإصبعه على زناده. امتدت يده إلى المسدس الصغير في جيبه، فأمسك به بإحكام وراح يراقب الشرطيين. وقف الشرطي المسلح إلى الخلف بجمود تمثال، في حين تفحص زميله الجميع بمن فيهم الرضيع الذي يمص رضاعته الآن في المنام، ثم تقدم خطوة إلى الأمام وحدق في رسول:

- بطاقتك الشخصية يا عم.

فتش رسول في جيوبه وقال:

- آسف. يبدو أنني لم أحضغ(*) بطاقتي معي.

- ولِمَ لم تحضرها؟ ألأنها عتيقة جدا؟

أدرك رسول السخرية لكنه لم يتوقف عندها. اكتفى بالقول:

- لقد نسيت إحضارها.

- هل يجوز ذلك يا عم؟ في أي عهد نعيش! هل يجوز أن يسافر المرء بلا بطاقة في هذا الزمان!

تدخل البروليتاري الرث الذي يشتغل في شتوتجارت، قال:

- لا يجوز. بل لا يجوز الذهاب إلى البقال بلا بطاقة.

نظر إليه الشرطي شزرا لكنه لم يرد على تعليقه. التفت ثانية إلى رسول:

(*) نذكر بأن بطلنا يلثغ بالراء ويلفظها غينا.

ـ سنغض النظر في رحلتك الحالية، على ألا تكررها. هل فهمت أيها العم؟

ـ فهمت، شكرا.

قال رسول ذلك ثم أخذ نفسا عميقا. فكر في أنه خاف من الاعتقال لأول مرة في حياته، وبأنه محق في خوفه. فهو لا يريد أن تفشل عمليته لسبب تافه بعد أن ابتدأت رحلته نحو إطلاق شرارة الثورة أخيرا. قال لنفسه: «لقد تجاوزنا عقبة أخرى». غير أن الشرطي قال: «لنلق نظرة على الحقائب» فغامت عيناه: لا منجاة من هذا الآن! امتدت يده مجددا إلى الجيب الداخلي لسترة ناظم، حيث حرر خفية مسمار أمان المسدس وقال لنفسه: «إذا حاولا فتح حقيبتي سأقتلهما معا، لا مفر لي من ذلك!» وراح ينتظر وقلبه يخفق بشدة. لم يكن أبدا ميالا للقتل. وإذا كان عليه أن يقتل فليس في قطار كما الآن، بل وسط المعركة. لكنه لن يتراجع عند عتبة العملية فقط حتى لا يقتل.

فتح الشاب ذو الفيلد العسكري حقيبته أولا بناء على أوامر الشرطي الذي تفحص الكتب التي ظهرت: واضح أن الهدف الأسمى للشاب هو تعلم الإنجليزية. بعد ذلك فتحت حقائب سفر الرجال الثلاثة المجاورين لرسول، وهي حقائب متشابهة ألمانية الصنع: تحت الأنظار المفتونة للجميع باستثناء رسول والرضيع، تناثرت بضائع ألمانية من راديوهات ومسجلات وكاسيتات وألعاب وسشوارات وكنزات وقمصان من كل لون وعليها صور. التقط الشرطي واحدا منها وشده بين يديه.

جعد الشرطي وجهه باشمئزاز كما لو كان الاحتفاظ بهذه الأشياء معيبا أيضا، واتجه نحو الباب. في اللحظة التي كان سيخرج فيها من المقصورة، سأله الرجل ذو الطاقية:

- سيدي الشرطي، هل هناك أحداث جديدة؟ هل عاد الفوضويون إلى افتعال المشاكل؟

- لا يا عم. جاءتنا أوامر وحسب.

- ولم صدرت الأوامر إذن؟

- يبدو أن مجنونا فر من مشفى المجانين.

- أهو خطر؟

ابتسم الشرطي:

- لا نملك معلومات بصدد ذلك. لكن طوله مئة وتسعون.

اتجه ثانية نحو الباب.

هذه المرة استوقفته المرأة المسنة:

- مادام الأمر كذلك، لم قلبت أكياسنا رأسا على عقب يا بني؟

هز الشرطي رأسه كمن يقول: «علقنا!» وأجابها قائلا:

- إذا فعلنا شيئا يا خالة، فلا بد أن ثمة سببا وراءه. هيا بالسلامة.

قال الشرطي ذلك وخرج.

أخذ رسول نفسا عميقا. لو أن الشرطي لم يستخدم كلمتي «مشفى مجانين» و«مجنون» كان سيقتنع أنه هو الشخص المطلوب. البروليتاري الرث الجالس على الطرف الأقصى للمقعد أكد له ظنونه:

- لم يفتشوا العم. وفي رأيي أنه أول من كان عليهم تفتيشه. ذلك أنه أكثرنا إثارة للريبة.

قال ذلك وانحنى إلى الأمام ورمق رسولا بنظرات ساخرة، ثم التفت إلى أصدقائه وأضاف: «نعم. تفضلوا وانظروا: عجوز متنكر في هيئة فتى مراهق، أو شاب يضع قناعا عجوزا. بالإضافة إلى أن طوله يبلغ مئة وتسعين على الأقل. بالإضافة إلى أنه لا يحمل بطاقة شخصية. بالإضافة إلى أنه يشبه الكفار في عدم نطقه لأحرف الراء. أليس كذلك؟».

وافقه صديقاه بهزة من رأسيهما. لم يكتف البروليتاري الرث بذلك، التفت إلى رسول وسأله:

- أليس كذلك يا عم؟

اكتفى رسول بأن رمقه بازدراء. فكر في أن الشرطيين اللذين لم يريا ضرورة في فتح حقيبته، هما أكثر إنسانية وأكثر منطقية منهم، وأنهما ربما لم يفتحا حقيبته عن وعي. أخرج من الحقيبة «مشاهد إنسانية من بلادي»، بالثقة المستمدة من معرفته أن التاريخ منحاز إليه. شرع يقرأ الكتاب الذي يحفظه غيبا من أوله حتى آخره تقريبا، أمام عيني الشاب ذي الفيلد اللتين اتسعتا دهشة. حتى قبل أن يصل - داخل الكتاب - إلى «إزْمِت»، فتح الباب بصخب مرة أخرى. التفت ونظر من غير أن يغلق كتابه، فرأى شابا ضئيلا يحمل سلة ملأى بعلب حلوى عليها كتابة حمراء فوق خلفية بيضاء. راز ركاب المقصورة حينا ثم نادى على بضاعته: «بشمانية(*) إزمت!». لم يكترث له أحد، فخرج تاركا الباب مفتوحا. البروليتاري الرث الجالس في الطرف الأقصى أغلق الباب، لكن هجوم بائعي البشمانية تتابع بعد الشاب

(*) بشمانية: نوع من الحلوى شبيه بغزل البنات.

الضئيل. ففي كل دقيقة يفتح واحد منهم الباب، في ذراعه اليسرى سلة ضخمة وفي يده اليمنى علبة أو اثنتان، ويكرر النداء نفسه: «بشمانية إزمت!».

لم يسبق لرسول أن أكل البشمانية: إنما يذكر أنه سمع باسمها، لكن لم يكن يخطر بباله أنه يُصنع منها كل هذه الكميات. كأن كل سكان هذه المدينة من أطفال وشباب وكهول ومسنين، قد تركوا جميع أعمالهم ومشاغلهم وخرجوا لبيع البشمانية.

ازدحم الممر ببائعي البشمانية بحيث تعذرت فيه الحركة. واللافت في الأمر أن سلالهم ملأى دائما ولا يبدو أن أحدا يرغب في شراء البشمانية. إذا لم يكن ما يقومون به استعراضا استثنائيا، فمن المستحيل أن نفهم خروج كل هؤلاء الناس في مثل هذا الطقس وفي مثل هذه الساعة من الليل، للتجول في الشوارع وعرض بضاعة لا تباع. كما أن ناظم لم يتطرق إلى هذا الموضوع في عمله الكبير. على كل حال فإن هذا النظام يستحق أن يتقوض حتى لو كان السبب الوحيد لذلك هو لا معقوليته. نسي هذا النظام الفاسد وحاول أن يجسد أمام عينيه مرة أخرى مجتمع ما بعد الثورة: كل شيء له وجه واحد واتجاه واحد وشكل واحد؛ كل شيء واضح ومجرد وناصع وفي منتهى الصفاء؛ كل شيء في منتهى الجمال. تمتم يقول: «مثل تلك الفتاة» وقد تراءت له عينا مريم المصوبتان عليه، فتململت أشياء في داخله. ترى هل سيراها مرة أخرى؟ لم يكن في حياته مكان لامرأة باستثناء فريدة، ولن يكون بعد الآن. لذلك ليس من الوارد أبدا أن يبحث عنها حينما يعود إلى استانبول، بعد الثورة مثلا. مع ذلك سيكون من الممتع

حقا أن يلتقي بها مجددا وينظر في وجهها كما لو كان ينظر إلى صورة جميلة جدا. من يدري! لعله يصادفها، فالحياة ملأى بالمصادفات! فجأة رآها في مقبرة «كُبُلْجة» مرتدية سترة فريدة وعلى عينيها نظارة فريدة، واقفة عند قبر فريدة. فكر قائلا لنفسه: «يبدو أنني أرى حلما، أو أهلوس». أراد أن ينتفض ويتمالك نفسه، أن يترك الأحلام السخيفة ويقوم بتقييم الموقف، أن يتفحص تفصيلات المعركة. ولم ير طريقة لتحقيق ذلك سوى تفحص البيان الذي دس في يده مساء البارحة بدقة أكبر.

راح يفتش في جيوبه، لكنه أجل مشروعه قبل العثور على البيان. فقد بلغ دوران بائعي البشمانية درجة من الكثافة يستحيل عليه معها فهم ما يقرأ. في هذه الأثناء بدا أن الرجل ذا الطاقية قد قرر - نكاية في الجميع - أن يشتري واحدة، فقد راح يسأل كل بائع يفتح باب المقصورة عما إذا كانت بضاعته طازجة، لكنه لا يكتفي بالجواب بالإيجاب الذي يتلقاه من جميع البائعين، فيسحب علبة من السلة، يقلبها مطولا كما لو كان يبحث عن جواب لسؤاله في العلبة، يقرأ ما كتب عليها، يدنيها من أنفه ويشمها، ثم يعيدها إلى السلة من غير أن يتفوه بكلمة. أخيرا توترت أعصاب رسول، فكر أن يضع حدا لهذه السخافة بأن يقول لذي الطاقية: «إن كنت تريد الشراء فاشتر يا أخي! وإذا لم تكن تريد الشراء فلا تجعلهم يقفون فوق رؤوسنا سدى!»، لكنه انتهى إلى أنه من الأنسب له أن يخرج من المقصورة ويتنفس قليلا أو يتمشى في الممر إذا وجد إلى ذلك سبيلا، بدلا من التلاسن مع الناس من أجل تفاصيل صغيرة

كهذه. خرج من غير أن يهمل احتياطاته، أي معلقا حقيبته في كتفه. كان الوضع في الممر أسوأ، فمن المستحيل أن يخطو خطوة واحدة في زحمة بائعي البشمانية وسلالهم. شعر بالاختناق وغمغم يقول: «هذا القطار لا يطاق. يمكن أن يموت المرء في هذا القطار». في هذه الأثناء جاء مفتش يثقب التذاكر. مد له رسول تذكرته وسأله:

- متى نصل قرت آلان سيدي المفتش؟

- بعد غد.

عاد رسول إلى مكانه بحزن من علم بفشل الثورة. ليس بمقدوره تحمل هذا القطار يومين كاملين. حتى إذا استطاع أن يتحمله، فسوف ينزل منه وقد استنفد طاقته القتالية. هذا فضلا عن أمرين آخرين: إن لقرت آلان، من جهة أولى، إيحاء يميني(*)؛ ومدة اليومين، من جهة ثانية، هي مدة طويلة جدا من أجل الثورة. قرر فجأة أنه سينزل في المحطة التالية. ففي كل الأحوال، البلاد هي نفسها، والشعب هو نفسه، كما أنه يتذكر عبارة «على كامل مساحة الوطن» التي قرأها في البيان. مسح زجاج النافذة بظاهر يده ونظر إلى الخارج فوجد الثلج وقد عاد يهطل من جديد، لكن الأضواء تكاثرت وتقاربت أكثر. وسرعان ما تباطأ القطار. اعتمر رسول قبعته والتقط حقيبته ونهض واقفا. نظر مرة أخرى من خلال النافذة ليعرف من أي جهة عليه أن ينزل. لكنه غير رأيه مرة أخرى وعاد إلى الجلوس عندما رأى يافطة بيضاء كتب عليها بالأسود: «علي فؤاد باشا»،

(*) تعني كلمة قرت آلان: ساحة الذئاب. ويعود إيحاؤها اليميني إلى اسم منظمة قومية فاشية هي «الذئاب الرمادية».

وقرر النزول في المحطة التالية: إنه بصدد المشاركة في معركة من معارك الشعب، ولا يريد أن يقتحم اسم باشا أو ما شابه هذه المعركة بأي شكل من الأشكال. لا شك أنه لا يستخف بالباشا الذي أعطى هذه المحطة اسمه، ولا بمعركته، على العكس تماما شعر دائما بالاحترام تجاه هذه المعركة، لكن تلك معركة وهذه معركة مختلفة. غمغم يقول:

«كانت روما استجابة لضرورة

جاءت وانقضت».

لكن صوته ارتفع قليلا. فتح الشاب ذو الفيلد عينيه فجأة وسأله:

ـ نعم سيدي؟ هل قلتم شيئا؟

ـ قلت بأن روما كانت استجابة لضرورة.

ـ روما؟ لِمَ؟ كانت استجابة لضرورة؟

ـ لأن التاريخ جعلها ضرورة. ليس من الصعب التفكير في هذا.

قال ذلك ثم حدق في زجاج النافذة المغبش كأنه يريد رؤية أبعد ما يمكن رؤيته من كل شيء. غمغم: **«أنا أفكر، إذن أنا موجود»** وأضاف: **«وأنا مستعد لهذه المعركة»**. ثم راح يكرر هذه الكلمات الأخيرة بينه وبين نفسه، بصورة متوافقة مع صوت عجلات القطار، كأنه يتلو إحدى قصائد ناظم حكمت: «مستعد لهذه المعركة... مستعد لهذه المعركة... مستعد لهذه المعركة». كلما أمعن في تكرار تلك الكلمات الثلاث، زادت ثقته في نفسه من جهة، وأحس بقوة وحيوية غريبتين، من جهة أخرى، كأن الذي استصعب هذا الصباح دخول المرحاض، هو شخص آخر، فلم يعد في مقدوره أن يبقى ساكنا في مكانه وكأن توربينا بقوة سبعين

حصانا رُكِّب على بطنه. كما أنه ما عاد يشعر بالانزعاج من بائعي البشمانية، بل فكر في أنهم ثوريون متكرون على الأرجح، ركبوا هذا القطار بناء على أوامر ناظم، حتى يراقبوه ويتتبعوه. إذا كان افتراضه صحيحا، فإنه من السخف حقا انتظار وصول القطار إلى قرت آلان من أجل إشعال فتيل الثورة. قال لنفسه: «الثوريون هنا. والشرطة لم تفتح حقيبتي كي لا تعاكس مجرى التاريخ». بدأ صبره ينفد توقا إلى مغادرة القطار في أسرع وقت، وثابر على مسح منطقة من زجاج النافذة بطول شبرين كلما تغبشت، مواصلا النظر عبرها. على الرغم من جهله حتى باسم المحطة التي سيغادر فيها القطار، بدا كطفل يعود إلى بيته بعد غياب طويل: فكلما أحس بأن القطار يتباطأ في سيره، حمل حقيبته على ظهره واستقام في جلسته، وإذا زاد القطار من سرعته بدلا من أن يتوقف، تنهد بحزن وجلس ليواصل التحديق عبر النافذة بحثا عن الأضواء التي يمكن أن تظهر. في إحدى اللحظات خيل إليه أنه يرى في الجزء الممسوح من النافذة، مريم وهي تنظر إليه من خلال نظارة فريدة، ورأى بعدها مباشرة فريدة وهي ترتعش تحت الثلج المنهمر، وقد لفت جسدها بثوب نوم مريم، وأحكمت إغلاق فتحة الثوب بيدها اليمنى، في حين مدت يدها اليسرى نحوه من خارج النافذة. مد يديه نحو النافذة بصورة غرزية، لكن كل شيء امحى. فلبث رسول ساكنا بلا حركة وفكر يقول: «أظن أني غفوت ثانية». لقد نام الجميع في المقصورة، وكان الرجل ذو الطاقية وأحد العاملين في ألمانيا يشخران بصورة رهيبة. من الطبيعي أن يكون غفا بدوره. غمغم قائلا لنفسه: «ليكن ما يكون».

في تلك الأثناء أحس بصورة غامضة أن القطار بدأ يتباطأ. مسح زجاج النافذة بيده مرة أخرى ونظر إلى الخارج، فلم ير أي

شيء. لكن القطار تباطأ أكثر، ثم توقف مع صوت يشبه الأنين كأنه استنفد طاقته. نهض رسول حالا، علق الحقيبة على كتفه، أنزل قبعته اللينينية فوق عينيه واتجه إلى الباب. فتح الرجل ذو الطاقية عينيه وسأله:

- ماذا تفعل؟ أأنت نازل؟

- نعم، أنا نازل. أتمنى لكم رحلة طيبة.

- ألم تكن ذاهبا إلى قرت آلان؟

- غيرت رأيي.

- وأين نحن إذن؟

- لا أعرف.

- ولم تريد النزول وأنت لا تعرف؟

- على المرء أن يواجه أيضا ما لا يعرف.

حدق به الرجل ذو الطاقية فاغر الفم، بيد أن رسولا لم يندهش لاندهاش الرجل بهذه الطريقة. فالبرجوازيون إما أن يندهشوا من الشعراء وإما أن يغضبوا عليهم، وليس ثمة حل وسط. «هيا بالسلامة» قال وخرج من المقصورة، عبر بسرعة الممر الذي أصبح خاويا تماما، فتح باب العربة، صدم وجهه برد جليدي، لكنه لم يتردد لحظة واحدة، قفز إلى الثلج بزوج حذائه الرفيع من نوع الموكاسن. ترنح، فاستند إلى يديه ليتقي الوقوع على وجهه، التفت بصورة غرزية ونظر إلى القطار الذي بدا كأنه توقف خصيصا من أجله حتى ينزل من القطار. فقد ابتعد حالا مع هدير يرج كل شيء قبل أن يتمكن من الوقوف على قدميه.

- ٨ -

حينما ابتعد القطار، وجد رسول نفسه في قلب ظلمة بلا قرار، رمش بعينيه وتلفت حوله، فلم ير أي شيء: لا ضوءا ولا مسكنا ولا شجرة. لم يعرف إن كان قد نزل في محطة من المحطات، أم في مكان مقفر اضطر فيه القطار إلى التوقف لسبب من الأسباب. قال لنفسه: «تفضل يا رحمي سونمز وواجه المجهول». لا شك أنه غير مرغم على النزول في محطة حصرا، بل من الممكن التفكير بأن نزوله في محطة قد يكون ذا محاذير من الزاوية التكتيكية. لكن غوص ساقيه في الثلج حتى الركبتين حالما نزل من القطار، وكذلك سقوطه على يديه، ليسا أبدا مما يثير البهجة. فضلا عن ذلك أحس بشظايا تنفصل عن يديه منذ الآن - بفعل الدفء الحامض داخل المقصورة - وبجسده يتجمد بردا. كما أن الثلج يسوط وجهه بقسوة. على الرغم من ذلك لم يرغب في الاستسلام للهزيمة باعتباره ثوريا جديرا بهذا اللقب. أدار ظهره لسكة القطار ومشى متمهلا.

حينما اعتادت عيناه الظلام بعد قرابة العشرين خطوة، رأى بناء أحلك ظلمة من الظلام، اغتبط فجأة وقال لنفسه: «لا... لا... هذه محطة، لكن الكهرباء مقطوعة». تسارعت خطواته حتى وصل أمام المبنى الشبيه بمبنى صغير من الحجر. لكن الباب والنوافذ كانت مغلقة ولا تشتعل خلفها حتى شمعة واحدة. حين أراد أن يعود من الباب ظهرت أمامه أريكة تغطيها الثلوج. قال لنفسه: «لا بد أنها محطة. محطة مهجورة. ولِمَ تراهم هجروها؟».

كنس بيده الثلج المتجمع عند طرف الأريكة، ثم جلس. رغبة منه في تركيز أفكاره المشتتة قبل أن يسعى إلى تحديد ما سيفعله، أخرج سيجارة مارلبورو وأشعلها محتميا بالمعطف. لكنه وجدها لاذعة جدا، فألقى بها بعد بضعة أنفاس. ألقى نظرة أخرى على ما حوله ونظر مطولا إلى المبنى المعتم. غمغم يقول: «مثل تولستوي، في محطة ستابوفو...» وفي اللحظة نفسها تذكر ستيبان تروفيموفيتش، البطل العجوز الذي يرحل بعيدا في رواية الشياطين. ولكن سرعان ما أثارت أعصابه الذكرى والملاحظة على السواء. فما علاقته هو بهؤلاء الرجال؟ لقد هرب أحدهما من أكاذيبه، والآخر من زوجته، أما هو فيخوض غمار الأحداث بإرادته، وهو في هذا المكان بهدف تقويض نظام الأكاذيب. أما فيما يتعلق بطريقة خوض غمار الأحداث، فالأمر واضح: لقد أعطى ناظم سونمز المثال الأكثر حسية في هذا الموضوع، والبيان الذي أوصل إليه مساء البارحة، حدد المنهج بوضوح: سيتم إشعال فتيل الثورة المسلحة «على كامل مساحة الوطن» انطلاقا من الريف. هاهو الآن «على مساحة الوطن» وفي القطاع الريفي، ويملك مسدسين بجمال فتاتين. وهو كملازم سابق يجيد استخدام المسدس، والإستراتيجية هي الإستراتيجية الماركسية - اللينينية، قال لنفسه: «ما الذي بقي إذن؟». غير أن تفكيره غير الاتجاه في اللحظة التي أراد فيها أن يبحث عما بقي: تذكر كيف خاطبه الحارس الذي سكب له مغلي البابونج في قسم شرطة أسكدار بلقب «سيدي العميد». ترى هل كان مظهره الخارجي آنذاك يوحي بذلك اللقب، أم أن الحارس يعرف شيئا منذ ذلك اليوم؟ فجأة لمع

كالبرق في ذهنه: إذا كان الحارس يعرف مسبقا أن الأمر سيصل إلى هنا، فإن الشاب ذا الفيلد الذي جلس أمامه في القطار وأصغى إلى كل ما قاله باحترام وانتباه، لم يكن هناك بمحض المصادفة: من المرجح أنه الشاب نفسه الذي سلمه بيان ناظم سونمز مساء أمس، وأنه كان ينتظر منه كلمة أو حركة صغيرة. تأسف لأنه لم يهتم به أكثر. لو أنه دخل في صلة مع هذا الشاب، لربما أصبح كل شيء أوضح وأسهل الآن. التفت إلى الجهة التي قصدها القطار، وظل ينظر بلا تفكير وعاجزا عن التفكير، تنهد بعمق، لخص وضعه بأبيات لناظم:

«انطلق السهم من الوتر

والمرمى بعيد

جد بعيد

ولا أثر للهدف!».

تنهد ثانية وأحنى رأسه، ساوره اليأس للحظة واحدة. قال لنفسه: «كان علي ألا أنزل من القطار». رأى في اللحظة نفسها كلبا أشد سوادا من الليل وتلتمع عيناه مثل جمرتين، يتمسح بساقيه، فامتلأ قلبه بفرحة عصية على التعبير، قال له: «ومن أين أتيتني؟».

كان رسول يحب البشر - كثوري - ويقيم الحيوانات فقط من زاوية نفعها بالنسبة إلى الإنسان. مثلا كان يعتقد أن الكلب جميل حين يحمي الخراف من الذئاب، ومثير للاشمئزاز حين يحرس باب بيت الآغا. ولم يكن أي شيء آخر يثير اهتمامه. لأول مرة في حياته ربت على رأس كلب. وحين اندس الكلب بين ركبتيه طلبا

للمداعبة، فكر في أن لدى الكلب ما يبلغه إياه بهذا الاقتراب الودود، وأن الكلب قد يكون من النوع الناقل للأخبار. سأله: «قل لي يا صديقي، إلى أين سنذهب الآن؟ في أي اتجاه؟». ثم رفع رأس الكلب فرأى أنه ينظر إليه وفي عينيه السؤال نفسه موجها إليه هو، أراد أن يطرح الموضوع في شكل محسوس فقال له: «إلى أين الذهاب أو ما العمل؟ هذه هي المسألة يا صديقي. نعم، ما العمل؟ إن «ما العمل» هو عنوان كتاب غاية في الأهمية. هو أحد كتب لينين». داعب رأس الكلب مرة أخرى وأضاف كأنه يريد أن يبرهن على ثقافته الثورية: «فلاديمير إيليتش لينين، سيمبرسك ١٨٧٠ - موسكو ١٩٢٤، حياة قصيرة ولكن في منتهى الغنى». حافظ الكلب أمام هذه المعلومات على عدم اكتراثه، لكن اسم لينين كان كافيا كي يتخذ رسول قراره. قال للكلب: «هيا بنا، نحن ذاهبان!». نهض بقصد أن يضع قراره موضع التطبيق الفوري، مشى في الاتجاه الذي يشير إليه أنفه بخطوات قاسية وحازمة بقدر ما يسمح به حذاؤه الموكاسن والثلج الذي يغطي الأرض. ساط الثلج وجهه بفعل الريح، فأنزل قبعته اللينينية فوق عينيه وقال بصوت مرتفع: «في مقبل الأيام سنتذكر هذا الثلج وهذه الريح باعتبارهما ذكرى جميلة جدا ومدعاة للفخر». ثم أضاف: «تصور! لا عباءة فوق الكتفين /لا سوط في اليد/ لا حصان ولا عربة...». لكنه سرعان ما استسلم للشعور بأنه وحيد يتحدث إلى نفسه، توقف ونظر خلفه. بالفعل، بقي الكلب مسمرا أمام الأريكة، ناداه: «هيا يا صديقي، ألن تأتي؟ هيا تعال، إني أنتظرك!»، لم يحرك الكلب ساكنا فقال رسول: «ليكن. بوسعي أن أذهب

وحـــدي!». وبدأ يمشـي بحــزم. ولـكن إذا أردتم الحق، فــإنه كــان يفضل أن يمشي وبرفقته الكلب. فتحت رحمة هذه الريح وهذا الثلج وفي هذا الظلام الذي لا يحده حد، كان بوده لو يتقاسم مع أحد ما القشعريرة التي تتقدم حثيثا نحو نقي عظامه بدءا من جلده، مع أي شخص قوي أو ضعيف، كائنا من كان هذا الشخص، وبأي طريقة كانت.

تذكر مرة أخرى اقتراح مريم، فابتسم. المسكينة لا تعرف نوع الرحلة التي يقوم بها الرجل الذي أرادت أن تتبعه. إذا كان هدفها هو الالتحاق برجل مسن لكنه شريف كي تنجو من حياتها المخجلة وتعيش حياة طاهرة وهادئة مثل وجهها، فهي محقة، لأنها يمكن أن تبلغ الطهارة فقط بقرب مقاتل من مقاتلي الثورة؛ أما إذا كانت تريد خوض هذه المغامرة بسبب عشقها له، فهي تهذي، ذلك أنه لا معنى لأي شيء قبل الثورة. كما أنها لن تنال ما تريد بعد الثورة، فهي امرأة صغيرة جدا، وغير قادرة على مجاراة شاعر ثوري. وثالثة الأثافي أن أي امرأة لا يمكن أن تحل محل فريدة، فقد تحدد طريق رسول في هذا الموضوع منذ وقت طويل: إنه محكوم بالوحدة. هو يريد رفاقا ثوريين. والرفاق الثوريون كأن الأرض انشقت وابتلعتهم.

بدأت عاصفة ثلجية. لكن البرد لم يصب سوى أصابع يديه وقدميه، ولأن يديه وقدميه تزداد خورا كل دقيقة، كان رسول يشعر بنفسه أكثر راحة كل دقيقة وأكثر حرية. سرع من خطواته، ومشى مطولا في الاتجاه الذي يشير إليه أنفه، كأنه ركب عنفتين في عجيزته.

لعله كان تابع المسير حتى استانبول أو كرت آلان، لو لم ير فجأة في البعيد، فوق خط التماس بين السماء والأرض، خيالا بشريا. لكنه توقف، وقال لنفسه، متناسيا أنه قبل بضع دقائق فقط كان يشكو افتقاره لرفاق ثوريين: «ترى عم يبحث هذا الرجل في هذا المكان؟»، كأن المشي في الظلام تحت الثلج المتساقط لا يحق لأحد غيره. شعر بقلق مبهم وبقلبه يخفق بسرعة. مع ذلك فكر أن عليه بالأحرى أن يغتبط لهذه المصادفة: فإذا كان الرجل صديقا اتحد معه، وإذا كان عدوا حاربه، والحالتان أفضل من هذا السير الأحادي. تذكر الشاب ذا الفيلد الذي سلمه بيان ناظم سونمز مساء البارحة، والذي استقل القطار قبله هذا المساء وراح يقرأ جريدة جمهوريت دونما خشية من أحد: مشية هذا الشبح تشبه تماما مشية ذاك الشاب. مع ذلك أخرج المسدس الصغير من جيبه درءا لكل احتمال، وبدأ يصرخ بكل ما يملك من قوة: «أيها الصديق! أيها الصديق!»، لم يطرأ أدنى تغير في مشية الشبح: يا ترى هل تمكنن هو الآخر؟ بدأ يركض باتجاهه. ركض حتى انقطعت أنفاسه، ثم توقف وأحاط فمه بيديه وصاح ثانية: «أيها الصديق! أيها الصديق!». وأيضا لم يسمعه الشبح، أو أنه تظاهر بذلك. اعتبر رسول هذا طبيعيا: «فنحن في حرب. بالطبع لن ينتظر الصبي كل شخص يناديه». لقد خدم سنة في الجيش، كان عليه إذن أن يفكر بهذا منذ وقت طويل: فالمقاتلون يستخدمون فيما بينهم كلمات السر والإشارات. إنه نقص كبير حقا أن يهمل معدو البيان تحديد كلمة السر والإشارة. من الواضح أن وجود ناظم في السجن قد جعل العمل يضطرب.

عاد يركض من جديد. سرعان ما قلص المسافة بينهما، لأن الشبح لم يغير من سرعته في المشي.

وهكذا بدأ يميز الحدود الخارجية للشبح على الأقل، على الرغم من بقائه شبحا: إنه يعتمر قبعة لينينية مثل تلك التي يرتديها بالضبط، ومثله تماما يحمل حقيبة سامسونايت على كتفه اليسرى، ومسدسا صغيرا في يده اليمنى. كاد يصرخ فرحا، فلا يمكن لكل هذا التشابه أن يكون من باب المصادفات: الرجل واحد منهم، جندي من جنود الثورة. هذا يعني أنه لم يقطع كل تلك المسافة بلا جدوى، وأن الثورة على وشك الاندلاع. هتف بكل قوته: «أيها الرفيق! أنت أيها الرفيق!» ينبغي أن يسمع جندي الثورة صوته هذه المرة. لكن أي تغير لم يطرأ على مشيته المنتظمة. فكر رسول بأنه ربما يكون القائد. استجمع كل طاقته وعاد يركض من جديد. وحينما اقترب كثيرا امحى الخيال فجأة. قال رسول لنفسه: «غير معقول! لا! مستحيل! أتراني رأيت حلما؟». أبطأ من خطواته وتحسس نفسه: لا. إنه ليس في حلم. لكن المكان منبسط تماما بحيث يستحيل على الرجل أن يختبئ على الرغم من الظلام. شعر بالضيق، وداهمه انكفاء، لكنه بعد شيء من التفكير انتهى إلى الاقتناع بأنه ليس ثمة أي سبب يدفع به إلى القنوط، قال: «أعرف الآن إلى أين أتجه بالضبط، وهذا ليس بالقليل».

في اللحظة ذاتها سمع وقع أقدام قريبة جدا إلى يساره، فالتفت بخوف: غير معقول! الرجل الذي كان يمشي أمامه على مسافة خمسين مترا منذ بضع دقائق فقط، يمشي الآن بجانبه!

رمقه من رأسه وحتى قدميه وصرخ: «لكنه ناظم! هذا ابني ناظم!»، عاد ورمقه مطولا. من الصعب تفهم صمته وامتناعه عن إتيان أي ردة فعل إزاء هتافه، ولكن من المستحيل أن يخلط رسول بين حفيده الذي شاركه الحياة سنوات طويلة وبين شخص آخر. إذن فقد تخطى الأسوار وخرج ليتابع مهمته. سأله في شبه همس:

- أهذا أنت يا ناظم؟

لم يتوقف ناظم، ولا حتى التفت ونظر إليه. اكتفى بالقول:

- من وجهة نظر معينة، نعم.

شعر رسول بانسحاق طفيف. ما الذي يحدث؟ هل سيعامله ناظم هنا في ساحة المعركة باستعلاء كما كان يفعل في البيت؟ هل سيعود إلى السخرية منه؟ أمن أجل هذا تجشم كل تلك المخاطر في أرذل العمر؟ لم يتمالك نفسه عن سؤال ناظم:

- لِمَ تعاملني بفتور يا بني؟ هل ارتكبت خطأ؟

- لا يا جدي. أنت لم ترتكب أي خطأ. لكنك تعرف أننا في حرب. ولا مجال للمشاعر في الحرب.

- وما علاقة هذا بالمشاعر؟ حينما سألتك إن كنت ناظما، لِمَ أجبتني قائلا من وجهة نظر معينة؟

- ذلك أننا نستخدم في الحرب أسماء حركية يا جدي.

لكم أراحت هذه الكلمات رسولا وأفرحته! لولا خشيته من التصرف بطريقة عاطفية في زمن الحرب، لأغرق وجه ناظم بالقبلات. إذ على الرغم من أنه انطلق في رحلته بحزم كامل، فقد كابد الشك دوما فيما إذا كان على المسار الصحيح أم لا. والآن

فإن ناظم يبرهن من جهة على قوة حدسه، ويقضي من جهة ثانية على كل شكوكه: إنه في الطريق الصحيح بصورة مؤكدة. والأهم من ذلك، أن وجود ناظم في هذا المكان، لا يكتفي بإثبات أنه في الطريق الصحيح، بل يبين أيضا أن النجاح المؤكد ينتظرهم في نهاية الطريق: فبالنظر إلى أنه نجح في التملص والهرب من بين أيدي ذلك العدد من رجال الشرطة المسلحين ويداه مقيدتان خلف ظهره، يمكن الاعتقاد بأنه خطط كل شيء مسبقا وبأفضل شكل، وأنه سوف يحقق الثورة. لا شك أن وجود قائد مثل ناظم يعيد دوره هو إلى مرتبة ثانوية، ولعلهم لن يسمحوا له بالمشاركة في الحرب المسلحة، آخذين عمره بعين الاعتبار، لعلهم سيطلبون منه أن يبقى مراقبا أو شاهدا على أبعد تقدير. ولكن هذا ليس مما يدعو إلى الأسف، فهو لم يدع يوما أنه يرغب في أن يتنكب كبرى المهمات، كما أن الشهادة في رأيه مهمة جليلة أيضا. حتى لو وجد من يجمع بين المهمتين مثل ماو أو هوشي منه، فإن القاعدة العامة تقتضي من البطل أن يكسب المعركة، ومن الشاعر أن يكتب ملحمة النصر. سوف يكتب على الأقل ملحمة نصر جديدة للأمة، باعتباره الشاعر الأقرب إلى آخر الأبطال، فيعيد اسمه المنسي إلى الأذهان، من غير أن يحتاج إلى أن يسجن يوما واحدا.

تباطأت خطواته وهو يفكر بذلك، فتخلف عن ناظم الذي توقف والتفت إليه للمرة الأولى وقال له بما يشبه الإيعاز:

- هيا امش يا جدي. كثوري مجرب تعرف جيدا أن الثورة لا تنتظر.

- أعرف أعرف. ها قد جئت.

لحق بحفيده راكضا، انحنى على أذنه وأضاف: «أتعرف أنني حجزت تذكرة إلى قرت آلان؟ أي إلى المحطة الأخيرة».

- المحطة الأخيرة هي هذه يا جدي.

- أهذه هي قرت آلان؟

- لم أقل قرت آلان. قلت المحطة الأخيرة.

شعر رسول بأن وجهه اصطبغ بالأحمر، قال:

- فهمت، أو الأصح أنني أحسست بذلك يا عزيزي ناظم.

أمسك ناظم فجأة بذراع جده، ضغط عليها بصورة ملغزة وهمس:

- اسمي الحركي هو رحمي.

تأتأ رسول وهو ينظر بذهول إلى حفيده:

- رحمي؟ تقول رحمي؟ رحمي؟ ومن أين أخرجت هذا الاسم المغبر؟ ألم تجد اسما حركيا أفضل من اسم جدك المتعفن؟

- أنت شاعر كبير يا جدي، فضلا عن أنك علمتني الثورية. لقد اخترت اسمك اعترافا مني بجميلك. إنه شرف كبير لي أن أحمل اسمك يا جدي.

أحس رسول مرة أخرى باصطباغ وجهه بالأحمر، قال وهو يحني رأسه:

- ألست تبالغ كثيرا؟ ثم إنك تعرف جيدا أن أكثر شخص ندين له بهذا الخصوص، هو فريدة سونمز.

- حتى لو كان ما تقوله صحيحا، فأنا لا أستطيع أن أتخذ من اسم أنثوي اسما حركيا لي يا جدي.

- إن الأمر لكذلك... ولكنك تعرف أن أحدا لا ينظر إلي كشاعر.

ـ لا تزعج نفسك بذلك. سيدركون يوما أنهم كانوا على خطأ، شاؤوا ذلك أم أبوا. ذلك أنك الجديد الثالث، أنت تحيا في صيغة المستقبل!

التمعت عينا رسول وتأتأ قائلا:

ـ إذن... إذن... سأنتحل بدوري اسمك اسما حركيا لي، فأصبح ناظم، وبذلك نكون قد حققنا التوازن.

ـ ليكن إذا كانت هذه رغبتك.

ـ شكرا لك.

مشيا فترة بلا كلام، أصغيا إلى هدير الريح وحسب. ثم أبطأ رسول خطواته:

ـ ما أغرب الحياة! لقد عشنا سنوات طويلة في البيت نفسه، ولكن تعين أن نسافر باتجاه قرت آلان حتى يتعرف أحدنا على الآخر!

ـ لا يا جدي، أنت على خطأ. إني أعرفك منذ سنوات طويلة.

ـ ما كنت أعرف. ما كنت أعرف. إلى ما قبل بضعة أيام ما كان يخطر على بالي قط أنه من الممكن أن تكون ثوريا.

وحين التفت نحو حفيده، شلته المفاجأة: رأى ناظم داخل دائرة نور مبهر. وكان يغمز له ويبتسم من داخل هذه الدائرة الخارقة للمألوف. فصرخ: «ناظم!».

ـ سبق أن أخبرتك يا جدي أن اسمي الحركي هو رحمي.

ـ طيب. طيب. رحمي! إني لا أفهم من أين انبثق هذا النور فأحال الليل نهارا؟ قل لي أهو يشع منك؟

ـ أنت مخطئ يا جدي. إن هذا النور يشع منك، وينعكس علي، تماما مثل ماركسيتك. ألا ترى؟

تضاعفت دهشة رسول: لو أنه لا يعرف أي محارب من أجل الثورة هو ناظم، لظن أنه يسخر منه. في هذه الأثناء رأى أن حفيده يعتمر - محاطا بالنور - القبعة نفسها التي يعتمرها، ويرتدي المعطف المطري نفسه والسترة نفسها والبنطال نفسه والزوج نفسه من حذاء الموكاسن، ويمسك في يده بالمسدس نفسه، ويحمل على كتفه الحقيبة نفسها، فازداد عجبا وتأتأ يقول:

- إني لا أفهم، لا أفهم. كل شيء يتشابه فيما بيننا.

- نعم، صحيح. لقد لبسنا نمطا موحدا. انظر إلى هذا المعطف. إنه يشبه معطفك الشوبان.

- نعم، هو كذلك.

غمغم بذلك ثم نظر مطولا إلى معطف ناظم، وأضاف: «كأنه المعطف نفسه. إني لا أفهم. ما معنى هذا يا بني؟ هل سنشعل فتيل الثورة معا؟ لقد ظننت...»

قطب ناظم حاجبيه داخل دائرة النور، ثم تحدث بصوت مفعم بالثقة، يزيل أي شك، مؤكدا على كل كلمة:

- لا يا جدي. لن نشعله معا. أنت ستقوم بذلك. لأنك أنت البروليتاري. قد اشتغلت في طفولتك أجير صانع مدافئ، نفخت في الكور، ضربت المطارق. أما أنا فسأكتفي بأن أتبعك. من يدري؟ لعلني أكتب ملحمة هذه الثورة في مقبل الأيام.

- كيف ذلك؟ كنت تنفر حتى من قراءة الشعر!

- لكني أصغيت كثيرا. أنت تعرف بأني نشأت على قصائدك الثورية.

هز رسول رأسه وقال:

ـ لا يا ناظم. لا يا بني. أنا عجوز أكثر مما يجب من أجل هذا العمل. ثم إنك قمت بكل شيء، كل العمليات العسكرية. لقد كتبت الجرائد عنها. أنت القائد. باختصار أنت الذي أنضج الثمرة، ومن حقك أنت أن تقطفها. ألا ترى أنه حتى الملابس التي أرتديها وحتى المسدس الذي في يدي، هو لك؟

ـ صحيح ولكن الذي أنشأني هو أنت! أنت علمتني أن الجنة فوق الأرض. ولأنك تعرف أن الجنة فوق الأرض، هبطت إلى السهول بدلا من صعود الجبال.

شعر رسول بالخجل والفخر معا، لكنه بالفعل لم يكن راغبا في احتلال موقع ناظم، ومن وجهة نظر نجاح الثورة كان يرتأي وجوب انعقاد القيادة لناظم.

ـ ولكن يا ناظم...

قاطعه ناظم فورا:

ـ انتبه يا جدي إلى الكلمات التي تتفوه بها. أرجوك رجاء حارا، إن اسمي الحركي هو رحمي. عليك أن تخضع للقواعد.

ـ أعرف. أعرف. لكني أذكر اسمك، لأننا وحدنا هنا.

ـ لا يا جدي. لسنا وحدنا. نحن هنا وجها لوجه أمام التاريخ.

ابتسم رسول. امتلأ قلبه فرحا لكونه أمام التاريخ وبجانب حفيده. إن صحة النظرية قد تأكدت. طوال حياته لم يشعر بكل هذه الثقة بنفسه. قال:

ـ إذا كنا أمام التاريخ، فإني أشهد التاريخ على ما أقول: لم أزل عاجزا عن فهم عنادك السخيف هذا. بل إني أستشعر في موقفك نزعة عاطفية لا تليق بثوري.

- كيف تقول ذلك يا جدي؟!

- أنا أقـوله! لنقل بأنك قـررت أن تسند قـيـادة العـمليـة التي أنضـجتها بنفسك، إلى من هـو أكبـر سنا وأكثـر خبـرة منك. لنقل بأنك تريد لهذا الشخص المسن والمجرب أن يكون شاعرا. لكن في هذا البلد شـعراء غيري. شعـراء اعتقلوا وعـذبوا وكابدوا مـعاناة الثورية. لِمَ لم تختر أحدا منهم؟ لماذا أنا؟

- هم كبروا بما فعل بهم، في حين أنك كبير بما فعلته يا جدي.

- وما الذي فعلت؟

- فـعلت كل مـا يمكن أن يفـعله شـاعـر بـروليـتـاري. لقـد كـشـفت النظرية الثورية كلها في جسد امرأة.

اندهش رسول مرة أخرى:

- يا رحمي، يا بني، من أين عرفت ذلك؟

- أعرف كل ما له صلة بك يا جدي. الثورية بإحدى معانيها هي أن تقدر الأشخاص والأشياء حق قدرها.

تنهد رسول وقال:

- مع ذلك لست أفـهم. حتى لو تركت جـانبـا من يتـعيـشـون على اعتقـالهم أسبوعا في حياتهم، فليس من حقك أن تشطب في جرة قلم أولئك الشعراء الذين أمضوا سنوات في السجون.

هز ناظم يده بعصبية وقال:

- ليس ثمة قـاعدة تقول بوجوب دخول السـجن حتى يصبح المرء شـاعرا ثوريا يا جدي، لنغلق هذا الموضوع.

رمش رسـول بعينيـه كأن النور المحيط بناظم أو المسـتقبل الذي ينتظره قد بهرهمـا، أحنى رأسه وقال:

ـ طيب. طيب. ليكن ما تقول. لكني أعتقد أن القيادة لا تحل جميع المشكلات. سواء تسلمت أنت القيادة، أو أنا، كيف السبيل إلى إنجاح الثورة؟ سواء قاد الثورة شاعر أو بروليتاري، أو كلاهما معا، أين هم الثوريون الآخرون؟ إني لا أرى أحدا غيرنا هنا. ألا يتعين أن يكون لهم نصيبهم في هذه الحرب؟ أين هم كل أولئك الثوريين الذين عرفناهم من خلال المجلات والكتب والخطب والجرائد والجامعات؟

أطلق ناظم ضحكة مجلجلة جعلت دائرة النور المحيطة به تتماوج وقال:

ـ لأقلها لك باختصار: أولئك الثوريون الأشاوس، أولئك المنظرون الذين لا يشق لهم غبار، ركبوا أجمل السيارات ورحلوا.

اندهش رسول وسأل:

ـ رحمي يا بني، عن أي سيارات تتكلم؟ ما الذي تريد أن تقوله؟

أطلق ناظم ضحكة أخرى:

ـ كثير منهم ارتبط بأسياده الجدد. ومن لم يرتبط مات أو هو في السجن.

ـ والبروليتاريون؟ أولئك الرجال الشجعان من البروليتاريا التركية؟ ما الذي حدث لهم؟

ـ أولئك الشجعان يكنسون الشوارع في ألمانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا. وحين يركبون سياراتهم الجميلة ويعودون إلى هنا، ينبطحون تحت أقدام أرباب العمل.

ـ فهمت، أنت تقصد البروليتاريا الرثة. طيب، والذين بقوا هنا؟ أعني البروليتاريا التركية الحقيقية؟

- آه، هؤلاء؟ أما هؤلاء فلهم شأن آخر: إذا أنت ناديتهم بالبروليتاريا هجموا عليك قائلين: «كيف تسمح لنفسك أن تسمي العامل التركي الأصيل بروليتارياً؟!» ولعلهم يجرجرونك في المحاكم.

- لكن جهلهم بالترمينولوجيا الماركسية، لا يمنعهم من أن يكونوا ثوريين.

- لا يهمهم سوى ما يمكن أن يقبضوه من نقود يا ناظم بابا.

- طيب، كيف سنتغلب على هذه المشكلات إذن؟

على الرغم من أن عبارة «ناظم بابا» ملأت قلبه بالفرح، فإنه لم يتمكن من التغلب على مخاوفه. حدق في ناظم مبتئسا وكرر القول: «نعم، كيف سنتغلب على هذه المشكلات؟ كيف سنفوز في هذه الحرب؟»

ابتسم ناظم:

- كل شيء يتوقف عليك يا جدي. أنت من سيؤمن خروج من في السجن، وأنت من سيؤمن عودة المهاجرين.

- ولكن كيف؟

- سترى يا جدي أن كل شيء سيتم في منتهى اليسر، تقريبا من تلقاء نفسه. يكفي أن نمشي إلى الأمام مباشرة. إلى استانبول مباشرة.

- إلى استانبول؟

- إلى استانبول.

- لكننا انطلقنا من استانبول.

- ليكن.

- وهل سنذهب إلى استانبول راجلين؟

- نعم يا جدي، ولم لا؟ أنت على كل حال تمشي بصورة ممتازة. كأنك تمكننت. وكأن قوة ألف حصان تكثفت حديدا في كل ظفر من أظفارك. إني فخور بك يا جدي. تقدمني، فالشعراء يمشون في الطليعة. والجنود القدامى لا يموتون.

- حسنا. ليكن ما تريد، قال رسول وأسرع خطواته وقال لنفسه: «ماذا حدث لهذا الولد؟ طوال سنوات نظر إلي باستخفاف. والآن يقول بأنه فخور بي. أأنا من قاد كل تلك العمليات المسلحة؟!».

لكنه لم يعاند، ولا طرح أسئلة، اكتفى بأن مشى أمامه. كما أنه ما عاد يحس بالبرد، ربما بفعل الحرارة المشعة من النور المحيط بناظم. ليس البرد فقط، بل إنه ما عاد يحس بأي شيء على الإطلاق، تقلص وجوده كله في الحركات الآلية لقدميه. فقط حين يسمع صوت ناظم كان وعيه يستيقظ. بيد أن ناظم ما عاد يقول أي شيء يقتضي منه استخدام وعـــيه. لقد اكتفى بحث جده، إذا تباطأت خطواته من حين إلى آخر، بالقول: «امش يا جدي. لا تتوقف ولا تتباطأ. تعرف أن هذه الطريق لا رجعة فيه». مشى هكذا مطولا. ثم ألح على ذهنه بلا مقدمات هذا الاسم: مريم المجدلية، مريم المجدلية، مريم المجدلية. وكما عجز عن انتزاع هذا الاسم الغريب من رأسه، كذلك عجز عن معرفة اسم من يكون ولا متى صادفه وأين، في أي كتاب أو في أي قصيدة. أخيرا انهارت مقاومته فسأل حفيده:

- رحمي يا بني، هل سمعت بشخص يدعى مريم المجدلية؟

- نعم سمعت يا ناظم بابا. إن مريم المجدلية هي امرأة.

- طيب، ومن تكون هذه المرأة؟
- لا أعرف. هل تعرف أنت؟
- لا. لا أعرف.
- إذن لا تفكر بها. اهتم بمشيك. إذا مشيت بسرعة نسيتها.

بالفعل حدث ما قاله ناظم. بعد أن عاندت حينا، خرجت مريم المجدلية من وعيه. لكن مغامرة ليلة البارحة حلت محلها كأن بين الاثنتين رابطا ما، أحس باحمرار وجهه، أراد انتزاع هذه المغامرة من ذهنه. ولكن بدلا من ذلك شعر برغبة ملحة لا سبيل إلى مغالبتها في أن يحكي كل شيء لناظم. وانتهى إلى الاستسلام أمام تلك الرغبة. قال:

- لقد اقترفت عملا سيئا جدا ليلة البارحة يا رحمي يا بني.

ضحك ناظم وقال له:

- لا يا جدي، أنت لم تقترف شيئا سيئا. لقد فعلت شيئا رائعا.
- لكنك لا تعرف ما فعلت.
- بل أعرف. لقد قابلت امرأة جميلة جدا، اسمها مريم.
- ولكن... ولكن...، تأتأ رسول وقد أخرسه الذهول، فلم يعرف ماذا يقول.
- بلا لكن ولا ماكن يا ناظم بابا... لقد فعلت شيئا جيدا حقا، وفعلته بطريقة جيدة.
- لكنني طالما بقيت مخلصا لجدتك، كما تعرف يا رحمي... ثم لم يكن فيما حدث أي حب.

أطلق ناظم ضحكة صاخبة:

- اعذرني يا جدي، لكنك بدأت تهذي.

- ولِمَ تقول إنني أهذي؟ أليس للحب أي أهمية في رأيك؟
لم يضحك ناظم هذه المرة. توقف عن المشي وقطب حاجبيه مفكرا كمن يريد أن يقول شيئا غاية في الأهمية:
- أنا أؤمن يا ناظم بابا بأن تغير علاقات الإنتاج الرأسمالية هو شرط ضروري ليتحقق الحب. إن الحب الحقيقي يرتبط بتحقق الثورة.
- لكن نساء كثيرات دخلن حياتك وأنت في عمر الشباب.
- نعم دخلن، ولكن من دون حب. المرأة هي مجرد مكافأة للثوري، وهذا كل ما في الأمر. يستحسن أن نغلق هذا الموضوع ونهتم بمسيرنا.
- حسنا. ليكن ما تريد.
سرَّع من خطواته مجددا، لكنه بعد فترة ما عاد يسمع وقع أقدام حفيده. خشي أن يكون تركه ورحل، فصاح به:
- أين أنت يا رحمي؟
- أنا هنا يا جدي، وراءك. لا تتوقف، فقد تأخرنا، الساعة قاربت الثالثة.
واصل رسول سيره، وكم سار بهمة وسرعة! لم يتمالك ناظم نفسه من الإفصاح عن إعجابه: «رائع يا جدي، رائع! أنت تمشي أفضل مني». واضح أن المشي بصمت يعجبه أكثر. لكن فكرة أخرى تسلطت على ذهن رسول، فسأل حفيده:
- أتغضب يا رحمي إذا سألتك سؤالا سخيفا؟
- لا يا جدي، لن أغضب.
- أردت أن أقول... هل كان ثمة حدوة صغيرة فوق باب البيت؟
- لا أعرف يا جدي. لم أر حدوة أو أي شيء آخر فوق باب البيت. ولكن لِمَ تسأل؟

- لأن الحدوة موجودة هناك حتى قبل ولادتي. لم تلفت نظري ولا لفتت نظرك قط. لم نلاحظ وجود الحدوة الصغيرة طوال سنوات.

- ممكن. وماذا في ذلك؟

- أتساءل فيما إذا كنا فاقدي الاهتمام بالعالم إلى هذا الحد. هل نحن ثوريان ناقصان؟ كيف حدث وتركنا تلك الحدوة هناك في سلوك متعارض مع مبادئنا؟

- لا يا رحمي سونمز، لا أيها المعلم العجوز. نحن لم نلاحظ تلك الحدوة لأن عيوننا وعقلينا ظلا منشغلين دائما بالشعب.

- أتعتقد ذلك؟

- أعتقد ذلك.

- ولكن ولكن، تأتأ رسول بذلك، ابتلع ريقه، توقف، ثم حدق في عيني ناظم وأضاف: لكن الجريدة كتبت أنك أطلقت النار على أفراد أبرياء من الشعب.

ابتسم ناظم ابتسامة طاهرة نقية وأجاب:

- لا تلق بالا إلى تلك الجريدة يا جدي. إنها تكذب. فأنت أيضا تعرف أنه لا شيء أسخف من الحديث عن أفراد أبرياء في مرحلة ما قبل الثورة.

- هل تريد أن تقول إن الجميع مذنبون؟

- أقول إن لا أحد بريء.

- إذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن ثمة أبرياء، فهل يتعين قتل كل الناس؟

- لا يا جدي، لا أيها المعلم العجوز. فقبل كل شيء، لا تكفي إمكاناتنا للقيام بذلك. ولكن خفض عدد المذنبين هو دين في أعناقنا.

توقف رسول فجأة وقال:

- إذا كان كل الناس مذنبين، معنى ذلك أننا أيضا مذنبون، ويزداد ذنبنا كلما قتلنا أكثر. إذن نحن أول من يجب أن يقتل. الأطروحة، الأطروحة النقيض، والتركيب. ألا يوجب المنطق هذا؟

- لا يا ناظم بابا، أنت مخطئ. كلما قتلنا خفضنا من عدد المذنبين، وكلما خفضنا من عدد المذنبين تطهرنا.

- ولكن كيف سنختار المذنبين الذين يتعين قتلهم؟ هل وفقا لحجم الذنب وعدد الذنوب؟

أطلق ناظم ضحكة صاخبة أخرى وقال:

- كان بوسعك أن تفهم هذا مما قرأته في الجريدة. لو أننا شرعنا في القتل وفقا لحجم الذنوب وعددها، لكنا من جهة أضعنا وقتنا سدى في التفكير في مفهوم الذنب، وعرَّضنا حياتنا ونشاطنا للخطر من جهة أخرى. نحن نختار المذنبين وفقا لسهولة قتلهم.

- في هذه الحالة فإن عملكم هذا لا يمت بصلة إلى الثورة الماركسية، قال باندفاع وأمسك بذراع ناظم كمن يريد الحيلولة دون وقوع جريمة وأضاف: نعم، هذا لا يمت بصلة إلى الثورة الماركسية. يتحول إلى فوضوية وإرهاب. في حين أن الأمر ينبغي ألا يكون على هذا النحو، إذا كان التاريخ يتقدم.

حرر ناظم ذراعه من يد رسول وقال:

- كل شيء يتعلق بالتحليل يا جدي، أو وفقا لتعبيرك: كل شيء يتعلق بالأجيال. كان جيلك يقيس الثورية بما تعرض له من تعذيب أو بالمدة التي أمضاها رهن الاعتقال، أي بما فعله الآخرون به؛

أما ثورية جيلي فتقاس بما يفعله هو بالآخرين، أي بعدد المذنبين الذين يقتلهم. هل تفهم الآن؟

هز رسول رأسه وقال:

- لا أظن أني فهمت تماما.

- لا عليك، لا تشغل بالك بهذه المسألة، قال ناظم ودفع برسول إلى الأمام: اهتم بسيرك: **«جبهتك إلى الأعلى، اللفاع الأحمر في مهب الريح، خطوة فخطوة»**، ولكن ليس ببطء كما في القصيدة، بل بسرعة.

- من أين تعرف هذه القصيدة؟

- أنا أعرف كل ما تعرفه يا جدي. نعم، أسرع قليلا!

سرَّع رسول من خطواته أكثر. مشى متقطع الأنفاس وبصمت. بعد فترة رأى بعيدا أمامه خطا قويا من الضوء، يمتد من أقصى المكان إلى أقصاه. فكر: «ترى هل اقترينا من خطوط العدو؟ لكن هذا الضوء قوي بصورة استثنائية، أكثر سطوعا حتى من نور ناظم. كيف لقوى الظلام أن تؤمِّن ضوءا كهذا؟». من غير أن يبطئ من خطواته، سأل ناظم ناسيا استخدام اسمه الحركي، بفعل الدهشة التي خلقها الضوء الكثيف:

- ما هذا الضوء يا ناظم؟

- إنه الشمس يا جدي.

تسمر رسول في مكانه:

- كيف ذلك! أليست الشمس كروية؟ لقد علمونا ذلك منذ المدرسة الابتدائية.

- أنت على حق يا جدي. ذلك ما يعلمونه في مدارس البورجوازية، رغبة منهم في تشبيه كل شيء بأنفسهم. ولكن إذا

أردت تستطيع تكويرها من جديد. فبعد أن تمسك بها وتسيطر عليها تستطيع أن تعجنها وتشكلها كما ترغب.

- لكني عرفت السيطرة على الشمس باعتبارها مجرد كناية جميلة.

- لا يا جدي، أنت تخطئ في هذا الأمر. لا علاقة له بالكناية، هو الحقيقة بذاتها.

ثم تلا أبيات ناظم بصوت دوى في كل الجهات:

«ثمة هجوم على الشمس!

سوف نسيطر على الشمس

اقترب موعد السيطرة على الشمس!».

دمعت عينا رسول، وانتفخ صدره زهوا، فلم يسبق له أن صادف أحدا يتلو هذه القصيدة بهذه الروعة. من جهة أخرى، آمن بمحتواها إيمانا مطلقا، أي بإمكان السيطرة على الشمس. لكن أمامهما مشكلات ملموسة تقتضي الحل، عليهما أن يتحدثا بخصوصها. سأل حفيده:

- حسنا، ولكن كيف سنفعل ذلك؟ كيف سنسيطر على الشمس؟ ألا يوجد عدو أمامنا؟

- إنه موجود، لكننا سنشل فعاليته بالاستفادة من خبرتنا الثورية. سترى أن الأمر سيتم في منتهى اليسر. اهتم بسيرك!

مشى مجددا. بدأ يميز وراء خط الضوء الكثيف، بعض المشاهد والحركات. لم يعرف ما تكون، لكنه أصبح يرى بوضوح أكبر كلما ازداد قربا: منازل خشبية صغيرة سوداء من طابق أو طابقين، في نوافذها أصص بمختلف الأحجام زرعت فيها نبتات

عطرية والكاردينيا، وخلفها مروج خضراء وأشجار تين ورمان، على أرصفتها المبلطة أطفال يلعبون. تأتأ رسول: «لكن، لكن... شيء لا يصدق!». نعم كان شيئا لا يصدق، فهو يعرف جميع هؤلاء الأطفال. وهاهو فهمي بينهم، يعرض دحلاته على رفاقه. كاد رسول يناديه. لكنه جمد حيث هو: إن التاريخ يتدفق دوما إلى الأمام في مسار لا يرتكس. والثورة هي خاتمة هذا المسار. في حين أنهما وصلا بعد جهد إلى ما سبق وعاشاه، إذا لم تكن هذه المشاهد من بنات الوهم. ما معنى هذا؟ هل أصبح التاريخ يدور في الاتجاه العكسي؟ هل ينتصر البورجوازيون في الحرب؟ لكن ناظم قال له كمن يقرأ أفكاره:

- المكان الذي تراه هو نقطة البداية. ثمة إلى الأمام أمريكا الصغرى بفيلاتها الإسمنتية ومبانيها التجارية بسبعة وسبعين طابقا. وكما تعلم أمريكا الصغرى هي حلمنا الأكبر. ما أريد أن أقوله لك يا جدي، هو أن هذا المكان لا يعدو كونه جزءا صغيرا من الفردوس الأرضي، وفي الوقت نفسه رمزا من رموزه. أي أننا بلغنا نهاية الجحيم. نحن الآن عند أبواب السماء. لا تتوقف. امش!

- طيب. طيب. إنني أمشي.

بما أن ناظم قد أكد أن هذه المنطقة الجميلة هي الفردوس الأرضي، فقد شعر بالراحة، حتى لو بدت منازلها وشوارعها في تعارض مع تيار التاريخ. لذلك بدأ يمشي فيما يشبه الركض. أراد أن يتوغل في بؤرة الضوء بأسرع ما يمكن. لكن خيالا بشريا ظهر فجأة أمام بؤرة الضوء: رجل ضخم يرتدي ما يشبه الثياب الرسمية لسعاة البريد، وجه إليه فوهة البندقية الآلية وصرخ به:

ـ قف! ممنوع!

توقف رسول غرزيا، لكن صوت ناظم الجهوري دوى في أذنيه في اللحظة نفسها:

ـ هيا يا جدي تصرف! أمسك بسلاحك! إذا كنت تريد السيطرة على الشمس، عليك أن تقضي على هذا الرجل. فهو العائق الوحيد أمامك!

كان المسدس الصغير في يده دائما. امتدت إصبعه إلى الزناد بفعل اعتياده على تنفيذ أوامر ناظم كلها، لكنه تعرف فجأة، في الرجل الذي شبهه بساعي بريد، على الشرطي الذي كان يكتب بآلته الكاتبة من طراز رمنجتون بإصبع واحدة على الطاولة الصغيرة في قسم الشرطة، فارتعش من رأسه وحتى قدميه. التفت نحو ناظم وقال له:

ـ أخشى يا بني... رحمي إني لن أمتثل لطلبك هذا. هذا الرجل هو صاحبنا المفتش في قسم الشرطة. إنه شاب طيب جدا، ولد أناضولي حقيقي. كثيرا ما قدم لي مغلي البابونج. لا، لن أقتله. إنه عبد مأمور.

قطب ناظم حاجبيه وقال بنبرة غضب:

ـ سبق أن أخبرتك يا جدي أننا نقتل دائما من يسهل قتلهم، أي العبيد المأمورين، ثم لطف من صوته وأضاف: كما أنني لا أظن أن هذا الرجل هو نقار الخشب ذاك. انظر إليه مرة أخرى!

نظر رسول مرة أخرى: إنه هو. المفتش. أو يشبهه كثيرا، غير أن وجهه وجه صبي في الثانية عشرة من عمره، يوحي شارباه بأنهما مستعاران. هز رسول رأسه بحزن:

- حتى لو لم يكن هو، فلن أفعل. إن وجهه وجه طفل. وجه طفل بريء. ألست من رأيي؟

- لا يا جدي، لا أيها المعلم العجوز! نحن جنود الثورة المسلحة. تعرف أنه لا أحد بريء بالنسبة إلينا. كما أنك لا تستطيع القيام بثورة دون إراقة دماء.

- ولكن يا ناظم...

- أرجوك رجاء حارا يا جدي. لا وقت نضيعه في نقاشات سخيفة. ثم ما الذي سنناقشه؟ إذا كنا في الجحيم، فهذا يعني أننا جميعا آثمون. أم أنك خائف؟ تعرف جيدا أن الخوف لا يرد الأجل.

- عزيزي رحمي، عن أي خوف تتحدث؟ أنا لا أخاف. أنا جدك. ثم إنك تعرف ماذا يقول الشاعر: الموت لا ينهينا...

ابتسم ناظم، ربت على كتف رسول:

- لا تؤاخذني، لكنك مخطئ في هذا أيضا. إن من لا ينتهي ليس نحن، بل هم. لذلك تستطيع أن تقتله بضمير مرتاح. هيا، فقد تأخرنا.

- لكن هذا الولد يا ناظم، هذا الولد... هذا الولد يشبه الآن...

ثار ناظم فجأة، فصرخ:

- قلنا لتكن حربا حتى النصر يا جدي! وهانحن على عتبة النصر! اضغط على الزناد ولا تفكر في الباقي! لا تنس: إذا كنا ثوريين، علينا أن نثبت ذلك.

أحنى رسول رأسه وقال:

- ألست تبالغ قليلا يا رحمي؟ ألست بصدد ارتكاب خطأ بدفعنا إلى المقدمة؛ تعرف ماذا يقول المعلم ناظم: «إن دور الفرد

في التاريخ معروف. هو لا يستطيع تغيير اتجاه التيار. يستطيع فقط أن يسرِّع من إيقاعه أو يبطئ. لا أكثر ولا أقل».

ابتسم ناظم بتفهم:

- أعرف يا جدي، أعرف. لكن سوماديفا تقول في الكتاب نفسه: «إن نهاية التاريخ ستكون جميلة إلى درجة لا تصدق. أنا واثقة من هذا».

هيا اضغط على الزناد!

عاند رسول مجددا:

- لا شك أنك على حق. ولكن مهما يكن من أمر فإنه يصعب علي أن أقتل إنسانا. لطالما فكرت في أن الثورة منحازة إلى الإنسان. أي فارق يبقى بين الثوري والفاشي، لو لم يكن الأمر كذلك؟

- أنت تتكلم هكذا يا جدي، لأنك لا تزال تحت تأثير الكتب التي عفى عليها الزمان.

- لا. أنا تحت تأثير فريدة أكثر من الكتب. أسأل نفسي: «لو أنها موجودة ماذا سيكون رأيها؟».

- أعرف، أعرف. لكانت قالت: «الثورة هي الحياة». لكنها لم تقل أبدا إن الثورة ليست القتل. أهذا كذب؟

- لا، بل صحيح ما تقوله.

- طيب، لِمَ تتكلم إذن؟ نعم إن الثورة تعني الحياة. ولكن كي تحيا كثوري يتعين عليك أن تقتل. نحن نسمي هذا بالثورة المستمرة يا جدي. هيا اقتل هذا الرجل يا جدي!

- وهل سنواصل قتل الناس بعد الثورة أيضا؟

- لا يا جدي. لم نعد في زمن جوزف فيساريونوفيتش(*). هذه آخر مرة! ستطلق الرصاصة الأخيرة، وتدخل التاريخ بصفتك الرجل الذي أطلق الرصاصة الأخيرة. ولكن عليك أن تحسم أمرك. أنت تعرف أن التاريخ لا يتوقف!

بكلامه هذا قضى ناظم على جميع شكوك ومخاوف رسول. فهو أيضا يؤمن بتقدم التاريخ الذي لا ارتكاس فيه. أكد كلام حفيده:

- نعم، التاريخ لا يتوقف!

صوب مسدسه إلى الشاب ذي الشاربين الكثين، أغمض عينيه وضغط على الزناد. في اللحظة ذاتها سمع دويا رهيبا اختلط بصرخات تشبه نباح كلب متألم. فتح عينيه: يا للغرابة! بدلا من السيطرة على الشمس التي حلم بها، غرق العالم في ظلام حالك، كما أن ناظم قد اختفى عن الأنظار. لن يحني - هو الثوري المخضرم - رأسه أمام هذا الموقف. قال من بين أسنانه: «سأمزقك أيها الظلام!» وضغط مرة أخرى على الزناد، وأخرى وأخرى وأخرى وأخرى. ثم - ولا يدري إذا كان ذلك قد حدث في الظلام أم في النور، أم في الحد الفاصل ما بين الظلام والنور - انهار مثل شجرة.

(*) ستالين.

ملحق

لو كان هذا الكتاب رواية حقيقية، وليس «سيرة ذاتية» أقحمت في مظهر رواية لأسباب يعرفها القارئ جيدا، لتعين أن تنتهي هنا. بل كان حريا بروائيين يحبون النهايات الصادمة، أن ينهوا نصهم بجملة «انهار مثل شجرة» الأولى، ويعتبروا أيام رسول الخمسة الأخيرة كأنها لم تكن. ولكن بما أنه لا محل في عملنا لهواجس من هذا النوع، فنحن نريد أن نعطي هنا معلومات موجزة عما حدث أيضا بعد سقوط رسول الثاني.

وفقا لتحرياتنا تطورت الأحداث بعد سقوط رسول الثاني، بإيجاز، كما يلي:

عدد من القرويين الذين استيقظوا من غمرة نومهم وقفزوا من فرشهم على صوت ست طلقات متتالية، مكثوا فترة في بيوتهم خوفا ودهشة. ثم راحوا يخرجون تدريجيا واحدا بعد آخر، ويتجمعون في نقاط معينة ليتباحثوا حول المكان الذي أطلق فيه النار. وكما هو متوقع تضاربت الآراء. لكن الجميع اتفقوا على أن مصدر الصوت قريب جدا، وأنه تم تجاوز الخطر نظرا للصمت الذي خيم على الارجاء. قرروا أن يحملوا قناديلهم ويتوزعوا إلى مجموعات من سبعة أو ثمانية أشخاص، ويفتشوا الجوار. قبل مرور ربع ساعة، عثرت المجموعة التي ضمت مختار الضيعة، على رجل ضخم الجثة منكب على وجهه وقد اختفى نصفه تحت الثلج، يرتدي معطفا مطريا رقيقا ويعتمر قبعة عجيبة، وعلى مسافة قريبة من يده اليمنى الممتدة إلى الأمام مسدس صغير. أول ما خطر في بالهم هو أن شخصا قتل هذا الرجل وألقى بمسدسه على الأرض وهرب، وأن من المستحيل أن يكون على قيد الحياة

بما أنهم سمعوا صوت طلقات ست. لذلك تباطأوا بعض الشيء، بل فكروا أنه من الأنسب أن يتركوا الجثة حيث هي ويبلغوا الدرك. لكن قرويا أمضى خدمته العسكرية في وحدة صحية، أصر على أن يجسَّ نبض الرجل الغريب. فصرخ بفرح ممزوج بالدهشة: «الرجل حي!». لم يرغب الآخرون أن يصدقوه، لكن حمل الغريب ونقله إلى «مضيفة» القرية أصبح أمرا لا مفر منه.

خلعوا عنه معطفه المتجلد وسترته وبنطاله وحذاءه الموكاسن وجراباته، ومددوه على الأريكة الخشبية المجاورة لمدفأة الحطب، فأدهشهم عدم وجود أي قطرة دم على جسده! ثم تضاعفت دهشتهم حينما راحوا يتفحصون ثيابه وقامته الطويلة التي زادت عن طول الأريكة بمقدار شبرين على الأقل، ووجهه الجميل والمثير الذي لا يشبه في شيء الوجوه التي يرونها كل يوم. فكروا أن الرجل لا يمكن أن يكون إلا جاسوسا ضل طريقه. أحد القرويين، وكان قد عاد منذ بضعة أشهر بصورة نهائية بعد سنوات من العمل في ألمانيا، انحنى على أذنه وقال له:

«Wer bist du? Woher komnst du? Wohin gehst du?»

لكن أي جواب أو ردة فعل لم يبدرا عن الغريب عن هذه الأسئلة ذات الإيحاء الميتافيزيقي. قروي آخر طرح سؤالا عما إذا كان ثمة نفع أم لا في إلقاء نظرة سريعة على محتويات حقيبة الغريب وجيوبه، بانتظار وصول الدرك. وهكذا - بعد تظاهرة رفض قصيرة من المختار - تم تفتيش الحقيبة والجيوب تفتيشا دقيقا. وعندما وجدوا في الحقيبة مسدسا ثانيا يبلغ حجمه ثلاثة أضعاف الأول على الأقل، وكتابا بسماكة قرميدة، وفي جيب السترة الداخلي رزمة

كبيرة من النقود الورقية من فئة العشرة آلاف؛ ازداد تشوش أذهانهم. لكن رزمة النقود سرعان ما فعلت فعلها: على الفور وضعوا كرسيا تحت قدمي الغريب المدلاتين خارج الأريكة، ثم جاؤوا بفراش ولحاف ووسائد وشراشف نظيفة. خلعوا عنه ثيابه الداخلية المبللة وألبسوه القميص الداخلي والسروال الطويل لأطول رجال الضيعة، وأمنوا له «نوما كالبشر» على حد تعبير قروي عجوز. واتصل المختار مرة أخرى بالدرك طالبا منهم أن يتحركوا بسرعة ويقوموا بمساعيهم لإرسال طبيب. أجريت المساعي حالا: رئيس أقرب المخافر، وهو رقيب أول في الدرك، تجرأ على إيقاظ القائم مقام في الرابعة والنصف صباحا، وقال له على الهاتف: «إنه بالأحرى رجل عملاق يا سيدي، كأنه من مخلوقات الفضاء». وبعد أن ذكر له النقود والمسدسين وكتاب ناظم حكمت، أنهى تقريره بالقول: «حتى الآن لم نعثر على وثائق تنظيمية أخرى يا سيدي»... وهكذا وصل الخبر حتى إلى فهمي غولمز الذي مضى عليه أكثر من ثلاثين ساعة وهو يبحث عن صديقه، ولا يتمالك نفسه عن لوم أصدقائه المسؤولين بنبرة تتراوح ما بين اللطف والقسوة كلما اتصل بهم قائلا: «إيه يا أخي. إذا كنتم تعجزون عن الاهتداء إلى رجل تسعيني في مدة طويلة كهذه. فكيف ستهتدون إذن إلى المجرمين الحقيقيين؟». على الرغم من أن فهمي غولمز لم يحصل على معلومات مؤكدة عما إذا كان الرجل العملاق الذي عثر عليه في حالة تقارب الموت، في إحدى أقل قرى «صقارية» سكانا، هو الرجل الذي يبحث عنه، فقد قرر السفر حالا وبصحبته اثنان من أطبائه المقربين.

ما كان من ضرورة لهذا، إذا أخذنا بعين الاعتبار تشخيص الطبيب الشاب الذي أحضر بجهود الرقيب أول الخاصة. لقد فتح هذا الطبيب الشاب جفني المريض وألقى نظرة قال بعدها: «إنه في غيبوبة عميقة منذ وقت طويل. ولست أعتقد أنه سيخرج منها». ولم يساور الشك أحدا في صحة هذا التشخيص. ولكن بعد وقت طويل من انقشاع الضوء، في الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين - وفقا لتوكيد المختار - اقتحمت الضيعة سيارة فهمي غولمز الفخمة التي يزيد طولها بمرتين ونصف على الأقل على طول السيارة المعتادة، وقفز منها فهمي غولمز واقتحم «مضيفة القرية» بطريقة أقنعت أهل الضيعة بقدرته على إنقاذ هذا المريض من غيبوبته. لذلك حينما دخل الغرفة الغارقة في دخان السجائر الذي يعمي البصر وصرخ قائلا: «افتحوا هذه النافذة! وليخرج كل من ليس لديه عمل!»، فقد تفرقوا مثل الصيصان باستثناء المختار ورقيب أول الدرك والطبيب الشاب.

لو أنهم لم يتفرقوا، كانوا سيرون أن هذا الرجل الفاحش الثراء والذي بلغت شهرته قريتهم، ليس بالقدرة التي اعتقدوها. فحينما أزاح عنه الأطباء اللحاف المزهر الذي يغطيه، ورأى فهمي غولمز رسولا في قميصه القروي المخطط وسرواله القروي الطويل المصفر، لم يتمكن من الإمساك بدموعه. جثا فوق البساط، ووضع يده على جبين صديقه وقبله من خديه وهو يناديه: «رحمي، رحمي! رسول!» ولم يكف عن ذلك إلى حين استأذنه أحد الأطباء بإلقاء نظرة على المريض.

تحت أنظار من في الغرفة فحص الطبيبان جسد رسول مطولا وبدقة بدءا من عينيه وحتى أسفل قدميه، وهزا رأسيهما بقنوط. ثم حقنه واحد منهما في ذراعه، سرت رعشة طفيفة في جسد رسول، انفتح جفناه قليلا ثم انغلقا حالا.

الطبيب الآخر اقترب من رقيب أول الدرك الذي وقف باستعداد إلى الوراء وسأله:

- هلا أخبرتني بدقة في أي ساعة عثرتم على المريض؟ من المهم جدا أن نعرف كم من الوقت بقي تحت الثلج.

- لسنا نحن من عثر عليه يا أستاذي. مع الأسف عثر عليه أهل القرية. لكننا قمنا بالتحريات اللازمة. ووفقا لتلك التحريات، فقد قفز السيد من القطار، في...

قاطعه الطبيب قائلا:

- قفز من القطار؟ هذا مستحيل! ليس بمستطاع رجل في هذا العمر أن يقفز من القطار.

هز الرقيب أول رأسه موافقا:

- لا أعرف يا أستاذي، لعله وقع منه. ولكن يمكن الاستنتاج من التذكرة التي عثر عليها في جيبه، أنه انتقل من القطار إلى جوار القرية بين الساعة الرابعة والعشرين وبين الدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل، تقريبا. وقد جلس على قطعة حجر مستوية أمام مبنى مهجور على مسافة عشرين أو ثلاثين مترا من سكة القطار.

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك ظل يدور حول دائرة قطرها سبعون مترا تقريبا، على بعد مائة متر تقريبا من المكان الأول. إن آثار أقدامه من

الكثـرة والازدحـام مـا يـوحي بأنه دار أربعين أو خـمـسين مـرة حـول نقطة واحدة.

كان فـهـمي غـولمز قـد انضم مـثل كل الآخـرين إلـى الإصـغـاء إلـى كلام الرقيب أول، تدخل قائلا:

- أنا لا أفهم لماذا يمشي بتلك الطريقة في تلك العاصفة الثلجية!

الرقيب:

- لا أعرف يا سيدي. لو أنه ولى ظهـره لتلك الدائرة ومشى مئة وخمسين متـرا، لأصبح داخل القـرية. لكنه لـم يفعل، بل ظل يدور في المكان نفسـه. ويبـدو أنه أطلق النار ست مـرات على أمل أن تأتيه النجدة من أحد ما.

جفف فهمي غولمز عينيه وغمغم قائلا:

- لقد دار حول نفسه طوال الوقت، كما فعل طوال عمره.

ثم سأل بصوت مرتفع:

- أليس من المحتمل أن مطلق النار هو شخص آخر؟

هز الرقيب أول رأسه بيأس:

- لا يا سيدي، لا أعتقد ذلك أبدا. لم نعثر على آثار أي شخص آخر على الثلج.

غمغم فهمي غولمز: «مجنون، مجنون!» جلس على حافة الأريكة وأمسك بيد رسول.

تابع الطبيب استجواب الرقيب أول بعد فترة توقف قصيرة:

- في أي وقت وأي حال عثروا على المريض؟

- ما بين الثالثة والنصف والرابعة، وجدوه منكبا على وجهه فوق الثلج. وقد غطى الثلج معظم جسمه وتجمدت ثيابه.

ابتسم الطبيب على الرغم منه وقال:

- شيء يصعب تصديقه! إذا كان هذا الرجل استطاع أن يبقى بعد كل هذا على قيد الحياة، فليس من المستحيل أن يخرج من حالة الغيبوبة!

وافقه الطبيب الشاب:

- صحيح تماما يا أستاذي.

إما أن الطبيب الكبير لم يسمع ما قاله زميله الشاب، وإما أنه تظاهر بذلك.

اقترب من رأس رسول، فتح جفنيه مرة أخرى ونظر مطولا، ثم حقنه في ذراعه حقنة ثانية دون أن يشعر بضرورة تقديم إيضاح حتى لفهمي غولمز. صدرت عن رسول هذه المرة ردة فعل أكثر وضوحا: فقد أنَّ وفتح عينيه وغمغم بصوت واهن: «ناظم، يا ناظم!... إني لا أراك يا ناظم!».

انحنى فهمي غولمز على أذنه وقال له:

- أعدك بأني سآتيك به.

لم يكن واضحا فيما إذا كان رسول سمعه أم لا، غير أنه تابع هذيانه باسم ناظم. وكرر فهمي غولمز الجملة نفسها بإلحاح، غير عابئ بتنبيهات الأطباء له بأن ما يبذله من جهد لا يجدي. وقد رد عليهم قائلا: «ومن يدري؟». وبالفعل، بين رسول أن صديقه على حق، عندما تكلم قائلا:

- لكننا كنا معا قبل قليل.

- وأين كنتما؟

- هناك. وقد خصني بشرف قتل العدو الأخير.

نظر فهمي إلى صديقه بحزن وقال:

- هذا واضح.

في اللحظة نفسها حدث ما لم يتوقعه الأطباء ولا فهمي غولمز: فقد فتح رسول عينيه ونظر إلى صديقه، بل إنه أوشك يبتسم:

- أهذا أنت يا فهمي؟ لقد رأيتك قبل قليل، وكم كان معك من الدحل!

امتلأت عينا فهمي غولمز بالدموع: «إنه يهذي»، قال لنفسه ثم انحنى عليه مجددا:

- أصحيح؟ والآن كيف تشعر؟

ظهرت على وجه رسول شبه ابتسامة وهو يقول:

- أخشى أني سأموت يا صديقي. لم يكن الأمر يسيرا. فقد مشيت من قرت آلان حتى أسكدار. لكن كل شيء جرى كما أردت. المهم أنني رأيت أسكدار قبل أن أموت. فلن أرحل إذن وعيناي مفتوحتان.

- «إنه يهذي» قال فهمي غولمز: «لقد عاش حياته بأسرها في أسكدار. وهاهو الآن يصر على أنه رأى أسكدار للمرة الأخيرة قبل أن يموت».

قال له الأطباء بأن على المريض أن يرتاح، طالبين منه ألا يتحدث إليه. في اللحظة التي نهض فيها فهمي ليبتعد، تكلم رسول متسائلا: «أين أنت يا فهمي؟» فجلس على حافة الأريكة من جديد:

- إني هنا. بجانبك.

- هل تعرف يا فهمي ما هو اسمي الحركي؟

ـ وهل لك اسم حركي أيضا؟... طيب، ما هو اسمك الحركي؟
ـ اسمي الحركي هو ناظم.
ـ جميل. جميل جدا! حاول أن تنام قليلا.
بعد ذلك كرر هذه الجملة كثيرا، لكنها لم تنفع، فقد راح رسول يوضح بطاقة مجهولة المصدر الأسباب التي حدت بناظم لاختيار اسم رحمي اسما حركيا له، ولأن يترك له مهمة تحقيق الثورة، وحكى بطريقة مجتزأة ومشوشة، ولكن مع إيراد أدق التفاصيل في بعض المراحل، رحلته المثيرة بالقطار، ومسيره تحت هطول الثلج من قرت آلان إلى استانبول، وتصويبه لمسدسه نحو الولد ذي الشاربين الكثين المستعارين، على الضوء الذي كان يشع من ناظم سونمز الذي يحمل اسما حركيا هو رحمي.
ـ سنتحدث حول هذه الأمور لاحقا. ارتح الآن وحاول أن تنام قليلا.
لكن رسول لم يستجب لصديقه. عاد إلى الكلام:
ـ لا أريد أن يؤذيك أحد في الوضع الجديد يا صديقي فهمي.
ابتسم فهمي غولمز على الرغم منه:
ـ تسلم.
ـ لكن لقدرتي حدودا... يجب أن تساعدني بأن تقول لهم إنك شيوعي وإنك كنت شيوعيا دائما.
فكر فهمي غولمز بأن صديقه عاد إلى الهذيان، فلم يقل شيئا. لكن رسولا ألح:
ـ أرجوك رجاء حارا أن تقول ذلك!
ـ حسنا يا صديقي. نقول ذلك إن اقتضى الأمر.
ـ ليس ثمة «إن اقتضى الأمر»! إنه يقتضي!

ابتسم فهمي غولمز وهمس له:

- نعم، أنا شيوعي.

- لم أسمع جيدا. قل ذلك بصوت مرتفع.

عندئذ صرخ فهمي غولمز - الرأسمالي الكبير - أمام عيون الحاضرين المتسعة دهشة، ومرتين على التوالي:

- أنا شيوعي! وكنت شيوعيا دائما.

- تسلم. الآن أشعر بارتياح.

بالفعل أفصح وجهه عن شعور بالارتياح، لكنه لم يستمر طويلا: فقد توقف عن الكلام وعن الإجابة عن أي سؤال، وتحولت أنفاسه إلى شخير يتوجع له قلب المرء وتقلص وجهه في موجات متلاحقة. حقنه الأطباء حقنة أخرى. لكنها لم تعط نتيجة هذه المرة. فقد تابع رسول شخيره الرهيب متمددا بطوله، بقميصه القروي المخطط ولحيته المتناثرة البيضاء ووجهه المصفر بشدة. لكن حين تسلل بصورة مفاجئة إلى داخل الغرفة من خلال النافذة شعاع رقيق من الشمس التي بزغت للمرة الأولى منذ أيام من وراء الغيوم السوداء، وقسمت وجهه إلى نصفين متساويين، فتح عينيه منتفضا بجهد راعش انبثق من أعماق الوجود، وغمغم قائلا:

- ضوء أكثر قليلا.

ثم انزلق بؤبؤا عينيه إلى الأعلى كأنه يسعى وراء «ضوء أكثر قليلا» حتى اختفى لونهما الأخضر، وبقي كذلك. شد الأطباء اللحاف المزهر إلى فوق رأسه، ثم أرادوا أن يخرجوا فهمي غولمز من الغرفة، أو يبعدوه عن رسول على الأقل، لكن فهمي صرخ بهم:

- لا! لا! اتركوني وحدي! اخرجوا من هنا!

طوال ساعة على الأقل لم يجرؤ أحد على دخول الغرفة، أولئك الذين تلصصوا من ثقب المفتاح ومن خلال النافذة، رأوه جالسا بلا حراك عند رأس صديقه. في رأي الأطباء لم يكن هذا تصرفا صحيحا: فهو على كل حال رجل عجوز، ينبغي إرغامه على الراحة والنوم، ولو بقوة الأدوية. غير أن أحدا لم يجرؤ حتى على دخول الغرفة، فضلا عن أن يقول له ذلك. لكن هاتفا جاءه من استانبول، أرغمهم على الدخول عليه: أخبره رجاله أن حفيد السيد رحمي سونمز - وفقا للخبر الذي بلغهم - قد لقي حتفه حينما قفز من نافذة الغرفة التي حبس فيها، في حوالي الثالثة صباحا.

صرخ فهمي غولمز:

- مستحيل! مستحيل أن يصلا إلى هذا الحد! كيف يفعلا هذا بي!

وكما رأى في موت صديقه في غرفة صغيرة في إحدى القرى، مرتديا ثيابا قروية بائسة، فعلا عدائيا موجها ضده، كذلك رأى في مصرع حفيده، في اللحظة التي كان الجد يطلق فيها رصاصاته في الهواء، فوق أرضية إسمنتية بليلة وقدماه مقيدتان في السلاسل. لذلك أطلق شتائمه على «أصحاب العقول الصغيرة الذين تركوا كل شيء وانشغلوا بالأولاد» أمام القائم مقام الذي جاء يقدم إليه تعازيه. وعندما تحدث المسؤولون عن ضرورة تنظيم ضبط بما وجدوه في حقيبة رسول وجيوبه من نقود ومسدسات، صرخ بهم بصوت هادر: «كفوا عن السخافات أيها السادة! إني أتبرع بالنقود إلى مدرسة القرية، نيابة عن صديقي! أما بالنسبة للمسدسين، فقوموا بإجراءاتكم على أساس أنه تم العثور عليهما في أرض خلاء. وإن كنتم خائفين من تحمل المسؤولية، اطلبوا لي

مسؤولا أعلى مرتبة منكم، لأتحدث إليه!». هدأ القائم مقام من ثورته قائلا بأنه يجد الاقتراح في محله تماما.

هز رقيب أول الدرك الواقف قرب الباب، رأسه قائلا لنفسه: «ظننت أن جنرالاتنا يقودون البلاد. يتضح الآن أن من يقودونه حقا هم الأثرياء الذين يهتفون بأنهم شيوعيون». على الرغم من ذلك وافق الجميع على الاقتراح طواعية، إذا اعتبروه محاولة للحيلولة دون أن يأخذ الحدث أبعادا مبالغا بها، وبالتالي علامة رجاحة عقل. لكن فهمي غولمز لم يكتف بهذا الحل: ففي اليوم التالي أصر - على الرغم من اعتراضات مستشاريه القطعية - على تنظيم حفل تأبين يبهر الأبصار لكل من صديقه وحفيد صديقه. وإذ اتضح أن الحصول على جثة الحفيد سيأخذ وقتا طويلا، اكتفى بتنظيم ذلك التأبين لصديقه فقط. على مدى ثلاثة أيام متتالية نشر نعي كبير في الصحف باسمه واسم شركاته ومصرفه معلنا عن «وفاة رحمي سونمز، أحد شعراء المقدمة من جيل الأربعينيات، في ظروف مؤسفة تدعو إلى التأمل». موضحا أن لا مانع من إرسال أزهار حقيقية إلى الجنازة التي ستنطلق من جامع «تشويقية». وقد أضاف إلى اسم رحمي سونمز لقب رسول بين قوسين، منهيا بذلك الانفصام الرهيب الذي استمر سنوات طويلة. أما فيما يتعلق بمكان دفنه، فقد أوضحه له رسول في البرقية التي أرسلها قبل أن يبدأ رحلته.

* * *

النعيات التي نشرها فهمي غولمز في الجرائد، أثارت اهتماما كبيرا سواء في وسط رجال الأعمال أو الساسة أو الفنانين. وإذ

أضيفت إلى الحدث قصة حفيد الشاعر المنسي، فإن كل وسط من تلك الأوساط أنتج افتراضات في المنحى الذي يلائم ميوله. فقال البعض إن رسولا هو العقل المدبر الخفي لكل العمليات الإرهابية التي يدعمها أيضا أحد أكبر أباطرة المال، وقال بعض آخر إنه قتل وهو ينفذ مهمة كلفه بها حفيده، في حين زعم بعض آخر أن ثريا كبيرا أراد أن يحتكر اليسارية مثل كل شيء آخر، فسعى إلى تحقيق غاياته الشخصية من خلال إضفاء جو من الغموض على موت أحد المجانين. حتى أنه ظهر في هذه الأثناء مفكرون يساريون يدافعون عن فكرة أن خلاص البلاد لن يكون إلا على أيدي صناعيين متنورين ووطنيين من أمثال فهمي غولمز. على كل حال لقد فهمت عبارة «ظروف مؤسفة وتدعو للتأمل» التي وردت في النعية التي نشرها فهمي غولمز في الصحف مقترنة باسم ناظم سونمز الذي زعم أنه ألقى بنفسه من النافذة، وكذلك تبيان أن رحمي سونمز هو من شعراء جيل الأربعينيات، على أنها نوع من التحدي للحكم. كنتيجة لذلك، فقد دفن رسول باحتفال مهيب حقا على الرغم من غضب بعض من المخضرمين الذين قالوا: «أهو بهذا الرخص أن يكون المرء من الشعراء المبرزين لجيل الأربعينيات!» وعلى الرغم من موقف كاتب ترأس يوما ما إحدى الجمعيات، ويؤمن لهذا السبب بأنه ينبغي أن يسأل عن كل ما يتعلق بالأدب في البلد، والذي قال حين رفض اقتراحه بتنظيم تأبين مشترك: «لن يشارك أي كاتب تركي في هذا التأبين».

امتلأت باحة جامع تشويقية بالناس وأكاليل الورد إلى درجة أنك إذا رميت بإبرة، فلن تقع على الأرض. لم يقتصر إرسال

أكاليل الورد على شركات فهمي غولمز المختلفة والإدارة العامة للبنك الذي اشتغل فيه رسول ذات يوم وفروعه المنتشرة في كل أرجاء المدينة. فرجال أعمال متبايني الإمكانات لهم علاقات ببنك فهمي غولمز وشركاته، فكروا في أن الحكومات طارئة، في حين أن علاقات العمل لها استمرارية، فأرسلوا إلى رجل الأعمال الكبير كثيرا من الأكاليل تعبيرا عن تضامنهم معه بما أنه جعل من هذا التأبين مسألة شرف، وذلك على الرغم من أنهم سمعوا باسم رحمي سونمز للمرة الأولى في النعيات موضوع الحديث. ولم يكتفوا بذلك، بل جاءوا إلى جامع تشويقية في سياراتهم الفخمة وشكلوا طابورا أمام فهمي غولمز ليقدموا له التعازي. بالطريقة ذاتها اعتبر كل كتاب وشعراء استانبول شيبا وشبانا - باستثناء الكاتب الذي رفض اقتراحه بتنظيم تأبين مشترك - الانضمام إلى تظاهرة المقاومة هذه، نوعا من الواجب. كنتيجة لكل ذلك - وإذا حق لنا أن نصف الفضوليين في الجوار بأنهم الشعب - يمكن القول بأن هذا التأبين المهيب قد أزال التناقضات الطبقية ساعة أو ساعتين، وقدم مشهدا حيا ومفعما بالألوان للفردوس الأرضي الذي حلم به رسول طوال سنوات. لكن المرء - شاء أم أبى - يفتش داخل هذا الجمهور المتصالح، عن رسول، ويتوقع ظهوره في كل لحظة وفي فمه سيجارة صمصون استطال رمادها، وفي يده صورة فوتوغرافية مصفرة.

الإنسان الوحيد في هذا الجمع الغفير، الذي لم يقترب من أي مجموعة ولا ينتمي إلى أي طبقة، هو مريم التي شاركها رسول ليلته ما قبل الأخيرة خلال عبوره هذا العالم. وقد تزيت بالزي

الذي كان لها قبل صعودها إلى مرتبة «نساء الليل». غطاء الرأس الشاحب والمعطف العتيق وعيناها المتورمتان من البكاء، غطت على جمالها الفريد، لكنها لم تكن عابئة بذلك. كانت تحمل نفسها مسؤولية موته، لأنها لم تتمكن من منعه من مغادرة الفندق على الرغم من تحذير معلمها الحاسم، فتتطلع من بعيد إلى التابوت الذي لم تتمكن من الاقتراب منه بسبب الازدحام، وتبكي بصمت. وظلت على ذلك حتى وصول الجميع إلى القبر، فقد راقبت التابوت من بعيد. لكنها بعد ثلاثة أيام فعلت ما لم يفعله غيرها، بمن في ذلك فهمي غولمز: فقد جاءت إلى المقبرة حتى تقرأ الفاتحة على روحه، وتبكي حتى الارتواء. كانت تأمل أنها ستهتدي إلى القبر بيسر، وقد غطته الأزهار بارتفاع جبل، لكنها لم تر إكليلا واحدا في كل المنطقة التي تتذكر أن رسولا دفن فيها، ولا رأت قبرا جديدا. كان ثمة قبر واحد بدا كأنه حفر حديثا، لكن اسم امرأة كان محفورا عليه، ويبدو أن تلك المرأة لم تمت بعد.

غمغمت قائلة:

- يا الله! ما الذي جرى لهذا الرجل؟ ترى هل اختفى في السماء؟!

قالت ذلك وجلست عند أسفل قبر المرأة التي لم تمت وبكت مطولا.

المترجم في سطور

بكر فهمي صدقي

- ولد في العام ١٩٥٩ في مدينة حلب - سوريا.
- عاش قسما من صباه في تركيا، حيث درس في مدارسها واكتسب اللغة التركية من منابعها.
- بعد استقراره في بلده سوريا، واظب على دراسة الأدب التركي بجهوده الخاصة، إلى جانب دراسته للعلوم الاقتصادية في جامعة حلب. تفرغ لترجمة الأدب التركي إلى العربية، فأصدر إلى الآن أربع روايات:
- اسمي الأحمر لأورهان باموك. حلب ٢٠٠١.
- الحياة الجديدة لأورهان باموك. دمشق ٢٠٠٢.
- بتوش الحلوة لعزيز نيسين. دمشق ٢٠٠١.
- يحيى يعيش ولا يحيا لعزيز نيسين. دمشق ٢٠٠٢.

فضلا عن عدد من الأعمال قيد الطبع.

المراجع في سطور

فاروق زكي مصطفى

- من مواليد حلب [illegible].
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- يعمل في الترجمة عن اللغة التركية منذ عام ١٩٧٨.
- شارك في الكثير من الأمسيات الأدبية التي أقامها اتحاد الكتاب العرب وأمسيات المراكز الثقافية والنادي العربي للتمثيل والآداب في حلب، والنادي العربي الفلسطيني في حلب.
- نشر له العديد من القصص في المجلات التالية: «الكفاح العربي» و«الشراع» اللبنانيتين و«البيان» الكويتية، وفي صحيفة «تشرين» السورية، وفي مجلات «الأسبوع الأدبي» و«الموقف الأدبي» و«الآداب الأجنبية» الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب.
- ترجم العديد من الكتب من اللغة التركية، وقد طبعت وصدرت له الأعمال التالية:

«القميص النازي»، رواية، تأليف / خالدة أديب.

«كيف ينقلب الكرسي؟»، مجموعة قصص قصيرة، للكاتب/ عزيز نسين.

«أي حزب سيفوز؟»، مجموعة قصص قصيرة، للكاتب/ عزيز نسين.

«صراع العميان»، مجموعة قصص قصيرة - للكاتب/ عزيز نسين.

«ثلاث مسرحيات أرجوازية»، للكاتب/ عزيز نسين.

رواية «الهارب»، للكاتب/ أورهان كمال.

«إسكان العشائر في عهد الإمبراطورية العثمانية»، للبروفيسور الدكتور/ جنكيز أورهونلو.

الفهرس

إبداعات عالمية

362

الأيام الخمسة الأخيرة لرسول

(رواية)

كان للتطورات السياسية في تركيا، وقيام الجمهورية على أنقاض الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى أثر كبير في الأدب التركي، حيث حدث تغيير جذري في المنظور الفكري والفلسفي، وانتقلت الدولة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني بدلا من الحرف العربي، وانحازت كليا إلى كل ما هو غربي على حساب القديم، مما أوجد صراعا بين فريقين: مناصر للتجديد مدافع عنه، ومتمسك بالقديم متشبث به، فنشأت تحولات وتيارات مختلفة، انعكست ثراء وتنوعا وديناميةً على الأدب التركي.

وفي هذا العدد تقدم سلسلة «إبداعات عالمية» رواية من هذا الأدب، بعنوان «الأيام الخمسة الأخيرة لرسول» للكاتب تحسين يوجل، وهي سيرة لحياة الشاعر الثوري رحمي سونمز الملقب بـ «رسول»، اعتمدت على السرد الحكائي.

تنقسم الرواية إلى قسمين يتفاوتان من حيث الكثافة الزمنية، حيث يغطي القسم الأول معظم مراحل حياته: نشأته، طفولته، صباه وشبابه. بينما يغطي القسم الثاني الأيام الخمسة الأخيرة لهذا الشاعر الثوري.

والرواية تتناول مشكلة الانقطاع بين الفكر والحياة، النظرية والممارسة، الأيديولوجيا والواقع، دافعة بهذه القطيعة إلى حدودها القصوى؛ متجسدة في شخص بطلها. كما تحتل السخرية جزءا كبيرا من أحداثها، تتضح عندما يخرج الشاعر الثوري المتقاعد إلى الحياة ثانية بعد انقطاع لسنوات طويلة، وفي ما يقوم به من تصرفات لا تمت إلى العالم الواقعي بصلة.

كما نجد أن الشعر يحتل مكانة مهمة في الرواية، من خلال توظيف مقاطع من أشعار أكبر شعراء تركيا الثوريين، ناظم حكمت، اختارها الكاتب بعناية لخدمة الرواية، وهذا ما سنلمسه بين دفتي هذا العدد.

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٠٢١
ردمك: X - ٢٠٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦